

الفرق بين
جبه

تفسير القرآن

بالقرآن والسنة

تأليف

محمد الصائغ

انتشارات فقه هند اسلام



مرکز تحقیقات کتاب و ترویج علوم اسلامی

الفیه و سبک

۷-۶



مرکز تحقیقات کتاب و ترویج علوم اسلامی

الفرقان فی تفسیر القرآن	الكتاب
الشیخ محمد الصادق	المؤلف
الاولی	الطبعة
مطبعة أساعیلان	المطبعة
۱۴۱۰ هـ - ق	التاریخ
انتشارات فرهنگ اسلامی - تهران	الناشر
تلفن: تهران ۸۴۰۰۶۲ قم ۲۴۴۲۵	
۱۰۰۰ نسخه	عدد المطبوع
۲۲۰۰ ریال	الثمن

مملّحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي

الفُرْقَان

في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

المجلد ٦ - ٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ سُورَةُ الْأَنْعَامِ

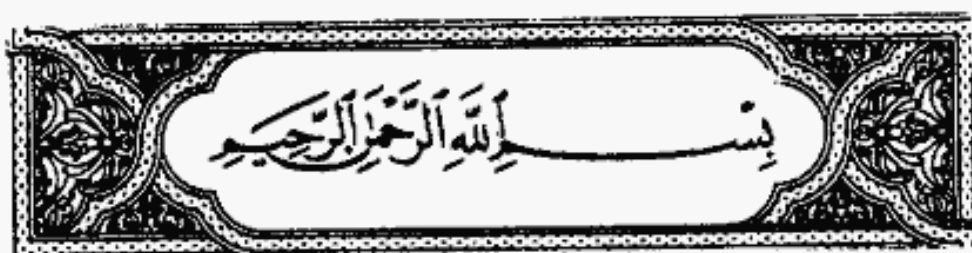


مرکز تحقیقات کاپیویر علوم اسلامی





مرکز تحقیقات کاپیویر علوم اسلامی



وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ
الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّشُكُمْ بِمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأِنْ أَحْكَم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ
وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ
مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

أَنْ يُصِيبَهُمْ بَعْضُ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
 لَفَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ الْحُكْمَ الْجَهْلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ
 مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 لَا يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ
 وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ
 فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ
 يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا
 فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٦٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوا
 الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَاصْبِرُوا خَيْرِينَ ﴿٦٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ
 يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ
 يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَلِكَ

فَضَّلَ اللَّهُ يَتُوبِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا
 وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ الَّذِينَ يُقِيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾
 يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا
 وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ۚ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ
 اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا
 عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ
 جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي
 مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
 تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٨) .

... بعد إنزال الكتاب إلى الرسولين العظيمين موسى والمسيح عليهما
 السلام « وأنزلنا إليك » بجمعية الصفات المقيضة عليك يا خاتم النبيين ذلك
 « الكتاب » القرآن الناطق بالحق المطلق المطبق والتعبير عن القرآن

بـ « الكتاب » كأنه يستغرق كل كتابات الوحي فإنه مستغرق كلها أراد الله أن يقوله للمكلفين إلى يوم الدين ، دون « القرآن » أو « هذا الكتاب » - و- هذا القرآن » ، ذلك ليدل على أنه هو الكتاب الجامع لكل كتاب ، كما أن رسوله يجمع في نفسه ميزات الرسل كلهم وزيادة .

« أنزلنا » حال كونه « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب » النازل على الرسلين ومن قبلهما من الرسل « ومهيماً عليه » فالتصديق لكتب السماء لا يحمل إلا تصديقاً لتزويها بالوحي ، ثم الهيمنة عليه - التي لا تحملها إلا هذه الآية ، اللهم إلا آية الحشر لله « المهيمن » (٢٣) هي الحيلة الحفيظة الرقية الشهيدة الكتابية ، فكما الله مهيم على خلقه كلهم ، كذلك كتابه الأخير مهيم على كتبه كلها حيلة وشهادة ورقابة أمأهيه من أبعاد الهيمنة .

فمن هيمنته عليها الحفاظ على أصولها الثابتة التي لا تتغير في أية شرعة ، ومنها نسخ ما يجب نسخه حكماً يناسب كل الأجيال إلى يوم القيامة فإنه نسخ للأحكام المؤقتة ، أو نسخ إلى مثل المنسوخ أو خير منه « ليلوكم » : « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » (٢ : ١٠٦)^(١) . وكما منها تبين ما حرف منها : « قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . . . » (٥ : ١٥) - « إن هذا القرآن يقص على

(١) نور الثقلين ١ : ٦٣٨ في كتاب الاحتجاج عن معمر بن راشد قال سمعت أبا عبد الله (ع) يقول : قال رسول الله (ص) وقد ذكر الأنبياء صلوات الله عليهم ، « وإن الله عز وجل جعل كتابي المهيم على كتبهم الناسخ لها . . . وفيه في روضة الكافي بسند متصل عن علي بن عيسى رفعه قال : « إن موسى (ع) ناجاه ربه تبارك وتعالى فقال في مناجاته أوصيك يا موسى وصية الشقيق المشفق بابن البتول عيسى بن مريم ومن بعده بصاحب الجمل الأحمر الطيب الطاهر المطهر فمثله في كتابك إنه مؤمن مهيم على الكتب كلها . . . » .

بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » (٢٧ : ٧٦) .

وفي جملة مختصرة « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... » (١٧ : ٩)
فمهما كانت كتب السماء كلها قيّمة ، ولكنها ليست إلا لردح خاص من
الزمن وأهليه ، لا تصلح لإقامة المكلفين إلى يوم الدين ، لكلّ قوامة معينة
لهم من رب العالمين .

وترى حين يكون كيان القرآن - العام - الهيمنة الطليقة على كل كتابات
السماء ، أفلا يكون مهيمناً على نفسه بياناً وتبياناً ، أم لا يكون مهيمناً على
ما يروى عن الرسول (ص) والأئمة المعصومين من آله عليهم السلام .

أجل ، وكما الله مهيمن على الكائنات كلها دون شريك ولا معين ،
كذلك قرآنه العظيم له الهيمنة الطليقة المطبقة العميقة على الوحي كله
دونما نذ ولا شريك ، وما السنة المحمدية (ص) إلا شرحاً هامشياً له دونما
استقلال له ولا استغلال ، فضلاً عما سواها من شهرة أو عقلية أو إجماع ،
فضلاً عن قياس أو استحسان أو إستصلاح فإنها كلها بجانب القرآن هباء
منثور ، فلا حجة قيّمة معصومة إلا القرآن ، أو ما وافقه من المروي عن
معصوم .

أجل ، فالهيمنة القرآنية هي الوحيدة غير الوهيدة بين كتب السماء ،
كما أن هيمنة الله هي الوحيدة بين كل الكائنات ، لا توازي ولا تسامى .

ذلك ، ومن لزامات الهيمنة القرآنية عدم تحرفه بجانب خاتمته ، وعدم
غموضه في ظواهره ورموزه ، فإنه بيان للناس ونور مبين ، فلا هيمنة طليقة
على الوحي كله إلا للوحي الأخير ، الثابت كما أنزل بلا تحوير أو تغيير ،
حيث المحرّف بحاجة إلى هيمنة فلا يكون - إذأ - مهيمناً لما سواه .

وقضيته الهيمنة الطليقة القرآنية فالحاكم بالقرآن مهيمن على الحكم كله
وعلى الأحكام كلهم : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما

جاءك من الحق « المطلق المهيمن المطبق » فاحكم بينهم » وهم كل الملل الكتابية والمسؤولون أمام كتب السماء « بما أنزل الله » في هذا القرآن ، فإنه يحمل كل ما أنزله من قبل وما يحتاجه المكلفون إلى يوم الدين .

« ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » : تجاوزاً عما جاءك من الحق إلى أهواءهم ، وتراه بالإمكان أن يتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ؟ كلاً ولكن لتستأصل أهواءهم فيه بمحاولة استهواءه بما وعدوه .

وهنا « عما جاءك من الحق » تحقق له أن يحكم لهم بما أنزل الله في شرعته ومنهاجه ، فلئن اختلف حكم التوراة عما فيها لم يحكم إلا بما أنزل الله فيها دون التوراة ، وإذا توافقا فالحكم متوافق بين الشرعتين والمنهاجين .

ذلك ، فـ « فاحكم بينهم » يخلق حكمه الرسالي على الملل الخمس أن يحكم بينهم « بما أنزل الله » من شرعته ومنهاجه ، فلم يخير من ذي قبل بين الحكم وتركه : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » إلا تخيراً بين الحكم بما أنزل الله عليه أو تركه إطلاقاً حين لا يصدقونه ، ثم « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط » وليس القسط هناك إلا « ما أنزل الله » هنا ، لا سيما وأن حكم الرجم أم سواه كان متحداً بين التوراة وشرعة القرآن .

فليس للرسول (ص) أن يحكم في التحاكم إليه بين غير المسلمين بحكم يخالف شرعته ومنهاجه لمكان النسخ .

فأنت أنت الحاكم المطلق بين الكتابيين اجمعين ، فان شرعتك هي الدين كله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » « لكل » من المذكورين وهم اهل الملل الثلاث اليهود والنصارى والمسلمين ، ومن غير المذكورين وهم أمة نوح وإبراهيم عليهما السلام ، فالمخاطبون هنا هم كافة المكلفين على مدار الزمن الرسالي كله في مثلث الزمان ، ان تحكم على كل ملة رسالية شرعة واحدة في مجالتها .

اجل ليس المخاطبون الفرق الكتابية في زمان واحد ، فإن كل شرعة من الخمس تحلق على كافة المكلفين في زمنها ، دون أن تعدوا شرعة إلى زمن أخرى اختلاقاً للاختلاف المرفوض في دين الله حيث « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... » (١٣: ٤٢).

ومهما كان الدين في أصله واحداً ولكن شرائع الدين تختلف في بعض الطقوس والشكليات ، فلو أن شرائع الدين كانت متحركة في كل زمان لكان الاختلاف لازماً للدينين ، رغم أن الوحدة هي المقصودة دون خلاف : « ولو شاء ربك لجعلكم أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ... » (١١: ١١٩).

ولو صح تقارن الشرائع لبطلت الدعوة القرآنية الموجهة إلى أهل الكتاب بل وسواهم لو كانوا مؤثرين بشرعة الدين المحكّمة عليهم من ذي قبل ، وبطلت الدعوة الإنجيلية الموجهة إلى اليهود وسواهم ، وبطلت الدعوة التوراتية .

فالشرائع الخمس على مدار الزمن الرسالي في ولاية العزم الرسولي ، كل متحكم لروح من الزمن دون أي تقارن .

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ... ﴾ .

وهل ان ضمير الجمع المكرر مرات تسع يعني كل واحد من المكلفين ؟ « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » (١٣: ٣٢) تُحيله ! .

أم يعني الأمم الكتابية الحاضرة زمن الخطاب ؟ ولا أممية كتابية في زمان واحد ، وليس الجعل الرباني لكل شرعة ومنهاج إلا لروح خاص من الزمن إلا الشرعة الأخيرة ! .

أم يعنيهم على مدار الزمن الرسالي خطاباً على وجه القضايا الحقيقية ؟ وخطاب الماضين من الأمم لا طائل تحته ! .

والصحيح أن الخطاب موجه إلى الأمم الحاضرة وإلى يوم الدين ،
نُبهة على أن شرعة كلِّ تختص برده خاص من الزمن ، فليؤمنوا كلهم
بهذه الشرعة القرآنية المهيمنة على السالفة ، دون جمود على شرائعهم
المجمولة كلِّ منها لردح خاص من الزمن .

فالأمم الكتابية الخمس ، وهم كافة المكلفين في الأدوار لخمسة
الرسالية ، لكلِّ جعل الله شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلهم كلهم منذ
آدم إلى يوم الدين أمة واحدة لهذه الشرعة القرآنية الجامعة لها كلها ،
ولكن لينلوكم فيما آتاكم من الشرائع .

هذا وليست صدفة غير قاصدة توافق عديد النص في مختلف صيغ :
« الناس » الـ ٢٤١ مرة و « الإنسان » ٦٥ و « الإنس » ١٨ و « أناس » ٥
و « أناسي » ١ و « أنسيّاً » ١ و « بشر » ٢٦ و « بشراً » ١٠ و « بشرين » ١ -
والجمع (٣٦٨) مرة ، مع مختلف النصوص في الرسل فإنها أيضاً (٣٦٨)
مرة !

والشرعة هي الأحكام الأصلية الشارعة إلى الدين الواحد ، تحملها
كتاب الوحي لولي العزم الرسولي ، والمنهاج يحمل السنة المنهجية
الهامشية الشارحة للشرعة ، فلكل صاحب شرعة بيان رسالي بما أراه الله
على ضوء كتاب وحيه الأصل فالشرعة والمنهاج سبيل وسنة ^(١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٣٩ في أصول الكافي بسند متصل عن أبي جعفر عليهما السلام
حديث طويل يقول فيه (ع) فلما استجاب لكل نبي من استجاب له من قومه من
المؤمنين جعل لكل منهم شرعة ومنهاجاً وقال الله لمحمد (ص) : إنا أوحينا إليك
كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأمر كل نبي بالأخذ بالسبيل والسنة وكان
من السبيل والسنة التي أمر الله عز وجل بها موسى (ع) أن جعل عليهم السبت
وفيه عن علل الشرائع حنان بن سدير قال قلت لأبي عبد الله (ع) لأي علة لم
يسعنا إلا أن نعرف كل امام بعد النبي (ص) ويسعنا أن لا نعرف كل امام قبل
النبي (ص) ؟ قال : لأختلاف الشرائع .

فالسبيل هي أصل الشرعة وهي كتاب الوحي الأصيل ، والمنهاج هو الرسول بسنته ، وذلك المثلث يشكل هندسة الشرعة ، فمادة الدعوة الأصلية الشرعة هي رأس الزاوية ، والداعية الرسولية بسنته الشارحة هما الزاويتان الأخريان .

فليس في ميادين الدين الخمسة إلا شرعة ومنهاج ، وأما الطريقة المختلفة إدعاء أنها باطن الشرعة والمنهاج ، فهي خارجة عن الشرعة والمنهاج ، فإنهما هما الكافلان لبيان الدين المتين دون حاجة إلى إختلاق طريقة أو شرعة أو منهاج مختلفة ، ويكأن الله قَصُر أو قَصَرَ في تبين الدين فاحتاج إلى إختلاق طريقة هي أعمق من شرعة الدين ومنهاجه ! ولا سيما الطريقة التي تجتاح الشريعة زعم أنها قشور غير محتاج إليها لأهل الطريقة ! .

أجل وليست كل شرعة ريبانية إلا شرعة من الدين : « شرع لكم من الدين » وشرعية من الأمر : « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » (١٨: ٤٥) .

إذا فالدين : الطاعة ، والدين : الأمر ، واحد لا إختلاف فيه أصلياً ، فإنما الشرائع إلى الدين قد تختلف شكلياً وإبتلائياً ، فالواجبات الأصلية كما المحرمات الأصلية وأصول الدين كلها ثابتة كضابطة في شرايع الدين كلها ، فإنما الإختلاف في الشكليات إبتلاء وامتحاناً :

« ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » في الشرعة والمنهاج كما أنتم أمة واحدة في أصل الدين ، فقد كان من الممكن أن يشرع الله شرعة واحدة للدين ويفرضها على كل المكلفين منذ البداية إلى يوم الدين ، ولكي لا يختلفوا ويحتاروا : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ... » (١١: ١١٨) فالإختلاف

في الدين تخلف عنه في حقل الإبتلاء بمختلف الشرائع وهو الهادي والضال في ذلك الحقل تخيراً دون تسيير : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون » (١٦: ٩٣) « ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير » (٤٢: ٨).

ذلك ، فليست عِدَّة الأمم إلَّا عِدَّة لِبَالِغِ الإِبْتِلَاء ، حفاظاً صارماً بليغاً على وحدة الدين بعبء المحاولة الدائبة في التسليم لله ، فهذه الأمم هي في الحق أمة واحدة لرسالة واحدة مهما اختلفت طقوس ظاهرية ومظاهر أحكامية : « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون » (٢١: ٩٢) و « ... فَاتَّقُون » (٢٣: ٥٢).

ولكن تعدد الشرائع إلى الدين إبتلاء ، كما الدين أصله إبتلاء ، فقد أراد الله مثني الإبتلاء في حقل الدين إستكمالاً للبلية :

« ولكن ليلوكم فيما آتاكم » بلوى مستمرة على مدار الزمن الرسالي « فيما آتاكم » كلاً في زمنه ، هل أنتم تصبغون شرعة الله بصبغة الطائفية والقومية والإقليمية والعادة أماهيمه ؟ كما فعله الكثير من اليهود والنصارى المتعصبين المتصلبين على ما آتاهم الله .

فكما التدين بشرعة من الدين في البداية إبتلاء ، كذلك الإنتقال منها إلى شرعة أخرى ناسخة لها إبتلاء ، بل والنقلة أبلى من الإبتداء ولا سيما إلى نبي من غير قومه ، فقد تختصر الحكمة الربانية في عديد الشرايع من الدين وتختصر في :

« ولكن ليلوكم » فكما يبلو المولى عبده ليختبره في مدى طاعته له بمختلف أوامره ، فقد يأمره أولاً بأمر يأتّمه فيه ، ثم يظل فيه متعوداً ، ومن ثم يأمره بأمر ثانٍ علّه إمراً أكثر مما كان ، وهو في نفسه إمراً حيث يخالف

تعوده على الأول ، فإن ائتمره في كل أوامره عرف تسليمه له دون أن تؤمره عاداته وهواه ، وإن جمده على أمره دون نقلة إلى ثان وسواه عرف عدم تسليمه ، وأنه ممن يؤمن ببعض ويكفر بعض ، وأنه متبع هواه دون مولاه .

كذلك الأمر « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . . ليلوكم فيما آتاكم » من شرعة سابقة ولاحقة ، فالجامد على السابقة تركاً لللاحقة وهما من دين واحد وإله واحد ، إنه ليس متشرعاً بالسابق كما اللاحق ، فإنما هو متبع هواه مهما اتبع من قبل ظاهرياً هدى الله ، وهكذا نرى الدنيا بحذاقيرها ابتلاءً في خيرها وشرها^(١).

ثم الأحكام على صنوف عدة ، منها ما تكون مصالحها في أنفسها أمراً أو نهياً دون أي تطبيق كأمر إبراهيم الخليل بذبح إسماعيل ، وأخرى بتطبيق دون مصلحة خارجية أخرى إلا هو ، وثالثة تتبع مصالح واقعية مقررة من عند الله ، وكلها حق لا بمعنى أن الله يتبع فيها حقاً هو أمر ثالث بعده

مركز تحقيق كاتبة علوم إسلامي

(١) ذلك وعالم التكليف في كل مظاهره تكويناً وتشريعاً بلوى وامتحان : « ويلووناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » (١٦٨:٧) « ويلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون » (٣٥:٢١) « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم » (٣١:٤٧) « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » (١٥٥:٢) « ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم » (١٦٥:٦).

وبصورة جامعة : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوكم أيكم أحسن عملاً » (٧:١٨) « الذي خلق الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً » (٢:٦٧) « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهاتن . كلا . . » (٧٦:٨٩).

فقد نعيش ابتلاءات بأشكالها ولكل حساب فثواب أو عقاب قدر ما ابتلي ولا يظلمون نقيراً .

وبعد خلقه ، بل الحق هو الذي يقرره بأية صورة من هذه الثلاث ، والثابت منها هو الموافقة للمصالح الواقعية بسيرتها أم وبصورتها دون الآخرين .

وهكذا يكون دور الإبتلاء بمختلف الأحكام في مختلف الشرائع :
« ليلوكم فيما آتاكم » .

دون ما اشتهر في خطابات ومؤلفات أن هذه الشرائع الخمس كالصفوف الخمس الدراسية تتدرج حسب تدرج القابليات ! فإن شرائع الله في أصولها العقيدية وفروعها الأحكامية ليست من العلوم الصلاحية التي تتدرج في صفوفها للدارسين ، فأصولها الثلاثة يكفي فيها - فقط - عقل التكليف في أية درجة ، ثم الفروع متلقاة بالقبول على أساس الأصول دونما حاجة إلى أية عبقرية عقلية أو علمية ، فأى فرق بين واجب عقيدة التوحيد والمعاد بين شرعة نوح وشرعة الإسلام ، اللهم إلا أن الله بين اكمل مدارج التوحيد هنا لأنها شرعة المكلفين منذ بزوغها إلى يوم الدين ، ثم الأحكام الفرعية نازلة فيها كما تحتاجها الأمة الإسلامية على مدار زمنها .

ولو أن الحكمة في تعدد الشرائع كما يقولون لما كان لعيدها ومديدها حد تقف عنده ، فإين العقلية الجامدة الخاملة للجاهليين العرب ، والعقلية المتحضرة في القرن الرابع عشر الحاضر ، فهل من المفروض أن تأتينا شرعة جديدة تناسب هذه العقلية الحاضرة .

ثم المكلفون في كل الأدوار الرسالية الخمسة هم درجات في قابلياتهم ، فالمفروض - إذاً - في كل دور شرائع عدة لمختلف صنوف المكلفين دون شرعة واحدة تحكمهم على اختلاف قابلياتهم العقلية والعلمية .

فكما لا تصلح أية دراسة خاصة لمختلف الدارسين على حد سواء ، كذلك شرعة واحدة لمختلف المشرعين على حد سواء .

فهذه هرطقة حمقاء ان مختلف الشرائع هي لحكمة مختلف
القابليات ، إنما هو كما قال الله : « ليلوكم فيما آتاكم » .

فإنما الدين هو التسليم لرب العالمين في كل قليل وجليل ، تناسياً كافة
الاهواء إلا هدى الله « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا
الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله
سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن إتبعن وقل للذين
أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فإن أسلموا فقد إهتدوا وإن تولوا فإنما عليك
البلاغ والله بصير بالعباد » (٢٠: ٣) « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل
منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٨٥: ٣) « أفغير دين الله يبغون وله
أسلم من في السماوات والأرض » (٨٣: ٣) « ومن أحسن ديناً ممن أسلم
وجهه لله وهو محسن » (١٢٥: ٤) « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله
أجره عند ربه » (١١٢: ٢) « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد
استمسك بالعروة الوثقى » (٢٢: ٣١) « قل إني أمرت أن أكون أول من
أسلم » (١٤: ٦) « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما
كان من المشركين » (٦٧: ٣) « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي
وبرسولي قالوا آمنا وإشهد بأننا مسلمون » (١١١: ٥) .

فإنما الدين الحق : الطاعة لله الحق ، إنه واحد هو الإسلام لله في كل
شرايع الدين المتين ، فـ لا نفرق بين أحد من رسله » (١٣٤: ٢) في
دعواتهم بشرائعهم من الدين إلى أصل واحد هو الدين الطاعة والتسليم
الواحد لرب العالمين .

ذلك ، ففي كل شرعة ، وفي حقول الشرائع كلها، ليس المفروض إلا
التسليم « فاستبقوا الخيرات » دون الطائفيات والعنصريات والإقليميات أما
هوأت من غير التسليم الخاص لله رب العالمين .

والخير الأخير المنقطع النظير بين كل بشير ونذير هو الشرعة الإسلامية

السامية فاجعلوها في سباقاتكم السابعة ، حيث الجمود على شرعة سابقة
منسوخة هو شر حيث يتخلف عن شرعته الحاضرة المحكمة .

صحيح أن كل شرعة في زمنها الخاص خيرٌ ، ولكنها بعد نسخها ليس
خيراً ، إلا النقلة إلى ناسخها لمكان التسليم الطليق لله .

ذلك ، و « إلى الله مرجعكم جميعاً » أيها المشرعون المختلفون ،
إلى إله واحد شرع لكم كل شرعة من الخمس « فينبئكم بما كنتم فيه
تختلفون » إنباءً علمياً صارماً بعد ما تجاهلتم في أولاكم ، ثم إنباءً عملي
بعقوبات تستحقونها « بما كنتم فيه تختلفون » .

« فاستبقوا الخيرات » : بادروا فعل الخيرات إن كنتم على غير أمان
من حضور الأجل وتضييق الأمل ، وذلك يشبه سباق الخيل فإن كل واحد
من فرسانها يشاح غيره على بلوغ الغاية المقصودة وينافسه في الإسراع إلى
البغية المطلوبة .

وإن شرائع الله كلها خيرات ، وفي كل شرعة خيرات وخيرات ،
ولمكان التفاضل في هذه الخيرات ، على الخيرين أن يستبقوا الخيرات ،
لا أن يستبقوا خيراً يجمدون عليه وقد نسخ في شرعة الله ، أم فيها خيرٌ
منه ، وهكذا نجد الله تعالى يستقطب مساعي كلنا بكلها للحصول على
أفضل الخيرات ، فالبقاء على خير وهنا خير منه شرٌ ، والبقاء على خير
منسوخ هو أشر ، والخير المأمور به دوماً المحجور هو استباق الخيرات ،
طلباً للسابق السابق في الخير سبقاً في الخير في أصله دون سبق المكان أو
الزمان .

فالخير للمكلفين أجمعين في شريعة الله هو إجتماعهم على شرعته
الأخيرة ، ثم استباقهم فيها ، دون أن يظل كل على شرعته ثم التسابق في
الجدال ، أو محاولة التوحيد بين هذه الشرائع بفرض المشاركات ورفض

المتخالفات ، محاولة فاشلة وتَعَلَّة باطللة قاحلة تخالف كل شرائع الله ، فشرعة الله لا تقبل العدول أو التعديل من غير الله قيد شعرة ، لا لصالح التوحيد المزعوم بين الأمم ، ولا سائر المصلحيات المزعومة المناخرة لما أراه الله رسله ، ولقد تبين هنا الفرق بين الدين والشرعة والمنهاج ، فالدين واحد هو طاعة الله باسلام الوجه في كل الوجوه لله ، والشرعة هي الشارعة إلى اصل الدين الطاعة ، وما اختلاف الشرائع في أصل الدين ، إنما هو في بعض الطقوس والشكليات ، ثم المنهاج هو الذي ينتهجه حامل الشرعة الرسولي بوحى هامشي على وحي الشرعة ، كما الشرعة متفرعة على أصل الدين ، وهذه الثلاثة متحدة في كونها ديناً وطاعة لله .

ذلك ، فالصوفيات المختلفة ، زعم أنها باطنيات الشرائع والشرائع إنما تتكفل ظاهريات ، تلكم الصوفيات هي مبتدعات بكل زور وغرور ، و« منهاجاً » بعد « شرعة » هو من مجعولات الله كما الشرعة ، دون حاجة إلى تلكم الاختلافات الاختلاعات .

وعلماء كل أمة وربانيوها هم حملة شرعتهم ومنهاجهم على درجاتهم ، فالأوصياء هم إستمرارية لدعوات النبوات ، كما العلماء هم إستمرارية لدعوات الأوصياء ، كل في مكانته كما سعى وقرره الله .

وختاماً للبحث حول آية الشرعة والمنهاج ، لأن شرعة محمد (ص) هي المهيمنة على الشرائع كلها ، نجد « شرعة » مرة كما هنا و« شريعة » في ثلاث أخرى ، وكما نجد محمداً أربع مرات ، إضافة إلى روح القدس والملوكوت والسراج فان كلاً منها ايضاً أربع ، فقد تعني خماسية المربعات شرعة محمد ومحمد الشرعة فهما الملوكوت وهما روح القدس وهما السراج ! .

﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ (٤٩):

ترى إلى مَ عطفت « وأن احكم .. » ؟ علها معطوفة على « أنزلنا إليك الكتاب » فهناك « فاحكم » تفريعاً على إنزال الكتاب ، وهنا « أن احكم » بياناً للمسؤولية المحملة عليك في إنزال الكتاب .

و « ما أنزل الله » هنا هو النازل عليه في القرآن والسنة دون سائر الوحي ، وكما يؤيده « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » فإنه يعم الإفتتان عنه إلى سائر الوحي المنسوخ أم أهواء خارجة عن الوحي .

فاتباع أهواءهم له محذور ، سواء أكانت أهواء لוחي الكتابين المنسوخ بالقرآن ، أم سائر الأهواء ، مهما اختلفت هوى عن هوى ، حيث الفتنة عن الوحي الناسخ هوى ، مهما كان إلى الوحي المنسوخ أم إلى غير وحي ، فلا تطع أمرهم ، ولا تُجب داعيهم فإن أهواءهم داعية إلى الردى هادية إلى العمى .

وهنا تحذير الرسول (ص) أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه تأييساً لهؤلاء المفتنين تلك المحاولة اليائسة البائسة حيث « أبى ذلك وأنزل الله هذه الآية »^(١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٠ - اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال كعب بن اسد وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا : يا محمد انك عرفت أنا أحبار يهود واشرافهم وسادتهم وأنا ان اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وان بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضي لنا عليهم وتؤمن لك ونصدقك فأبى ذلك وأنزل الله عز وجل فيهم : « وأن احكم ... الى قوله : لقوم يوقنون » .

« فإن تولوا » عن حق الوحي وعن حكمك بما أنزل الله إليك « فاعلم أنما يريد الله » ذلك التولي المخير غير المسير « أن يصيبهم ببعض ذنوبهم » بتلك الإصابة ، ذنباً يستجر ذنباً ثم الله لا يوفقهم لتركه « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وهنا « فاعلم » نبهة أن محاولاتهم الفاسقة وجاء ما أنزل الله إليه ليست خارجة عن حول الله وقوته ، بل هو الذي يذرهم - هكذا في طغيانهم يعمهون « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون » (٥٩: ٨) فلا يحملنك توليهم عنك يا حامل الرسالة الأخيرة أن تحزن ، ولا تجعل إعراضهم تغلباً لهم عليك أو على الله ربك ، ولا أن يفت عضدك أو يحولك عن موقفك ، فهم أولاء فقط الذين يصيبهم السوء بذلك الإعراض ، لا أنت كرسول ولا ربك كمرسل ، ولا الصف المسلم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

وبذلك يغلق كل منافذ الشيطانات والعرقلات ومداخلها إلى النفوس المؤمنة .

ذلك ، وقد يعني تكرار « أحكم بينهم بما أنزل الله » تكرر دعواهم إليه (ص) حيث احتكموا إليه أولاً في زنى المحصن ثم احتكموا إليه في قتل كان بينهم^(١).

ذلك « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » فلا يبقى إلا قليل « وقليل من عبادي الشكور » وذلك الكثير دركات حسب دركات الفسوق ، فكما المؤمنون في الأصل قلة بين الكافرين ، كذلك العدول فيما بينهم قلة بجانب فساقهم .

هذه هي المفصلة بين كتلي الكفر والإيمان دون أية مواصلة ،

(١) المجمع وهو المروى عن أبي جعفر عليهما السلام .

فالحكم إثنان : حكم الله وحكم الجاهلية دون وسط في البين بجعل البلد بلدين أو أخذ العصا من وسطها :

﴿ أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةُ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥٠):

فد ان الحكم إلا لله « (٥٧: ٦) أصلاً وفصلاً ، ردحاً قصيراً من الزمن أو كثيراً ، فكما أن أحكام الأهواء غير الصادرة عن الله هي من أحكام الجاهلية ، كذلك أحكام الله السابقة المنسوخة بالأحققة ، هي أحكام جاهلية في الالتزام بها - لا في أصلها لزمناها - لتخلفها عما حدده الله ومدّده نسخاً لها فد الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية «^(١) والقصد من حكم الله أمام حكم الجاهلية هو الحكم الفعلي لا السابق المنسوخ إذ لا يرضى به الله ، فمن الجاهلية تطبيق حكم لا يرضى به الله .

أجل ، فالحكم غير المصبوغ بصبغة الإسلام لله هو من حكم الجاهلية مهما كان من أحكام الله السابقة ، لأنه تخلف عن حاضر حكم الله مهما كان هو حكم الله فيما مضى .

إذاً فالتسليم لحاضر حكم الله المحكّم على المكلفين هو خط المواصلّة بين المؤمنين بالله ، وعدم التسليم له مهما كان تسليماً لغابر حكم الله فضلاً عن حكم غير الله . هو خط المفاصلة بين قبلي الإسلام والكفر ، مهما سمى الكافر نفسه يهودياً أو نصرانياً أو مسلماً ! .

(١) نور الثقلين ١: ٦٤٠ عدة من اصحابنا عن احمد بن محمد بن خالد عن ابيه رفعه عن ابي عبد الله (ع) قال : وفيه عن ابي جعفر عليهما السلام مثله سناداً إلى الآية بزيادة : واشهد على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية .

فالاسلام لله في زمن الشرعة الاولى هو التسليم لها ، ثم الإسلام الثاني الإبراهيمي والثالث الموسوي والرابع المسيحي ، كل محدّد بالشرعة الحاكمة في دورها الخاص ، ومن ثم الإسلام منذ بزوغ الشرعة القرآنية هو التسليم لها إلى يوم الدين .

فهنا ثلوث منحوس من حكم الجاهلية ، قد تتمثل في وثنية الشرك وأخرى في انحراف كتابي وثالثة بين المسلمين ، وقد تشملها « حكم الجاهلية » المناخرة لحكم الله .

﴿ ومن احسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ :

لقد نظر الله إلى كل الحاجيات الحاضرة والمستجدة لكل أمة فشرع لكل شرعة من دينه دون أية نقيصة جليلة أو قليلة ، ثم نظر إلى كافة المكلفين إلى يوم الدين فحاسب حسابات كافة المستجدات والملابسات لهم جماعات وفردى ، فشرع شرعة القرآن من الدين ، حافلة لكافة المستجدات ، كافلة لكل الحاجات .

والغلطة الشهيرة بين الناس أن توالي الشرائع هي من قضايا تقدم المكلفين في تفهّم حقائق الدين ، الفاسحة لمجال الخيال أن البشرية - وبعد أربعة عشر قرناً - بحاجة إلى شرعة جديدة تصلح للقيمة العقلية والعلمية التقدمية لها .

إن هذه الغلطة تُرد إلى أصحابها بنص القرآن : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . . ليلوكم فيما آتاكم » لا ليقدمكم فيما فيه تتقدمون ولا لم يكن لتتابع الشرائع من أمد تقف عنده ! .

ذلك ، ولأن الجانب الأحكامي من الشرائع لا يفرق بين العالم والجاهل في تلقيها وتطبيقها ، فليس التكامل العلمي والعقلي بالذي يسبب تكامل هذه الأحكام العملية .

ثم الجانب العقيدي موزع على كافة الاستعدادات ، كل قدره وإمكانيته ، وترى أن الفلاسفة الأولين قبل نزول الكتب الثلاثة وبينها وقبل نزول القرآن هم ما كانوا يأهلون لفهم الجانب العقلي العقيدي من شرعة الله .

ذلك ، والأصول الثلاثة العقيدية واضحة في أصولها ، مسبلة في الحصول عليها و « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

صحيح أن الشرعة القرآنية أكمل من كل شرائع الدين قبلها ، ولكنها قضية خلودها ، وكفالتها لكافة الحاجيات على مدار الزمن إلى يوم الدين ، لا أن القوم اللذ من العرب الجاهلي كانوا يستحقون ذلك الكمال الخالد من شرعة الله ولم يكن يستحقه النبيون من ذي قبل ، ولا أمثال أفلاطون وأرسطو من أساطين العقل والعلم ! .

فما ذلك القول في تكامل الشرائع إلا غولاً فاغتيالاً للشرعة القرآنية أنها لا يمكن أن تبقى خالدة في عصور التقدم والرقي التي لا نسبة بينها وبين القوم الذين نزل فيهم القرآن .

ذلك ، فما هذا التوجيه غير الوجهي إلا من أحكام الجاهلية على شرائع الله ، وما الحكم هنا كما في غيره إلا الله « ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات .. أفحكم الجاهلية يبغون .. » ؟ فالقوم الذين لا يوقنون بالله وبشرعته هم حكم الجاهلية يبغون ، ثم الموقنون لا يبغون إلا حكم الله : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » فما طنطنة تبديل بعض الأحكام الإسلامية إلى ما يناسب عصر التقدم والرقي - كما يزعم - إلا من القوم الذين لا يوقنون ، كما الأحكام المصلحية ! المعارضة لأحكام الله الخالدة ، هي أيضاً من أحكام الجاهلية ، مهما نقبوها بنقاب المصالح الحكومية الإسلامية أمأهيه من أغطية ، فإنها شرعة مختلفة خليعة تحكم

على اصحابها بالكفر والفسق والظلم ، ثلوث منحوس يتبنى الحكم بغير ما أنزل الله ! .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٥١) :

هنا نقف متسائلين أمام هذه والثلاث التالية لها ، هل إنها نزلت في حجة الوداع كسائر المائدة ؟ و « أن يأتي بالفتح » في التالية قد لا تناسبه حيث « الفتح » هو فتح مكة ولم يكن بعد فتح حتى يترجى ! كما وأن شطراً مما ورد في أسباب النزول ينحى نزول هذه الأربع عن حجة الوداع إلى بداية العهد المدني حيث الحروب الأولية كبدر وأحد وما أشبه ! .

ذلك ، وكما أن « نخشى أن تصيبنا دائرة » لا تناسب بعد الفتح وقد اضمحلت كل الدوائر المتربصة بالمسلمين واكتسحت كل العراقيل .

فقد لا تتصل هذه الأربع - غاية التبليغ - نزولاً مع السابقة عليها واللاحقة بها ، فآية التبليغ نازلة قبل آية إكمال الدين وإتمام النعمة ونراها بعدها بعشرات ، مما يدل على إختلاف ترتيب التأليف في المائدة ترتيباً تنزيلها ، ولكنه لا ينصدم به أن المائدة هي آخر ما نزلت ، ناسخة غير منسوخة ، حيث القصد الأصيل هنا إلى خصوص الآيات الأحكامية ، ولكن « لا تتخذوا . . » كذلك من الأحكامية ، أو يقال : إن المائدة برمتها الأحكامية ناسخة فيما خالفت غيرها ، غير منسوخة بغيرها ، حتى في آياتها التي نزلت قبل حجة الوداع

وعلى أية حال فالأصل الدلالي بالنسبة لكيان الآيات هو الآيات أنفسها دون شؤون نزولها المتعارضة مع بعضها البعض أحياناً ، وانها من باب الجري والتطبيق أخرى .

فالفتح الموعود في التالية « أن يأتي بالفتح » هو فتح مكة حيث يستأصل كل دوائر السوء عن الكتلة المؤمنة الفاتحة للعاصمة ، المستسلمة معهم جموع الكفار المعارضين .

إذا فهذه الآيات الأربع هي متصلة الأجزاء مع بعضها البعض ، منقطعة عما احتفت بها من قبل ومن بعد ، جعلت في التأليف هنا لهامة تقتضيه وكما في سائر التأليف القرآني .

ومن هذه الهامة صالح الصرخة الأخيرة القرآنية قرب إرتحال الرسول (ص) إلى جوار رحمة ربه ، حيث تحذر المسلمين عن بأس اليهود والنصارى وبؤسهم ، وعداً لفتح أو أمر من عنده ليسا ليختصا بفتح مكة مهما كان هو الأول ، بل وهناك فتوح متواترة للمسلمين ما قاموا بشرائط الإيمان دون خشية عن الدوائر كيفما كانت .

فهنا « لا تتخذوا اليهود والنصارى » تحمل صارم التحذير عن إتخاذهم أولياء كضابطة تحلّق على الطول التاريخي والعرض الجغرافي الإسلامي إلى يوم الدين .

والولاية المنهي عنها طليقة كأصل ، تشمل ولاية السلطة وولاية التناصر والتحالف وولاية الحب ، اللهم إلا ما يستثنى من ولاية دون الحب والسلطة عند التقية : « إلا أن تنقوا منهم نقاةً » قدر قضية التقية في دوران الأمر بين الأهم والمهم ، أم مع غير المحاربين منهم في ولاية لها جاذبية التوجيه إلى إيمانهم أم صد العداء المتطرف الجارف فد لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم

فأولئك هم الظالمون « (٦٠: ٩) ^(١).

فضابطة « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » تحلق على كل الأحوال ولا يستثنى منها فيهم إلا « الذين لم يقاتلوكم . . » وللمؤمنين « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ولا ثالث كأن : « نخشى أن تصيبنا دائرة . . » :

فلقد كانت ولاية المناصرة قضية المصالح والأواصر المتشابكة بينهم وبين أهل الكتاب في العهد المدني ولا سيما في بدايته ، وكما كانت قبل الإسلام ، فنهاهم الله عنها قضية الرزية العقيدية وما أشبهه، نتيجة هذه الولاية .

صحيح أن الإسلام هو شرعة السماحة مع أهل الكتاب ، بل ومع المشركين أيضاً ، ولكنها ليست لحد الولاية حباً ومخالطة ومناصرة ومحالفة ، إنما هي في حقل الملاطفة في العشرة مع غير المعاندين منهم .

ومن البساطة والغفلة أن نظن بهم مواصلة معنا في خط واحد أمام سائر الكفار والملحدين ، ولقد جربناهم طول التاريخ إذا كانت المعركة ضد المسلمين أهم معهم أم مع سائر الكافرين .

صحيح أن الله يأمرهم بالمواصلة في خط التوحيد الوحيد « تعالوا إلى

(١) الدررالمثور ٢: ٢٩٠ عن عباد بن الوليد ان عباد بن الصامت قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله (ص) تشبث بأمرهم عبد الله بن سلول وقام دونهم ومشى عباد بن الصامت الى رسول الله (ص) وتبرء إلى الله ورسوله من حلفهم وكان أحد بني عوف بن الخزرج وله من حلفهم مثل الذي كان لهم من عبد الله بن أبي فخلعهم إلى رسول الله (ص) وقال : اتولى الله ورسوله والمؤمنين وابرة إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الكفار ولايتهم ، وفيه وفي عبد الله بن أبي نزلت الآيات في المائدة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا - إلى قوله - فان حزب الله هم الغالبون » .

كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . » (٦٤: ٣) .

ولكن هل وجدنا لهم أذنًا صاغية اللهم إلا قليلاً منهم وفي لرعاية الحق فآمن أم كان على حياد ، ولكن الضابطة في اليهود والنصارى ، الثابتة معهم ، أنهم لا يحبذون شرعة بعد الكتابين مهما تظاهروا بالمحابة ، وإن كان النصارى أقرب مودة من اليهود حين المقايسة بينهما .

كيف وهم أولاء الذين يقولون للمشركين « هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً » وهم الذين كانوا يناصرون المشركين ضد المسلمين منذ البداية ، ثم شنوا الحروب الصليبية طوال عامين ، وارتكبوا فضائع الأندلس ، وشردوا المسلمين أخيراً من فلسطين ومن كل مكان لهم بالامكان .

وهنا « بعضهم أولياء بعض » هي قضية حقيقية لا تختص بزمان دون زمان أو مكان دون مكان ، أو جيل منهم دون جيل ، إنها قضية المفاصلة العقيدية منهم الخليطة بتحريفات وتجديفات ، فهم منذ ولد الإسلام أصبحوا أول المحاربين إياه حتى نُهوا : « ولا تكونوا أول كافر به » فهم يلي بعضهم بعضاً ضد المسلمين في كل فجاج الأرض ، وقد تلمح إسمية الجملة « أولياء » - دون « يتولون » - على إسمية الحملة المتواصلة دونما انقطاع ، ورسميتها على مدار التاريخ .

ذلك « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » ضابطة عامة تحلق على تولي الخير إلى تولي الشر ، فهـ من تولي آل محمد (ص) وقدمهم على جميع الناس بما قدمتهم من قرابة رسول الله (ص) فهو من آل محمد بمنزلة آل محمد عليهم السلام ، لا أنه من القوم بأعيانهم ، وإنما هو منهم بتوليّه

سورة المائدة / آية ٥٢ ٣١

إليهم واتباعه إياهم وكذلك حكم الله في كتابه « ومن يتولهم منكم فإنه منهم »^(١) .

ولا فحسب ، بل و « من رضي بفعل قوم فهو منهم » كما في آيات عدة تعني وروايات تمضي بطيات الفرقان .

﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ (٥٢) :

فمن هؤلاء الذين في قلوبهم مرض عبد الله بن ابي حيث قال له (ص) في ذلك الموقف « إني رجل أخاف الدوائر لا أبرء من ولاية موالي »^(٢) وكذلك أضرابه من المنافقين الذين قالوا ما قالوه بعد وقعة أحد^(٣)

(١) نور الثقلين ١ : ٦٤٠ في تفسير العياشي عن ابي عمرو الزبيري عن ابي عبد الله (ع) قال :

(٢) المصدر اخرج ابن ابي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله (ص) فقال يا رسول الله (ص) إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرء إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبد الله بن ابي اني رجل أخاف الدوائر لا أبرء من ولاية موالي فقال رسول الله (ص) لعبد الله بن أبي يا أبا حبيب أرايت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو ذلك دونه ، قال : قل : إذن أقبل فأنزل الله : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا . . . إلى قوله : « والله يعصمك من الناس » .

(٣) المصدر اخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال : لما كانت وقعة احد اشتد على طائفة من الناس وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار فقال رجل لصاحبه أما أنا فالحق بفلان اليهودي فأخذ منه أماناً وأتهود معه فاني أخاف ان يدال على اليهود وقال الآخر أما أنا فالحق بفلان النصراني بيعض ارض الشام ، فأخذ منه أماناً وأتنصر معه فأنزل الله فيه « يا أيها الذين آمنوا . . . » .

وأضربهم على مدار التاريخ الرسالي .

و « الذين في قلوبهم مرض » تعم المنافقين الومسين إلى ضعفاء الإيمان ، ففيما ذكروا مع المنافقين فهم الآخرون : « وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً » (٣٣: ١٢) - « إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم » (٨: ٤٩) ، وفيما يذكرون دون مقابل فقد يعمهما كما هنا ، وقد يعني منهم فقط

وفيه عن عكرمة في الآية - في بني قريظة إذ غدروا ونقضوا العهد بينهم وبين رسول الله (ص) في كتابهم إلى أبي سفيان بن حرب يدعونه وقريشاً ليدخلوهم حصونهم فبعث النبي (ص) أبا لبابة بن عبد المنذر إليهم ان يستزلهم من حصونهم فلما اطاعوا له بالتزول اشار إلى حلقه بالذبح وكان طلحة والزبير يكاتبان النصارى وأهل الشام وبلغني أن رجالاً من اصحاب النبي (ص) كانوا يخافون العوز والفاقة فيكاتبون اليهود من بني قريظة والتفسير فيدسون اليهم الخبر من النبي (ص) يلتمسون عندهم القرض والتفح فنهوا عن ذلك ، وفيه أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الايمان عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري ان يرفع إليه ما اخذوا وما أعطى في أزم واحد وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك فعجب عمر وقال : ان هذا لحفيظ هل أنت قارئ لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام ؟ فقال : انه لا يستطيع ان يدخل المسجد ، قال عمر أجنب هو ؟ قال : لا بل نصراني فانتهرني وضرب فخذي ثم قال أخرجوه ثم قرأ : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا . . . »

وفي تفسير الفخر الرازي ١٢: ١٦ روى عن أبي موسى الأشعري أنه قال : قلت لعمر ابن الخطاب إن لي كاتباً نصرانياً فقال : مالك قاتلك الله ألا اتخذت حنيئاً أما سمعت قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » قلت : له دينه ولي كتابته ، فقال : لا اكرمهم الله إذ أهانهم الله ولا أعزهم الله إذ أذلهم الله ولا أدناهم الله إذ ابعدهم الله ، قلت : لا يتم امر البصرة إلا به فقال : مات النصراني والسلام ، يعني هب انه قد مات فما تصنع بعده فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره .

المنافقون كما » ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً .. « (٧: ٢٠) .

فالقلوب الميتة بأسرها هي القلوب المنافقة رسمية ، والقلوب المريضة هي الحية التي ابتليت بشك ، فإذا زاد الشك لحد الموت تمحضت في النفاق ، فد « الذين في قلوبهم مرض » يشمل المنافقين وسائر المرضى ، وإن كان ظاهر المرض حياة ماء ، فالمنافق الرسمي - بطبيعة الحال - هو المصدق الأخفي ، والمسارعون في اليهود والنصارى يعمهما ، والمنافق الرسمي بينهما هو الفرد الأجل حيث المسارعة لهم أجل وأنكى .

إذاً فبين المنافقين والذين في قلوبهم مرض عموم مطلق ، كل منافق في قلبه مرض وليس كل مريض القلب منافقاً إلا إذا كان مرض النفاق حيث يموت القلب بذلك المرض .

لقد سارعوا فيهم من ذي قبل ويسارعون لجوء إليهم أو مناصرة لهم وتحبباً ، إعتذاراً بما « يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » وهي حالة سيئة دائرة من قبلهم عليهم من سلطة دائرة ، كأن لا يتم أمر محمد (ص) فيدور الأمر كما كان ، أو يتم أمره فدائرة الفقر البائرة إذ نحن فقراء وهم أغنياء ، أم أية دائرة مصيبة هي مصيبة علينا فتسمح لنا أن نسارع فيهم نقيّة ! .

وهنا ندرس أن خشية « دائرة » كافرة على المؤمنين من قبل المعاندين لا تسمح لهم مسارعة فيهم في ولاية ، لا سيما وأن الله واعد لهم النصر ، ولا تستثني « إلا أن تتقوا منهم تقاة » إلا أهم الأمرين الإمرين في ظاهر الولاية دون أية مادة أم ولاية السلطة : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة » ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير « (٣: ٢٨) .

ذلك ، وأما خشية إصابة « دائرة » دون يقين ، فمسارعة إليهم

إنحلالاً عن شروط الإيمان ، وقد وعدهم الله بالنصرة من عنده ، فذلك نقض لليقين بالشك ، ثم ولا تقتضي « ثقة » منهم تلك المسارعة المتحللة عن الإيمان ، فإنما الضرورات تقدر بقدرها دونما فوضى جزاف .

فما دام « عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » فلا مجال لتقية فضلاً عن المسارعة فيهم .

و « الفتح » هنا - في عساه - عساه فتح مكة لمكان التعريف ، فإن كان فتحاً قبله لكان « بفتح » أو أنه جنس الفتح ، وأبرزه في حاضره حياة الرسول (ص) فتح مكة ، ثم وما قبله من فتح وما بعده ، وأبرز الفتوح المستقبلية فتح صاحب العصر وولي الأمر عجل الله تعالى فرجه الشريف ، فقد يكون مثلث الفتح معنياً بالفتح من عنده والقدر المعلوم هو فتح مكة المتأيد به نخشى أن تصيينا دائرة « ولا خشية حاضرة بعد فتح مكة على الذين في قلوبهم مرض ، الحضور حينذاك ! »

ثم « وعسى » هنا من الله حتم ولنا ترجح ، غدة للمؤمنين ، ووعيداً للذين في قلوبهم مرض حتى يرجعوا حاسرين عادمين « فيصبحوا على ما أسروا في انفسهم نادمين » ! .

ذلك « الفتح » فما هو « أمر من عنده » ؟ ذلك أمر يقضي على أمر « دائرة » مخشية تصيب المؤمنين ، أو يقضي على مسارعة الذين في قلوبهم مرض في الكافرين ، أو يفضح هؤلاء المنافقين ، فالفتح أبرز مصاديق « أمر من عنده » إختص قبله بالذكر لكي تحيل موقعه من قلوب المؤمنين ، ثم فتوح وما أشبه قبله أو بعده ومنها فتح بدر .

فهنا « الفتح أو أمر من عنده » هما من عند الله وعداً صارماً ، تلطفاً بالمؤمنين وتعطفاً ، فلا شغل لهم فيها إلا إعدادات إيمانية تستجلب هذه الوعود الخارقة للعادة من الله لهم وهم قلة وأعداءهم كثرة كثيرة وكما في

حرب أحد ، حيث يشمل « أمر من عنده » .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ (٥٣):

« الذين آمنوا » هنا قبال « الذين في قلوبهم مرض » توغل مرضى القلوب في التعميم ، وتجعل المنافقين منهم المصداق الأجل ، كما المسارعة في اليهود والنصارى تفعله .

وهنا « أهؤلاء » قد تعني « الذين في قلوبهم مرض » حيث « أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » أنتم المؤمنين ، أم إن « هؤلاء » هم اليهود والنصارى « أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم » أنتم الذين في قلوبكم مرض ، وظاهر النص يحتملها فهما - إذا - معنيان ، و « لمعكم » في الثاني ظاهر وهي في الأول خطاب للمؤمنين في أنفسهم بعضهم بعضاً ، ولكن « حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » قد ترجح الأول ، فإن اليهود والنصارى كانوا حابطي الأعمال وخاسرين على أية حال دون اختصاص بذلك الموقف العضال .

وهذه المقالة المؤمنة لا تختص بما بعد الفتح أو أمر من عند الله حتى ترجح قراءة النصب في « ويقول » خلافاً لنص المتواتر في كتب القرآن ، بل هي قضية الإيمان قبل الفتح وبعده حيث يقولون بعد مقالة الذين في قلوبهم مرض : « نخشى أن تصيبنا دائرة » إن هذه القولة تناجر إقسامهم جهد أيمانهم إنهم لمعكم ، فما هذه المعية المقسم لها وتلك القالة القالة والمسارعة فيهم إلا منافقة بارزة من الذين في قلوبهم مرض ، « يقول ... ويقول : « حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » في صفقتهم الحاسرة ، وقد تحتمل « حبطت أعمالهم » - إلى كونها من مقالة المؤمنين - أنها جملة معترضة من الله استكمالاً لمقالة المؤمنين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٥٤) :

« الذين آمنوا » هنا يعم كل من أقر بلسانه ولما يدخل الايمان في قلبه ، أم دخل ولما يتم في عمله ، أم هو منافق كافر بقلبه مقر بلسانه أم وبعمله ، فالإرتداد عن الدين هنا يشمل مثله ، بل الذي يرتد عن إقرار دون إيمان هو أظهر مصاديق المرتدين عن الدين وأكثرهم حيث المؤمن بقلبه ليس ليرتد عن دينه اللهم إلا شذراً نزرأً بشبهة دخلت في قلبه قد تعذره عن إرتداده .

ثم ومن الإرتداد هنا المسارعة إلى اليهود والنصارى بعاذرة « نخشى أن نصيبنا دائرة » أما أشبه أم دون أية عاذرة ، فالمحور المعني من الإرتداد هنا ليس هو الردة الجاهرة مهما كانت معنية ضمناً ، بل هي الردة المعنية من موالة اليهود والنصارى مسارعةً فيهم ، مهما كانت الجاهرة أردى وأنكى .

إذا فهي - بصورة طليقة - الردة عن الإسلام المحض الشاملة كأصل لتلك الموالة ، دون محض الإسلام الخاص بالمرتدين الرسميين عن الإسلام .

« من يرتد . . فسوف يأتي الله . . » تهديد شديد بالمرتدين عن الدين ألا حاجة لله فيهم ولا كرامة ، وبشارة للصامدين على الدين أنه « سوف يأتي الله بقوم » لهم مواصفاتهم المسرودة هنا ، يستبدلهم بهؤلاء المرتدين ، عزاً للدين والدينين .

هنا « سوف يأتي الله » تلمح صارخة صارخة أن هؤلاء الموصوفين لما يات بهم الله عند ذلك الخطاب ، أم ولا يأتي بهم عاجلاً ، ولا آجلاً قريباً

لمكان « سوف » المسوفة إلى بعيد من الزمن ، فقد لا ينطبق « يقوم » على كثير ممن يدعى ويروى أنهم أولاء المعنيون^(١) .

وبالنظر الدقيق الحر ، المتحلل عن المذهبيات ، إلى المواصفات المذكورة هنا لهؤلاء ، وإلى آيات أخرى كالتي تلي ، نتمكن من معرفتهم ، عرفاناً من سماتهم بأسماءهم أم كيانههم : « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » (٨٩: ٦) سلباً عن أية دركة من دركات الكفر في كل حقوله وحلقاته ، ثم وفي آيتنا مواصفات ست بين إيجابية وسلبية :

١ - « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه » والذين يحبهم الله لا تخرج فيهم خالجة كفر أو فسوق لمكان الحب الطليق دون طليق الحب ،

(١) كآبي بكر وأصحابه كما يروى وقد كانوا مع الرسول (ص) فكيف سوف يأتي الله بهم ، ثم وأبو بكر الذي لم ينزل الله سكينته عليه مع الرسول إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها « فهل إن أبا بكر الحزين على ذلك الحدث الهائل كان أخرج إلى السكينة أو الرسول الذي يقول له : « لا تحزن إن الله معنا » فكيف « أنزل الله سكينته » - فقط - على الرسول و « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً » (٤: ٤٨) « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (١٨: ٤٨) « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » (٢٦: ٤٨) « ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » (٢٦: ٩) .

فهل كان أبو بكر فوق الرسول والمؤمنين حتى لا يحتاج إلى سكينة الله ، أم كان دون المؤمنين كما هو دون الرسول فلم يأهل لنزول السكينة التي نزلت على الرسول وعلى المؤمنين ؟ ما يدريني إلا كلام الله القائل هنا « فأنزل الله سكينته عليه » وهناك « على رسوله وعلى المؤمنين » .

ذلك أبو بكر فكيف يكون - إذاً - حال أبي موسى الأشعري رغم ما أخرجه في الدر المنثور ٩٢: ٣ - نزلت هذه الآية قال عمر أنا وقومي هم يا رسول الله (ص) قال : بل هذا وقومه يعني أبا موسى الأشعري .

فقد تقدم حبّه إياهم على حبهم إياه ، مما يدل على بالغ الحب .

ذلك ، وفي أخرى « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » (٣: ٣١) .

فلا نجد في سائر القرآن يجتمع الحبان ويتقدم فيهما حب الله ، اللهم إلا في « رضي الله عنهم ورضوا عنه » (٢٢: ٥٨) ولكنهم كانوا مع النبي (ص) حين نزلت آيتنا وقد سوف الله الإتيان بهذا القوم الذين يحبهم ويحبونه ، فهم - إذاً - أفضل منهم .

أجل « يحبهم ويحبونه » يحبونه كما يحب أن يحبوه ، وحب الله - هكذا - لعبد أو قوم أمر لا يقدر على إدراكه أحد إلا العارف بالله على عظمه وغناه ، والعارف بقمة العبودية التي تستجلب مستقطبة حبّ الله قبل أن يذكر حبهم إياه ، وذلك إتجاههم في سلوكهم إلى الله ومع الله .

وأما مع المؤمنين بالله والكافرين به فـ ٣ - « أدلة على المؤمنين ٤ - أعزة على الكافرين » فهم على عزتهم في أنفسهم « أدلة على المؤمنين » وهنا « على » تلمح برحمة عالية للعزیز في نفسه على المؤمنين بالله خفضاً لجناحه لهم وتليناً معهم ، فهم من أفاضل الذين مع الرسول (ص) فيما الله يقول : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » (٢٩: ٤٨) فحيث لا تعني « معه » معية في لغة أو قرابة أو زمان ، بل هي المعية المتحللة عن كل هذه وتلك ، مجرد المعية الرسالية في أي زمان أو مكان ، من قريب إليه في لغة أو نسب أو سبب أو مكان أو زمان ، أم غريب .

إذاً فـ « أدلة على المؤمنين » - « رحماء » أعزة على الكافرين « أشداء » هم أفاضلهم الذين سوف يأتي الله بهم ، مهما كان زمن الرسول (ص) منهم اشخاص ، إلا أن « قوم » هم جماعة خاصة .

وقد تكون « أدلة » هنا جمع الدّل وهو اللطافة والليونة والسماح كما

الأرض الذلول هي التي ذلت بعد شماس واستسلمت بعد ارتكاس ، فهؤلاء الأكارم المحبوبون لله المحبون الله ، الأذلاء مع الله ذلاً وذلاً ، هم « أذلة على المؤمنين » بالله ذلاً وليونة « اعزة على الكافرين » بالله فما في ذلهم على المؤمنين من مذلة ولا مهانة ، إنما هي الأخوة الإيمانية التي ترفع الحواجز من ترفع وتكلف ، وتخلط النفس بالنفس فلا يبقى فيها ما يستعصي ويحتجز دون الآخرين .

إن حساسية الفرد وتفرغه بذاته وإنياته متحوصة متحيزة ، هي التي تجعله شمساً عصياً شحيحاً على أخيه لا ذل له معه ولا ظل منه عليه ، فأما حين يخلط نفسه بنفوس المؤمنين معه فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به ، فما ماذا يبقى له في نفسه دونهم وقد اجتمعوا في الله إخواناً متحابين ، ويحبهم ويحبونه ، ويشيع ذلك الحب العلوي السامق بينهم فيتقاسمون .

« أعزة على الكافرين » دون ذل معهم ولا ذل ، فهم عليهم في شماس وإباء ، عزة للعقيدة واستعلاء للرأية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين ، ثقة بما عندهم من خير الإيمان فلهم - إذا - تطويع الكافرين لخيرهم ، فهم الأعلون أمامهم مهما انهزموا في بعض المعارك .

٥ - « يجاهدون في سبيل الله » فحياتهم في كل حلقاتها جهاد في سبيل الله بالقال والمال والنفس والحال على أية حال ، فقد كرست حياتهم ذلك الجهاد ومهدت حياتهم ذلك المهاد ، فالوسط الذي يعيشونه ليس إلا سبيل الله ، لا سبيل الشهوات والرغبات ولا أية طلبات إلا مرضات الله .

٦ - « لا يخافون لومة لائم » ولا قومة قائم ضدهم ، ولا أية دوائر تربص بهم ، إنما يخافون الله ليس إلا إياه ، وفيما الخوف من لوم الناس ولؤم الناس وهم قد ضمنوا حب رب الناس وملك الناس وإله الناس ، فهم عائدون به من شر الوسواس الخناس الذين يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .

ولماذا الوقوف عند شهوات الناس ورغباتهم وهم أولاء الأكارم حياتهم مكرسة في سبيل الله ، فإنما يخاف لومة لائم من يستمد مقاييسه من أهواء الناس ويستمد حياته من حياة الناس .

وأما الراجع في مقاييسه إلى الله لتسيطر على هواءه وأهواء الناس ، ويستمد قوته وعزته من قوة الله وعزته ، فما يبالي - إذاً - بما يلوم الناس .

ذلك ، وهذا التعبير : « لا يخافون في الله لومة لائم » منقطع النظير في القرآن بحق المجاهدين في سبيل الله فلا تجده إلا هنا .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » فضل فضيل لهؤلاء القوم الذين سوف يأتي الله بهم ، ثم ورذل رذيل لمن يقابلهم في جهادهم وسيلهم إلى الله .

فمن هؤلاء القوم الخصوص الذين سوف يأتي الله بهم جبراً لكسر المؤمنين أمام المرتدين عن الدين ، وانجباراً لخاطر الرسول (ص) الخطير ؟ .

فهل إنهم شواذ من أشخاص خصوص كانوا مع الرسول وقد تربوا بتربيته الخاصة الخالصة الرأسة كالإمام علي (ع) ^(١) وأتباعه مثل سلمان

(١) تفسير البرهان ١ : ٤٧٩ في نهج البيان المروي عن الباقر والصادق عليهما السلام ان هذه الآية نزلت في علي (ع) .

ومن طريق اخواننا في كتاب العمدة لابن بطريق ص ١٥١ عن الثعلبي في تفسير الآية قال : علي بن أبي طالب (ع) ، وروى الحاكم في المستدرک ٣ : ١٣٢ بسند متصل عن عمرو بن ميمون قال : اني لجالس عند ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا يا ابن عباس إما أن تقوم معنا وإما أن تخلو بنا من بين هؤلاء قال فقال إبن عباس بل أنا اقوم معكم - الى أن قال - : فجاء ينفذ ثوبه ويقول : أف وقف في رجل له بضعة عشرة فضائل ليست لأحد غيره وقعوا في رجل قال له النبي (ص) =

سورة المائدة / آية ٥٤ ٩١

وأبي ذر والمقداد وأضرابهم ؟ و « سوف يأتي الله بقوم » ينافي أنهم حضور ، وأنهم ليسوا قوماً بل هم أشخاص ! .

إنهم أركان الدولة المهدوية العالمية بقيادة القائم بأمر الله عجل الله تعالى فرجه الشريف ، حيث الثلاثمائة والثلاثة عشر من أصحاب ألويته هم أخلص المخلصين من أصحاب النبيين ، كما وأن العشرة آلاف من جنوده البواسل هم المخلصاء المتبلورة على مدار الزمن الرسالي ، وقد يقودهم الرسول (ص) بعد صاحب الأمر وأئمة الهدى عليهم السلام بعده إلى يوم القيامة ، وهذا هو المعني من قولهم « دولتنا آخر الدول ولن يبق أهل بيت لهم دولة إلا ولُّوا قبلنا حتى لا يقول أحد إننا لو ولُّينا لعدلنا مثل هؤلاء » وهم المعنيون من « العاقبة للمتقين » و « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢١: ١٠٧) - « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » (٢٤: ٥٥) .

لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فاستشرف لها مستشرف فقال : أين علي فقالوا انه في الرحى يطحن قال : وما كان احدهم ليطحن ، قال : فجاء وهو أرمداً لا يكاد يبصر ، قال : فنفت في عينيه ثم هز الراية ثلاثاً فاعطاها إياه فجاء علي بصفية بنت حيي قال ابن عباس ثم بعث رسول الله (ص) فلاناً بسورة التوبة فبعث علياً خلفه فأخذها منه وقال : لا يذهب إلا رجل هو مني وأنا منه إلى آخر الحديث « أقول : وممن اخرج حديث الراية النيسابوري في تفسيره ٦: ١٤٣ بهامش الطبري وأبو حيان الأندلسي في تفسير المحيط ٣: ٥١١ والمتقي الهندي في كثر العمال ٥: ٤٢٨ .

أجل ، فلا تنطبق هذه المواصفات الست بـ « سوف يأتي الله بقوم » إلا على ذلك القوم القائمين في آخر الزمان بأمر الله بقيادة القائم المهدي من آل محمد عليهم السلام ، ومنهم المعصومون من هذه الرسالة قائدين ، والمخصوصون بكرامة الله مقودين .

ذلك ، وقد يروى عن الرسول (ص) في تفسير هذه المواصفات معنوياً مثل قوله « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه يقال فلا يقول فيه مخافة الناس فيقال إياي كنت أحق أن تخاف » (١) .

ومصادقياً مثل الإمام علي (ع) والقائم المهدي (ع) بأصحابه وزمرته الحاكمة في دولته (٢) .

(١) السدر المنتور ٢: ٢٩٣ وفيه عن أبي ذر قال أمرني رسول الله (ص) بسبع بحب المساكين وإن ادنوا منهم وإن لا أنظر إلي من هو فوقني وإن أصل رحمي وإن جفاني وإن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنز تحت العرش وإن أقول الحق وإن كان مرأ ولا أخاف في الله لومة لائم وإن لا أسأل الناس شيئاً وفيه عن عبادة بن الصامت قال بايعنا النبي (ص) على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى اثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم ، وفيه أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) ألا لا يمنع أحدكم رهبة الناس أن يقول الحق إذا رآه وتابعه فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم .

(٢) نور الثقلين ١: ٦٤١ في تفسير القمي في الآية قال : هو مخاطبة لأصحاب النبي (ص) الذين غصبوا آل محمد حقهم وارتدوا عن دين الله فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه « نزلت في القائم وأصحابه الذين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » وفي المجمع عن علي (ع) أنه قال يوم البصرة : والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم وتلا هذه الآية ، وروى أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره بالاسناد عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) =

ذلك ، ومن لطيف الوفق القاصد بين الجهاد والمسلمين بمختلف صيغهما أن كلا ذكر في الذكر الحكيم (٤١) مرة ، مما يلمح أن الإسلام لله هو الجهاد في الله ، وكما وصف المسلمون هنا - كأهم وصف - بـ « يجاهدون في سبيل الله » ! .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (٥٦) :

قال : يرد علي يوم القيامة رهط من اصحابي فيُجلّون عن الحوض فأقول يا رب اصحابي فيقال : انك لا علم لك بما احدثوا بعدك انهم ارتدوا على ادبارهم القهقري .

أقول : علّ « لا علم لك » سؤال تقرير انه كان يعلم ويقول هذا ليبرز الحق بلسان الحق .

وفي تفسير البرهان ١ : ٤٧٨ محمد بن إبراهيم النعماني بسند متصل عن سليمان بن هارون العجلي قال سمعت ابا عبد الله (ع) يقول : ان صاحب هذا الأمر محفوظ له لو ذهب الناس جميعاً اتى الله بأصحابه وهم الذين قال الله عز وجل : « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » وهم الذين قال الله : « فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين . . » .

وفيه عن تفسير العياشي عن سليمان بن هارون قال قلت له ان بعض هؤلاء العجلة يزعمون ان سيف رسول الله (ص) عند عبد الله بن الحسن فقال والله ما رأى هؤلاء ولا أبوه بواحدة عن عينيه إلا أن يكون أراه أبوه عند الحسين (ع) وان صاحب هذا الأمر محفوظ له فلا تذهبن يميناً ولا شمالاً فان الأمر واضح والله ولو ان اهل السماء والأرض اجتمعوا على ان يحولوا هذا عن موضعه الذي وضعه الله فيه ، ما استطاعوا ولو ان الناس كفروا جميعاً حتى لا يبقى أحد لجاء الله لهذا الأمر بأهل يكونون من أهله ثم قال : أما تسمع الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه . . » وقال في آية أخرى : فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » ثم قال : ان هذه الجماعة هم أهل هذه الآية .

هذه الآية هي من عداد الآيات البينات التي يُستدل بها على الولاية الرسالية للإمام علي أمير المؤمنين (ع) بعد الرسول (ص) فإن خلافته المعصومة وولايته إستمرارية للرسالة القدسية المحمدية (ص).

ونحن في هذا الفرقان لسنا لنفسر الآيات بالصبغة المذهبية الخاصة تحمياً على القرآن ما لا يتحملة ، إنما نستنبط من القرآن بصورة مجردة ما يعنيه ، وافق مذهبنا أم خالفه في أي حقل من حقول المعرفة القرآنية .

هنا « إنما » تحصر الولاية المعنية من « وليكم » والمخاطبون هم كل المرسل إليهم في هذه الرسالة السامية ، فولاية الله معلومة أنها طليق الولاية تكوينية وتشريعية وشرعية أماهيم ، وولاية الرسول هي الولاية التطبيقية الشرعية حسب ما تحدده آيات ولايته (ص) كـ « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .. » (٦:٣٣) و « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم » (٥٩:٤) وما أشبه ، فليست له ولاية تكوينية ولا تشريعية لاختصاصهما بساحة الربوبية القدسية.

وأما « الذين آمنوا » فتراهم كل المؤمنين المأمورين - فيمن أمروا - بهذه الولاية ؟ وكيف يوالي المؤمن نفسه إلا حباً لنفسه هو طبيعة الحال لحد محبور ، ولا يحتاج إلى امر وتحريض ، بل الأوامر تترى على حدّ يحدد تلك المحبة بما ليس من المحذور ، إضافة إلى أن مواصفة أهل الولاية هنا بـ « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راعون » لا تختص هذه الولاية المنحصرة بهؤلاء الموصوفين ، فالمؤمن الأعرف الأتقى ممن يؤتي الزكاة راعياً إن لم تتفق له هذه الزكاة فزكى ساجداً أم قائماً أم في غير صلاة ، هو خارج عن هذه الولاية المنحصرة التي تضاهي ولاية الرسول (ص) أو تساويها ! .

من هنا نتبين صراحاً أن ليست لهذه المواصفات موضوعية تأهل منحصرة لهذه الولاية ، فلتكن من العناوين المشيرة إلى شخص خاص أو أشخاص

سورة المائدة / آية ٥٥ - ٥٦ ٤٥

خصوص هم من أهل هذه الولاية الخاصة لا - فقط - لصلاتهم وزكاتهم حالة الركوع ، بل لصلاحية أخرى كصلاح الرسول (ص) لم يكشف عنها النقاب هنا صراحاً ، وقد نعرف أنها صلاحية تتلو الرسالة لحد يتحمل صاحبها ولاية الرسالة .

إن الولاية العامة بين المؤمنين بالنسبة لبعضهم البعض تحملها أمثال : « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٧١:٨) وهي ولاية المحبة والمناصرة ، ومن قضاياهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والولاية الشرعية بينها - وهي لمدرء الشريعة - ليست ولاية مطلقة .

أما الولاية الخاصة وهي الشرعية المطلقة فهي محصورة في الرسول (ص) بعد الله ، ثم الذين يحملون رسالة العصمة بعد رسول الله (ص) وهم الخلفاء المعصومون عليهم السلام .

فلننظر في ذلك العنوان المشير في آيتنا أنه إلى من يشير ، بعدما نعرف أن المشار إليه هو من المخصوصين بولاية العصمة ، غير المنطبقة على أحد من الأمة الإسلامية بعد الرسول (ص) إلا المتفق بينهم على أنه لم يخطأ ولن .

إنه حسب متواتر الحديث عن الرسول (ص) وأئمة أهل بيته عليهم السلام هو الإمام علي عليه السلام والأئمة من ولده المعصومين عليهم السلام في التأويل (١).

(١) نور الثقلين ١: ٦٤٣ في أصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) في هذه الآية قال : إنما يعني أولى بكم وأحق بكم وبأموركم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا يعني علياً وأولاده الأئمة عليهم السلام إلى يوم القيامة ثم وصفهم الله عز وجل فقال : الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون وكان =

وهو شخصه في التنزيل (٢) .

أمير المؤمنين في صلاة الظهر وقد صلى ركعتين وهو راکع وعليه حلة قيمتها الف دينار وكان النبي (ص) اعطاه إياها وكان النجاشي اهداها له في رسائل فقال : السلام عليك يا ولي الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم تصدق على مسكين فطرح الحلة اليه وآوى بيده أن يحملها فأنزل الله عز وجل في هذه الآية وصيره نعمة أولاده بنعمته وكل من بلغ من أولاده مبلغ الامامة يكون بهذه النعمة مثله فيتصدقون وهم راکعون والوسائل الذي سأل أمير المؤمنين (ع) من الملائكة والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون من الملائكة .

وفيه ٦٤٦ عن زرارة عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية يعني الأئمة منا ، اقول : وقد تواترت الرواية عنهم عليهم السلام أن المعني من « الذين آمنوا » هم الأئمة عليهم السلام كلهم .

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٩٣ - اخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال : تصدق علي (ع) بخاتمه وهو راکع فقال النبي (ص) للوسائل من أعطاك هذا الخاتم ؟ قال : ذاك الراکع فأنزل الله « إنما وليكم الله » . . . واخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في علي بن أبي طالب (ع) ، واخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال وقف بعلي سائل وهو راکع في صلاة تطوع فنزع خاتمه فأعطاه الوسائل فأتى رسول الله (ص) فأعلمه ذلك فنزلت على النبي (ص) هذه الآية فقرأها رسول الله (ص) على أصحابه ثم قال : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » واخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن علي بن أبي طالب (ع) وفيه مثله عن سلمة بن كهيل ومجاهد ، وفيه أخرجه ابن مردويه عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال أتى عبد الله بن سلام ورهط معه من أهل الكتاب نبي الله (ص) عند الظهر فقالوا يا رسول الله (ص) ان بيوتنا قاصية لا نجد من يجالسنا ويخالطنا دون هذا المسجد وان قومنا لما رأونا قد صدقنا الله ورسوله وتركنا دينهم أظهروا العداوة وأقسموا أن لا يخالطونا ولا يؤاكلونا فشق ذلك علينا فبينما هم يشكون ذلك الى رسول الله (ص) إذ نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) =

« انما وليكم الله . . » ونودي بالصلاة صلاة الظهر وخرج رسول الله (ص) فقال : أعطاك أحد شيئاً ؟ قال : نعم ، قال : مَنْ ؟ قال : ذاك الرجل القائم ، قال : على أي حال أعطاكه ؟ قال : وهو راكم ، قال : وذاك علي بن أبي طالب فكبر رسول الله (ص) عند ذلك وهو يقول : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون » وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه وابو نعيم عن أبي رافع قال : دخلت على رسول الله (ص) وهو نائم يوحى إليه فإذا حية في جانب البيت فكرهت أن أبيت عليها فأوقف النبي (ص) ونخفت أن يكون يوحى إليه فاضطجعت بين الحية وبين النبي (ص) لئن كان منها سوء كان في دونه فمكث ساعة فاستيقظ النبي (ص) وهو يقول : « انما وليكم الله . . » الحمد لله الذي أتم لعلي نعمه وهياً لعلي بفضل الله إياه .

ذلك وقد اخرج المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في ملحقات إحقاق الحق ج ٢ : ٣٩٩ : ٤٠٨ نزول هذه الآية في الإمام علي (ع) عن واحد وثلاثين مصدراً قائلًا ان هذه ما حضرتنا من المصادر وهنالك شيء كثير مما ليس عندنا ، والمصادر المذكورة كالتالية :

رواه جامع الأصول ٩ : ٤٧٨ عن الجامع بين الصحاح الست للشيخ أبي الحسن رزين بن معاوية بن عمار العيدري الأندلسي السرقسطي ، ومحب الدين الطبري في ذخائر العقبى ٨٨ والآلوسي في روح المعاني ٦ : ١٤٩ قائلًا : وغالب الأخباريين على أنها نزلت في علي كرم الله وجهه ، والشوكاني في فتح القدير ٣ : ٥٠ وابن حبان في البحر المحيط ٣ : ٥١٣ والواحدي النيسابوري في أسباب النزول ١٤٨ والسيوطي في لباب النقول ٩٠ وابن الجوزي في التذكرة ١٨ والعليني مسنداً إلى أبي ذر الغفاري خرج رسول الله (ص) وعلي قائم يصلي ومعه خاتم ، وفي المسجد سائل فقال رسول الله (ص) هل أعطاك أحد شيئاً ؟ فقال : نعم ذلك المصلي هذا الخاتم وهو راكم فكبر رسول الله (ص) ونزل جبرائيل (ع) يتلو هذه الآية فقال حسان بن ثابت :

من ذا بخاتمته تصدق راكمها واسرها في نفسه اسراراً
من كان بات على فراش محمد ومحمد أسرى يوم السفارا =

فليست هذه الولاية - المختصة بعد الرسول (ص) بالذين آمنوا هنا - تشمل كل المؤمنين ، ولا كل هؤلاء الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكمون ، فقد يروى أن عمر بن الخطاب قال : والله لقد تصدقت بأربعين خاتماً وأنا راكم لينزل فيّ ما نزل في علي بن أبي طالب فما نزل « (١) » .

من كان في القرآن سمي مؤمناً في تسع آيات تسليس غزاراً والشبلنجي في نور الأبصار ١٠٥ وفي كتاب المباهلة نقلاً عن كتاب كفاية الطالب للكنجي الشافعي ١٠٦ و ١٢٢ نزول الآية في علي (ع) ومن قوله فيه : هكذا ذكره حافظ العراقي في مناقبه وتابعه الخوارزمي ورواه الحافظ محدث الشام بطريقين والبيضاوي في انوار التنزيل ١٢٠ والطبري في التفسير ٦: ١٦٥ والخطيب البغدادي في تفسيره ١: ٤٧٥ والنسفي المطبوع بهامش تفسير الخازن ١: ٤٨٤ والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة ١: ١١٤ والزمخشري في الكشاف ١: ٣٤٧ قائلاً: فان قلت كيف صح ان يكون لعلي رضي الله عنه واللفظ لفظ جماعة ؟ قلت: جيء به على لفظ الجمع وان كان السبب فيه رجلاً واحداً ليرغب الناس في مثل فعله فينا لو امثل ثوابه ولينبه ان سجية المؤمنين يجب ان تكون على مثل هذه الغاية من الحرص على البر والإحسان وتفقد الفقراء حتى إن لزمهم امر لا يقبل التأخير وهم في الصلاة لم يؤخروه الى الفراغ منها ، وابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف ٥٦ وفخر الدين الرازي في تفسيره ١٢: ٢٦ ومنهم السيد رشيد رضا في المنار ٦: ٤٤٢ ونظام الدين النيسابوري الأعرج في تفسيره بهامش تفسير الطبري ٦: ١٤٥ واسماعيل بن كثير في تفسيره الشهير ٢: ٧١ وابن بطريق في العمدة ٥٩ وأبو بكر الرازي في احكام القرآن ٣: ٥٤٣ والقرطبي في الجامع لاحكام القرآن ٦: ٢٢١ والشيخ اسعد بن ابراهيم بن الحسيني الأربلي في الأربعين حديثاً والترمذي في مناقب المرتضوي .

اقول : هذا طرف من أقوال اخواننا من محدثين ومفسرين وسائر المؤلفين ، واما من طرق اصحابنا فكثير كثير نشير الى طرف منها يسير في طيات البحث عن الآية .

(١) نور الثقلين ١: ٦٤٧ في امالي الصدوق عن ابي جعفر عليهما السلام في سرد =

ذلك ! ولا تقبل هذه الولاية الخاصة من معاني الولاية العامة إلا الأولى ، حيث المحبة والمناصرة هما ولاية عامة بين المؤمنين ككل .

ولماذا هنا « الذين آمنوا » بصيغة عامة والقصد إلى شخص خاص أم أشخاص خصوص ؟ حيث القصد جمع خاص هم في القمة العليا من الإيمان وهم ولاة الأمر المعصومون الإثنى عشر بعد النبي (ص) ، ولأن الحاضر منهم لم يكن إلا علي (ع) معداً للولاية بعده (ص) لذلك أشير إليه بذلك العنوان المشير : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكمون » ولكي يعرف منهم أولهم بذلك النص الجلي والحث العلي ، كما وأن إيتاء الزكاة حال الركوع دليل باهر لا جَوَل عنه على مدى سماحته وحنانه للفقراء لحد لا ينسأهم في معراج ربه ، نفسية عليّة عظيمة تجمع بين كامل الإتجاه إلى الله وكافل الرعاية لعباد الله ، وهي مقام جمع الجمع الخاص بالخصوص من عباد الله ، حيث يجمع في جُفنه كافة المعصومين الرساليين .

ذلك ، وكما أنه ترغيب لرعاية السائلين وإجابتهم في كافة الأحوال حتى الصلاة التي لا مدخل فيها لغير الله .

فالداخلون في هذه الولاية المثلثة - الموحدة في أصلها ، المتعددة في فصلها - أولئك هم حزب الله الغالبون « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » فلأن « وهم راكمون » كعنوان مشير دلت على المعنيين من هذه الولاية الخاصة ، فلا تتكرر هنا ، إكتفاء به الذين آمنوا »

القصة الى أن قال : فكبر النبي (ص) وكبر أهل المسجد فقال النبي (ص) علي بن أبي طالب (ع) وليكم بعدي ، قالوا : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً وبعلي بن أبي طالب (ع) ولينا فأنزل الله عز وجل : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » فروي عن عمر بن الخطاب : ..

تدليلاً على أن حَمَلَة هذه الولاية بعد الرسول (ص) هم جمع أشير إلى أولهم ولَمَّا يأت الآخرون .

فالقول إن وقوع الآية بعد آية النهي عن ولاية اليهود والنصارى قد تحول تلك الولاية إلى عامتها بين عامة المؤمنين ، معاكسة للولاية المحظورة بالولاية المجبورة ، إنه مردودٌ أولاً بأن السياق - إن كان - ليس ليعارض النص المقيّد للولاية هنا بغير النصرة والمحبة ، وأن وقوع هذه بعد تلك في ترتيب التأليف لا يدل على أنها واقعة بعدها - كذلك - في ترتيب التنزيل .

ذلك ، والولاية المنهي عنها في السابقة تعم سائر الولاية إلى ولاية السلطة ، بل هي المقصودة العليا من سلبية الولاية ، فإن ولاية الحب هنا منفية بقضية الإيمان ، وولاية النصرة هي عوان بينهما .

هذا ، وحتى إن كانت هذه الآية نازلة بعد الناهية عن ولاية الكفار ، فقد أريد بهذه الولاية خصوص السلطة والأولوية الحفيظة على كيان المؤمنين كيلا يتفلتوا إلى الكفار في أية ولاية ، حيث السلطة المعصومة المستمرة منذ الرسول (ص) إلى ما بعد إرتحاله هي العاصمة عن أمثال هذه الفلتات المدمرة المزمجرة الهدامة لصرح الإيمان فردياً وجماعياً .

فالمؤمنون - طول التاريخ - هم بحاجة إلى تحزب صامد دفعاً عن كل سلطة كافرة عليهم و « من يتول الله ورسوله والذين آمنوا » هكذا « فإن حزب الله هم الغالبون » على سائر الأحزاب التي ليست فيها ولاية الله الموحدة المثلثة ، وذكر « وليكم » هناك « ومن يتول » هنا مرة واحدة ، دليل وحدة هذه الولاية المثلثة الزوايا .

ذلك ، وكما القول إن لفظ الجمع لا يناسب عناية الفرد منه وهنا « الذين آمنوا ... » فكيف تعني شخصاً واحداً علياً (ع) أم سواه ، وقد

قدمنا وجهاً له وكما نجد جموعاً في القرآن عني منها الفرد بحسب المصداق كآية المباهلة في « أنفسنا وأنفسكم ونساءنا ونساءكم » و « تسرون إليهم بالمودة » (٦٠: ١) والقصد إلى حاضر مصداقها وهو حاطب بن أبي بلتعة في مكاتبة قريشاً ، و « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » (٦٣: ٨) والقائل هو عبد الله بن أبي سلول ، و « يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » كما مضت قريباً والقصد - حسب ما في أسباب النزول - هو القائل نفسه .

ذلك ، ومن السر في جمعية التعبير هنا وهناك أن القصد في الكل هو إعطاء حكم كلي مهما كان حاضر المصداق واحداً ، وحيث المعني من هذه الولاية الخاصة هم جمع المعصومين عليهم السلام ، فقد كان من المفروض عنايتهم بصيغة الجمع ، مهما كان العنوان المشير له مصداقاً واحداً اتفق النقل عليه أنه هو علي أمير المؤمنين (ع) .

ولو كان التعبير بصيغة الجمع في أمثال هذه الموارد خلاف اللغة أو الفصاحة - وليس - فكيف اتفق أهل النقل على نقله دون أي نقد من القدامى ، اللهم إلا شذاذ من المتأخرين والمتحذلقين المتذوقين بذوقية المذهبية والعصية العمياء !

وهكذا قيلت لهم إن الصدقة بالخاتم لا تسمى زكاة ؟ والزكاة في مصطلح القرآن هي كل ما يُنفق في سبيل الله حالاً ومالاً ، فرضاً أو ندباً وأفضلها ندبها في أهم حالات الصلاة .

فالزكاة بصورة طليقة هي ما تزكي الحال والمال ، تزكي الفرد والمنجتمع ، تزكي القلب والقالب ، وقد جمعها كلها هذه الزكاة المؤتاة في ركوع الصلاة كما وكيفاً وحالة وهالة قدسية .

ذلك كله في نصوح البيان ونصوعه العيان ، ولكي لا يخفى على

الخفافيش والمؤولين تلك الولاية الخاصة، يؤمر الرسول (ص) بتبليغها يوم الغدير وقد بلغ بصراح القول: «ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى قال فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله...»^(١) وقد مضى شطر من البحث عنها على

(١) نور الثقلين ١: ٦٤٢ في كتاب كمال الدين وتعام النعمة باسناده إلى سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين (ع) انه قال في اثناء كلام له في جمع من المهاجرين والأنصار في المسجد أيام خلافة عثمان : فأتشدكم الله عز وجل اتعلمون حيث نزلت «يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» وحيث نزلت «ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة» قال الناس يا رسول الله (ص) هذه خاصة في بعض المؤمنين ام عامة لجميعهم ؟ فأمر الله عز وجل نبيه (ص) ان يعلمهم ولأمرهم وان يفسر لهم من الولاية ما فسر لهم من صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم فنصبي للناس بغدير خم ثم خطب فقال : ايها الناس ان الله ارسلني برسالة خفاق بها صدري وظننت ان الناس يفتنون بها فأوعدني لأبلغنّها أو ليعذبني ثم أمر فتودي الصلاة جامعة ثم خطب الناس فقال : ايها الناس اتعلمون ان الله عز وجل مولاي ومولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : قم يا علي فقمّت فقال : من كنت مولاه فعلي مولاه ... فقام سلمان فقال : يا رسول الله (ص) ولأه كماذا ؟ فقال (ص) : ولأه كولائي من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه فأنزل الله تبارك وتعالى : اليوم اكملت لكم .. وكبر رسول الله (ص) وقال : الله اكبر تمام نبوتي وتمام ديني دين الله عز وجل وولاية علي بعدي فقام أبو بكر وعمر فقالا يا رسول الله (ص) هذه الآيات خاصة في علي (ع) فقال : بلى خاصة فيه وفي اوصيائي الى يوم القيامة قالوا يا رسول الله بينهم لنا ، قال (ص) : علي اخي ووزير ووارثي ووصي وخليفتي في امتي وولي كل مؤمن بعدي ثم ابني الحسن ثم ابني الحسين ثم تسعة من ولد الحسين واحد بعد واحد القرآن معهم وهم مع القرآن لا يفارقونه ولا يفارقهم حتى يردوا على حوضي ، قالوا : اللهم نعم قد سمعنا ذلك وشهدنا كما قلت سواء وقال بعضهم : قد حفظنا جل ما قلت ولم ..

ضوء آية تكميل الدين وإتمام النعمة ويأتي شطر آخر على ضوء آية التبليغ .

وفي رجعة أخرى إلى الآية فقد نجد « وليكم » دون « أولياءكم » تعني ولاية واحدة ثم « الله » ومعه « رسوله والذين آمنوا » هم حملة هذه الولاية الواحدة المنحصرة فيهم به « إنما » وحيث لا يصح الحصر لولاية المحبة والنصرة فيهم ، فإنما هي ولاية الأولوية بالأنفس والأموال ، فقد نتبين أنها مهيمة مهمما كانت ولاية الله هي الأولى الأصيلة المفضية إلى الآخرين ، والمزيدة على ولايتهم في التكوين والتشريع وسائر الولايات الربانية .

فلو كانت الولاية المشتركة هنا مختلفة المعنى في المشتركين لكان المفروض إما « أولياءكم » أن تفرد الولاية لله ثم للآخرين تأميناً عن اللبس في معناها والمقام مقام الحصر .

فما أفصحه تعبيراً وأبلغه تفسيراً أفراد الولاية بالذكر ثم عطف الرسول والذين آمنوا به دون فصل ، وليست عناية غير ولاية الله للآخرين إلا ثلماً في صرح الفصاحة وفتاً في عضد البلاغة .

نحفظه كله وهؤلاء الذين حفظوا أخبارنا وأفاضلنا فقال علي (ع) صدقتم ليس كل الناس يتساوون في الحفظ .

وفيه في أصول الكافي بسند متصل عن أحمد بن عيسى قال حدثني جعفر بن محمد عن جده عليهم السلام في قوله عز وجل « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » قال (ع) : لما نزلت « إنما وليكم الله ورسوله . . » اجتمع نفر من أصحاب رسول الله (ص) في مسجد المدينة فقال بعضهم لبعض : ما تقولون في هذه الآية ؟ فقال بعضهم : ان كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرنا وان آمننا فان هذا ذل حين يسلط علينا ابن أبي طالب فقالوا : قد علمنا ان محمداً (ص) صادق فيما يقول ولكننا نتولاه ولا نطيع علياً فيما امرنا ، قال : فتزلت هذه الآية « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » يعرفون ولاية علي (ع) وأكثرهم الكافرون بالولاية .

ومن الإحتضار بعد الإيأس عن تلك الاحتمالات المختلفة المتخلفة عن شؤون الفصاحة والبلاغة القول إن « وهم راكعون » لا يعني غاية الخضوع والتسليم لله ، حيث الركوع في مصطلح القرآن والسنة هو الهيئة الخاصة لركن خاص من الصلاة ، ولا يعبر عن غاية الخضوع والتسليم إلا بها أم بالسجود حيث هو في وجه عام غاية الخضوع .

ثم « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا » هنا هم « الذين آمنوا » كما هناك ، فهم المعهودون في آية الولاية ، « فإن حزب الله » وهم المتولون الله والآخرين « هم الغالبون » على كافة الأحزاب المتخلفة عن هذه الولاية الخاصة المنحصرة المفروضة على حزب الله .

ذلك ، فكل خبر أو نظر يخالف المعنى الظاهر من هذه الآية معروض عرض الحائط (١) .

(١) في الاحتجاج للطبرسي في رسالته أبي الحسن الثالث علي بن محمد الهادي عليهما السلام الى اهل الأهواز حين سألوه عن الجبر والتفويض قال : اجتمعت الأمة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك ان القرآن حق لا ريب فيه عند جميع فرقها فهم في حالة الاجتماع عليه مصيبون وعلى تصديق ما انزل الله مهتدون لقول النبي (ص) لا تجتمع امتي على ضلالة فأخبر ان ما اجتمعت عليه الأمة ولم يخالف بعضها بعضاً هو الحق ، فهذا معنى الحديث لا ما تأوله الجاهلون ولا ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب واتباع احكام الأحاديث المزورة والروايات المزخرفة واتباع الأهواء المرددة المهلكة التي تخالف نص الكتاب وتحقيق الآيات الواضحات النيرات ونحن نسأل الله أن يوفقنا للصلاة ويهدينا إلى الرشاد ، ثم قال : فاذا شهد الكتاب بصدق خبر وتحقيقه فأنكرته طائفة من الأمة عارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة فصارت بانكارها ودفعها الكتاب ضلالاً ، وأصح خبر مما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله (ص) قل : اني مخلف فيكم خليفتين كتاب الله وعترتي ما إن تمسكن بهما لن تضلوا بعدي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، واللفظة الأخرى =

عنه في هذا المعنى بعينه قوله (ص): اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي اهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ما إن تمسكتم بهما لن تفلتا » وجدنا شواهد هذا الحديث نصاً في كتاب الله مثل قوله : « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » ثم اتفقت روايات العلماء في ذلك لأمر المؤمنين (ع) انه تصدق بخاتمه وهو راكم فشكر الله ذلك له وانزل الآية فيه ثم وجدنا رسول الله (ص) قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظة « من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » وقوله (ص): علي يقضي ديني وينجز مواعيدي وهو خليفتي عليكم بعدي » وقوله (ص): حين استخلفه على المدينة فقال يا رسول الله (ص) أتخلفني على النساء والصبيان ؟ فقال (ص): أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ؟ فعلمنا ان الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار وتحقيق هذه الشواهد فيلزم الأمة الإقرار بها إذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن فلما وجدنا ذلك موافقاً لكتاب الله ووجدنا كتاب الله موافقاً لهذه الأخبار وعليها دليلاً ، كان الاقتداء فرضاً لا يتعداه إلا أهل العناد والفساد » وفيه عن علي أمير المؤمنين (ع) قال المنافقون لرسول الله (ص) هل بقي لربك علينا بعد الذي فرض علينا شيء آخر يفترضه فنذكر فتسكن انفسنا إلى انه لم يبق غيره ؟ فأنزل الله في ذلك « قل انما اعظكم بواحدة » يعني الولاية فأنزل الله « انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ... » وليس بين الأمة خلاف انه لم يؤت الزكاة يومئذ وهو راكم غير رجل واحد ... »

وعن تفسير الثعلبي بسند متصل عن عباة بن الربيع قال حدثنا عبد الله بن عباس وهو جالس بشفير زمزم يقول : قال رسول الله (ص): إذ أقبل رجل معتم بعمامة فجعل ابن عباس لا يقول : قال رسول الله (ص) إلا وقال الرجل : قال رسول الله (ص) فقال له ابن عباس سألتك بالله من أنت ؟ قال : فكشف العمامة عن وجهه وقال : ايها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البصري أبو ذر الغفاري سمعت رسول الله (ص) بهاتين ولأ صميتاً ورأيت بهاتين ولأ فعميتا يقول : علي قائد البرة وقاتل الكفرة منصور من نصره مخذول من خذله فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء وقال : اللهم =

فقيلة البعض من المتعصبين^(١) إن نزول الآية في علي مختلق لإجماع العلماء على أنه من الموضوعات ، إنها قيلة عليّة خائفة مختلفة من مختلق ، فالعين العوراء لا ترى إلاّ عوجاً والرجل العوجاء لا تعرج معراجاً .

اشهداني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً وكان علي راکعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتى اخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين النبي (ص) فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري . واشركه في أمري ، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا ، اللهم وانا محمد نبيك وصفيك اللهم واشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري ، قال أبو ذر : فما استتم رسول الله (ص) الكلمة حتى نزل عليه جبرائيل الظهر فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده إلى السماء وقال : اللهم اشهداني سألت في مسجد رسول الله فلم يعطني أحد شيئاً وكان علي راکعاً فأومأ إليه بخنصره اليمنى وكان يتختم فيها فأقبل السائل حتى اخذ الخاتم من خنصره وذلك بعين النبي (ص) فلما فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون أخي . اشدد به أزري . واشركه في أمري ، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا ، اللهم وانا محمد نبيك وصفيك اللهم واشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً اشدد به ظهري ، قال أبو ذر : فما استتم رسول الله (ص) الكلمة حتى نزل عليه جبرائيل من عند الله تعالى فقال : يا محمد اقرأ ، قال : وما اقرأ ؟ قال : اقرأ : « انما وليكم الله . . . » .

(١) هو المسمى بشيخ الاسلام ابن تيمية .

كقيلة الآخر بعد تصديق متواتر الحديث على نزولها في علي (ع) حيث يترجرج ويتممجمع في لجج غامرة من حجاجه الثمان اللجاج ولم يفضح بعد إلا نفسه ، ولا يرجي من إمام المشككين إلا هذا (١) وهؤلاء هم المضطربون كالأرشية في الطوى البعيدة ، بعيدة عن الصراط المستقيم والحجج البالغة فأولئك هم من حزب الشيطان « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

ولا بد أن يرأس حزب الله أعرفهم بالله وأعبدهم لله ، وهو الرسول (ص) في زمنه ومن « الذين آمنوا . . . » الخصوص هنا بعده (ص) ولي بعد ولي يلي أمور حزب الله في مجمع القيادتين الروحية والزمنية ، وكما يروى عن أمير المؤمنين (ع) : « والذين آمنوا » في هذا الموضع هم المؤمنون على الخلائق من الحجج والأوصياء في عصر بعد عصر » (٢) .

(١) هو الفخر الرازي في تفسيره ١٢: ٢٦: ٣١ فإنه بعد سرد الحجج على نزول الآية في علي (ع) يذكر حججاً ثمان على عدم دلالة الآية على امامة علي (ع) بعد النبي ومنها الحجة السادسة : هب انها دالة على امامة علي لكننا توافقنا على انها عند نزولها ما دلت على حصول الامامة في الحال لأن علياً ما كان نافذ التصرف في الأمة حال حياة الرسول (ص) فلم يبق إلا أن تحمل الآية على أنها تدل على أن علياً سيصير اماماً بعد ذلك ومتى قالوا ذلك فنحن نقول بموجبه ونحمله على امامته بعد أبي بكر وعمر وعثمان إذ ليس في الآية ما يدل على تعيين الوقت « أقول : هذه الولاية على اية حال ولاية منحصرة فيمن نزلت الآية بحقه أيما كان وقت حصولها ، فكيف شاركه فيها متقدماً عليه هؤلاء الثلاثة ، فهل ان الله نسبهم فاختص الولاية بشخص واحد ام هو نسوا ربهم فنسبوه الى الجهل والسيان ١٩ .

(٢) نور الثقلين ١: ٦٤٨ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل وفيه : والهداية هي الولاية كما قال الله عز وجل « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » وفيه في كتاب التوحيد بإسناده الى عمار .

وهكذا يعد الله حزب الله ، الموالين له وللمرسول ولهؤلاء المؤمنين الخصوص ، البالغين أعلى قمم الإيمان بعد الرسول ، يعد من يتولاهم الإنطلاق من كافة العوائق والبوائق الساحقة الماحقة ، مضمونة لهم الغلبة مهما غلبوا ظاهرياً حيث الحرب سجل .

أجل وقد « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز . لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » (٢٢: ٥٨).

ولمكان المشابهة بين حزب الله هنا في « رضي الله عنهم ورضوا عنه » وبين « قوم يحبهم ويحبونه » هناك ، فكما أن أصحاب ألوية المهدي وجنوده هم من حزب الله حيث هم تحت راية ولي الله صاحب العصر وحجة الدهر عجل الله تعالى فرجه الشريف ، كذلك أصحاب الامام علي (ع) العائشين تحت رايته في ولايته، وكما نزلت « يحبهم ويحبونه » في شأنهما .

ابي اليقظان عن ابي عبد الله (ع) قال : يجيء رسول الله (ص) يوم القيامة آخذاً بحجرة ربه ونحن آخذون بحجرة نبينا وشيعتنا آخذون بحجرتنا فنحن وشيعتنا حزب الله وحزب الله هم الغالبون والله ما يزعم أنها حجرة الإزار ولكنها اعظم من ذلك يجيء رسول الله (ص) آخذاً بدين الله ونجىء نحن آخذين بدين نبينا وتجيء شيعتنا آخذين بديننا .

وفيه في تفسير العياشي عن صفوان قال : قال ابو عبد الله (ع) لقد حضر الغدير اثني عشر الف رجل يشهدون لعلي بن ابي طالب فما قدر على اخذ حقه وان احدكم يكون له المال وله شاهدان فيأخذ حقه فإن حزب الله هم الغالبون في علي (ع).

مسؤوليات الأئمة الولاية :

الأئمة الولاية المعصومون يحملون مسؤوليات الرسول (ص) طبقاً عن طبق دونما حَوَل عنها ولا تحويل أو تبديل ، فإنما هم الرواة المؤتمنون عن الرسول (ص) فـ « اعلّموا أنكم إن اتبعتم الداعي لكم سلك بكم منهاج الرسول ، وكفّيتهم مؤونة الإعتساف ، وببذتم الثقل الفادح عن الأعناق » ^(١) ، « ... فلما أفضت إليّ - الخلافة - نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استنّ النبي (ص) فاقتديته ... » (٣٩٧/٢٠٣) .

« إنه ليس على الإمام إلا ما حمّل من أمر ربه : الإبلاغ في الموعظة ، والاجتهاد في النصيحة ، والإحياء للسنّة ، وإقامة الحدود على مستحقّيها ، وإصدار السُّهمان على أهلها » (٢٠١/١٠٣) - « ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله (ص) والقيام بحقه ، والنّعش لسنّته » (٣٠٤/١٦٧) .

ذلك ، وأولئك هم الذين « هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، وباشروا روح اليقين واستلّانوا ما استوعره المترّفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون ، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه » (١٤٧ ح/ ٥٩٥) .

مواصفاتهم :

« هم موضع سره ، ولجأ أمره ، وعيبة علمه ، وموئل حكمه ، وكهوف كتبه ، وجبال دينه ، بهم أقام إنحناء ظهره ، وأذهب إرتعاس فرائضه » (٣٧/٣) .

(١) نهج البلاغة الخطبة ٣٠١/١٦٤ .

و « لا يقاس بآل محمد (ص) من هذه الأمة أحد ، ولا يسوَّى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، هم أساس الدين وعماد اليقين ، إليهم بقي الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية ، وفيهم الوصية والوراثة ، الآن إذ رجع الحق إلى الله ، ونُقل إلى متَّقله » (٣٨/٢) .

« اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا . . بنا يُستعطن الهدى ، ويُستجلى العمى » (٢٥٥/١٤٢) .

فه نحن الشعار والأصحاب ، والخزنة والأبواب ، ولا تؤتى البيوت إلا من أبوابها ، فمن أتاها من غير أبوابها سُمي سارقاً ، فيهم كرائم القرآن ، وهم كنوز الرحمان ، إن نطقوا صدقوا ، وإن صمتوا لم يُسَبِّقوا » (٢٧٠/١٥٢) .

و « هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وحكمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وهم دعائم الإسلام ، وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق إلى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منيته ، عقلوا الدين عقل ورعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ، ورُعاته قليل » (٤٣٩/٢٣٧) - و « إن الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه ، وحججاً على عباده ، وجعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا ، لا نفارقه ولا يفارقنا » (مستدرک ١٨٣) .

« ألا إن مثل آل محمد (ص) كمثل نجوم السماء ، إذا خوى نجم طلع نجم ، فكأنكم قد تكاملت من الله فيكم الصنائع ، وأراكم ما تأملون » (١٩٤/٩٨) .

ثم « إن الأئمة من قریش ، غرسوا في هذا البطن من هاشم ، لا تصلح على سواهم ، ولا تصلح الولاية من غيرهم » (٢٥٥/١٤٢) .

سورة المائدة / آية ٥٧ ٦٦

فهم عترة الرسول (ص) من أفضل قريش فـد عترته خير العتـر ، وأسـرته
خير الأسـر ، وشجـرته خير الشجر ، نبتت في حـرم ، وبسقت في كـرم ، لها
فروع طوال ، وثمر لا يُنال ، (١٨٦/٩٢) .

فـد أنظروا أهل بيت نبيكم ، فالزـموا سـمتهم ، وأتبعوا أثرهم ، فلن
يخرجوكم من هـدى ، ولن يعيدوكم في ردئ ، فإن لبـدوا فالبدوا ، وإن
نهضوا فانهضوا ، ولا تسبقوهم فـتضلوا ، ولا تتأخروا عنهم
فتهلكوا ، (١٩٠/٩٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ
السُّلَاطِينِ أُولَئِكَ الْكِتَابُ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أُولِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ
مُؤْمِنِينَ ﴾ (٥٧) :

فلقد توسطت آية الولاية الحقـة - تلك - بين آيتي الولاية الباطلة هناك
لليهود والنصارى ، وهنا « الذين اتـخذوا دينكم هـزواً ولعباً .. » وبينهما
متوسطات الولايات الخليفة من حق وباطل .

فعلى حزب الله ، المؤمنين بالله ، التركيز على ولاية الله وحده في
ربوبيته للمحلقة على كافة الشؤون ، وعلى ضوءها ولاية الرسول (ص)
الشرعية الموحدة ، وعلى الضوء ولاية القادة المعصومين عليهم السلام
بعده (ص) وليعيش الأمة الإسلامية قيادات معصومة موحدة زمنهم ، وفي
زمن الغيبة الشورى العليا من الرعيل الأعلى من رباني الأمة حيث « أمرهم
شورى بينهم » .

فكما لا ولاية شرعية في القيادة الروحية والزمنية لأهل الكتاب وسائر
الكفار على المؤمنين ، كذلك هؤلاء المسيطرين على الحكم الإسلامي
بالسيف والنار ، غير المنطبق عليهم شروط الولاية ، لا أصيلة معصومة
ولا فرعية ربانية .

وهنا « الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً » نعم كل من يحملون هذه الرذيلة ومن أبرز مصاديقهم « الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » ثم « والكفار » بعدهم هم غير الكتابيين مشركين أو ملحدين ، والولاية المنفية هنا هي كافة معانيها محبة ومناصرة وسلطة « واتقوا الله » من تلك الولاية النجسة البئسة « إن كنتم مؤمنين » بالله غير تجار فجار مصلحيين .

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٥٨) :

فلو أنهم عقلوا الدين بصلاته وسائر صلاته بالله ، عقلوه عقل دراية ورعاية ، لم يكونوا ليتخذوه هزواً ولعباً ، وهم « إذا ناديتهم إلى الصلاة » - وهي الأذان حيث لا يعرف للصلاة كاصل نداء إلا الأذان والإقامة بحيعلاتها الثلاث (١) - « اتخذوها هزواً ولعباً » وضمير التانيث راجع إلى

مركز تحقيق كتاب ميرزا علوم اسلامی

(١) الدر المنثور ٢: ٢٩٤ - أخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبيد بن عمير قال أئتمر النبي (ص) وأصحابه كيف يجعلون شيئاً إذا أرادوا جمع الصلاة اجتمعوا لها فائتمروا بالناقوس فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خشبتين للناقوس إذ رأى في المنام أن لا تجعلوا الناقوس بل اذنوا بالصلاة فذهب عمر إلى رسول الله (ص) ليخبره بالذي رأى وقد جاء النبي (ص) الوحي بذلك فما راع عمر إلا بلال يؤذن فقال النبي (ص) قد سبقك بذلك الوحي حين أخبره بذلك عمر « أقول : كيف يأتمر رسول الله (ص) أصحابه في أمر تعبدي يختص بالوحي وهو القائل كما في قول الله تعالى : « ان اتبع إلا ما يوحى إلي » فما هذا الحديث إلا مختلفاً يعني مضاهاة عمر في وحي المنام الرسول (ص) في وحي اليقظة ! ولقد كان النداء إلى الصلاة منذ فرضت الصلاة كما في متظافر السنة .

وفيه أخرج ابن أبي خاتم عن محمد بن شهاب الزهري قد ذكر الله الأذان في كتابه فقال : « وإذا ناديتهم . . » وفيه عن ابن عباس في الآية قال : كان منادي رسول الله (ص) إذا نادى بالصلاة فقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود قد قاموا =

الصلاة وإلى النداء إليها ، حيث كانوا يتخذونها هزواً ولعباً .

ومن هنا نعرف المعني من مثل قوله تعالى : « إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . . » (٩: ٦٢) أنها الخيصلات ضمن الأذانات والإقامات فإنها هي النداء للصلاة ، وكما ليس لها موضوعية لوجوب الصلاة ، فإنما هي إعلانات لحضور وقت الصلاة كذلك النداء للصلاة من يوم الجمعة لا تعني إلا حضور وقت الجمعة ، فلا يشترط وجوب الجمعة بنداء لها خاص إذ لا نداء يخصها ، ولا بإقامتها فإنها ليست نداءً لها ، وإنما إذا حضر وقت صلاة الجمعة وهو زوال الشمس عن وسط السماء « فاسعوا » أئمة ومأمومين « إلى ذكر الله » وهو مجموع الخطبتين والركعتين (١) .

ذلك ، ومما يقال في « اتخذوها هزواً ولعباً » أن أهل الكتاب قالوا : يا محمد لقد أبدعت شيئاً لم يسمع فيما مضى فإن كنت نبياً فقد خالفت فيما أحدثت جميع الأنبياء فمن أين لك صباح كصباح العير فأنزل الله هذه الآية ، وكان المنافقون يتضحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس ، وسائر الكفار حالهم معلومة بطبيعة الحال ، فذلك ثالث من الهزء بالصلاة وأذاتها .

وهنا « ناديتهم إلى الصلاة » تدل على مشروعية النداء إلى الصلاة

لأقاموا فإذا رأوهم ركعاً وسجداً استهزؤا بهم وضحكوا منهم ، وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال كان رجل من الأنصار بالمدينة إذا سمع المنادي ينادي أشهد أن محمداً رسول الله (ص) قال : أحرق الله الكاذب فدخل خادمه ذات ليلة من الليالي بنار وهو قائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت وأحرق هو وأهله .

(١) تفصيل البحث بحق الجمعة تجده عند تفسير آية الجمعة في الفرقان .

بالجماعات أذاناً وإقامة كأصل ، في الأوقات المقررة للصلوات اليومية ، سواء أكانت الصلاة المنادى إليها في أول وقتها أم لا ، وقد يستثنى نداء الجماعات عن صلاة الآيات والأموات بقاطع السنة انها فيها « الصلاة » فقد تختص النداء إسلامياً بهما ثم لا نداء ثالثة إلا فالسنة كالتة إذ لم يدل دليل على غيرهما .

وهل الأذان والإقامة اليومية مفروضان فرادى وجماعات ؟ أم هما مختصان بالجماعات لمكان « ناديتهم إلى الصلاة » ؟ أم هما مندوبان أم فيهما تفصيل ؟ قد تلمح « ناديتهم » لاختصاصها بالجماعات ، حيث الفارد لا ينادي غيره ، ونداءه نفسه ليس إلا قيامه نفسه إلى الصلاة .

وقد يعني النداء إلى الصلاة بأذان وإقامة أياً كان ، حيث يجمع الشعار إلى استعداد المصلي الصلاة ، كـ قل هو الله أحد « فإنها شعار مع الإقرار أنني أقولها فليقلها غيري ، فقد توافق جمعية النداء جماعات إلى فرادى السنة القطعية حيث تدل عليهما دون اختصاص بالجماعات ؟

وعلى أية حال فلا تدل الآية على وجوب النداء إلى الصلاة ، والمستفاد من السنة تأكيد إستحباب الأذان في الجماعة وإستحبابه في الفرادى ، ورواية إعادة الفريضة إذا نسيهما (١) معارضة بأخرى (٢) في

(١) وهي صحيحة الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا افتتحت الصلاة فنيت أن تؤذن وتقيم ثم ذكرت قبل أن تركع فأنصرف وأذن واقم واستفتح الصلاة وإن كنت ركعت فاقم على صلاتك ، (الوسائل أبواب الأذان ب ٢٩ ج ٣) .

(٢) كصحيحة زرارة قال : سألت أبا جعفر عليهما السلام عن رجل نسي الأذان والإقامة حتى دخل في الصلاة ؟ قال : فليمض في صلاته فإنما الأذان سنة ، (المصنوع ١) وصحيحة داود بن سرحان عن أبي عبد الله (ع) في رجل نسي الأذان والإقامة حتى دخل في الصلاة ؟ قال : ليس عليه شيء ، (المصنوع ٧) .

ترك الإعادة وهذه موافقة للقرآن « لا تبطلوا أعمالكم » (٤٧: ٣٣) وتلك مخالفة له ، وعلى فرض تصديق القائلة « فانصرف » فهي دالة على سماح الإنصراف إذا نسيهما ولا تدل على وجوبهما ، اللهم إلا تأكد الإستحباب حيث يسمح عند النسيان بالإنصراف عن الصلاة ، ولكن الإنصراف على أية حال منصرف عنه لمكان حرمة إبطال الأعمال ، وأن النسيان يسقط التكليف فكيف يجوز إبطال الصلاة لجبران المنسي منهما ، فحتى إذا تركهما عمداً وهما واجبان لا يسمح ذلك للإنصراف عن الفريضة ، ولا دليل على وجوب الإقامة إلا الروايات الدالة على الإنصراف ، فلا حجة - إذا - لوجوبهما ولا سيما الأذان من كتاب أو سنة وإن كان الأحوط الإتيان بالإقامة إذ لا نجد أمثال هذه الأسئلة حول ترك الأذان والإقامة إلا لمورد النسيان مما قد يلح أن موارد الذكر مفروغ عنها للوجوب ، والقدر المعلوم منه الإقامة ، وقد تشهد له أخبار ولكنها لا نص فيها على الوجوب ولا سيما الأذان وإن كان الأحوط الإتيان بها لكرور التأكيدات المتواترة فيها .

قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَن ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرَكُمْ
فَٱسْفُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أَنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ

أقول : وقد يدل « انما الأذان سنة » على عدم فرض الأذان ولا الإقامة فانهما معاً مورد السؤال في الرواية ، وكصحيفة محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (ع) قال : في الرجل ينسى الأذان والإقامة حتى يدخل في الصلاة ؟ قال : إن كان ذكر قبل ان يقراء فليصل على النبي (ص) وليقيم وإن كان قد قرأ فليتم صلاته (المصدرح ٤) .

اللَّهُ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ
 وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ
 عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١١٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ
 دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ؕ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١١١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ
 فِي الْأَيْمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لِبَنَسٍ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ
 الْأَيْمَانَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لِبَنَسٍ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٣﴾
 وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا
 بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا
 مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ؕ وَالْقَيْنَا
 بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَقْدُوا
 نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ

ءَامِنُوا وَاتَّقُوا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّاتِ
النَّعِيمِ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكُلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ
مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا
أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٥٩):

هنا « تنقمون » منا تتبني ككل فسقهم عن الايمان بالله في مثلث « أن
آمنا بالله » وأنتم غير مؤمنين بالله ، لا إيماناً به إلهاً واحداً حيث الصبغة
الشركية المتخلفة المختلفة الحاكمة فيكم ، ولا إيماناً به تسليماً وإلاً فلماذا
تكفرون بشرعته الأخيرة المبينة ببراھين الصدق أكثر من كل شرعة .

٢ - « وما أنزل إلينا » من القرآن حيث ينسخ ما أنزل من قبل في بعض
الطقوس ، وهو نازل على رسول غير اسرائيلي .

٣ - « وما أنزل من قبل » حيث الايمان بما أنزل من قبل لزامه الإيمان
بهذه الشرعة الأخيرة بما يحمل من بشارات في تصريحات وإشارات لها
ولرسولها وكتابها .

فشالوث النعمة علينا بمثلث الايمان يجعل منكم فاسقين في هذه
الثلاث ، فإذا كانت هنا نعمة فلتكن لنا منكم لفسقكم عن شرعة
الله وإيماننا .

وقد يعني الكثير وجاه « أكثركم » الذين هم مؤمنون بهذه الشرعة ،

ومعهم المستضعفون الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني ، قاصرين عن ذلك الإيمان الإسلامي الذي هو قضية الإيمان الكتابي السليم ^(١) .

والنقمة هي الإنكار بقالٍ أم حالٍ أم أعمالٍ ، ولقد جمع أهل الكتاب ثالثاً النقمة منا ، وقد تندد « ما أنزل من قبل » بديلة عن « ما أنزل إليكم » تندد بهم كأنه ما أنزل إليهم إذ عاملوا كتبهم معاملة النكران بكفر أو كفران

ولأن كلاً من أهل الكتابين لهم تفرقات بين رسل الله وشرائعه ، فالجمع بين الإيمان بالله ورسله وكتبه ككل ، يناحر سيرتهم المتخلفة ، إضافة إلى إنحرافهم في كلٍّ من زوايا الإيمان الثلاث ، فهم - إذاً - كافرون بها جمعاً وإفراداً ، فلو كانوا يؤمنون بالله إيماناً سليماً لكانوا مؤمنين بكل رسالاته وكتاباتهِ دون تفریق ، ولو كانوا يؤمنون بما أنزل إليهم لكانوا - بأحرى - مؤمنين بهذا القرآن العظيم ، فإن سلسلة الرسالات الربانية بكتاباتِها سلسلة واحدة موحدة ، رسالة واحدة من إله واحد لاتجاه واحد يحملها كل رسل الله مهما اختلفت شرائعهم في بعض الطقوس ابتلاءً فده لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات .. » (٤٨: ٥) .

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٤ - اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال أتى رسول الله (ص) نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ونافع بن أبي نافع وغازي بن عمرو وزيد بن خالد بن أبي أزار وأسقع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل قال : أو من بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا : لا نؤمن بعيسى فأنزل الله « قل يا أهل الكتاب .. » .

عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْلُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾:

فـ « شر من ذلكم » الفسق بثالوثه « مشوبة عند الله من . . » وكيف « مشوبة » وهي عقوبة مغلظة تخطت الآخرة إلى الدنيا ؟ المشوبة هي من أصل الثوب وهو رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها ، أو إلى الحالة المقدره المقصودة ، ولأن جزاء الأعمال ليس إلا ظهور الأعمال فحقائقها فهو مشوبة في خيرها وشرها ، مهما غلب إستعمالها في خيرها حيث المشوبة الخيرة هي المقصودة ، كما أن سببها هي الحالة السليمة الفطرية .

وقد تعني « مشوبة » هنا - إضافة إلى أصل الرجوع إلى الحالة الأولى - التعريض بهؤلاء أن ثوابهم هو أشد العقاب حيث تخلفوا عن الإيمان بالله معاندين .

ذلك ، كما وأن « حسن ثواب الآخرة » (١٤٨: ٣) تقتسم الثواب إلى حسن وسوء والثاني هو العقاب ، وكذلك « ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » (٨٠: ٢٨) تنحو منحى ذلك التقسيم وهذا مثل البشارة الخاصة في أصلها بالخيرات وتأتي تهكماً للشرك « بشرهم بعذاب أليم » حيث تعني لو أن لهم بشارة فليست إلا العذاب الأليم فضلاً عن الإنذار .

وقد تعني « بشر من ذلك » شراً من مثلث الإيمان مجارةً وتنزلاً بتهكم ، إلى شر فسقهم بثالوثه ، فلئن كان ذلك الإيمان شراً عندكم فـ « من لعنه الله و . . » أشر من ذلك ، وإن صدقتم أن فسقكم ذلك شر فـ « من لعنه الله و . . » أشر من ذلك ، والمعنيان معنيان حيث يحملان كلا الحقيقة والمجارة ، ولكن الأصل هنا هو المجارة حيث المقام مقام النكران .

٧٠ الجزء السادس

ومن عجيب التماثل بين ثالثهم السالف ذلك الثالث الذي هو شر منه : « من لعنه الله - وغضب عليه - وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاعوت » !

وهنا « عبد الطاغوت » معطوفة على « من لعنه الله » بفواصل - وجعل . . . أم على « جعل . . » أي جعل منهم من عبد الطاغوت كما جعل منهم القردة والخنازير .

ولا يرد على الثاني أنه يقتضي كون عبادة الطاغوت من جعل الله حيث يعني الإذن تكوينياً بما اختاروا عبادة الطاغوت ، لا تسييراً عليها ولا تشريعاً لها ، وذلك مثل « نقيض له شيطاناً فهو له قرين » والكل من باب « فلما زاغوا أزاع الله قلوبهم » .

ثم المعنى الأول وهو أسلم منه ، لا يرد عليه ذلك الفصل فإن « غضب عليه - إلى - والخنازير » مواصفة لـ « من لعنه الله » ، ثم « وعبد الطاغوت » معطوفة على « من لعنه الله » ، وقد يعني العطف كليهما عناية لهما وهو أجمع وأجمل دلالة ومدلولاً .

ذلك ، فمن « لعنه الله وغضب عليه » جماعة من اليهود حيث تغلب عليهم غضب الله مهما شمل غيرهم كما في آيات (١) .

وأما من جعل منهم قردة فهم المتخلفون من أصحاب السبت « فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » (١٦٦:٧) .

وقد يرجع من جعل منهم خنازير أنهم من النصاري وكما هددهم الله تعالى في إجابة دعاء المائدة : « قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد

(١) كآية ١٦: ١٠٩ و ١٦: ٤٢ و ١٧١: ٧ و ٨١: ٢٠ و ١٦: ٨ و ١٣: ٤ ، حيث تجعل

غضب الله على كل من يستحقونه من كافة الملل والنحل دون اختصاص .

منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» (١١٥:٥) ولا يحمل ذلك الجعل إلا هذه الآية ، فحيث المقام هو مقام التنديد بكفرة أهل الكتاب فليكن للنصارى نصيب كما لليهود ، أم إنهم كالقردة من اليهود و« عبد الطاغوت » من النصارى ، أم كل هذه منقسمة على كل من هو شر مكاناً واصل عن سواء السبيل من جمع أهل الكتاب ، اللهم إلا القردة الخاصة باليهود حسب النص ^(١) و« من عبد الطاغوت » هم كل هؤلاء الذين استسلموا للطواغيت حيث « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله .. » (٣١:٩) .

وهل إن كل القردة والخنازير هي من أنسال هؤلاء الذين جعلهم الله قردة وخنازير ؟ كلاً ، فقد خلقت القردة والخنازير قبل هؤلاء وتستمر ، و« إن الله لم يهلك قوماً أو يمسح قوماً فيجعل لهم نسلًا ولا عاقبة وإن القردة والخنازير قبل ذلك » ^(٢) ، « ولكن ذا خلق فلما غضب الله على اليهود فمسحهم جعلهم مثلهم » ^(٣)

وهذه قضية العدالة الربانية أن يعذب من يستحقه أن يجعل قرداً أو خنزيراً دون نسله حيث « لا تزر وازرة وزر أخرى » ومن جعل قرداً أو

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٢: ٣٦ قال أهل التفسير عني بالقردة أصحاب السبت وبالخنازير كفار مائدة عيسى وروى أيضاً أن المسخين كانوا في أصحاب السبت لأن شباههم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير .

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٩٥ - أخرج مسلم وابن مردويه عن ابن مسعود قال سئل رسول الله (ص) عن القردة والخنازير أهي مما مسح الله فقال : ...

(٣) المصدر أخرج الطيالسي وأحمد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود قال : سألنا رسول الله (ص) عن القردة والخنازير أهي من نسل اليهود ؟ فقال : لا إن الله لم يلعن قوماً قط فمسحهم فكان لهم نسل ولكن ..

خنزيراً إنما يجعل جسمه مثلهما دون روحه حتى يتحقق العذاب بما يشعر أنه إنسان بصورة قرد أو خنزير .

« أولئك شر مكاناً » منكم ، أو ومنا لو كنا من الأشرار « وأضل » منا ومنكم « عن سواء السبيل » فيا اخوان القردة والخنزير الذين لعنهم الله وغضب عليهم وعبدوا الطاغوت هل نحن المسلمين المؤمنين بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل شر مكاناً أم أنتم ؟ .

ذلك وليست النعمة اليهودية والنصرانية من المسلمين تقف لحد ، بل انها في شدّ ومدّ ما شدّ الإسلام ومدّ ، فهم يحاربون المسلمين هذه الحرب الشعواء العشواء التي لم تضع أوزارها قط ولن ، منذ أن قام للمسلمين كون وكيان في المدينة وتميزت لهم شخصية .

فهم يشنون عليهم مختلف الحروب الباردة الدعائية والحارة الحارقة لا شيء إلا لأنهم مسلمون لله مستسلمون ، ولا تطفأ هذه النار عنهم إلا أن يرتدوا عن دينهم فيتبعونهم رغم ظاهر إسلامهم الفاضي عن الحقيقة والحيوية فهـ لن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله الهدى » (٢: ١٢٠) .

فالإسلام الفاضل بمثلث الإيمان بالله وما أنزل من القرآن وما أنزل من قبل ، ذلك الإسلام يُنقم منه ومن المسلمين له ما طلعت الشمس وغربت من قبل اليهود والنصارى ، إلا أن يصبح فاضياً عن حقيقته تابعاً للإستعمار اليهودي والنصراني كما نراه في الأكثرية المطلقة من الدول الإسلامية حيث يساندها الإستعمار ولا يحاربها .

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴾ (٦١) :

سورة المائدة / آية ٦١ - ٦٢ ٧٣

« وإذا جاءوكم » انتم المؤمنين هؤلاء الناقمون منكم « قالوا آمنا » نفاقاً عارماً وشقاقاً خارماً ، تجسساً فيكم لا تحسباً لكم « وقد دخلوا » هكذا في ظاهر الإيمان الإقرار « بالكفر » كما « وهم قد خرجوا به » فدخلهم في ظاهر الإيمان كخروجهم ليس إلا « بالكفر » مهما كانوا يكتُمون « والله أعلم بما كانوا يكتُمون » كما ويعلمكم بحالهم حتى تأخذوا منهم حذرهم وترقبوهم داخلين وخارجين (١) .

وذلك النفاق العارم من أهل الكتاب كان ويكون على مر الزمن يُقصد من وراءه إضافة إلى التجسس عن خبايا المسلمين البلبلة فيهم وكما يقولون « آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون » (٧٢: ٣) بسبب ذلك التشكيك اللثيم .

﴿ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦٢) :

« ترى » أنت الرسول (ص) و « ترى » أنت المخاطب بالقرآن أي كنت من المسلمين وأيان « ترى كثيراً منهم » أولاء الناقمين منكم « يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت » ثلوث من العصيان الجاهر المائر « لبئس ما كانوا يعملون » .

فالإثم هو كل ما يبطئ عن الخير والثواب ، فالمسارعة فيه والسباق إليه سباق ومسارعة في سد أبواب الثواب وفتح أبواب التبات .

(١) الدر المنثور ٢: ٢٩٥ - اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية « وإذا جاءوكم . . » قال أناس من اليهود وكانوا يدخلون على النبي (ص) فيخبرونه أنهم مؤمنون راضون بالذي جاء به وهم متمسكون بضلالهم وبالكفر فكانوا يدخلون بذلك ويخرجون به من عند رسول الله (ص) .

والعدوان هو العداء في ثلوثه المنحوس ضد المسلمين لله وللقرآن وما أنزل من قبل ، مسارعة في حروبهم الباردة والحساسة طول تاريخهم المنحوس المركوس .

وأكلهم السحت والباطل من مختلف مجاريه ومؤتلف مهاويه ومساويه « لبس ما كانوا يعملون » .

وإنها صورة ترسم للتبشيع والتشنيع حيث النفوس البثيسة التعيسة يستشري فيها الفساد وتسقط القيم ، من سائقين متسابقين في الأثم والعدوان وأكلهم السحت ، وآخرين منساقين في تياره ، وهكذا تكون كل المجتمعات الهابطة الى دركات البهيمة النهماء ، حيث يشمل الفساد عاليهم وسافلهم ، وفي ذلك الموقف المزري البئيس :

﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرِّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦٣) :

« لولا » و « هلا » هما بمعنى التوبيخ والتخفيض والتخفيض لموقف الموجه إليهم .

وذلك صوت قرآني صارخ على مدار الزمن في رسالته العالمية ان على العلماء الربانيين تكفل الأمر والنهي في أوساط الأمة ، فلا بد من حافظين لحدود الله في كل أمة هم ربانيوها كرعيل أعلى من علماءها ، ثم أحبارها حيث المكانة التالية للربانيين .

فليس الأمر والنهي فوضى جزاف يتكفلهما أي كان ، فشرط الربانية علمياً وعملياً شرط اصيل بمراتبها في حقل الأمر والنهي ، مع سائر الشروط الفرعية المسرودة في الكتاب والسنة .

إذا فسممة السكوت لمدرء الشرعة الربانية عما يقع في الأمة من اثم وعدوان واكل السحت - وهي رؤوس المحرمات في أية شرعة - هي وصمة

المجتمعات التي كسدت وفسدت آذنة بالانهيار .

فالمجتمع الذي يسوده الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من قبل الصالحين هو المجتمع الراقي الحبيب ، والذي لا يسودانه هو مجتمع الباغي الكثيب .

وهنا سوط اللائمة على الربانيين والأخبار لتركهم المتخلفين عن قولهم الأثم وأكلهم السحت ، إنه سوط على كافة العلماء والمؤمنين الذين لهم ذلك المنصب، صوت النذير بذلك السوط لكلٍ ودونما اختصاص بالربانيين والأخبار ، وهو أشد وألم لرباني الأمة الإسلامية حيث الشرعة كلما نضجت وارتقت واخلدت وتوسعت أكثر فالمسؤوليات أمامها لحملتها وسائر متشرعيها أكثر ، والخروج عن عبء هذه المسؤوليات أعسر .

ف« يا أيها الناس إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأخبار فلما تمادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأخبار اخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً » (١) .

« وإن عندكم الأمثال من بأس الله وقوارعه ، وأيامه ووقائعه ، فلا تستبطؤوا وعيده جهلاً بأخذه ، وتهاوناً ببطشه ، ويأساً من بأسه ، فإن الله سبحانه لم يلعن القرن الماضي بين أيديكم إلا لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلعن الله السفهاء لركوب المعاصي والحلماء لترك التناهي » (الخطبة ١٩٠ / ٤ / ٣٧٢) .

(١) الدر المنثور ٢ : ٢٩٦ - اخرج ابن أبي حاتم عن علي رضي الله عنه انه قال في خطبته ، وفي نور الثقلين ١ : ٦٤٨ رواها عن الكافي بسند متصل عن يحيى بن عقيل عن حسن قال خطب امير المؤمنين (ع) . .

فيا « أيها الناس إنما يجمع الناس الرضا والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عموه بالرضا فقال سبحانه : فعقروها فأصبحوا نادمين - فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المَحَمَاة في الأرض الخَوَّارة » (الخطبة ١٩٩ / ٣٩٥) .

و « لا تتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيؤلى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم » (الخطبة ٢٨٦ / ٥١٢) .

« والجهاد على أربع شعب : على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن وشنآن الفاسقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف الكافرين ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ، ومن شنئ الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة » (٣٠ ح / ٥٧٠) .

ذلك والناس على أقسام « فمنهم المنكر للمنكر بيده ولسانه وقلبه فذلك المستكمل لخصال الخير ، ومنهم المنكر بلسانه وقلبه والتارك بيده فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلة ، ومنهم المنكر بقلبه والتارك بيده ولسانه فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة ، ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده فذلك ميت الأحياء وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي ، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق ، وأفضل من ذلك كله كلمة عدل عند إمام جائر » (٣٧٤ ح / ٦٤٢) .

ذلك واجب رباني الأمة ، وعليهم أن يصغوا إليهم ويعوا ما يصدرونه عن كتاب الله فـهـ اين تذهب بكم المذاهب ويستر بكم الغياهب وتخدعكم الكواذب ومن اين تؤتون وأنى تؤفكون ولكل أجل كتاب ولكل غيبة إياب

فاستمعوا من ربانيكم وأحضروه قلوبكم واستيقظوا أن يهتف بكم» (١).

فالربانيون التاركون للنهي عن المنكر، «لبش ما كانوا يصنعون» والآثمون العادون الآكلون للسحت «لبش ما كانوا يعملون» والصنع أركز وقية من العمل، حيث الصنع هو الذي يصنع العمل، فالمنكر الواقع في مجتمع له عامل هو عامله، وله صانع هو تارك النهي عنه.

وقد عبر عن كلا «الإثم والعدوان» هنا بـ «قول الإثم» لأنه غول في توغل الإثم من القائل وممن يسمعه متقبلاً من المستضعفين، فقد يعمل بالإثم دون أن يحمل إشاعة له وتحريضاً للآخرين، ولكن القول بالإثم - وهو بطبيعة الحال مع فعل الإثم، إنه إشاعة وتشجيع للإثم

فـ «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل من المعاصي هم أعز منه وأمنع أن يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب» (٢).

ذلك، ومن قولهم الإثم الذي يتهدم به الإيمان من أصله:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٤):

يد الله مغلولة؟! .. «يد الله» هي قدرته ورحمته وعلمه، أم بصيغة

(١) نور الثقلين ١: ٦٤٩ في نهج البلاغة قال (ع) في خطبة له وهي من خطب

الملاحم: ...

(٢) الدر المنثور ٣: ٢٩٦ - أخرج أبو داود وابن ماجه عن جرير سمعت رسول الله (ص)

يقول: ...

واحدة كل قدراته رحمانية ورحمية على علمه الطليق ، كما أن قدرته طليقة ، فهذه اليد المغلولة تعني تحديدها عن طلاقها ، مغلولة بما غلّها هو نفسه بخلاً ، أم بما غلّها غيره سلطة عليه ، أم بما كانت مغلولة منذ الأزل قصوراً ذاتياً ! والجمع هو ثالث الغل ، في تكوين وتقدير وتشريع ، فقد كانوا يحيلون النسخ على الله وهذا غل ليده في التشريع .

وذلك الثالث تشمله « يد الله مغلولة » مهما تشعبت الآراء المغلولة المغلولة فيما بينها .

وهنا « يتفق كيف يشاء » تختص غلها بحقل الإنفاق كما في « لا تجعل يدك مغلولة الى عنقك » وعلّ المعني من « يدها مبسوطتان » يد الرحمة والغضب ، أنه ليس مسيراً فيها فله الخيار حسب الحكمة الربانية في البسط والإقتار ، فلا بسطه في الإنفاق دليل أنه مُجَبَّر ولا إقتاره دليل الغل المسير .

لقد قيل في الله كثير من القيلات الغيلات ولم يسد أبوابها تسييراً عن نفسه تعالى وتقدس فكيف يسده عن خلقه اللهم إلا فضحاً لأصحابها بقيلاتهم أنفسهم الويلات فإنه لا يفلح الظالمين « إن يحيى بن زكريا سأل ربه فقال يا رب إجعلني ممن لا يقع الناس فيه فأوحى الله يا يحيى هذا شيء لم أستخلصه لنفسي كيف أفعله بك إقرأ في المحكم تجده : وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقالوا يد الله مغلولة وقالوا وقالوا » (١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٦ - اخرج الديلمي في مسند الفردوس عن انس مرفوعاً ان

يحيى ...

وفيه أخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد عليهما السلام قال : إذا بلغك عن أخيك شيء يسوءك فلا تغتم فإنه إن كان كما يقول كانت عقوبة أجلت وإن كانت على =

ذلك ويداه المبسوطتان في الإنفاق يقضي على قيلة « فرغ من الأمر » (١) أنه خلق ما خلق ثم أمسك حيث خول أمر التدبير إلى خلقه أم جعل أمرهم فوضى جزاف .

ثم الفراغ من الأمر قد يكون بعد خلقه الخلق ألا تدبير له فيهم كما في قيلة اليهود ، ولكنه هو الخالق للخلق كله ، أم وأفصح منه أنه خلق الخلق الأول ثم سائر الخلق يخلقه الخلق الأول والثاني كما في خرافة العقول العشرة سناداً إلى قاعدة بائدة متفلسفة : « الواحد لا يصدر منه إلا واحد » فلأن الله واحد بحقيقة الوحدة فلا يصدر منه إلا خلق واحد ! .

رغم أن هذه القاعدة فاشلة في العلل الخلقية فضلاً عن الخالق .

غير ما يقول كانت حسنة لم تعملها قال وقال موسى يا رب إحبس عني كلام الناس فقال الله عز وجل : لو فعلت هذا بأحد لفعلته بي .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٤٩ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا (ع) مع سليمان المروزي بعد كلام طويل له (ع) في اثبات البداء وقد كان سليمان ينكر ثم التفت إلى سليمان فقال : احسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب ؟ قال : اعوذ بالله من ذلك وما قالت اليهود ؟ قال : قالت اليهود يد الله مغلولة ، يعنون ان الله قد فرغ من الأمر فليس يحدث شيئاً فقال عز وجل : غُلَّتْ ايديهم ولعنوا بما قالوا « وفي كتاب التوحيد باسناده إلى إسحاق بن عمار عن سمعته عن ابي عبد الله (ع) انه قال في قول الله عز وجل : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » لم يعنوا انه هكذا ولكنهم قالوا : قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص وقال الله جل جلاله تكذيباً لقولهم : « غلت ايديهم . . » الم تسمع الله عز وجل يقول : « يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

وفي الدر المنثور ٢ : ٢٩٦ عن ابن عباس قال رجل من اليهود يقال له النباش بن قيس ان ربك بخيل لا يتفق فأنزل الله « وقالت اليهود . . » .

وفي تفسير القمي قال : قالوا قد فرغ الله من الأمر لا يحدث غير ما قدره في التقدير الأول فرد الله عليهم فقال : « بل يدها مبسوطتان يتفق كيف يشاء » أي يقدم ويؤخر ويزيد وينقص وله البداء والمشية .

فهب إن النار لا تصدر منها إلا الحرارة النارية ، فهل لو كانت مريدة مختارة لكانت - بعد - هكذا ؟ والفاعل بالإرادة يفعل ما يشاء دون حد إلا في المحدود الإرادة .

فالعلل المادية التي هي مولدات لمعاليلها ، هي مسانحة لها لا محالة فلا تلد إلا ما في ذواتها ، ولكنها إذا كانت ذات إرادة وتصميم بإمكانها أن تولد ما تشاء من ذاتها أم من ذوات أخرى ، وأما الله تعالى وهو تجريذ الذات فليس خلقه ولادة حتى يشابه خلقه ذاته ، إنما هو خلق بالمشيئة ولا حد لها ولا حدود ، فكيف تنطبق عليه « الواحد لا يصدر منه إلا واحد » ١٩ .

ذلك ، فيهود هذه الأمة القائلين هذه المقالة هم أهود من سائر اليهود إذ هم ما غلّوا يد الله تعالى عما سوى الخلق الأول مهما غلّوها عن التدبير دائماً أو أحياناً .

أو قد عنت اليهود الأغنياء فقر الله في المال وكما « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء . . » (٣: ١٨١) فعلمهم عنوا هنا نفس المعنى ، وهو في نفس الوقت تعريض بالمسلمين الفقراء في البداية إن إلههم فقير ، لا أن الله الذي هم يعتقدونه فقير .

فقد بان البون بين قيلة اليهود « إن الله فقير - يد الله مغلولة » وبين قيلة يهود هذه الأمة إن « الواحد لا يصدر منه إلا واحد » حيث غلّوا يدي الله عن كل خلق إلا الخلق الأول الذي هو واحد كما أنه نفسه واحد لا ينطبق هذه القاعدة وقاعدة مسانحة العلة والمعلول ! .

لقد قالت اليهود أمثال هذه القولة « إن الله فقير » بمناسبات عدة منها فقر المسلمين الأولين ، ومنها أمثال قوله تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » (٢: ٢٤٥) قائلين إن الله الذي يستقرض من عباده الفقراء هو

فقير - بطبيعة الحال - بل هو أفقر من هؤلاء الفقراء ، وكل ذلك تعريض جانبي بخصوص المسلمين نقمة منهم أنهم مسلمون ، فقد أخرجوا هذا القول مخرج الإستبخال لله سبحانه بسائر مخارجه ، وقد بلغ من غلظ حسهم الحيواني البغيض ، وجلافة قلوبهم ألا يعبروا عن المعنى الفاسد الكاذب الذي أرادوه تعريضاً وهو البخل بلفظه المباشر الجانبي كـ « ربكم بخيل » فقالوا : « يد الله مغلولة » - « إن الله فقير » فانه أشد وقاحة وتهجماً وكفراً .

وهنا « غلت أيديهم » إخبار وليست دعاء حيث الله لا يدعوا، فمن يطلب طلبه حين يدعوا، اللهم إلا طلباً من نفسه أن يغل أيديهم أو طلباً من مؤمني عباده أن يتطلبوا منه غل أيديهم !

وقد تعني « غلت أيديهم » مثلث المعنى ، فهم مغلولوا الأيدي أولاً بمعنى ما لسائر الخلق من غل الأيدي ، إذ لا يدّ طليقة لأي من خلق في أيّ من الأعمال إلا بما يُطلقها الله ، ولا يطلقها طلاقة طليقة كما له تعالى وسبحانه عما يشركون .

ثم هم مغلولوا الأيدي لمكان الفقر الجبلي لهم مهما كانوا أغنياء حيث « ضربت عليهم المسكنة » فهم أبخل بخلاء البشر طول تاريخهم ، كما غلت أيديهم عن أن يمسا من كرامة الله ورسول الله إلا وهم مفضوحون فيما يعملون .

اجل « غلت أيديهم » أنفسهم دون يد الله « ولعنوا بما قالوا » كما « لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » .

« بل يدها مبسوطتان » وهنا « يدها » دون « يده » المنقولة في قيلتهم ، لتدل على واسع قدرته ، فد « يده » قد تلمح لبسط جانبيّ ليد الرحمة أم يد

العذاب أماهيه ، ولكن « يده » هي عبارة أخرى عن قدراته كما يقال : فلان مبسوط اليدين .

صحيح أن اليد تستعمل في اليد الجارحة ، ولكنها مستعملة أكثر منها بكثير في اليد القدرة المديدة ، ولأن الله ليست له يد جارحة فلتجرد اليد واليدان له عن أية جارحة ، إلى سائر اليد علماً وقدره ورحمة ، يد الألوهية والربوبية الطليقة الواسعة لكل شيء .

فقد يعبر عن كل ذلك بصيغة الأفراد كـ « بيدك الخير » (٢٦: ٣) و « بيده ملكوت كل شيء » (٨٣: ٣٦) و « بيده الملك » (١: ٦٧) و « يد الله فوق أيديهم » (١٠: ٤٨) فيما يراد بها الربوبية الموحدة .

وأخرى بصيغة التثنية كما هنا « بل يده مبسوطتان » و « أن تسجد لما خلقت بيدي » (٧٥: ٣٨) و « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » (١: ٤٩) فيما يراد بيان كامل الربوبية في بعدي صفات جلاله وجماله ، وعلى أية حال « كلتا يديه يمين » القدرة علماً ورحمة رحمانية ورحيمية أماهيه .

فقد يعنى من يديه : يد الخلق والتدبير ، أو يد التكوين خلقاً وتديراً ويد التشريع بدءاً ونسخاً ، أو يد النعمة الدنيوية والأخروية ، أو يد العذاب والنقمة ، أو يد النقمة الظاهرة والباطنة ، وعلى الجملة يد السلب والإيجاب في ربوبياته كلها حسب المصالح الواقعية أو الإبتلائية ، وقد تعني « يده » كل هذه المثنيات على البذل ، ومعها بسط اليدين بمعنى طليق اليد في كافة الشؤون الربانية ^(١) .

(١) الدر المنثور ٢: ٢٩٧ - اخرج من عدة طرق عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : ان يمين الله ملؤلا يغنيها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يفض ما في يمينه قال وعرشه على الماء وفي يده الأخرى القبض يرفض ويخفض .

ذلك وقد تجمع القليلة اليهودية بين هذه القيلات ، فمن فسلفتهم التي تسربت إلى الفلسفة الإسلامية فترسبت قباعدة « الواحد لا يصدر منه إلا واحد » ومن مهزلتهم وجاه المسلمين أن إلهكم فقير وإلا فلماذا أنتم المسلمون فقراء ولماذا يسألكم قرضاً حسناً ، ومن قسمتهم الضيزى للربوبية أن له الخلق ولخلقهم التدبير فقد فرغ من الأمر ، ومنه قولهم بإستحالة النسخ فقد غلت يده في التشريع كما في التكوين وما أشبه هذه من غُلٍّ وهي كلها غُلٌّ وانحراف تجمع بينها العقيدة اليهودية وهي متفرقة بين سائر الأمم و « البداء » المتواتر في إثباته براهين الكتاب والسنة يعني بسط يدي الله في كافة ربوبياته دون فراغ من الأمر وفراق عن الربوبية ، فالبداء يعني استمرارية الربوبية دون وقفة في أي من شؤونها ، دون الظهور بعد الخفاء فان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

ذلك ، ومنه البداء في القضاء بعد القدر ، فلا يعني البداء أنه قضي الأمر كما أَراده الله فلا خيرة في أمر لأحد من الخلق ، إبطالاً للتكليف فبطلانا للحساب والثواب والعقاب ! .

بل يعني أن الله يقضي فيما قدر إذا قضى المكلف ما قدر له في القدر ، فـ « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين » .

« بل يداه مبسوطتان » ولكنه ليس بسطاً كما يهواه خلقه بل « ينفق كيف يشاء » توسعة وتقتيراً : « يسط الرزق لمن يشاء ويقدر » « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء » .

ذلك ، وليس ما كتب على نفسه من الرحمة غُلاً ليده في تطبيق القدرة ، حيث القصد من « يد الله مغلولة » ضفة نقص ومذمة ومذلة والرحمة كمال وخلافها خلافة ، ثم وليس غُلاً ليده من عند نفسه حيث الغُلُّ

هو الاختيار وربنا هو المختار بذاته مهما كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه خلافها .

« وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً » كما وأن قولهم « يد الله مغلولة » هي من تلك الزيادة ، قولاً غولاً باستحالة النسخ ، غلاً ليد التشريع الربانية ، وقولاً ساخراً بأنه فقير فإن عباده المسلمين فقراء .

وترى أن زيادة طغيانهم وكفرهم بما أنزل إلى الرسول (ص) تحكم بعد إنزاله حفاظاً على حالتهم الأولى كما يهرفه خارف يسمي نفسه مفسراً للقرآن ؟ كلا ! إذ ليس القصد من ذلك الانزال تلك الزيادة حتى تنسب إلى الله فيقال لا تعني أفعاله تعالى مصلحة وحكمة (١) .

ثم وإذا دار الأمر بين صالح إنزال القرآن بطالح المزيد من طغيانهم وكفرهم ، وبين صالح البقاء على قليل كفرهم وطالح ترك إنزال القرآن فأيهما أصلح ؟ ! فإذا كانت رعاية الأقل مصلحة أولى من الأكثر مصلحة فلا أولوية لمصلحة إرسال الرسل وإنزال الكتب حيث سبباً مزيد الطغيان والكفر للطاغين والكافرين : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (١٧: ٨٢) .

« وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » وتراهم باقين زمن دولة المهدي القائم من آل محمد (ص) وهي تشمل العالم كله ؟ أجل ولكن لا دور لغير الإسلام سلطة روحية وزمنية ، فقير المسلمين - إذا - كلهم أهل ذمة في تلك الدولة السعيدة ، لا دور لهم إلا كور .

(١) يقول الفخر الرازي في ١٢ : ٤٤ من تفسيره : قال اصحابنا : دلت الآية على أنه تعالى لا يراعى مصالح الدين والدنيا لأنه تعالى لما علم أنهم يزدادون عند إنزال تلك الآيات كفراً وضلالاً فلو كانت أفعاله معللة برعاية المصالح للعباد لامتنع عليه إنزال تلك الآيات .

وتلك العداوة والبغضاء الملقاة بينهم أولاء اليهود ، ثم العداوة والبغضاء المغفرة بين النصارى كما في آية اخرى ، هي من نتائج كيدهم وميدهم ضد دين الله والدينين المؤمنين بالله .

« كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » وهنا « ناراً للحرب » إستعارة لطيفة حيث شبهت بواعث الحرب بالنار لاحتدام قراعتها وجد مصاعها وأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها ، والقصد من نار الحرب هي التي ضد المسلمين القائمين بشرائط الإيمان ، فهـ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » (١١١:٣) وناراً للحرب قد تعني الحرب الباردة الدعائية ضد الإسلام فهـ أطفأها الله « هنا بارزة بحجة القرآن البالغة التي تدود عن ساحته كل وصمة وكل دعاية مضللة ، ثم الحرب الحارة دينياً وكذلك الأمر ، وأما العسكرية فهنا الحرب سجال ، وثالث حربهم مطفئة بما أطفأها الله ، اللهم إلا الحروب التي تشن على المسلمين غير القائمين بشرائط الإيمان .

« ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » وذلك صبغة يهودية عالمية أينما وجدوا ، ولا سيما بعدما شكّلوا دويلة أو دولة بما احتلوا فلسطين والقدس ، ويحاولون أن يوسعوا نطاق الإحتلال الصهيوني ، وقد أخبرنا الله بقضائه إليهم وعليهم : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً .. فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً .. فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوه المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوتتبيراً » (١٧: ٧) ^(١) ومن لطيف الوفق العددي بين الحرب والأسرى بمختلف صيغتهما ان كلا يذكر في القرآن (٦) مرة مما تلمع بان الحرب الاسلامية قضيتها الاولى الأسرى من الكفار ١ .

(١) لتفصيل البحث حول الآية راجع الفرقان ١٥ .

ذلك ، وليست وصمة العداوة والبغضاء على اليهود والنصارى لازماً لهم لزماً لأنهم - فقط - أهل الكتاب ولما يسلموا ، إنما هي لكفرهم وتكذيبهم بآيات الله وكيدهم على شرعة الله :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٦) :

« لو » هنا وهناك تحيل مدخولها واقعياً لا إمكانياً ، فالواقع الأكثرى من أهل الكتاب عدم الإيمان والتقوى وإقامة الكتاب ، « ولو آمن أهل الكتاب بكتابهم » واتقوا » مخالفة الكتاب إلى ما يهوون « لكفرنا عنهم سيئاتهم » التي عملوها « ولأدخلناهم جنات النعيم » .

وليس الإيمان بالكتاب - فقط - هو قراءته والإعتقاد به ، بل هو إقامته عملياً كما يقام عقيدياً ولفظياً ، إذ ليس الكتاب الرباني إلا لإصلاح واقع الحياة دون تصورهما فقط والإعتقاد بذلك التصور .

فإقامة التوراة والإنجيل هي بعد الإنتساب إليهما والإقرار بهما ، عبارة عن تحقيق محتوياتهما في ميادين العمل والتبشير ، فقد يذهب العلم بالكتاب حين لا ينتفع به كما يروى عن النبي (ص) « يوشك أن يرفع العلم . . حين تركوا أمر الله » ^(١) .

(١) الدر المنثور ٢: ٢٩٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن رسول الله (ص) قال : يوشك أن يرفع العلم قلت كيف وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا ؟ فقال ثكلتك أمك يا ابن نفير ان كنت لا اراك من افقه أهل المدينة أوليست التوراة والانجيل بأيدي اليهود والنصارى فما اغنى عنهم حين تركوا امر الله ثم قرأ « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل . . » وفيه عن زياد بن ليبي قال ذكر النبي (ص) فقال وذلك عند ذهاب أبناءنا

هنا إقام التوراة والإنجيل يقتسمان بين أهليهما ولا سيما أهل الإنجيل إذ يؤمنون بالتوراة تلقائياً ، مهما كان إيمان أهل التوراة بالإنجيل تكليفاً ربانياً ، وكما أن من إقامهما بتمحيصهما عن كل زيادة وتأويل عليل ، كذلك تطبيقهما عملياً على ضوء الإيمان بهما ، ومن ثم الإيمان بالمبشر به فيهما وهو القرآن ورسوله ، فمثلث إقام التوراة والإنجيل مطوي في إقامهما .

ثم « ما أنزل إليهم » قد تعني إلى كل كتابات السماء - بين الكتابين حيث توضّح الدخيل فيهما عن الأصل ، وتبين منهما كل إدغال وتدجيل - تعني القرآن فإن الإيمان به وإقامه هما من القضايا الرئيسية لإقامهما ، وليست « إليهم » لتختص النازل إليهم بالكتابات الإسرائيلية ، حيث الواجهة القرآنية لأهل الكتاب هي قبل غيرهم ، فهم الركيزة الأولى من وحي القرآن لمعرفة بطبيعة الوحي أكثر من سواهم .

فكما أن من قضية إقام التوراة هي تصديق الإنجيل بإقامه ، كذلك إقام القرآن هو رأس القضايا لإقامهما ، إذ لا يختص إقام كتاب الوحي بمواصلة التطبيق لأحكامه - فقط - بل ومن إقامه النقلة إلى كتاب آخر يؤمر بها في الكتاب .

إذاً فالإنتقال من هذين الكتابين إلى القرآن إقام لهما وللقرآن ، وفي الترسيب فيهما دون نقلة إلى القرآن ترك لإقامهما .

فاليهودي والمسيحي الحقيقي هما اللذان يقيمان الكتابين بالإيمان

قلنا يا رسول الله (ص) وكيف يذهب العلم ونحن نقرء القرآن ونقرئه أبناءنا ويُقرئه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : ثكلتك امك يا ابن لبيد ان كنت لأراك من افقه رجل بالمدينة أوليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا يتفعمون مما فيهما بشيء .

بالقرآن لمكان البشارات المتظافرة فيهما بحق القرآن ونبيه .

وليس يختص هنا وعد الرحمة على ضوء إقام الكتاب بالمذكورين ،
فليس ذكرهم إلا لأنهم أهم الكتابيين الموجودين زمن نزول القرآن ، وإلا
فقد تعم الرحمة الموعودة أهل القرى كلهم على ضوء الإيمان والتقوى :
« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض
ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (٩٦:٧).

فتواتر الرحمة الربانية من السماء والأرض هو طبيعة الحال بما وعد الله
للذين آمنوا بالله واتقوا ، « لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » حيث
تعني لباس الرحمة من كل الجوانب لهم ، والأكل هنا يعني كل الحاجات
المعيشية فهو سعة الرزق ورفاهة العيش كما يقال : فلان مغمور في النعمة
من قرنه إلى قدمه .

كما وأن « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » (٤٢: ٣٠) فقد
« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي
عملوا لعلهم يرجعون » (٤٢: ٣٠) معاكسة النتيجة عند معاكسة الأعمال
« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

ذلك و « منهم أمة مقتصدة » حيث يقيمون كتابات السماء دونما تدجيل
وتأويل « وكثير منهم ساء ما يعملون » حيث يعيشونها في أهواءهم ورغباتهم
بكل تأويل وتدجيل .

وهنا يجمع الله بين بركات الآخرة والدنيا على ضوء الإيمان والتقوى
لأهلئهما كتابيين أو مسلمين ، فللآخرة « كفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم
جنات النعيم » وللدنيا كما تلائم الآخرة : « لأكلوا من فوقهم ومن تحت
أرجلهم » وهكذا يدعو عباد الله الصالحين : « ومنهم من يقول ربنا آتنا في
الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما

كسبوا والله سريع الحساب » (٢٠١: ٢).

فقد يبدوا أن الإيمان والتقوى لا يعنيان - فقط - حسنى الآخرة ، بل وكذلك معها حسنى الدنيا ، فالمنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلاً عن الدنيا ، ولا يجعل سعادة الآخرة بديلة عن سعادة الدنيا ، فلا يجعل طريق الآخرة غير الطريق في الدنيا فإنما « الدنيا مزرعة الآخرة » كلٌ يمسك على الآخر ، إذاً فليس في تحصيل الآخرة إهمال الدنيا ، ولا في تحصيل الدنيا إهمال الآخرة ، حيث المؤمن دنياه آخرة حين يتذرع بها إليها، فحياته فيها حسنة مهما كانت الآخرة هي الحسنى .

فخلاف ما يزعم ليس العداء بين الحياتين والنشأتين عداءً لازماً أصيلاً ، بل هو طارئ من إنحراف أهل الدنيا حيث يؤصلونها فيستأصلون الحياة الأخرى ، فلا إستئصال بينهما كأصل ، وكما نجد في وعد الله أن تواتر البركات الدنيوية قبل الأخروية هو من قضايا الإيمان الصادق والتقوى ، فكيف ينافیان تعمير الحياة الدنيا ، اللهم إلا التركيز عليها كأصل أخير .

فكما المنهج الإيماني يقرر أن الصلاة والصوم والحج عبادةً ، كذلك العمل للحصول على عيشة راضية هنا عبادة محسوبة على الآخرة كما هي محسوبة على الدنيا .

كيف لا وقد استعمرنا الله في الأرض دونما استهدام فـ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب » (٦١: ١١).

فإستعمار الأرض المطلوب من ربنا لنا هو الذي لا يستهدم الآخرة بل ويستعمرها جمعاً بين الإستعمارين الصالحين وهو للكادحين الصالحين ، فـ « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه » (٦: ٨٤) كدحاً في كلا الإستعمارين .

فليس المنهج الإسلامي ليفتوت على ناهجيه دنياه لنيل الآخرة ، ولا آخرته لنيل الدنيا ، إذ ليستا - في الأصل - نقيضين أو بديلين في ذلك المنهج ، وإلا لم تستخدم الدنيا كمدرسة ومزرعة للآخرة

وما مذمة الحياة الدنيا في القرآن والسنة إلا جانبية تعني التي تفوت الآخرة ، فهي على حدّ تعبير الأمير عليه السلام تبصرة للآخرة : « من أبصر بها بصرته ومن أبصر اليها أعمته » .

فالمذاهب الروحية التي تحاول إستبقاء الدين عقيدة وعملية بعيدة عن نظام الحياة ، كما المذاهب المادية التي تحاول إستئصال الدين كأنه يناحر مصالح الحياة ، أو أن الدين لله والحياة للناس ، إنها مذاهب بين إفراطية وتفريطية بحق الدين والحياة ، حيث لم تعرف الدين ولا الحياة ، فالدين الحق هو الذي يكفل صالح الحياة الدنيوية إلى جانب صالح الحياة الأخروية ، دون تفدية لإحدهما للأخرى اللهم إلا تأصيلاً للأخرى لأنها الحياة الدائمة وهذه هي الفانية .

ذلك ، وليس الرخاء الظاهرة في الأمم المتحللة عن الإيمان والتقوى مما تبقى حيث تُبغى ، إنما هي جولات عابرات ، وهي مع الوصف حافلة بكل شقاء وخوف وعناء .

فمن ذلك سوء التوزيع في هذه الأمم مما يجعلها حافلة بالشقاء وبالأحقاد والمخاوف من الثورات والإنقلابات المتوقعة حيناً بعد حين، نتيجة الأحقاد الكظيمة والمظلمات العظيمة ، فهي بلاء رغم ظاهر الرخاء بالنعماء .

ذلك وعلى حدّ التعبير القرآني العبير « من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » (٢٠: ١٢٤) .

ولقد نلمس مختلف مظاهر الضنك في المعيشة خُلقية وسياسية

وإقتصادية حيث الإنهيار محلَّت على كل حلقاتها مهما كانت الظواهر والمظاهر براءة .

ذلك ، ولكن الصلة بالله في كل زوايا الحياة تجعل الحياة طيبة في الفقر والغنى ، في الضيق والسعة وعلى أية حال ، وتنمي محاولة النماء في مختلف جنبات الحياة ، مادية إلى روحية ، وروحية إلى مادية، تعيشان مع بعضهما البعض فتعيشان الإنسان كما يرضاه الرحيم الرحمان « فيأي آلاء ربكما تكذبان » ١٩ .

ولقد نسمع تلك القدسية في حديث قدسي يرويه الرسول (ص) عن الله مخاطباً لعباده في بلاده :

« يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا . . يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم . . يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم . . يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم . . يا عبادي إنكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . . يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم فيها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١) .

(١) رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي (ص) عن الله تبارك وتعالى .

* يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ
تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ قُلْ يَأْهْلَ
الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ
وَالنَّصَارَى مِنْ ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلِّمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٨٠﴾
وَحِسْبُؤُا ۤالَّذِينَ لَا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِرِّهِمْ يَعْمَلُونَ ﴿٨١﴾
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اَعْبُدُوا اللهَ رَبِّيْ وَرَبَّكُمْ
 اِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا وَنَّهُ النَّارُ
 وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ اَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا اِنَّ اللهَ
 ثَالِثُ ثُلَاثَةٍ وَمَا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا اِلٰهُ وَاحِدٌ وَّ اِنْ لَّمْ يَنْتَهُوْا
 عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٧٨﴾
 اَفَلَا يَتُوْبُوْنَ اِلَى اللّٰهِ وَيَسْتَغْفِرُوْنَهُ ۚ وَاللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ ﴿٧٩﴾
 مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ اِلَّا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهٖ الرُّسُلُ
 وَاُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ ۖ اَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
 الْآيٰتِ ثُمَّ اَنْظُرْ اَنِّىْ يُؤْفَكُوْنَ ﴿٨٠﴾ قُلْ اَتَعْبُدُوْنَ مِنْ
 دُوْنِ اللّٰهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۗ وَاللّٰهُ هُوَ السَّمِيْعُ
 الْعَلِيْمُ ﴿٨١﴾ قُلْ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لَا تَغْلُوْا فِيْ دِيْنِكُمْ غَيْرَ
 الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوْا اَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوْا مِنْ قَبْلُ وَاَضَلُّوْا
 كَثِيْرًا وَضَلُّوْا عَنْ سَوَآءِ السَّبِيْلِ ﴿٨٢﴾ لِّئِنْ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا
 مِنْ بَنِيْ اِسْرَءِيْلَ عَلٰى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسٰى ابْنِ مَرْيَمَ

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ
 عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا
 مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ
 أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾
 وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
 أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ * لَتَجِدَنَّ
 أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
 وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَيْسِيْنَ وَرُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
 وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ
 الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا
 مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ
 الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾
 فَاتَّبِعْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٧):

آية التبليغ هذه هي من معتركات الآراء بين الفريقين المسلمين ، هل
هي تبليغ ما أنزل إلى الرسول (ص) ككل ؟ أم كبعض مما أنزل إليه ونحن
لا نعرفه ؟ أم هي تحمل أمر التبليغ لولاية الأمر بعد الرسول (ص) ^(١) .

وهذه الآية نفسها ، ودون النظر إلى ملابسات نزولها - العدة - تدلنا إلى
المعنى منها صارحة صارخة ، حين تكون النظرة مجردة عن ملابسات
متعوذة وقضايا مذهبية وزوايا العصبية ، فكما الله مستقل بذاته في ألوهيته ،
كذلك كتابه مستقل في دلالة في دعوته .

فترى ماذا يُعنى هنا من « ما أنزل إليك » وهي من أخريات ما نزلت في
المائدة وقد نفّض الرسول (ص) يديه عن تبليغ الرسالة الإسلامية بكل
أصولها وفروعها ، فلم يبق إلا أن يرتحل إلى جوار رحمة ربه ، نافضاً يديه
عن كل ما كان عليه ؟ اللهم إلا . .

عناية كل « ما أنزل إليك » برُميتها تحوّل الآية إلى تهديد السلب
بالسلب : « وإن لم تبلغ ما أنزل إليك فما بلغت ما أنزل إليك » توضيح

(١) ذكر الفخر الرازي وجوهاً عشرة عاشرها الذي لم يرض بها تماماً هو أنها نزلت بحق
الامام علي (ع) رغم أن الوجوه التسعة قبلها لا تناسب دلالة الكتاب والسنة ، بل هي
وجوه مخترعة لتسد عن الوجه الوجه لعمزّل الآية .

فضيحه للواضح وضح النهار ، أن كل تارك لشيء تارك له ! ذلك ، ولم يسبق لذلك التعبير من نظير لهذا البشير النذير .

ثم وتراه أمر بتبليغ كل ما أنزل إليه دفعة واحدة ؟ ولم ينزل إليه دفعة واحدة حتى يبلغها دفعة واحدة ! كيف وقد نزل ما نزل إليه نجوماً تدريجية : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » (١٧ : ١٠٦) - « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً » (٢٥ : ٣٢) .

ومن ثم فما هو الحكم النازل عليه منذ بزوغ رسالته حتى الآن لم يبلغه ؟ والأحكام القرآنية معروفة ، كلما نزلت آية أو آيات كان يقرأها مباشرة ودون مكث ، فلم يكن مكثه إلا حسب مكث نزولها ليس إلا وكما أمر دون أي تباطؤ .

إذاً فهو بعض ما أنزل إليه ، فما هو ذلك البعض الذي لو لم يبلغه لم يبلغ شيئاً من رسالته ؟ فإن « رسالته » تعني كلها دون البعض منها وإلا لكانت العبارة « لم تبلغ ما أنزل إليك » أو « لم تبلغه » والنص « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ككلى ، فقد كانت رسالته هذه مربوطة النياط بتبليغ « ما أنزل إليك » وهو النازل الخاص إليه الذي يضمن في حضنه كل النازل عليه من رسالة الله من حيث المحتد والمنزلة .

فما هو « ما أنزل إليك » الذي « إن لم تفعل فما بلغت رسالته » وهو تعبير منقطع النظير في سائر القرآن يحمل حكماً منقطع النظير يبلغه ذلك البشير النذير تحقيقاً لبلاغ رسالة الله هذه الخالدة إلى يوم الدين ؟ .

ومن سمات « ما أنزل إليك » هنا المسماة تلويحاً فوق كل تصريح أنه « من ربك » دون « الله » أو « رب العالمين » مما يلمح صارحاً صارخاً أن « ما أنزل إليك » يجمع في حضنه كل الربوبية الربانية الخاصة بهذه الرسالة

السامية ! فهو في وحدته يحمل كل رسالات الله ! فد إن لم تفعل « تبليغ
« ما أنزل إليك من ربك » وأنت في حالة الارتحال إلى ربك بين آونة
وأخرى « فما بلغت رسالته » المتمثلة فيما ربّك به ربك رسولية ورسالية .

ذلك ، لأن « من ربك » تجمع تلك التربية الرسولية والرسالية القمة
المنقطعة النظير عن كل بشير ونذير ، وهي الشرعة الخالدة القرآنية بمن
ينذر بها ويبشر إلى يوم الدين كما « وذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

أتراها بعد أن التوحيد ؟ وقد بزغت به الرسالة وحتى النفس الأخير ،
أم هو من سائر الأصول الإسلامية ؟ فكذلك الأمر ! فضلاً عن فرع من
الفروع أم وسائر الفروع ! إضافة إلى أن الفروع غير مترابطة لحد لا يصح
بعض دون أخرى وهكذا الأصول .

هنا نتأكد أن « ما أنزل إليك من ربك » ليس لا من هذه الأصول ولا
من هذه الفروع ، حيث الرسول (ص) عاش حياته الرسالية بلاغاً لها كلها
فور نزول كلّ منها دونما أي إبطاء ، ثم « والله يعصمك من الناس » حيث
نجد ها هنا ولمرة يتيمة في القرآن كله ، هذه لا تناسب أهم الأصول وهو
التوحيد وقد أعلنه منذ البداية حتى النهاية إعلاناً وإعلاماً دائماً دونما تخوف
من جوّ الإشراك ، ولا الرسالة الجديدة الجادة التي كانت تحاربها الشرعة
الكتابية مع سائر الطوائف ملحدّين ومشركين ، فضلاً عن الفروع الأحكامية
المخاطب بها المؤمنون بهذه الرسالة ! .

وهذه عساكر من البراهين المجنّدة لتبين أن « ما أنزل إليك من ربك »
لا تعني الوجوه غير الوجهية المسرودة في بعض الكتابات التفسيرية
المشككة ، إنما هي نفس الرسالة المحمدية باستمراريتها إلى يوم الدين ،
فهي هي الخلافة العاصمة لها المعصومة كنفس الرسالة ، لأنها استمرارية
صالحة لهذه الرسالة السامية ، فمهما صرح القرآن بخلوده - في آيات عدة -
كقانون، كان مكان التصريح بالقيادة المعصومة الحاكمة بالقرآن خالياً .

وترى « ما أنزل اليك من ربك » هو النازل عليه بلغة القرآن أم بلغة السنة ؟ علّه بلغة القرآن وعلى ضوءه السنة في آيات الولاية الرسالية (١) ورواياتها حيث الأهمية الكبرى لمادة ذلك البلاغ تقتضي أن تذكر في القرآن والسنة بصيغ مختلفة ، ولكنها لما تبّلع بصورة رسمية واضحة لا تقبل التأويل ، فللجمع بين نصوص الولاية بتفسير بليغ في ذلك الحشد العام الهائم أهميته المنقطعة النظير لهذا البشر النذير .

ولذلك نرى في خطبة البلاغ تركيزاً بارزاً على هذه الآيات وتلكم الروايات ، تبليغاً بليغاً فائق التصور ، بالغ التصديق الحقيق ، وأهم الآيات

(١) وتلكم الآيات امثال آية : ٥ - التطهير ٢ - والمباهلة و ٣ - آية الولاية « انما وليكم الله » وآية : ٤ - الطاعة : « اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » وآيات ٥ - المودة في القربى وآية : ٦ - ميراث الكتاب « ثم أورثنا الكتاب » مكية ٧ - وأولوا الأرحام، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ٨ - وآية « ومن الناس من يشرى . . » ٩ - ويوم يعرض الظالم ١٠ - واني جاعلك للناس اماماً ١١ - ويتلوه شاهد منه ١٢ - ومن عنده علم الكتاب و١٣ - آية النصب « فإذا فرغت فانصب » وهي بين مكيات ومدنيات تدل بمختلف الدلالات على خلافة العصمة بعد الرسول (ص) ومن الأحاديث حديث الثقلين والوزارة والباب والأخوة .

والمصرحة من هذه الآيات هي آية الولاية « انما وليكم الله . . » النازلة في نفس المائدة وآية الطاعة وآية الميراث وآية النصب ، ثم من بينها آية الولاية تبيناً لمعناها انها الأولوية وكما يظهر من « ألسنت أولى بكم من أنفسكم . . » .

فآية التبليغ تحمل واجب البلاغ العام الجماهيري ببيان واضح ناصح عن هذه الخلافة المعصومة حيث الأفضلية الروحية قد لا تكفي سداً لثغر الإغتصاب فقد يقال إن القيادة الزمنية أمر غير القيادة الروحية وهما وإن إجتمعاً في شخص الرسول (ص) ولكنهما بعده قد يقتسمان ، ولكن الولاية بمعنى الأولوية الطليقة الشرعية الشاملة للقيادة الزمنية والروحية تكفي بياناً عن هذه المهمة الكبرى ، فآية ميراث الكتاب والعض وذا القربى مكيات وبقيّة الثلاث عشر مدنيات .

في مادة البلاغ هي آية النصب في الانشراح وآية الولاية في نفس المائدة ، فان سائر الآيات إنما تثبت الأفضلية الروحية ، وقد يذب عنها بأن القيادة الزمنية قد تنفصل عن الروحية ، وبلاغ آية الولاية تبين لمعناها الأولوية كما الرسول أولى بالمؤمنين من أنفسهم^(١) .

(١) وهذا أهم الوجوه التي اعتمد عليها الرازي في تفسيره بين الوجوه العشرة ، حيث رفض وجه ولاية الأمر واختار البقية وركز على مخافة أهل الكتاب لاحتراف الآية بآتي التنديد بهم قائلًا : واعلم أن هذه الروايات - التي تعني نزول الآية بشأن الغدير - وإن كثرت إلا أن الأولى حملها على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى ! .

وبقية الوجوه كالتالية : ١ - انها نزلت في قصة الرجم والقصاص ! وهل كان يخاف اليهود وهم كانوا تحت ذمته ؟ ٢ - نزلت في عيب اليهود واستهزاءهم بالدين والنبي سكنت عنهم فنزلت ! ومتى كان يسكت عن ذلك ولم يكن يسكت عن هزء المشركين في العهد المكي ؟ ٣ - لما نزلت آية التخيير « يا أيها النبي قل لأزواجك » فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا فنزلت ! ولا خوف عن قراءة آية التخيير إذ لم تكن مهمته المقام معهن وهن يردن الحياة الدنيا ! ٤ - انها نزلت في امر زيد وزينب ؟ ولم يكتف الرسول (ص) اصل زواجه بها اللهم إلا هواه فيها كما امر الله وقالت عائشة من زعم ان رسول الله (ص) كتم شيئاً من الوحي فقد اعظم الفرية على الله والله تعالى يقول : « بلغ ما انزل إليك » ولو كتم رسول الله شيئاً من الوحي لكتم قوله « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » . ٥ - انها نزلت في الجهاد فان المنافقين كانوا يكرهونه فكان يمسك احياناً عن حثهم على الجهاد ! وكيف هابهم ولم يكن يهاب المشركين الرسميين أن يقاتلهم ؟ ٦ - لما نزل قوله تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » سكنت الرسول (ص) عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية ! وهل نزلت بسبهم وعصمه عن ان يسبوا الله عدواً بغير علم ؟ ٧ - نزلت في حقوق المسلمين وذلك لانه قال في حجة الوداع لما بين الشرايع والمناسك هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال (ص) اللهم اشهد ! وهلا بين الشرائع حتى بينها في حجة الوداع وما هي الشرائع التي لما بينها ؟ ٨ - روى انه (ص) نزلت تحت شجرة في بعض اسفاره وعلق سيفه عليها فأثابه اعرابي وهو نائم فأخذ سيفه واخرطه وقال يا محمد من يمنعك مني ؟ فقال : الله فرعدت =

إذا فـد بلغ « أمر ببلاغ ما أنزل عليه في العهدين : المكي والمدني كتاباً وسنة ، فمن المكي « فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » ومن المدني آية الولاية « إنما وليكم الله . . . » وكما نسمع الرسول (ص) في تبليغه الهام يوم الغدير يجمع بين هامتها ما نزل عليه في العهدين ، شارحاً لها كما يجب بشأن الأولوية الزمنية والروحانية لأئمة أهل البيت عليهم السلام .

فليس ذلك لأن آيات الولاية ورواياتها لم تكن لتدل على هذه الهامة الرسالية ، فقد دلت واضحة وضح النهار ! ولكن « بلغ » تعني بُعدي الإيضاح البارع الذي لا يقبل أي تأويل ، والإفصاح على رؤوس الأشهاد في حشد عامٍ هامٍ تمد إليه الأعناق ، ويعرف هامة بلاغه خاص وعام ، ولا يقدر على إخفائه أصلاً ودلالة أي مسلم ، خلاف النصوص الخاصة من السنة التي قد تخفي ، أم آيات قد تؤول ، اللهم إلا آية الولاية في نفس السورة ، وقد أمر بتبليغها تفسيراً لها يوم الغدير .

لذلك نراه صميماً على كتابة الوصية بذلك البلاغ حتى يتم اللفظ إلى الكتب ، ولكنه حصل ما حصل ! .

فلقد حصص الحق المعني من « ما أنزل إليك » أنها البلاغ الذي لولاه فكأنما لم يكن الرسول مبلغاً لرسالة الله ، فسواء ألم يبلغ رسالة الله بأسرها أم بلغها ولم يبلغ استمراريتها فيمن يمثلها رسولاً ورسالة .

يد الأعرابي وسقط السيف من يده وضرب برأسه الشجرة حتى انشردماغه ؟ وتروى ما هو الذي أنزل إليه ولم يبلغها حتى حصل ما حصل وهكذا يضطرب مثل الرازي كالأرشيّة في الطوى البعيدة ويرجع ما لا يناسب تخوفه عن بلاغ ما أنزل إليه ، فإن هذه الأمور هي كلها ادنى تخوفاً بكثير من أصل الدعوة التوحيدية في جموع المشركين وهذا القوم اللد !

فكما أن القانون الصالح دون من يطبّقه صالحاً هو غير صالح ،
والقانون غير الصالح مع يطبّقه من الصالحين غير صالح ، فلا بدّ لإصلاح
المجتمع من صالح القانون وصالح من يطبّقه ويحكم به .

كذلك القرآن حيث يحمل الشريعة الأخيرة الخالدة لا يصلح شريعة
أبدية لولا الرسول (ص) ومن يحدو محذاه وينحو منحاه بعده دعوة به
وتطبيقاً له .

فدور الرسول (ص) زمن حياته هو دور الوحي قرآنياً وبسته كأصل
وضابطة ، وأما التفسير الصالح المعصوم لذلك القانون المعصوم ، بياناً
لكل ما تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة ، فهو بحاجة إلى دور الخلافة
المعصومة طوال قرونها الظاهرة حتى تنضم كامل التبصرة إلى كمال
القانون ، ومن ثم - في زمن الغيبة - فالنواب العامون من الرعيل الأعلى من
ربانيّ الأمة في شورتهم الصالحة ، هم مُدراء الشريعة الذين يحق لهم أن
يحكموا بالكتاب والسنة ، ثم وفي دولة صاحب الأمر عجل الله تعالى فرجه
يرجع دور الحكم إلى مدار العصمة كما كانت زمن الرسول (ص) والآخر
عشر الأئمة قبله عليهم السلام .

وهذه الأدوار المتتالية التي رسمها يوم الغدير ببلاغ « ما أنزل إليك »
هي التي تكمل الدين وتتم النعمة حيث « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وهي التي تؤسس الذين كفروا
من نقض أو انتقاص ذلك الدين المتين .

فلا يعني يوم الغدير - فقط - يو تأمير الأمير (ع) فلإنما هو كنقطة بداية
وانطلاق لتثبيت الإستمرارية الرسولية والرسالية فيمن يحملها وما يحملها من
القرآن المعصوم والقوادر المعصومين عليهم السلام .

فحقاً يقال دونما مجازفة أو مبالغة « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته »

١٠٢ الجزء السادس

فحق الرسالة وحاقها كما استمراريته بمن يمثل الرسول المعصوم (ص)
دعوة بالكتاب المعصوم .

وهنا يحق القول « اليوم يشس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم
واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً » .

ذلك ، وكلما كان الدين والقوانين أتم وأبقى ، كانت الخلافة
المعصومة للحفاظ عليه أوجب وأحرى ، فكيف يُظن برسولنا الأعظم (ص)
أن يُهمل الأمة بعده بلا راعٍ يراها حق رعايتها رسوليّاً ورساليّاً .

فلقد كان (ص) إذا يخرج في غزوة أو غيرها يخلف مكانه وبمكانته
رجلاً يدير رحي المجتمع الإسلامي حتى يرجع ، كما خلف علياً (ع)
قائلاً : « إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك » .

فمن كان هذا دينه وهاتيك قوانينه وسيرته في حياته الرسولية المحدودة
فما تظن به يفعل في حياته الرسالية بعده وإلى يوم القيامة ؟ فهل تظنه يُهمل
الأمة حيارى بعد إرتحاله تعصف بهم عواصف الضلالة دون ممثل له يمثله
في قيادتهم الروحية والزمنية، مع أن الضرورة إلى ذلك أشد والحاجة إليه
أكد ! .

ذلك ، وترى العصمة المضمونة للرسول (ص) حتى يبلغ ما أنزل إليه
هي العصمة عن بأس المشركين وقد فتحت عاصمة التوحيد من ذي قبل
واستسلمت جموع الإشرار أمامه طوعاً أو كرهاً ؟ ! .

أو ترى أن ضمان العصمة هو - فقط - عن بأس أهل الكتاب ؟ وقد
أسست دولة الاسلام في المدينة والرسول (ص) يعيش قمة قوتها وشوكتها
وهو في أخريات أيام حياته الرسولية ؟ !

وما احتفاف الآية بعصمتها يأتي التنديد بأهل الكتاب - ولا سيما في

ترتيب التأليف الذي قد يختلف عن ترتيب التنزيل - ليس إحتفاقها هكذا مما يبرهن على أنه كان يخاف منهم في ذلك البلاغ ، فإن دل ذلك على شيء فإنما هو إنباءهم أن هذه الرسالة خالدة بكتابها ومن يشر بها من القمة العليا العاصمة المعصومة فـ« اليوم يشس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

فهما لم يكن ترتيب التنزيل قاصداً أحياناً حيث ينزل حسب الحاجات والطلبات غير المترابطة أحياناً ، فترتيب التأليف قاصداً دون ريب ، وعلينا التدبر للحصول على تلك القصود الربانية في ترتيب التأليف ، وهو هنا كما بينا من بين الرباط بينها وبين الآيتين وما أبلغه رباطاً وأفصحته ترتيباً .

ذلك ، وكيف يخاف أهل الكتاب في أخريات أيامه وهو في قمة القوة والشوكة التي كان يهابها الملوك والرؤساء ، ولم يكن يخاف المشركين الذين هم ألدّ منهم وأخطر منذ بزوغ رسالته .

وما ذلك الإحتفاف الخاص بآتي أهل الكتاب إلا لأنهم هم الذين كانوا يأملون ختام هذه الرسالة بختام حياة الرسول (ص) ويعملون لإنهاءها بحيل كتابية أكثر مما يحتاله المشركون .

ذلك ، فالعصمة الموعودة هنا ليست إلا عن هؤلاء الناس الناقمين من ولي الأمر بعده (ص) مهما شملت عصمته عن كل المخاوف بصورة طليقة ما كانت من ذي قبل كما ورد في أسباب النزول .

إذاً فماذا تراه كان يخافه الرسول (ص) إن بلغ هاتيك الرسالة ببلاغ « ما أنزل إليك من ربك » إلا الخلافة المرموقة الممدودة إليها أعناق جموع نعرفهم .

فليس الناس في « والله يعصمك من الناس » إلا هؤلاء الناس

الناقمين ممن تحقق له ولاية الأمر والإمرة بعد الرسول (ص) حيث كان يخاف تهريجهم وتحريضهم على أصل الرسالة تكذيباً له (ص) وهو بين ظهرانيهم ، ولا يعنى الكفر هنا إلا الكفر بذلك البلاغ الرسالي الخاص .

أجل ، إن الرسول (ص) ما كان يخاف أن يُقتل في يوم من أيام رسالته ، ولا في العهد المكي الهرج المريج الحرج ، فهل كان يخاف في قمة القوة والسيادة أواخر العهد المدني ! .

فـ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونهم لا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً « (٣٩ : ٣٣) تسلب كل مخافة في الدعوة الرسالية عن كل الرسل ، فضلاً عن سيد المرسلين وخاتم النبيين وأفضل الخلق اجمعين ، وفي قمة الشوكة والسلطة الروحية والزمنية ! .

وحتى إن كان يخشى الناس أحياناً لم يكن يخشاهم على حياته ، بل كان يخشاهم على رسالته أن تهتك أو يفتك بها كما في قصة زواجه بزوجة زيد بعد أن قضى منها وطراً ، لأنه خلاف سنة جاهلية عريقة ، ولكنه طبق أمر الله على خشيته تلك التي هي في الحق خشية على رسالة الله .

وأما هنا فقد استمهل - دون إهمال - أمر ذلك البلاغ نظرة أمر جديد جادٍ أو طمأنينة عن بأس الناس حتى نزلت « والله يعصمك من الناس » فقام يوم الغدير بذلك البلاغ ، إنه كان يخاف إن بلغ هاتيك الرسالة الهامة المرموقة الممدودة إليها الأعناق أن يكذبه نفر ممن آمن به جهاراً متهمين إياه إستغلاله في بلاغ الخلافة فتنفصم بها عرى دعوته الرسالية فيكفرون ويكفر معهم آخرون ، فيتزلزل أركان رسالته العالمية الخالدة بينما هو يغادرهم إلى جوار رحمة ربه .

لذلك ، ولأن الأمر : « بلغ ما أنزل إليك من ربك » ما كان محدداً بوقت ، كان يرى ترجيحاً مؤقتاً لأهم الأمرين أن يبطل تأجيلاً لذلك البلاغ

نظرة أمر يتلو لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً لا يكون هكذا إمرأ ، وببدله من بعد عسره يسراً حتى نزلت آية البلاغ مرة ثالثة بهذه التأكيد القيمة الحادة الجادة ، مُطْمَئِنَّة إياه عصمته عن بأس الناس فقد نزلت في الأولى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » وزيد عليها في الثانية « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ثم في الثالثة « والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين » (١) .

(١) ابن القتال الشيرازي في روضة الواعظين عن الامام الباقر في حديث مفصل قال الله لرسوله : فأقم يا محمد (ص) علماً علماً وخذ عليهم البيعة وجدد عهدي وميثاقي لهم الذي واثقتهم عليه فإني قابضك إلي فخشي رسول الله (ص) من قومه وأهل النفاق والشقاق ان يفرقوا ويرجعوا إلى الجاهلية لما عرف من عداوتهم ولما ينطوي عليه انفسهم لعلي من العداوة والبغضاء وسئل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس وانتظر أن يأتيه جبرائيل بالعصمة من الناس من الله عز وجل فأخبر ذلك إلى أن بلغ مسجد الخيف فأتاه جبرائيل وأمره ان يعهد عهده ويقيم حجته علماً للناس ولم يأت به بالعصمة من الله عز وجل الذي اراد حتى بلغ كراع الغميم بين مكة والمدينة فأتاه جبرائيل وأمره بالذي أمر به من قبل ولم يأت به بالعصمة فقال يا جبرائيل اني لأخشى قومي أن يكذبوني ولا يقبلوا قلبي في علي فرحل فلما بلغ غدير خم قبل الجحفة بثلاث أميال أتاه جبرائيل على خمس ساعات مضت من النهار بالزجر والانتهاز والعصمة من الناس فقال يا محمد: ان الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس» فأمر رسول الله (ص) عندما جاءته العصمة - وذكر قصة البلاغ يوم الغدير على تفصيله إلى أن قال (ص) في خطبة الغدير : معاشر الناس ما قصرت عن تبليغ ما أنزله الله تعالى إلي وأنا مبين لكم سبب نزول هذه الآية : ان جبرائيل هبط إلي مراراً ثلاثة أيامني عن السلام ربي وهو السلام ان أقوم في هذا المشهد فأعلم كل ابيض واسود ان علي بن ابي طالب اخي ووصيي وخليفتي وهو الامام بعدي الذي مني محل هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ، هو وليكم بعد الله ورسوله - إلى آخر الخطبة الطويلة وقد طالعت في الرمضاء زهاء ساعتين في ذلك الملأ العام من المسلمين .

ذلك ، ولقد اصفقت الأمة الاسلامية بأسرها من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن المفسرين وسائر المؤلفين على نزول هذه الآية بشأن بلاغ الأمر لعلي أمير المؤمنين (ع) لحد نسمع ابن مسعود ^(١) ينقل قراءتها بزيادة - ان علياً مولى المؤمنين - مما خيل إلى بعض البسطاء أنها كانت في الآية فأسقطت ولم تسقط إلا عقلته الإسلامية ! .

ولقد ورد نزولها فيه (ع) بشأن قصة الغدير عن ثلاثين مصدراً من اخواننا ^(٢) ورواته من الصحابة مائة وعشرون صحابياً ومن التابعين اربع

(١) الحافظ ابن مردويه ص ١٠٨ اخرج بإسناده ابن مسعود انه قال : كنا نقرأ على عهد رسول الله (ص) : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - إن علياً مولى المؤمنين - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ، وقد رواه في الدر المنثور ٢٩٨: ٣ والشوكاني في فتح القدير والأربلي في كشف الغمة عنه عن زر عن ابن مسعود .

(٢) يذكرها المغفور له العلامة الأميني في ١: ٢١٤ - ٢٢٣ هكذا :

نزلت هذه الآية الشريفة يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة حجة الوداع (١٠ هـ) لما بلغ النبي (ص) غدير خم فأتاه جبرائيل بها على خمس ساعات مضت من النهار فقال : يا محمد (ص) إن الله يقرئك السلام ويقول لك : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » في علي « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . . . » وكان أوائل القوم - وهم مائة ألف أو يزيدون - قريباً من الجحفة فأمره أن يرد من تقدم منهم ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان وإن يقيم علياً (ع) علماً للناس وبلغهم ما أنزل الله فيه وأخبره بأن الله عز وجل قد عصمه من الناس ، وما ذكرناه من المتسالم عليه عند أصحابنا الإمامية غير أنا نحتج في المقام بأحاديث أهل السنة في ذلك فإليك البيان :

١ - الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب الولاية عن زيد بن ارقم قال : لما نزل النبي (ص) بغدير خم في رجوعه عن حجة الوداع وكان في وقت الضحى وجر شديد أمر بالدوحات فقامت ونادى الصلاة جامعة فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال : إن الله تعالى أنزل إلي : « بلغ ما أنزل إليك من ربك والله يعصمك من الناس » .

وقد أمرني جبرائيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد وأعلم كل ابيض وأسود ان علي بن ابي طالب اخي ووصي وخليفتي والامام بعدي فسألت جبرائيل ان يستعفي لي ربي لعلمي بقلة المتقين وكثرة المؤذنين لي واللائمين لكثرة ملازمتي لعلي وشدة إقبالي عليه حتى سموني أذنًا فقال تعالى : « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو اذن قل اذن خير لكم » ولو شئت ان اسميهم وأدل عليهم لفعلت ولكني بسترهم قد تكرمت فلم يرضى الله إلا بتبليغي فيه فاعلموا معاشر الناس ذلك، فان الله قد نصبه لكم ولياً وإماماً وفرض طاعته على كل احد ماض حكمه جائز قوله ، ملعون من خالفه ، مرحوم من صدقه ، اسمعوا واطيعوا فان الله مولاكم وعلي إمامكم ، ثم الإمامة في ولدي من صلبه إلى القيامة لاحلال إلا ما احله الله ورسوله ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله وهم فما من علم إلا وقد احصاه الله في ونقلته إليه فلا تضلوا عنه ولا تستكفوا منه فهو الذي يهدي إلى الحق ويعمل به ، لن يتوب الله على أحد أنكره ولن يغفر له ، حتماً على الله ان يفعل ذلك أن يعذبه عذاباً نكراً ابد الآبدين فهو افضل الناس بعدي ما نزل الرزق وبقي الخلق، ملعون من خالفه ، قولي عن جبرائيل عن الله فلتنظر نفس ما قدمت لغد .

افهموا محكم القرآن ولا تتبعوا مشابيه ، ولن يفسر ذلك لكم إلا من أنا آخذ بيده وشائل بعضه ، ومعلمكم : ان من كنت مولاه فهذا علي مولاه وموالاته من الله عز وجل انها انزلها علي ، ألا وقد اديت ، ألا وقد بلغت ، ألا وقد اسمعت ، ألا وقد أوضحت ، لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره ، ثم رفعه إلى السماء حتى صارت رجله مع ركبة النبي (ص) وقال : معاشر الناس ! هذا اخي ووصي وواعي علمي وخليفتي علي من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربي ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه والعن من أنكره واغضب علي من جحد حقه ، اللهم إنك انزلت عند تبين ذلك في علي : اليوم اكملت لكم دينكم « بإمامته فمن لم يأت به ويمن كان من ولدي من صلبه إلى يوم القيامة فأولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون ، ان ابليس أخرج آدم (ع) من الجنة مع كونه صفوة الله بالحسد فلا تحسدوا فتحبط أعمالكم وتزل أقدامكم ، في علي نزلت سورة « والعصر إن الانسان لفي خسر » .

معاشر الناس ! آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزل معه من قبل ان نطمس وجوهاً فنردها على ادبارهم أو نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت ، النور من الله في ثم في علي ثم في النسل منه إلى القائم المهدي (ع) معاشر الناس سيكون من بعدي ائمة يدعون إلى -

وثمانون تابعياً وطبقات رواته من أئمة الحديث وحفاظه مأتان وستون نسمة والمؤلفون فيه من الفريقين ستة وعشرون ، مما يجعل نزول هذه الآية بشأن غدیر الأمير (ع) من قمة المتواترات الإسلامية ، فلا محيد عن القول به إلا لمن يكفر بهذه الآية و « ان الله لا يهدي القوم الكافرين » ولقد بلغت من عصمته تعالى رسوله (ص) من بأس الناس في ذلك البلاغ المبين إلى أن هنا الامام علياً (ع) في ولايته الشيخان وهما رأس الرؤوس في النعمة من إمرته (ع) يذكرها إخواننا عن ستين مصدراً ولا ينبيك مثل خبير إذ قال له : يخ بخ لك يا علي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة (١) .

النار ويوم القيامة لا ينصرون ، وان الله وأنا بريان منهم ، انهم وانصارهم واتباعهم في الدرك الأسفل من النار وسيجعلونها ملكاً اغتصاباً فعندها يفرغ لكم ايها الثقلان ويرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تتصران - الحديث ، ثم نقل قصة الغدير هذه عن بقية الثلاثين مصدراً .

(١) لقد روى حديث التهنئة فيمن رواه الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة بإسناده عن البراء بن عازب ، والامام احمد في مسنده ٤ : ٢٨١ عنه والحافظ أبو العباس الشيباني بالاسناد عنه والحافظ أبو يعلى عنه والحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره ٣ : ٢٨٤ بالاسناد عن ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي والحافظ احمد بن عقدة في كتاب الولاية بالاسناد عن سعد بن ابي وقاص والحافظ أبو عبد الله المرزباني عن ابي سعيد الخدري والدارقطني وابن بطة عن البراء بن عازب والباقلاني في التمهيد في اصول الدين ١٧١ والخركوشي النيسابوري في شرف المصطفى عنه وابن مردويه في تفسيره عن ابي سعيد الخدري والثعلبي في تفسيره وابن سمان الرازي عن ابن عازب والبيهقي عنه والخطيب البغدادي بسندين صحيحين عن ابي هريرة ٢٣٢ - ٢٣٣ وابن المغازلي في المناقب والمعاصي في زين الفتى والسمعاني في فضائل الصحابة عن ابن عازب والغزالي في سر العالمين ٩ والشهرستاني في الملل والنحل والخوازمي في مناقبه ٩٤ وابن الجوزي عن ابن عازب وفخر الدين الرازي في تفسيره الكبير وابن الأثير الشيباني في النهاية ٤ : ٢٤٦ والتنزي في الخصائص العلوية .

فما أظلمه من ينكر نزول آية التبليغ بشأن تأمير الأمير (ع) يوم الغدير وقد أضفقت الآية نفسها بمتواتر الرواية بشأن نزولها على ذلك ، أوليس نكرانه كفرة بكتاب الله وسنة رسول الله (ص) !؟ و « إن الله لا يهدي القوم الكافرين » .

لقد طالت المحاولات الناقمة من الامام علي (ع) أن تجمد دلالة الآية والولاية المصرح بها في رواية الغدير عن دلالتها الواضحة على الأولوية الطليقة للإمام علي (ع) بإمرة المؤمنين ، ولكنها في حقل البرهان جامدة خامدة لا ترجع إلا بفضح محاوليها والمحتالين فيها .

وابن الأثير والكنجي الشافعي في كفاية الطالب ص ١٦ وسبط بن الجوزي وعمر بن محمد الملا في وسيلة المتعبدين والطبري في الرياض النضرة والحموي في فرائد السمطين و ٩ النيسابوري وولي الدين الخطيب في مشكاة المصابيح ٥٥٧ وابن كثير في البداية والنهاية ٥ : ٢٠٩ - ٢١٠ والمقرئزي المصري في الخطط ٣ : ٢٢٣ وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة والقاضي نجم الدين الأذري في بديع المعاني ٧٥ والميمني في شرح الديوان والسيوطي في جمع الجوامع والسهمودي في وفاء الوفاء بإخبار دار المصطفى ٣ : ١٧٣ والقسطلاني في المواهب اللدنية ٣ : ١٣ في معنى المولى والبخاري وابن حجر العسقلاني في الصواعق المحرقة ٢٦ والسيد علي بن شهاب الدين الهمداني في مودة القربى والسيد محمود الشبخاني القادري في الصراط السوي في مناقب آل النبي والمناوي في فيض القدير ٦ : ٢١٨ وباكثير المكي في وسيلة المآل في عد مناقب آل والزرقاني المالكي في شرح المواهب ٧ : ١٣ وحسام الدين بن محمد بايزيد السهاري في مناقب الرافض والبدخشاني في كتابيه مفتاح النجا في مناقب آل العباد ونزل الأبرار بما صح في أهل البيت الأطهار والشيخ محمد صدر العالم في معارج العلى في مناقب المرتضى والعمرى الدهلوي والسيد محمد الصنعاني في الروضة الندية شرح التحفة العلوية والكهنوي في مرآت المؤمنين في مناقب أهل بيت سيد المرسلين ومحمد محبوب العالم في تفسير شاهي والسيد احمد زيني دحلان في الفتوحات الاسلامية ٣ : ٣٠٦ والشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي المدني في حياة علي بن أبي طالب ٢٨ عن ابن عازب .

وكيف ينكر أو يتجاهل ما أصفقت الأمة الإسلامية بنقله من
المؤرخين ^(١) والمحدثين ^(٢) والمفسرين ^(٣) والمتكلمين واللغويين .

(١) فمن المؤرخين البلاذري في أنساب الأشراف وابن قتيبة في المعارف والامامة
والسياسة والطبري في كتاب مفرد وابن زلاق الليثي في تأليفه والخطيب البغدادي في
تاريخه وابن عبد البر في الاستيعاب والشهرستاني في المل والنحل وابن عساكر في
تاريخه وياقوت الحموي في معجم الأدباء ١٨ : ٨٤ وابن الأثير في أسد الغابة وابن أبي
الحديد في شرح النهج وابن خلكان في تاريخه والياضي في مرآت الجنان وابن الشيخ
البلوي في ألف باء وابن كثير في البداية والنهاية وابن خلدون في مقدمة تاريخه والذهبي
في تذكرة الحفاظ والنويري في نهاية الأرب في فنون الأدب والعسقلاني في الاصابة
وتهذيب التهذيب وابن الصباغ في الفصول المهمة والمقرئزي في الخطط والسيوطي
في جمع من كتبه والقمراني في أخبار الدول ونور الدين الحلبي في السيرة الحلبية
وغيرهم .

(٢) ومن المحدثين الكبار الامام الشافعي كما في نهاية ابن الأثير والامام احمد بن حنبل
في مسنده ومناقبه وابن ماجه في سننه والترمذي في صحيحه والنسائي في الخصائص
وأبو يعلى الموصلي في مسنده والبغوي في السنن والدولابي في الكنى والأسماء
والطحاوي في مشكل الآثار والحاكم في المستدرک وابن المغازلي في المناقب وابن
مندة الأصبهاني بعدة طرق في تأليفه والخطيب الخوارزمي في المناقب ومقتل الامام
السيط (ع) والكنجي في كفاية الطالب ومحجب الدين الطبري في الرياض النضرة وذخائر
العقبى والحموي في فرائد السمطين والهيثمي في مجمع الزوائد والذهبي في
التلخيص والجزري في أسنى المطالب والقسطلاني في المواهب اللدنية والمتقي
الهندي في كنز العمال والهروي القاري في المرقاة في شرح المشكاة وتاج الدين
المناوي في كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق وفيض القدير والشيخاني القادري
في الصراط المستقيم في مناقب آل النبي وباكثير المكي في وسيلة المآل في مناقب آل
والزرقاني في شرح المواهب وابن حمزة الدمشقي في كتاب البيان والتعريف وغيرهم .

(٣) ومن أئمة التفسير الطبري والثعلبي والواحدي في أسباب النزول والقرطبي وأبو السعود
والفخر الرازي وابن كثير والنيشابوري وجلال الدين السيوطي والخطيب الشربيني
والألوسي وكثير غيرهم .

ذلك ورواة الغدير من الصحابة مائة وعشر ^(١) ومن التابعين أربعة

- (١) وأولئك هم حسب حروف الهجاء : ١ - أبو هريرة ٢ - أبو ليلى الأنصاري ٣ - أبو زينب بن عوف الأنصاري ٤ - أبو فضالة الأنصاري ٥ - أبو قدامة الأنصاري ٦ - أبو عمرة بن عمرو بن محصن الأنصاري ٧ - أبو الهيثم بن التيهان ٨ - أبو رافع القبطي ٩ - أبو ذؤيب خويلد بن خالد بن محرث الهذلي ١٠ - أبو بكر بن أبي قحافة ١١ - أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي ١٢ - أبي بن كعب الأنصاري ١٣ - أسعد بن زرارة الأنصاري ١٤ - أسماء بنت عميس الخثعمية ١٥ - أم سلمة ١٦ - أم هاني بنت أبي طالب ١٧ - أبو حمزة انس بن مالك الأنصاري ١٨ - براء بن عازب الأنصاري الأوسي ١٩ - بريدة بن الحصيب أبو سهل الأسلمي ٢٠ - أبو سعيد ثابت بن وديعة الأنصاري ٢١ - جابر بن سمرة بن جنادة أبو سليمان السوائي ٢٢ - جابر بن عبد الله الأنصاري ٢٣ - جبلة بن عمرو الأنصاري ٢٤ - جبير بن مطعم بن عدي القرشي ٢٥ - جرير بن عبد الله بن جابر البجلي ٢٦ - أبو ذر جندب بن جنادة الغفاري ٢٧ - أبو جنيدة جندع بن عمرو بن مازن الأنصاري ٢٨ - حبة بن جوني أبو قدامة العُزَري ٢٩ - حُبش بن جنادة السلولي ٣٠ - حبيب بن بديل بن ورقاء الخزاعي ٣١ - حذيفة بن أسيد أبو شريحة الغفاري ٣٢ - حذيفة بن اليمان ٣٣ - حسان بن ثابت ٣٤ - الإمام الحسن المجتبي (ع) ٣٥ - الإمام الحسين الشهيد (ع) ٣٦ - أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري ٣٧ - أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ٣٨ - خزيمة بن ثابت الأنصاري ٣٩ - أبو شريح خويلد ابن عمر الخزاعي ٤٠ - رفاعة بن عبد المنذر الأنصاري ٤١ - زبيد بن العوام ٤٢ - زيد بن أرقم الأنصاري ٤٣ - أبو سعيد زيد بن ثابت ٤٤ - زيد بن يزيد بن شراحيل الأنصاري ٤٥ - زيد بن عبد الله الأنصاري ٤٦ - أبو اسحاق سعد بن أبي وقاص ٤٧ - سعد بن جنادة العوفي ٤٨ - سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي ٤٩ - أبو سعيد الخدري ٥٠ - سعيد بن زيد القرشي ٥١ - سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري ٥٢ - أبو عبد الله سلمان الفارسي ٥٣ - أبو مسلم سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي ٥٤ - أبو سليمان سمرة بن جندب الفزاري حليف الأنصار ٥٥ - سهل بن حنيف الأنصاري ٥٦ - أبو العباس سهل بن سعد الأنصاري ٥٧ - أبو أمامة الأنصاري ٥٨ - ضميرة الأسدي ٥٩ - طلحة بن عبيد الله التميمي ٦٠ - عامر بن عمير النعميري ٦١ - عامر بن ليلى بن حمزة ٦٢ - عامر بن ليلى الغفاري ٦٣ - أبو الطفيل عامر بن واثلة -

وثمانون (١) ومن العلماء الرواة عن الصحابة والتابعين من القرن الثاني

الليثي ٦٤ - عائشة بنت أبي بكر ٦٥ - عباس بن عبد المطلب ٦٦ - عبد الرحمن بن عبد رب الأنصاري ٦٧ - أبو محمد عبد الرحمن بن عوف ٦٨ - عبد الرحمن بن يعمر الدليمي ٦٩ - عبد الله بن أبي عبد الأسد المخزومي ٧٠ - عبد الله بن بديل بن ورقاء ٧١ - عبد الله بن بشير ٧٢ - عبد الله بن ثابت الأنصاري ٧٣ - عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي ٧٤ - عبد الله بن حنطب القرشي المخزومي ٧٥ - عبد الله بن ربيعة ٧٦ - عبد الله بن عباس ٧٧ - عبد الله بن أبي أوفى علقمة الأسلمي ٧٨ - أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي ٧٩ - عبد الله بن مسعود ٨٠ - عبد الله بن ياميل ٨١ - عثمان بن عفان ٨٢ - عبيد بن عازب الأنصاري ٨٣ - عدي بن حاتم ٨٤ - عطية بن بسر المازني ٨٥ - عتبة بن عامر الجهني ٨٦ - علي بن أبي طالب أمير المؤمنين (ع) ٨٧ - عمار بن ياسر ٨٨ - عمارة الخزرجي الأنصاري ٨٩ - عمر بن أبي سلمة بن عبد الأسد ٩٠ - عمر بن الخطاب ٩١ - عمران بن حصين الخزاعي ٩٢ - عمرو بن الحمق الخزاعي ٩٣ - عمرو بن شراحبيل ٩٤ - عمرو بن العاص ٩٥ - عمرو بن مرة الجهني ٩٦ - الصديقة الطاهرة عليها السلام ٩٧ - فاطمة بنت حمزة ٩٨ - قيس بن ثابت الأنصاري ٩٩ - قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ١٠٠ - كعب بن عجرة الأنصاري ١٠١ - مالك بن الحويرث الليثي ١٠٢ - المقداد بن عمرو الكندي ١٠٣ - ناجية بن عمرو الخزاعي ١٠٤ - أبو برزة فضلة بن عتبة الأسلمي ١٠٥ - نعمان بن عجلان الأنصاري ١٠٦ - هاشم المرقال ابن عتبة بن أبي وقاص الزهري ١٠٧ - أبو وسمه وحشي بن حرب الحبشي الحمصي ١٠٨ - وهب بن حمزة ١٠٩ - أبو جحيفة وهب بن عبد الله الموائي ١١٠ - أبو مرازم يعلى بن مرة بن وهب الثقفي .

فهؤلاء مائة وعشرة من اعظم الصحابة الذين وجدنا روايتهم لحديث الغدير ولعل هؤلاء الذين ما وجدناهم اكثر بكثير كما هو قضية جمع الغدير الكثير الكثير .

(١) التابعون حسب حروف التهجى : ١ - أبو راشد الجرائي ٢ - أبو سلمة ٣ - أبو سليمان

المؤذن ٤ - أبو صالح السمان ذكوان ٥ - أبو عنفوان المازني ٦ - أبو عبد الرحيم الكندي

٧ - أبو القاسم اصبع بن نباتة ٨ - أبو ليلى الكندي ٩ - إياس بن نذير ١٠ - جميل بن

عمارة ١١ - حارثة بن نصر ١٢ - حبيب بن أبي ثابت ١٣ - الحرث بن مالك

١٤ - الحسين بن مالك بن الحويرث ١٥ - حكيم بن عتيبة الكوفي ١٦ - حميد بن عمارة =

إلى القرن الرابع عشر (٣٦٠) شخصاً^(١) والمؤلفون حول الغدير (٣٦) من

الخزرجي ١٧ - حميد الطويل ١٨ - خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي ١٩ - ربيعة
الجرشي ٢٠ - أبو المثنى رياح بن الحارث النخعي ٢١ - أبو عمرو زاذان بن عمر
الكندي ٢٢ - أبو مريم زُرَّ بن حبش ٢٣ - زياد بن أبي ٢٤ - زيد بن يثيع الهمداني
٢٥ - سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ٢٦ - سعيد بن جبير الأسدي
٢٧ - سعيد بن أبي حداد ٢٨ - سعيد بن المسيب ٢٩ - سعيد بن وهب ٣٠ - أبو يحيى
سلمة بن كهيل ٣١ - سليم بن قيس الهلالي ٣٢ - سليمان بن مهران ٣٣ - سهم بن
الحصين الأسدي ٣٤ - شهر بن حوشب ٣٥ - الضحاك بن مزاحم ٣٦ - طاووس بن
كيسان ٣٧ - طلحة بن المصنف الأيامي ٣٨ - عامر بن سعد بن أبي وقاص ٣٩ - عائشة
بنت سعد ٤٠ - عبد الحميد بن المنذر ٤١ - عبد بن خير ٤٢ - عبد الرحمن بن أبي ليلى
٤٣ - عبد الرحمن بن سابط ٤٤ - عبد الرحمن بن اسعد بن زرارة ٤٥ - عبد الله بن
شريك ٤٦ - عبد الله بن زياد الأسدي ٤٧ - عبد الله بن محمد بن عقيل ٤٨ - عبد الله بن
يعلى بن مرة ٤٩ - عدي بن ثابت الأنصاري ٥٠ - عطية بن سعد بن خبادة ٥١ - علي
بن زيد بن جدعان ٥٢ - عمارة بن جوين الغبدي ٥٣ - عمر بن عبد العزيز الخليفة
الأموي ٥٤ - عمر بن عبد الغفار ٥٥ - عمر بن علي أمير المؤمنين (ع) ٥٦ - عمرو بن
جعلة بن هبيرة ٥٧ - عمرو بن مرة الكوفي ٥٨ - عمرو بن عبد الله السبيعي ٥٩ - عمرو
بن ميمون ٦٠ - عميرة بن سعد ٦١ - عميرة بنت سعد بن مالك ٦٢ - عيسى بن طلحة
٦٣ - فطر بن خليفة المخزومي ٦٤ - قبيصة بن ذئيب ٦٥ - أبو مريم قيس الثقفي
٦٦ - محمد بن عمر بن علي أمير المؤمنين (ع) ٦٧ - مسلم بن صبيح ٦٨ - مسلم
الملائي ٦٩ - مصعب بن سعد بن أبي وقاص ٧٠ - مطلب بن عبد الله القرشي
المخزومي ٧١ - مطرق الدراق ٧٢ - معروف بن خربوذ ٧٣ - منصور بن ربيعي
٧٤ - موسى بن اكل ٧٥ - مهاجر بن مسمار ٧٦ - ميمون البصري ٧٧ - نذير الضبي
٧٨ - هاني بن هاني ٧٩ - أبو بلج يحيى بن مسلم الفزاري ٨٠ - يحيى بن جعدة
٨١ - يزيد بن أبي زياد ٨٢ - يزيد بن حيان التيمي ٨٣ - يزيد بن عبد الرحمن بن الأودي
٨٤ - أبو نجيع يسار الثقفي ، نذكرهم حسب ترتيب وفياتهم .

(١) فمن القرن الثاني : - عمرو بن دينار (١١٥) ٢ - محمد بن مسلم بن عبيد الله القرشي -

الزهري (١٢٤) ٣ - عبد الرحمن التيمي (١٢٦) ٤ - بكر بن سواقة (١٢٨) ٥ - عبد الله بن أبي نجيح (١٣١) - مغيرة بن مقسم (١٣٣) ٧ - خالد بن زيد الجمحي (١٣٩) ٨ - الحسن بن الحكم النخعي (١٤٠) ٩ - ادريس بن يزيد الأودي لا ١٠ - يحيى بن سعيد بن حيان التيمي (١٤٥) ١١ - عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي (١٤٥) ١٢ - أوف بن أبي جميلة العبدي (١٤٦) ١٣ - عبيد الله بن عمر بن حفص (١٤٧) ١٤ - نعيم بن الحكيم (١٤٨) ١٥ - طلحة بن يحيى (١٤٨) ١٦ - كثير بن زيد (١٥٠) ١٧ - محمد بن اسحاق (١٥١) ١٨ - معمر بن راشد (١٥٣) ١٩ - مسعر بن كدام (١٥٣) ٢٠ - الحكم بن ابان (١٥٤) ٢١ - عبد الله بن شوذب (١٥٧) ٢٢ - شعبة بن الحجاج (١٦٠) ٢٣ - كامل بن العلا (١٦٠) ٢٤ - سفيان بن سعيد الثوري (١٦١) ٤٥ - اسماعيل بن يونس (١٦٢) ٢ - جعفر بن زياد (١٦٥) ٢٧ - مسلم بن سالم النهدي ٢٨ - قيس بن الربيع (١٦٥) ٢٩ - حماد بن سلمة (١٦٧) ٣٠ - عبد الله بن لهيعة (١٧٤) ٣ - الوضاح بن عبد الله (١٧٥) ٣٢ - شريك بن عبد الله (١٧٧) ٣٣ - عبيد الله بن عبد الرحمن (١٨٢) ٣٤ - نوح بن قيس الحداني (١٨٣) ٣٥ - المطلب بن زياد (١٨٥) ٣٦ - حسان بن ابراهيم الغزي (١٨٦) ٣٧ - جرير بن عبد الحميد (١٨٨) ٣٨ - الفضل بن موسى (١٩٢) ٣٩ - محمد بن جعفر المدني (١٩٣) ٤٠ - اسماعيل بن علية (١٩٣) ٤١ - محمد بن ابراهيم السلمي (١٩٤) ٤٢ - محمد بن خازم العزيز (١٩٥) ٤٣ - محمد بن فضيل (١٩٥) ٤٤ - الوكيع بن الجراح (١٩٦) ٤٥ - سفيان بن عيينة (١٩٨) ٤٦ - عبد الله بن نمير (١٩٩) ٤٧ - خنث بن الحرث ٤٨ - موسى بن يعقوب ٤٩ - العلاء بن سالم المطار ٥٠ - الأزرق بن علي بن مسلم ٥١ - هاني بن أيوب ٥٢ - فضيل بن مرزوق الأغر (١٦٠) ٥٣ - سعد بن عبيدة ٥٤ - موسى بن مسلم الحزامي ٥٥ - يعقوب بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري ٥٦ - عثمان بن سعد .

من القرن الثالث : ٥٧ - ضمرة بن ربيعة (٢٠٢) ٥٨ - محمد بن عبد الله الزبيري (٢٠٣) ٥٩ - مصعب بن المقدام (٢٠٣) ٦٠ - يحيى بن آدم (٢٠٣) ٦١ - زيد بن الحباب الخراساني (٢٠٣) ٦٢ - محمد بن ادريس الشافعي (٢٠٤) ٦٣ - أبو عمرو شباية بن سوار الفزاري (٢٠٦) ٦٤ - محمد بن خالد الحنفي ٦٥ - خلف بن تميم الكوفي (٣٠٦) ٦٦ - أسود بن عامر شاذان (٢٠٨) ٦٧ - حسين بن

- الحسن الأشقر الفزاري (٢٠٨) ٦٨ - حفص بن عبد الله بن راشد (٢٠٩) ٦٩ - عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١) ٧٠ - الحسن بن عطية (٢١٣) ٧١ - عبد الله بن يزيد العدوي (٣١٣) ٧٢ - حسين بن محمد بن بهرام (٢١٣) ٧٣ - عبيد الله بن موسى العبيسي (٣١٢) ٧٤ - علي بن قادم الخزاعي (٢١٣) ٧٥ - محمد بن سليمان الحراني (٢١٣) ٧٦ - عبد الله بن داود (٢١٣) ٧٧ - أبو عبد الرحمن بن دينار العبدي (٢١٥١) ٧٨ - يحيى بن حماد الشيباني (٢١٥) ٧٩ - حجاج بن منهال السلمي (٢١٧) ٨٠ - الفضل بن ذكين (٢١٨) ٨١ - عفان بن مسلم (٢١٩) ٨٢ - علي بن عياض الأللهاني (٢١٩) ٨٣ - مالك بن اسماعيل بن درهم النهدي (٢١٩) ٨٤ - قاسم بن سلام الهروي (٢٢٣) ٨٥ - محمد بن كثير (٢٢٣) ٨٦ - موسى بن اسماعيل المنقري (٢٢٣) ٨٧ - قيس بن حفص بن القعقاع (٢٢٧) ٨٨ - سعيد بن منصور (٢٢٧) ٨٩ - يحيى بن عبد الحميد الحماني (٢٢٨) ٩٠ - إبراهيم بن الحجاج السامي (٢٣١) ٩١ - علي بن حكيم بن ذيبان (٢٣١) ٩٢ - خلف بن سالم المهلب (٢٣١) ٩٣ - علي بن محمد الطنافسي (٢٣٣) ٩٤ - هذبة بن خالد القيسي (٢٣٥) ٩٥ - عبد الله بن محمد العبيسي (٢٣٥) ٩٦ - عبيد الله بن عمر الجشمي (٢٣٥) ٩٧ - أحمد بن عمر بن حفص الجلاب (٢٣٥) ٩٨ - إبراهيم بن المنذر الحزامي (٢٣٦) ٩٩ - يحيى بن سليمان الكوفي (٢٣٧) ١٠٠ - ابن راهويه الحنظلي (٢٣٧) ١٠١ - عثمان بن محمد العبيسي (٢٣٩) ١٠٢ - الحسن بن حماد سجادة (٢٤١) ١٠٦ - هارون بن عبد الله (٢٤٣) ١٠٧ - حسين بن حريث المروزي (٢٤٤) ١٠٨ - هلال بن بشر الأحذب (٣٤٦) ١٠٩ - أبو الجوزاء أحمد بن عثمان (٢٤٦) ١١٠ - محمد بن العلاء (٢٤٨) ١١٥ - يوسف بن عيسى بن دينار المروزي (٢٤٩) ١١٤ ١١٢ - نصر بن علي بن نصر الجهضمي (٢٥١) ١١٣ - محمد بن يشار الشهير بـ (بندار) (٢٥٢) ١١٤ - محمد بن العثني العنزي (٢٥٢) ١١٥ - يوسف بن موسى القطان (٢٥٣) ١١٦ - محمد بن عبد الرحيم صاعقة (٢٥٥) ١١٧ - محمد بن عبد الله العدوي المقرئ (٢٥٦) ١١٨ - محمد بن اسماعيل البخاري (٢٥٦) صاحب الصحيح ١١٩ - الحسن بن عرفة (٣٥٧) ١٢ - عبد الله بن سعيد الكندي (٢٥٧) ١٢١ - محمد بن يحيى النيسابوري الدهلي (٢٥٨) ١٢٢ - حجاج بن يوسف الثقفي (٢٥٩) ١٢٣ - عثمان بن حكيم الأودي (٣٦١) ١٢٤ - عمر بن =

- شبه (٣٦٢) ١٢٥ - ١٢٥ حمدان احمد بن يوسف السلمي (٣٦٤) ١٢٦ - عبيد الله بن عبد الكريم المخزومي (٣٦٤) ١٢٧ - احمد بن منصور بن سيار أبو بكر البغدادي صاحب المسند (٢٦٥) ١٢٨ - اسماعيل بن عبد الله بن مسعود العبدي (٢٦٧) ١٢٩ - الحسن بن علي بن عفان (٢٧٠) ١٣٠ - حمد بن عوف الطائفي الحمصي (٢٧٢) ١٣١ - سليمان بن سيف الطائي الحراني ١٣٢ - محمد بن يزيد القزويني (٢٧٣) ١٣٣ - عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦) ١٣٤ - عبد الملك بن محمد أبو قلابة الرقاشي (٢٧٦) ١٣٥ - احمد بن حازم الغفاري (٢٧٦) ١٣٦ - محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩) ١٣٧ - احمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩) ١٣٨ - ابراهيم بن الحسين الكسائي (٢٨٠) ١٣٩ - احمد بن عمرو أبو بكر الشيباني (٢٨٧) ١٤٠ - زكريا بن يحيى السجزي (٢٨٩) ١٤١ - عبد الله بن احمد بن حنبل (٢٩٠) ١٤٢ - احمد بن عمرو أبو بكر البزار (٢٩٢) ١٤٣ - ابراهيم بن عبد الله الكجي صاحب السنن (٢٩٢) ١٤٤ - صالح بن محمد جرزة (٢٩٣) ١٤٥ - احمد بن عثمان العبسي (٢٩٧) ١٤٦ - القاضي علي بن محمد المصيصي ١٤٧ - ابراهيم بن يونس المؤدب حرّمي ١٤٨ - أبو هريرة محمد بن ايوب الواسطي .
- القرن الرابع : ١٤٩ - عبد الله بن الصغر السكري (٣٠٢) ١٥٠ - احمد بن شعيب النسائي صاحب السنن (٣٠٣) ١٥١ - الحسن بن سفيان النسوي البالوزي صاحب المسند الكبير (٣٠٣) ١٥٢ - احمد بن علي الموصلي صاحب المسند الكبير (٣٠٧) ١٥٣ - احمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ (٣١٠) ١٥٤ - احمد بن محمد الضبعي الأحول (٣١١) ١٥٥ - محمد بن جمعة القهستاني صاحب المسند الكبير (٣١٣) ١٥٦ - عبد الله بن محمد البغوي (٣١٧) ١٥٧ - محمد بن احمد الدولابي (٣٢٠) ١٥٨ - احمد بن عبد الله المعروف بابن النيري (٣٢٠) ١٥٩ - أبو جعفر احمد بن محمد الأزدي الطحاوي (٣٢١) ١٦٠ - ابراهيم بن عبد الصمد الهامشي (٣٢٥) ١٦١ - محمد بن علي الترمذي ١٦٢ - عبد الرحمن ابن ابي حاتم محمد بن ادريس التميمي الحنظلي (٣٢٧) ١٦٣ - احمد بن عبد ربه القرطبي (٣٢٨) ١٦٤ - الفقيه أبو عبد الله الحسين بن اسماعيل المحاملي (٣٣٠) ١٦٥ - حبشون بن موسى الخلال (٣٣١) ١٦٦ - أبو العباس احمد بن عقدة (٣٣٣) ١٦٧ - محمد بن علي بن خلف العطار ١٦٨ - الهيثم بن كليب أبو سعيد الشاشي (٣٣٥) ١٦٩ - محمد =

بن صالح بن هاني الوراق النيسابوري (٣٤٠) ١٧٠ - محمد بن يعقوب (٣٤٤) ١٧١ - يحيى بن محمد الغبري البغلياني (٣٤٤) ١٧٢ - المسعودي علي بن الحسين البغدادي (٣٤٦) ١٧٣ - محمد بن أحمد بن تميم الخياط القنطري (٣٤٠) ١٧٤ - جعفر بن محمد بن نصير (٣٤٧) ١٧٥ - محمد بن علي الشيباني ١٧٦ - دعلج بن أحمد السجستاني (٣٤١) ١٧٧ - محمد بن الحسن بن محمد النقاش المفسر الموصللي (٣٥١) ١٧٨ - محمد بن عبد الله الشافعي البزاز (٣٥٤) ١٧٩ - محمد بن حبان التيمي البستي (٣٥٤) ١٨٠ - سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (٣٦٠) ١٨١ - أحمد بن حنبل صاحب المسند الكبير (٣٦٥) ١٨٢ - أحمد بن جعفر القطيعي (٣٦٧) ١٨٣ - الزبير بن عبد الله التوزي (٣٧٠) ١٨٤ - محمد بن أحمد بن بالويه النيسابوري (٣٧٤) ١٨٥ - علي بن عمر بن أحمد الدارقطني (٣٨٥) ١٨٦ - الحسن بن إبراهيم ابن رولاقي (٣٨٧) ١٨٧ - عبيد الله بن محمد العكبري ابن بطة (٣٨٧) ١٨٨ - محمد بن عبد الرحمن الذهبي (٣٨٨) ١٨٩ - أحمد بن سهل الفقيه البخاري ١٩٠ - النسائي ١٩١ - يحيى بن محمد الأخباري

القرن الخامس : ١٩٢ - أبو بكر الباقلاني (٤٠٣) ١٩٣ - محمد بن عبد الله ابن الشيخ النيسابوري (٤٠٥) ١٩٤ - أحمد بن محمد بن موسى (٤٠٥) ١٩٥ - الخركوشي (٤٠٧) ١٩٦ - أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي (٤٠٧) ١٩٧ - محمد بن أحمد بن محمد (٤١٢) ١٩٨ - ابن مردويه الأصبهاني (٤١٦) ١٩٩ - أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (٤٢١) ٢٠٠ - القاضي أحمد بن الحسين ابن السماك (٤٢٤) ٢٠١ - الثعلبي النيسابوري المفسر الشهير (٤٢٧) ٢٠٢ - عبد الله بن علي بن محمد بن بشران (٤٢٩) ٢٠٣ - الثعالبي النيسابوري (٤٢٩) ٢٠٤ - أبو نعيم الأصبهاني (٤٣٠) ٢٠٥ - الحسن بن علي بن محمد التيمي ابن المذهب (٤٤٤) ٢٠٦ - ابن السمان (٤٤٥) ٢٠٧ - البيهقي (٤٥٨) ٢٠٨ - القرطبي (٤٦٣) صاحب الاستيعاب ٢٠٩ - الخطيب البغدادي (٤٦٣) ٢١٠ - الواحدي النيسابوري (٤٦٨) ٢١١ - مسعود بن ناصر بن عبد الله السجزي (٤٧٧) ٢١٢ - ابن المغازلي (٤٨٣) ٢١٣ - علي بن الحسن القاضي الخلعي (٤٩٢) ٢١٤ - ابن الحداد الحسكاني (٤٩٠) ٢١٥ - أحمد بن محمد بن علي العاصمي .
القرن السادس : ٢١٦ - حجة الاسلام الغزالي (٥٠٥) ٢١٧ - محمد بن علي -

الكوفي الرسي (٥١٠) ٢١٨ - ابن منده (٥١٢) ٢١٩ - البغوي (٥١٦) ٢٢٠ - عبد الواحد الشيباني (٥٢٥) ٢٢١ - علي بن عبد الله بن نصر بن السري الزاغوني (٥٢٧) ٢٢٢ - رزين بن معاوية العبدري الأندلسي (٥٣٥) ٢٢٣ - جابر الله محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨) ٢٢٤ - القاضي عياض اليحصبي السبتي (٥٤٤) ٢٢٥ - الشهرستاني الشافعي (٥٤٨) ٢٢٦ - النطنزي ٢٢٧ - السمعاني الشافعي (٥٦٢) ٢٢٨ - يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي (٥٦٧) صاحب التفسير الكبير ٢٢٩ - موفق بن أحمد أبو المؤيد الخطيب الخطباء الخوارزمي (٥٦٨) ٢٣٠ - الأربلي المعروف بملأ ٢٣١ - علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي ثقة الدين الشهير بابن عساكر (٥٧١) صاحب التاريخ الكبير ٢٣٢ - محمد بن أبي بكر عمر بن أبي عيسى الأصبهاني (٥٨١) ٢٣٣ - أبو بكر الحازمي (٥٨٤) ٢٣٤ - ابن الجوزي البكري (٥٩٧) ٢٣٥ - الفقيه أسعد بن أبي الفضائل محمود بن خلف العجلي أبو الفتوح (٦٠٠).

القرن السابع : ٢٣٦ - فخر الدين الرازي (٦٠٦) صاحب التفسير الكبير ٢٣٧ - ابن الأثير الشيباني الجزري (٦٠٦) ٢٣٨ - أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالكي الشهير بابن الشيخ (٦٠٥) ٢٣٩ - تاج الدين زيد بن الحسن بن زيد الكندي (٦١٣) ٢٤٠ - الشيخ علي بن حميه القرشي (٦٢١) ٢٤١ - أبو عبد الله ياقوت الحموي (٦٢٦) ٢٤٢ - علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (٦٣٠) صاحب التاريخ الكامل واسب الغاية ٢٤٣ - حبل بن عبد الله بن الفرج البغدادي الرصافي (٦٤٠) ٢٤٤ - ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي (٦٤٣) ٢٤٥ - محمد بن طلحة القرشي النصيبي ٢٤٦ - أبو المظفر يوسف الأمير حسام الدين قزأ وجلي (٦٥٤) ٢٤٧ - ابن أبي الحديد المعتزلي (٦٥٥) ٢٤٨ - الكنجي الشافعي (٦٥٨) صاحب كفاية الطالب ٢٤٩ - عبد الرزاق بن عبد الله بن أبي بكر عز الدين الرسخي (٦٦١) ٢٥٠ - فضل الله بن أبي سعيد الحسن الشافعي النوربشتي ٢٥١ - يحيى الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦) ٢٥٢ - الشيخ مجد الدين عبد الله بن محمود بن مورود الحنفي الموصللي (٦٨٣) ٢٥٣ - القاضي ناصر الدين عبد الله عمر أبو الخير البيضاءوي (٦٨٥) صاحب الطوالع والمصباح في أصول الدين ومختصر الكشاف في التفسير وتأليفات أخرى ٢٥٤ - أحمد بن عبد الله فقيه الحرم محب الدين =

أبو العباس الطبري (٦٩٤) ٢٥٥ - إبراهيم بن عبد الله الرصايي اليمني ٢٥٦ - محمد بن أحمد الفرغاني (٧٠٠).

القرن الثامن : ٣٥٧ - شيخ الاسلام أبو اسحاق إبراهيم بن سعد الدين محمد بن المؤيد الحموي (٧٢٢) ٢٥٨ - علاء الدين أحمد بن محمد بن أحمد السمناني (٧٣٦) ٢٥٩ - يوسف بن عبد الرحمن الدمشقي المزي ٢٦٠ - شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي (٧٤٨) ٣٦١ - نظام الدين النيسابوري صاحب التفسير الكبير ٢٦٢ - ولي الدين محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي صاحب مشكاة المصابيح ٢٦٣ - أبو محمد القيس الحنفي النحوي (٧٤٩) ٢٦٤ - ابن الوردي (٧٤٩) ٣٦٥ - جمال الدين محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد الزرندي (٧٥٠) ٢٦٦ - القاضي عبد الرحمن بن أحمد الأيجي (٧٥٦) ٢٦٧ - الكازروني (٧٥٨) ٢٦٨ - أبو السعادات عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي الشافعي (٧٦٨) ٢٦٩ - عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير القيسي (٧٧٤) ٢٧٠ - عمر بن حسن بن مزيد بن أميله المراغي (٧٧٨) ٢٧١ - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الهواري ابن جابر الأندلسي (٧٨٠) ٢٧٢ - السيد علي بن شهاب بن محمد الهمداني (٧٨٦) ٢٧٣ - المقدسي المعروف بالصامت (٧٨٩) ٢٧٤ - سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله الهروي (٧٩١).

القرن التاسع : ٣٧٥ - علي بن أبي بكر بن سليمان أبو الحسن الهيثمي (٨٠٧) ٢٧٦ - ابن خلدون الحضرمي الأشبيلي المالكي (٨٠٨) ٢٧٧ - السيد الشريف الجرجاني (٦١٨) ٢٧٨ - خواجه پارسا (٨٢٢) ٢٧٩ - محمد بن خليفة الوشتاني المالكي (٨٢٧) ٢٨٠ - محمد بن محمد بن محمد أبو الخير الدمشقي المقرئ المعروف بابن الجوزي (٨٣٣) ٢٨١ - المقرئ الحنفي (٨٤٥) ٢٨٢ - الدولة آبادي (٨٤٩) ٢٨٣ - العسقلاني (٨٥٢) ٢٨٤ - ابن الصباغ المالكي (٨٥٥) ٢٨٥ - العيني الحنفي (٨٨٥) ٢٨٦ - ابن عجلون (٨٧٦) ٢٨٧ - القوشجي صاحب شرح التجريد ٢٨٨ - الأيجي الشافعي ٢٨٩ - السنوسي التلمساني (٨٩٥) ٢٩٠ - ابن روزبهان الشيرازي خواجه ملا .

القرن العاشر : ٢٩١ - الميمني شارح الديوان المنسوب الى امير المؤمنين (ع) (٨٧٠) ٢٩٢ - السيوطي (٩١١) ٢٩٣ - السهودي الشافعي (٩١١) -

٢٩٤ - القسطلاني المصري (٩٢٦) ٢٩٥ - السيد عبد الوهاب بن محمد رفيع الدين
 احمد الحسيني البخاري (٩٣٢) ٢٩٦ - ابن الديبع الشيباني (٩٤٤) ٢٩٧ - ابن حجر
 الهيتمي (٩٧٤) ٢٩٨ - المتقي الهندي (٩٧٥) ٢٩٩ - الشربيني القاهري (٩٧٧)
 ٣٠٠ - ضياء الدين أبو محمد احمد بن محمد الوتري (٩٨٠) ٣٠١ - ملك المحدثين
 الهندي الفتني (٩٨٦) ٣٠٢ - ميرزا مخدوم بن عبد الباقي (٩٩٥) ٣٠٣ - الصفوري
 الشافعي مؤلف نزهة المجالس ٣٠٤ - الشيرازي صاحب الأربعين (١٠٠٠).

القرن الحادي عشر : ٣٠٥ - الهروي المعروف بالقاري الحنفي (١٠١٤) ٣٠٦ - ابن
 سان القرماني (١٠١٩) ٣٠٧ - المناوي القاهري (١٠٣١) ٣٠٨ - الفقيه شيخ بن عبد
 الله العيدروس الحسيني (١٠٤١) ٣٠٩ - الشيخاني القادري ٣١٠ - علي بن ابراهيم
 صاحب السيرة النبوية (١٠٤٤) ٣١١ - ابن باكثير المكي (١٠٤٧) ٣١٢ - الحسين بن
 الامام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي اليمني (١٠٥٠) ٣١٣ - شهاب الدين
 الخفاجي (١٠٦٩) - عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي البخاري (١٠٥٢) ٣١٥ -
 محمد بن محمد المصري ٣١٦ - محمد بن محبوب صاحب تفسير الشاهي .

القرن الثاني عشر : ٣١٧ - البزرنجي الشافعي (١١٠٣) ٣١٨ - الشيرخيتي
 المصري (١١٠٦) ٣١٩ - الصنعاني (١١٠٨) ٣٢٠ - ابن حمزة الحراني (١١٢٠)
 ٣٢١ - الزرقاني المصري (١١٢٢) ٣٢٢ - السهارينوري صاحب مرافض الروافض
 ٣٢٣ - ميرزا محمد بن معتمد خان البدخشي ٣٢٤ - محمد صدر العالم
 ٣٢٥ - العمادي (١١٧١) ٣٣٦ - العمري الدهلوي (١١٧٦) ٣٢ - محمد بن سالم
 بن احمد المصري الحنفي (١١٨١) ٣٢٨ - الصنعاني الحسيني (١١٨٢)
 ٣٢٩ - شهاب الدين احمد بن عبد القادر الحنفي احد شعراء الغدير .

القرن الثالث عشر : ٣٣٠ - الزبيدي الحنفي (١٢٠٥) مؤلف تاج العروس
 ٣٣١ - الشيخ محمد بن علي الصبان الشافعي (١٢٠٦) ٣٣٢ - رشيد الدين خان
 الدهلوي ٣٣٣ - المولوي محمد مبین اللكهنودي ٣٣٤ - المولوي محمد سالم
 البخاري الدهلوي ٣٣٥ - المولوي ولي الله الكهنودي ٤٣٦ - المولوي حيدر علي
 الفيض آبادي ٣٣٧ - الشوكاني الصنعاني (١٢٥٠) ٣٣٨ - الآلوسي (١٢٧٠)
 ٣٣٩ - الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروني (١٢٧٦) ٣٤٠ - خواجه كلان (١٢٩٣)
 ٣٤١ - السيد احمد بن مصطفى القلايين خاني .

الأعظم (١) وصدق صحته وتواتره القاطع ثلاثة وأربعون من العلماء .

القرن الرابع عشر : ٣٤٢ - السيد احمد زيني دحلان (١٣٠٤) ٣٤٣ - الشيخ يوسف بن اسماعيل النبهاني مؤلف منتخب الصحيحين من كلام سيد الكونين ٣٤٤ - السيد مؤمن ابن حسن مؤمن الشبلنجي ٣٤٥ - الشيخ محمد عبده (١٣٢٣) مفتي الديار المصرية ٣٤٦ - السيد عبد الحميد بن السيد محمود الألوسي الضرير (١٣٢٤) ٣٤٧ - الشيخ محمد حبيب الله بن عبد الله اليوسفي ٣٤٨ - القاضي بهلول بهجت قاضي رنكة زور ٣٤٩ - الكاتب الشهير عبد المسيح الأنطاكي ٥٣٠ - الدكتور احمد فريد رفاعي ٣٥١ - الأستاذ احمد زكي العدوي ٣٥٢ - الأستاذ احمد نسيم المصري ٣٥٣ - الأستاذ حسين علي الأعظمي البغدادي ٣٥٤ - السيد علي جلال الدين الحسيني المصري ٣٥٥ - الأستاذ محمد محمود الرافعي المصري ٣٥٦ - الأستاذ محمد شاکر الخياط النابلسي الأزهري المصري ٣٥٧ - الأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود المصري ٣٥٨ - الأستاذ الشيخ محمد سعيد دحدوح ٣٥٩ - الأستاذ صفا خلوص ٣٦٠ - العالم المجتهد ناصر السنة شهاب الدين أبي الفيض احمد بن محمد بن الصديق .

كل هؤلاء نقلنا اسماءهم عن « الغدير » للمغفور له العلامة الامين ج ١ : ٧٣ - ١٥١ بصورة مختصرة والتفصيل راجع إليه .

- (١) وهم : ١ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الأملي (٣١٠) ٢ - أبو العباس احمد بن محمد المعروف بابن عقدة ٣ - الواسطي ٤ - الجمابي (٣٥٥) ٥ - ابو غالب الرازي (٣٦٨) ٦ - محمد بن عبد الله الشيباني (٣٧٢) ٧ - علي بن عمر الدارقطني (٣٨٥) ٨ - الشيخ محسن بن الحسين النيسابوري ٩ - علي بن عبد الرحمن القناني (٤١٣) ١٠ - الحسين بن عبيد الله الغضائري (٤١١) ١١ - ابو سعيد مسعود بن ناصر السجستاني (٤٧٧) ١٢ - أبو الفتوح الكراجكي (٤٤٩) ١٣ - علي بن بلال ١٤ - الشيخ منصور اللائي الرازي ١٥ - الشيخ علي بن الحسن الطاطري ١٦ - عبيد الله بن عبد الله الحسكاني ١٧ - محمد بن احمد الذهبي (٧٤٨) ١٨ - محمد بن محمد الجرزي (٨٣٣) ١٩ - عبد الله بن شاه منصور القزويني ٢٠ - السيد سبط الحسن الجايسي ٢١ - السيد مير حامد حسين (١٣٠٦) صاحب العباقيات ٢٢ - السيد مهدي بن السيد علي الغريني (١٣٤٣) ٢٣ - الحاج الشيخ عباس القمي (١٣٥٩) ٢٤ - السيد

وكما أن آية التبليغ باللغة الدلالة على قصة الغدير ، كذلك حديث الغدير « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » حيث فرعه الرسول (ص) على « ألت أولى من أنفسكم قالوا بلى ، قال : فمن كنت مولاه... » فالولاية العلوية المتفرعة على الأولوية المحمدية (ص) لا شك وأنها هية دون مجرد المحبة التي هي الولاية بين المؤمنين حيث « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

ولقد ناشد الإمام علي أمير المؤمنين (ع) بحديث الغدير مناوئين لإمرته^(١) كما ناشد آخرون ، منهم فاطمة الصديقة الطاهرة سلام الله عليها في حديث الفسواطم عنها^(٢) والإمام الحسن (ع)^(٣) والإمام

= مرتضى حسين الخطيب فتحيرى الهندي ٢٥ - الشيخ محمد رضا بن الشيخ طاهر آل فرج الله النجفي ٢٦ - الحاج السيد مرتضى الخسروشاهي التبريزي المعاصر .

(١) منها ما شدته يوم الثوري سنة ٢٣ هـ كما عن أبي الطفيل وأيام عثمان ويوم الرحبة ويوم الجمل وفي حديث الركبان ويوم صفين ، أخرجها عنه (ع) جماعة من الكبار .
(٢) كما أخرج شمس الدين أبو الخير الجزري في كتابه اسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب (ع) من قوله عليه السلام : أنسيتم قول رسول الله (ص) يوم غدير خم : من كنت مولاه فعلي مولاه ؟ وهكذا أخرجه الحافظ الكبير أبو موسى المثليني في كتابه المسلسل بالأسماء وقال : هذا الحديث مسلسل من وجه وهو أن كل واحدة من الفواطم تروي عن عمه لها فهو رواية خمس بنات أخ كل واحدة منهن عن عمتها هكذا في إخراج شمس الدين حدثنا به شيخنا . . . إلى قوله - حدثنا بكر بن أحمد القعري حدثنا فاطمة وزينب وأم كلثوم بنات موسى بن جعفر قلن حدثنا فاطمة بنت جعفر بن محمد العملاق حدثني فاطمة بنت محمد بن علي حدثني فاطمة بنت علي بن الحسين حدثني فاطمة وسكينة ابنتا الحسين بن علي عن أم كلثوم بنت فاطمة بنت النبي (ص) عن فاطمة بنت رسول الله (ص) قالت : أنسيتم . . .

(٣) كما أخرجه الحافظ ابن عقدة أن الحسن بن علي عليهما السلام لما اجتمع على صلح معاوية قام خطيباً واحتج لخلافة علي (ع) بحجج منها : « وقد رأوه وسمعوه حين »

الحسين (ع) ^(١) وغيرهم عليهم السلام ^(٢) ومنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز ^(٣) والخليفة مأمون الرشيد ^(٤) .

أخذ بيد أبي بغدير خم وقال لهم : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ثم امرهم ان يبلغ الشاهد الغائب .

(١) كما أخرجه سليم بن قيس الهلالي في كتابه جملاً ضافية ان الامام الحسين (ع) حج مع جماعة واجتمع عليه بمضى من أصحاب رسول الله (ص) والتابعين اكثر من سبعمائة فقام فيهم فحمد الله واثنى عليه وقال فيما قال : أما بعد فان هذا الطاغية - يعني معاوية وهو قبل سنتين من موته - قد صنع بنا ويشيعتنا ما علمتم ورأيتم وشهدتم وبلغكم واني اريد أن أسألكم عن شيء فإن صدقت فصدقوني وإن كذبت فكذبوني واسمعوا مقالتي واكتبوا قولتي ثم ارجعوا إلى امصاركم وقبائلكم ومن ائتمتموه من الناس ووثقتم به فادعوه إلى ما تعلمون من حقنا فاننا نخاف أن يدرس هذا الحق ويذهب ويُغلب والله متم نوره ولو كره الكافرون وما ترك شيئاً مما انزل الله في القرآن فيهم إلا تلاه وفسره ولا شيئاً مما قال رسول الله (ص) في أبيه وأمه ونفسه وأهل بيته إلا رواه وكل ذلك يقولون اللهم نعم قد سمعنا وشهدنا ويقول التابعون اللهم نعم قد حدثني به من أصدقائه وأئتمنه من الصحابة - إلى أن قال - قال : انشدكم الله اتعلمون ان رسول الله (ص) نصبه يوم غدیر خم فنأدى له بالولاية وقال : ليبلغ الشاهد الغائب ؟ قالوا : اللهم نعم - وفيه طرف مما تواترت اسانيده من فضائل امير المؤمنين (ع) فراجع .

(٢) منها احتجاج عبد الله بن جعفر على معاوية واحتجاج عمرو بن العاص على معاوية واحتجاج برد على عمرو واحتجاج عمار بن ياسر يوم صفين على عمرو بن العاص واحتجاج اصبع بن نباتة في مجلس معاوية ومناشدة شاب أبا هريرة بحديث الغدير بمسجد الكوفة واحتجاج قيس بن سعد على معاوية واحتجاج دارمية الحرجونية عليه واحتجاج عمرو الأودي على مناوئي أمير المؤمنين (ع) .

(٣) ومن احتجاج عمر بن عبد العزيز ما رواه الحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء ٥ : ٣٦٤ عن أبي بكر محمد التستري عن يعقوب وعن عمرو بن محمد السري عن ابن أبي داود قالوا حدثنا عمر بن شبه عن عيسى عن يزيد بن عمر بن مورك قال : كنت بالشام وعمر بن عبد العزيز يعطي الناس فتقدمت اليه فقال لي : ممن أنت ؟ قلت : من قریش ، قال : =

من أي قریش ؟ قلت : من بني هاشم ، قال : فسكت فقال : من أي بني هاشم ؟ قلت : مولى علي ، قال : من علي ؟ فسكت قال : فوضع يده على صدره فقال : وأنا والله مولى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ثم قال : حدثني عدة انهم سمعوا النبي (ص) يقول : من كنت مولاه فعلي مولاه ثم قال : يا مزاحم كم تعطي امثاله ؟ قال : مائة أو مائتي درهم ، قال : اعطه خمسين ديناراً وقال ابن ابي داود ستين ديناراً لولايته علي بن ابي طالب ثم قال : الحق ببلدك فسيأتيك مثل ما يأتي نظراءك ، واخرجه أبو الفرج في الأغاني وابن عساكر في تاريخه والحموي في فرائد السمطين والزرندي في نظم در السمطين والسهمودي في جواهر العقدين .

(٤) روى أبو عمر ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣: ٤٢ عن إسحاق بن إبراهيم بن اسماعيل بن حماد بن زيد قال بعث الي يحيى ابن اكثم والى عدة من اصحابي وهو يومئذ قاضي القضاة فقال ان امير المؤمنين أمرني ان أحضر معي غداً مع الفجر اربعين رجلاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ويحسن الجواب فسموا من تغلنونه يصلح لما يطلب امير المؤمنين فسمينا له عدة وذكر هو عدة حتى تم العدد الذي اراد وكتب تسمية القوم وأمر بالبكور في السحر وبعث من يحضر فأمره بذلك فغدونا عليه قبل طلوع الفجر فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا فركب وركبنا معه حتى صرنا الى الباب فإذا بخادم واقف فلما نظر الينا قال يا أبا محمد؟ امير المؤمنين ينتظر فأدخلنا فأمرنا بالصلاة فأخذنا فيها فلم نستتمها حتى خرج الرسول فقال : ادخلوا فدخلنا فإذا امير المؤمنين جالس على فراشه - الى أن قال - : ثم قال : إني لم أبعث فيكم لهذا ولكنني أحببت ان ابسطكم ان امير المؤمنين أراد مناظرتم في مذهبه الذي هو عليه والذي يدين الله به . قلنا فليفعل امير المؤمنين وفقه الله فقال : ان امير المؤمنين يدين الله على ان علي بن ابي طالب خير خلق الله بعد رسول الله (ص) وأولى الناس بالخلافة له ، قال إسحاق فقلت يا امير المؤمنين إن فينا من لا يعرف فاذا ذكر امير المؤمنين في علي وقد دعانا امير المؤمنين للمناظرة فقال يا إسحاق اختر إن شئت سألتك أسأل وإن شئت ان تسأل فقل ، قال إسحاق : فاغتنمتها منه فقلت بل أسألك يا امير المؤمنين ، قال : سل ، قلت : من أين قال امير المؤمنين ان علي بن ابي طالب افضل الناس بعد رسول الله (ص) واحقهم بالخلافة بعده ؟ قال : يا إسحاق خبرني عن الناس بم يتفاضلون حتى يقال : فلان افضل من فلان ؟ قلت : بالأعمال الصالحة قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن

ذلك هو الغدير في الكتاب والسنة وقد غرق فيه عالم كثير ونجى الكثير ممن وفي لرعاية الحق حيث ركبوا سفينة نجاة الولاية الكبرى المحمدية (ص) لعللي أمير المؤمنين عليه صلوات المصلين .

وما النقاش في المعني من ولايته إلا كنقش على الماء والهواء فإنه هباءً وخواء والله منه براء .

فتلكما آيتا الغدير من التبليغ وتكميل الدين ، وهاتيك روايات الغدير ، فتراهما تعنيان ذلك الحشد الكبير في بلاغ منقطع النظر ما تشترك فيه كافة المؤمنين أم جماعة منهم خصوصاً ؟ وليس في الدور إلا علي أمير

فضل صاحبه على عهد رسول الله (ص) ثم ان المفضل ان عمل بعد وفاة رسول الله (ص) بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله (ص) أيلحق به ؟ قال : فأطرقت فقال لي : يا إسحاق ؟ لا تقل : نعم ، فانك إن قلت نعم اوجدت في دهرنا هذا من هو اكثر منه جهاداً وحجاً وصياماً وصلاةً وصدقة ، فقلت : أجل يا أمير المؤمنين لا يلحق المفضل على عهد رسول الله (ص) الفاضل أبداً ، قال : يا إسحاق ! هل تروي حديث الولاية ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : اروه ، ففعلت ، قال يا إسحاق أرأيت هذا الحديث هل اوجب على ابي بكر وعمر ما لم يوجب لهما عليه ؟ قلت : إن الناس ذكروا ان الحديث انما كان بسبب زيد بن حارثة لشيء جرى بينه وبين علي وانكر ولاية علي فقال رسول الله (ص) : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، قال : في أي موضع قال هذا ؟ اليس بعد منصرفه من حجة الوداع ؟ قلت : اجل ، قال : فان قتل زيد بن حارثة قبل الغدير كيف رضيت لنفسك بهذا ، اخبرني لورأيت ابناً لك قد اتت عليه خمسة عشر سنة يقول : مولاي مولى ابن عمي ايها الناس فاعلموا ذلك ، اكننت منكراً ذلك عليه تعريفة للناس ما لا ينكرون ولا يجهلون ؟ فقلت : اللهم نعم ، قال : يا إسحاق أفنتزعه ابنك عما لا تنزعه عنه رسول الله (ص) ويحكم لا تجعلوا فقهاءكم اربابكم ان الله جل ذكره قال في كتابه : اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله ، ولم يصلوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنهم ارباب ولكن امروهم فأتاعوا امروهم .

المؤمنين وولده المعصومون عليهم السلام ؟ .

فلا دور - إذا - للبحث اللغوي حول المولى تشكيلاً في المعني منها ،
فحتى لو لم نعرف معنى المولى ، فأمر المولى نبيه هكذا ، وسؤال النبي
« أأست أولى بكم من أنفسكم » تقرر أن معنى الأولى للمولى دونما
ريب .

فهما كان للمولى معاني عدة ^(١) كل يُعنى حسب ما يُعنى بقرائنها ،
فهنا القرائن القاطعة متصلة ومتفصلة ^(٢) دالة على الأولوية الرسالية التي

(١) وهي حسب موارد استعمالها سبعة وعشرون : الرب - العم - ابن العم - الابن - ابن
الأخت - المعتق - المعتقد - العبد - المالك - التابع - المنعم عليه - الشريك - الحليف -
=
الصاحب - الجار - النزير - الصهر - القريب - المنعم - الفقير - الولي - الأولى
بالشيء - السيد غير المالك والمعتق - المحب - الناصر - المتصرف في الأمر - المتولي
في الأمر ، وعناية هذه المعاني بالأولى هنا في المولى بين كفر وكذب وغلط وتوضيح
واضح .

(٢) هنا بعد القرينة الأولى تفريعاً له هذا علي مولاه « على » الست أولى بكم من
أنفسكم « قرائن أخرى حالية كحشد الغدير وتأكيد آية البلاغ ، ومقالية كالتالية : ١ -
قول الشيخين في تهنيتهما له (ع) بخ بخ لك أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن
ومؤمنة . ٢ - قوله (ص) عقيب لفظ الحديث : الله أكبر على أكمال الدين وإتمام
النعمة ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي بن أبي طالب (ع) . ٣ - قوله (ص) بعد
بيان الولاية لعلي (ع) هتوني هتوني أن الله تعالى خصني بالنبوة وخص أهل بيتي
بالإمامة . ٤ - قوله (ص) بعد ذلك « فليبلغ الشاهد الغائب » . ٥ - قوله (ص) أن الله
أرسلني برسالة ضاق بها صدري وظننت أن الناس مكذبي فأوعدني لأبلغها أو
ليعذبني ، وتراه ولاية الحب والنصرة فقط وهي عامة للمؤمنين كلهم ! ٦ - في لفظ
عمر بن الخطاب : نصب رسول الله (ص) علياً علماً ، وفي لفظ علي (ع) : أمر الله
نبيه أن ينصبني للناس ، و : نصبني علماً ، وفي لفظ الإمام الحسن (ع) : أتعلمون
أن رسول الله (ص) نصبه يوم غدير خم وأمثاله . ٧ - احتجاجات مضت بحديث .

كانت للرسول نفسه (ص) وكل معاني المولى مختصرة مختصرة في ثلاثة هي الحب والنصرة والأولية فاعلة ومفعولة .

ذلك ، وهذا المقطع من خطبة الغدير ينقله أربع وستون من علماء الفريقين : « ألسنت أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فمن كنت مولاه فعلي مولاه » (١) مما يختص المولى بالأولى كما الرسول (ص) دون ريب .

ونكران معنى الأولى للمولى نكران لرأس الزاوية من معانيها اللغوية الثلاثة ، وإستنكار لإستعمالها فيها في القرآن كراراً عدة (٢) نقمة لاغية من

الغدير لولا المولى فيها هو الأولى لما صحت هذه الاحتجاجات وقويت بالاعتراض أو التشكيك وإلى غير هذه من قرائن متصلة ومنفصلة .

(١) وهم احمد بن حنبل - ابن ماجه - النسائي - الشيباني - أبو يعلى - الطبري - الترمذي - الطحاوي - ابن عقدة - العنبري - أبو حاتم - الطبراني - القطيعي - ابن بطة - الدارقطني - الذهبي - الحاكم - الثعلبي - أبو نعيم - ابن السمان - البيهقي - الخطيب - السجستاني - ابن المغازلي - الحسكاني - العاصمي - الخلمي - السمعاني - الخوارزمي - البضاوي - الملا - ابن عساكر - أبو موسى - أبو الفرج - ابن الأثير - ضياء الدين - قزاوغلي - الكنجي - التفتازاني - محب الدين - الرصايي - الحموي - الإيجي - ولي الدين - الزرندي - ابن كثير - الشريف - شهاب الدين - الجزري - المقرئ - ابن الصباغ - الهيثمي - الميمني - ابن حجر - أصيل الدين - السهمودي - كمال الدين - البدخشي - الشيخاني - السيوطي - الحلبي - ابن باكير - السهارنيوري - ابن حجر المكي .

(٢) جاء لفظ الولي والمولى في آيات عدة بمعنى الأولى منها قوله تعالى : « فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبش المصير » (٥٥: ٥) حيث المولى هنا لا تتحمل المحب والمحبوب - أو الناصر والمنصور ، إنما هي الأولى بهم وكما نص عليه من المفسرين والأدباء جمع غفير ، فسبعة وعشرون منهم حصر معناها هنا بالأولى ، وخمسة عشر منهم جعلها المعنى الأولى ، ومنها « إنما وليكم الله =

اللغة ، بغية النعمة من صاحب الولاية الكبرى بعد الرسول (ص) مهما اقتضت لاغية القول من الله ومن الرسول (ص) !.

هذه عساكر القرائن القطعية متصلة ومنفصلة ، وإليكم تفسير النبي (ص) نفسه لمعنى المولى حين سئل عن معنى قوله : « من كنت مولاه فعلي مولاه » قال : الله مولاي أولى بي من نفسي لا أمر لي معه وأنا مولى المؤمنين أولى بهم من أنفسهم لا أمر لهم معي ومن كنت أولى به من نفسه لا أمر له معي فعلي مولاه أولى به من نفسه لا أمر له معه » (١) :

ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون « حيث الحصر دليل حصر الولاية في الأولوية لأن الحب والنصر غير محصورين في شخص أو اشخاص خصوص ، ومنها « وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل » (٢٠٥: ٣) فانها دون رب تولّى القيادة الزمنية ، ومنها « فهل عسيتم ان توليتم ان تفسدوا في الأرض » (٢٢: ٤٧) ومنها « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور » (٢٥٧: ٢) حيث الاخراج هنا هو اخراج السلطة الربانية ، ومنها « قل اغير الله اتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض (١٤: ٦) ومنها « أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا » (١٥٥: ٧) ومنها « أو لا يستطيع ان يعمل فليمل وليه بالعدل » (٢٨٢: ٢) . ذلك وهكذا لفظة المولى مثل « يدعوا لمن ضمه اقرب من نفعه لبش المولى ولبش العشير » (١٣: ٢٢) و « واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » (٧٨: ٢٢) و « بل الله مولاكم وهو خير النصيرين » (١٥٠: ٣) « احدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه » (٧٦: ١٦) .

(١) اخرج القريشي علي بن حميد في شمس الاخبار ص (٣٨) نقلاً عن سلوة العارفين للموفق بالله الحسين بن اسماعيل الجرجاني باسناده عن النبي (ص) . . . وفي حديث احتجاج عبد الله بن جعفر على معاوية قوله : يا معاوية اني سمعت رسول الله (ص) يقول على المنبر وأنا بين يديه وعمر بن أبي سلمة واسلمة بن زيد وسعد بن أبي وقاص وسلمان الفارسي وأبوذر والمقداد والزبير بن العوام وهو يقول : الست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ؟ قال : اليس ازواجي امهاتكم ؟ قلنا : بلى يا

« ولاء كولائي » ^(١) « من كان الله وأنا مولاه فهذا علي مولاه يأمركم وينهاكم مالكم عليه من أمر ولا نهى » ^(٢) ولقد صدق هذه الأولوية المعنية من المولى هنا صراحاً جمع كثير منهم أربعة عشر من الأعلام ^(٣) .

رسول الله ؟ قال : من كنت مولاه فعلي مولاه أولى به من نفسه وضرب بيده على منكب علي فقال : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه أيها الناس انا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي امر وعلي من بعدي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ليس لهم معي امر . . .
(١) وفي احتجاج امير المؤمنين (ع) أيام عثمان كما أخرجه شيخ الاسلام الحموي قوله : ثم خطب رسول الله (ص) فقال : أيها الناس اتعلمون ان الله عز وجل مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله (ص) قال : قم يا علي فقم فقام : من كنت مولاه فعلي مولاه . . فقال سلمان يا رسول الله ولاء كماذا ؟ قال : ولاء كولائي من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به من نفسه وهكذا في مناشدته (ع) يوم صفين « ولاء كولائي » وروى الحافظ العاصمي في زين الفتنى قال سئل علي (ع) عن قول النبي (ص) « من كنت مولاه فعلي مولاه » فقال : نصبني علماً إذ أنا قمت فمن خالفني فهو ضال .

(٢) وروى السيد الهمداني في مودة القريبى : فقال رسول الله (ص) معاشر الناس اليس الله أولى بي من نفسي يأمرني وينهاني مالي على الله أمر ولا نهى ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ؟ قال : من كان الله وأنا مولاه فهذا علي مولاه يأمركم وينهاكم ما لكم عليه من أمر ولا نهى . .

(٣) هم : ١ - ابن زولاق الحسن بن ابراهيم ابو محمد المصري (٣٨٧) في تاريخ مصر ان رسول الله (ص) عهد الى امير المؤمنين علي بن ابي طالب فيه واستخلفه « وحكاه عنه المقرئ في الخطط ٣: ٢٢٢ .

٢ - الامام أبو الحسن الواحدي (٤٦٨) بعد ذكر حديث الغدير ٣ - حجة الاسلام أبو حامد الغزالي (٥٠٥) في سر العالمين بعد ذكر الخلاف في معنى المولى . . . لكن اسفرت الحجة وجهها واجمع الجماهير على متن الحديث من خطبته يوم الغدير باتفاق الجميع وهو يقول « من كنت مولاه فعلي مولاه » فقال عمر : يخ يخ يا أبا الحسن ؟ لقد اصبح مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، فهذا تسليم ورضى وتحكيم ، ثم بعد هذا -

تتويج الأمير يوم الغدير بتاج إمرة المؤمنين :

من ألقاب الرسول (ص) « صاحب التاج » وهو تاج الرسالة الكبرى بين كافة المرسلين وكما في « نبوءت هيلد » باللغة الأنقلوسية وهي العبرانية الرمزية « محمد كآيا إعا بايا دِيطمَع هُويا وَيَهِي كَلِيليا » : محمد هو كبير

غلب الهوى لحب الرياسة وحمل عمود الخلافة وعقود البنود وخفقان الهوى في قعقة الرايات واشتباك ازدهام الخيول وفتح الأمصار سقاهاهم كأس الهوى فعادوا الى الخلاف الأول فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون « ٤ - قال شمس الدين سبط ابن الجوزي (٦٥٤) والمراد من الحديث الطاعة المحضة وهو الأولى ومعناه : من كنت أولى به من نفسه فعلي أولى به وقد صرح بهذا المعنى الحافظ يحيى بن سعد الثقفي في مرج البحرين ٥ - وقال كمال الدين ابن طلحة الشافعي (٦٥٤) في مطالب السؤل ص ١٦ . . . وهذا صريح في تخصيصه لعلي (ع) بهذه المنقبة العلمية وجعل لغيره كنفه بالنسبة الى من دخلت عليهم كلمة « من » التي هي للعموم بما لا يجعله لغيره وليعلم أن هذا الحديث هو من اسرار قوله تعالى في آية المباهلة . . والمراد نفس علي ٦ - وقال صدر الحفاظ الكنجي في كفاية الطالب حديث غدير خم دليل على التولية وهي الاستخلاف ٧ - وقال سعيد الدين الفرغاني . . . كان هذا البيان بالتأويل بالعلم الحاصل بالوصية من جملة الفضائل التي لا تحصى خصه بها رسول الله (ص) ٨ - وقال علاء الدين أبو المكارم السمعاني (٧٣٦) في العروة الوثقى : . . . فصار - علي (ع) - سيد الأولياء وكان قلبه على قلب محمد (ص) ٩ - وقال الطيبي حسن بن محمد (٧٤٣) في الكاشف . . . ولذا هنا عمر بقوله : يا بن ابي طالب اصبحت وأمست مولى كل مؤمن ومؤمنة ١٠ - وقال شهاب الدين دولت آبادي (١٠٤٩) في هداية السدراء مثله ١١ - أبو شكور السالمي ١٢ - ابن باكثير المكي ١٣ - السيد الأمير محمد اليميني (١١٨٢) ١٤ - الشيخ احمد العجيلي في ذخيرة المآل .

أقول : كل هذه المسانيد نقلناها عن كتاب الغدير للمغفور له العلامة الأميني ج ١ بكامله .

سورة المائدة / آية ٦٧ ١٣١

قدير ، الشجرة الرفيعة الطيبة ، مأمول لإفناء ما كان وإطفاء النائرة وهو الكل والتاج (١) .

لذلك ، وأن العمائم تيجان العرب (٢) ، لقد عمم الرسول (ص) الأمير (ع) يوم الغدير بعمامة خاصة تعرب عن العظمة والجلال ، وتوجه بيده الكريمة بعمامته (السحاب) في ذلك الحشد العظيم تدليلاً على أن المتوج بها يومذاك مقيض بإمرة المؤمنين كما مرته (ص) فهو يبلغ المسلمين بخطبته تلك الهامة ويتوجه بمثل عمته تلك السحاب ، وكما قال (ع) : عمي رسول الله (ص) يوم غدير خم بعمامة فسد لها خلفي ، وأن الله أمدني يوم بدر وحنين بملائكة يعتمون هذه العمة (٣) ولما عممه (ص) قال له : يا علي العمائم تيجان العرب (٤)

أجل ، فقد عممه (ع) عمته السحاب حيث وهبها لعل (ع) فربما طلع علي فيها فيقول (ص) : « أتاكم علي في السحاب » (٥) .

(١) ذلك وحي الطفل لحمان حطوفاه نزل عليه قبل مبعث الرسول (ص) بسبعين سنة أوردناه في كتابنا رسول الاسلام في الكتب السماوية ، وعده الشنبلجي في نور الأبصار ٢٥ من القابه (ص) .

(٢) رواه القضاعي والديلمي وصححه السيوطي في الجامع الصغير ٣ : ١٥٥ وأورده ابن الأثير في النهاية عنه (ص) .

(٣) رواه الحافظ عبد الله ابن أبي شيبة وأبو داود الطيالسي وابن منيع البغوي وأبو بكر البيهقي في كنز العمال ٨ : ٦٠ عنه (ع) ورواه من طريق السيوطي عن الاعلام الأربعة السيد احمد القشاشي في السمط المجيد وفي كنز العمال عن مسند عبد الله بن الشنحير عن عبد الرحمن بن عدي البحراني عن اخيه عبد الأعلى ان رسول الله (ص) دعا علي بن ابي طالب فعممه وأرخص عذبة العمامة من خلفه .

(٤) رواه الحافظ الديلمي عن ابن عباس قال : لما عمم رسول الله (ص) علياً بالسحاب . .

(٥) قال الغزالي في البحر الزخار ١ : ٢١٥ كانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها . . .

وهكذا يتوجه الرسول (ص) بتاجه السحاب ليسحب امته من بعده إليه كما كانوا مسحوبين اليه (ص) تكملة لبيان الخلافة الكبرى بعده فلا يرتاب احد إلا الذين هم حاقدون فاقدون للإيمان .

فتلك مصارح للأولوية الطليقة في إمرة المؤمنين لعلي أمير المؤمنين (ع) في مسارح من خطبة الغدير وهذا تاج الإمرة في ختامها ، وهاتيك القرائن العشرون أو تزيد متصلة ومنفصلة ، كتاباً وسنة في عناية الأولوية من المولى ، ورواة الغدير المائة وعشرة عن الرسول (ص) ، والمؤلفون حولها الستة والعشرون والتابعون الأربعة وثمانون ، والعلماء طيلة القرون الاسلامية الراوون إياه عن الصحابة والتابعين الثلاثمائة والستون ، والمصدقون لقاطع تواتره الثلاثة والأربعون ، والمناشدون به من علي وفاطمة والحسنان عليهم السلام ومعهم كثيرون ، والمهنتون بإمرته (ع) ومنهم الشيخان وكثير سواهما .

ذلك وقد أورد قصة الغدير كل المؤرخين عن بكرتهم ، ومن كبراءهم خمسة وعشرون مؤرخاً (١) .

تلك قصة الغدير ، فهل ترى أصرح منها في تأمير الأمير ، فما لها من

= وقال الحلبي في السيرة ٣: ٣٦٩ كان له (ص) عمامة تسمى السحاب كساها علي بن ابي طالب كرم الله وجهه فكان ربما طلع عليه علي كرم الله وجهه فيقول (ص) : أتاكم علي في السحاب يعني عمامته التي وهبها له .

(١) كالبلاذري وابن قتيبة والطبري وابن زولاق والخطيب البغدادي وابن عبد البر والشهرستاني وابن عساكر وياقوت الحموي وابن الأثير وابن أبي الحديد وابن خلكان والياقبي وابن الشيخ البلوي وابن كثير وابن خلدون وشمس الدين الدبسي والنويري وابن حجر العسقلاني وابن الصباغ والمقريزي والسيوطي والقرماني ونور الدين الحلبي وغيرهم (الغدير ١: ٦) .

نكير إلا نكير عقله أو إيمانه ولا ينبئك مثل خبير .

ولئن سئلنا : فلماذا لم يجبر ذكر الإمام علي (ع) في القرآن ولا مرة يتيمة حين يكون أمر إمرته بهذه الأهمية الكبرى ؟ .

فالجواب أن القصد من ذكر الإسم ليس إلا تسجيل المكانة لصاحبه وقد سجل هكذا ، وقد يتطرق إلى صراح الإسم تأويلات أن يسمى سواء بإسمه ، ولكنه ليس من الممكن أن يتسمى بسمته وولده المعصومين سواء وسواهم ، حيث الحقيقة لا تقبل التأويل والإختلاق مهما تحملها الأسماء .

فحتى إذا كانت صراحة الإسم لحد لا يقبل أي تأويل ، فقد كان يخلق هزازات ونكرانات للأكثرية الطليقة من هؤلاء المسلمين والنتيجة هي الحكم بخروجهم عن الإسلام جهاراً بذلك الإنكار لجلي النص من القرآن ، فترجع المشكلة الشائكة التي كان يخافها الرسول (ص) على رسالته من ذلك البلاغ

مركز تحقيق كتاب مؤيد علوم إسلامي

فالجمع بين الحفاظ على ظاهر الإسلام لكل من يدعيه ، وواقع الحجة البالغة لمن يريد صالح الإيمان ، فحق العقاب على ناكريها مهما تظاهر بالإيمان وتمجمع في دلالة آيات الولاية وأحاديثها .

ذلك الجمع يقتضي نفس الواقع الذي نعيشه بين الكتاب والسنة من قصة الخلافة .

وترى - بعدُ - أن عدم التصريح بإسم ولاية الأمر بعد الرسول (ص) ينقص أو ينتقص من دلالة الكنايات الكتابية التي هي أبلغ من التصريح ، ومن التصريحات الوفيرة في السنة وهناك كثير من الأحكام الثابتة بالسنة القطعية ولا دليل لها من الكتاب إلا عمومات أو إطلاقات .

ولما يصدق الخليفة عمر في صراح القول ولاية الإمام بأولويه الطليقة

فما بال أتباع له ينكرونها ويتشككون فيها ، ومن الفاظه ، لما قيل له :
إنك تصنع بعلي - أي من التعظيم - شيئاً لا تصنع مع أحد من أصحاب
النبي (ص) ؟ فقال : إنه مولاي ^(١) .

وختاماً للكلام حول آية التبليغ تعالوا معنا نسمع الامام (ع) ماذا يقول
عن رباطه بالرسول (ص) ما يثبت جدارته القمة بإمره المؤمنين :
« أنا وضعت في الصغر بكلالكل العرب ، وكسرت نواجم قرون ربيعة
ومُضَر ، وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة
الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد ، يضمني إلى صدره ، ويكنفني
في فراشه ، ويُمسني جسده ، ويُشمني عَرَفَه ، وكان يمضغ الشيء ثم
يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل .

ولقد قرن الله به (ص) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من
ملائكته ، يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ،
ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه

(١) أخرجه الطبراني ، وفي الفتوحات الإسلامية ٣: ٣٠٧ حكم عليّ مرة على أعرابي
بحكم فلم يرض بحكمه فتلبيه عمر بن الخطاب وقال له : ويلك انه مولاك ومولى كل
مؤمن ومؤمنة ، وأخرج الحافظ ابن السمان كما في الرياض النضرة ٣: ١٧٠ وفي ذخائر
العقبى للمحب الطبري ٦٨ ووسيلة المال للشيخ احمد بن باكير المكي ومناقب
الخوارزمي ٩٧ والصواعق ١٠٧ عن الحافظ الدارقطني عن عمر وقد جاءه اعرابيان
يختصمان فقال لعلي (ع) اقض بينهما ، فقال احدهما : هذا يقضي بيننا ؟ فوثب اليه
عمر وأخذ بتلبيبه وقال : ويحك ما تدري من هذا ؟ هذا مولاي ومولى كل مؤمن ومن لم
يكن مولاه فليس بمؤمن ، وعنه وقد نازعه رجل في مسألة فقال : بيني وبينك هذا الجالس
- وأشار إلى علي بن ابي طالب (ع) - فقال الرجل : هذا الأبطن ؟ فنهض عمر عن
مجلسه وأخذ بتلبيبه حتى شاله من الأرض ثم قال : أتدري من صغرت ؟ هذا مولاي
ومولى كل مسلم .

عَلَّمَا وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتَدَاءِ بِهِ ، وَلَقَدْ كَانَ يَجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي ، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا ، أَرَى نَوْرَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ .

وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَنَةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (ص) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ (ص) مَا هَذِهِ الرَّنَةُ ؟ فَقَالَ : هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ ، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ ^(١) .

« كُنْتُ أَيَّامَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) كَجُزءٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) يَنْظُرُ إِلَى النَّاسِ كَمَا يُنْظَرُ إِلَى الْكَوَاكِبِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ، ثُمَّ غَضَّ الدَّهْرُ مِنِّي فَقُرْنَ بِي فَلَانَ وَفُلَانًا ، ثُمَّ قَرَنْتُ بِخَمْسَةِ أَفْضَلِهِمْ عُثْمَانَ فَقُلْتُ وَادْفَرَاهُ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ الدَّهْرُ لِي بِذَلِكَ حَتَّى ارْذَلَنِي فَجَعَلَنِي نَظِيرًا لِابْنِ هَنْدٍ وَابْنِ النَّابِغَةِ ، لَقَدْ اسْتَنْتَ الْفَصَالَ حَتَّى الْقَرَعَى » ^(٢) .

« أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مُحَلِّيَّ مِنْهَا مُحَلٌّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى ، يَنْحَدِرُ عَنِ السَّيْلِ وَلَا يَرْفَى إِلَيَّ الطَّيْرُ . . . فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحَجُّ ، فَصَبَرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَذَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَى ، أَرَى تَرَاثِي نَهَبًا . . . حَتَّى إِذَا مَضَى الْأَوَّلُ لِسَبِيلِهِ جَعَلَهَا فِي جَمَاعَةٍ زَعَمَ أَنِّي أَحَدُهُمْ ، فَيَا اللَّهَ وَلِلشُّورَى ، مَتَى اعْتَرَضَ الرِّيبُ فَيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صَرْتُ أَقْرَنَ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ » ^(٣) .

فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ مَدْفُوعًا عَنْ حَقِّي ، مُسْتَأْثَرًا عَلَيَّ ، مِنْذُ قَبْضِ اللَّهِ نَبِيهِ (ص) حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا » (الخطبة ٤٩/٦) .

(١) نهج البلاغة الخطبة ٣٧٣/٤/١٩٠ .

(٢) شرح النهج لابن أبي الحديد ٧٣٣ .

(٣) خطبة الشقشقية ٤٧/٤ .

« لقد علمتم أنني أحق الناس بها من غيري ، ووالله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة ، إلتماساً لأجر ذلك وفضله ، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه » (١٢٩/٧٢).

« فوالله إني لأولى الناس بالناس ، لم تكن بيعتكم إياي فلتة ، وليس أمري وأمركم واحداً ، إني أريدكم الله وأنتم تريدونني لأنفسكم » (٢٤٧/١٣٤).

« اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم ، فانهم قد قطعوا رحمي ، وأكفؤوا إنائي ، وأجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري . . . » (٤١٣/٢١٥) - « فلما مضى (ص) تنباز المسلمون الأمر من بعده ، فوالله ما كان يلقي في روعي ، ولا يخطر ببالي ، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده (ص) عن أهل بيته ، ولا أنهم منحوه عني من بعده ، فما راعني إلا انثيال الناس على فلان يبايعونه ، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولا يتكلم التي إنما هي متاع أيام قلائل ، يزول منها ما كان كما يزول السراب ، أو كما يتفشع السحاب ، فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل ، فإن أعطيناه وإلا ركبنا أعجاز الإبل وإن طال السرى » (٢١ ح/٥٦٨).

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٦٨):

إن احتفاف آية التبليغ بآيتي التنديد بأهل الكتاب إحتفاف قاصد يعني فيما يعنيه أن شريعة القرآن خالدة بما بلغ الرسول (ص) كأصل في

سورة المائدة / آية ٦٨ ١٣٧

استمرارية الدعوة القرآنية بدعاتها الربانيين ، فليأس أهل الكتاب - ومعهم أضرابهم - من هذا الدين المتين أن يزول أو يذبل ، فعليهم إقام التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم حتى يظلوا تحت ظل الإسلام ليكونوا على شيء من المكنة والمكانة الحيوية ، « وليزيدن . . فلا تأس على القوم الكافرين » .

وهكذا يرسم الله للداعية الواعية المحمدية بهذه التوجيهات منهج الدعوة ومنهجها ، إطلاعاً له على حكمة الله وتسليّة لقلبه عما يصيب الكافرين ، وأنه لن يصيب منهم هذا الدين المتين أية إصابة ، ولقد نزلت هذه الآية دبرَ حوادث وكوارث منها ما حاجَّ به أهل الكتاب الرسول الأقدس (ص) فحاجهم الله (١) .

وهنا « لستم على شيء » تذكرو الإيمان بالكتاب دون إقامته في الحياة ذرو الرياح ، فالإيمان دون إقامته هو صورة للإيمان وليس سيرة له، فإن قضية صادق الإيمان إقامته ، فقد أمروا أن يأخذوا الكتاب بقوة : « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون » (٢: ٦٣) « فخذوها بقوة وامر قومك أن يأخذوا باحسنها » (٧: ١٤٥) وكما « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » (١٩: ١٢) وهكذا بأخرى « إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً » (٥:) و « لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٥٩: ٢١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٢٩٩ - اخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال جاء رافع بن خارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف ورافع بن حرملة قالوا : يا محمد ألسنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها من حق الله ؟ فقال النبي (ص) بلى ولكنكم حدثتم وجحدتم ما فيها مما اخذ عليكم من الميثاق وكنتم منها ما أمرتم أن تدينوا للناس فبرئتم من أحداثكم ، قالوا : فانا نأخذ مما في ايدينا فلانا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك فانزل الله « قل يا أهل الكتاب . . » .

فإقامة الدين هي المهمة المأمور بها ، دون الاعتقاد الجاف به وكما « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١٣: ٤٢) فكما أن غير المؤمن بأسره ليس على شيء ، كذلك المؤمن غير المقيم لإيمانه ليس على شيء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ وَالنُّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٩):

هذه الآية وأضراب لها تمحور الإيمان والعمل الصالح للعاقبة الحسنى مهما كان المؤمن من « الذين آمنوا » المسلمين ، أو « الذين هادوا » الصابثون والنصارى « فالمؤمنون منهم العاملون صالحاً » فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون « فعلى المسلم المتخلف أن يخاف ويحزن ، وليس على الكتابي ولا الصابئي الصالح أن يخاف ويحزن ، حزناً على عاجله وخوفاً عن آجله ، حيث المحور الأصيل للنجاة هو سيرة الإيمان جانحة وجارحة ، دون إسمه وصورته الفاضية عن أصله ، بل هو الفائضة على الأعمال كما الأقوال

ولقد مضى القول الفصل حول الآية على ضوء آية البقرة (٦٢) والحج (١٧) وهنا يبقى سؤال : كيف اختص « الصابثون » هنا بالرفع دون الآخرين ، وقضية العطف على « الذين آمنوا » كما فيهما النصب ؟

« الصابثون » هنا عطف على محل المعطوف عليه « الذين آمنوا » وعله لعناية الإستقلال أنهم كما « الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى . من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فلا دور - إذاً - لما يقال : لا يصح العطف على إسم « إن » بالرفع قبل مضي الخبر ، حيث القرآن هو محور الأدب ومرجع الأدباء ، فإن خالفهم فهو

سورة المائدة / آية ٦٩ - ٧٠ ١٣٩

الأصل دون قوله الأدباء ، فكل أدب خالف القرآن من أي ادیب ، هو غير أدیب .

ثم هذه الآية - وبعد تأصيل إقامة الكتاب - ترفض تأثير الأسماء ، فإنما هو الإيمان والعمل الصالح من أي كان مسلماً أو يهودياً أو صابئياً أو نصرانياً ، وفي ذكر « الصابئون » خلال الكتابيين الرسميين ، ولا سيما بالرفع اللامع إلى الإستقلال ، ضربة قاسية قاضية على الأسماء الخاوية ، تأصيلاً لواقع الإيمان وعمل الصالحات .

ثم « من آمن . . » إضافة إلى طرد المنافقين عن دور النجاة تبين أن الإيمان الأصل أيضاً لا يكفي ، وإنما الظاهر في عمل الصالحات ، ولم يقل « منهم » لكي تشمل هذه الضابطة مع المذكورين هنا كل من يحمل هذه المواصفة .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (٧٠) :

« لقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل » وهو طليق الميثاق على الإيمان توحيداً : « وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله . . » (٨٣: ٢) و « لا يقولوا على الله إلا الحق » (١٦٩: ٧) و « خذوا ما آتيناكم بقوة » (٦٣: ٢) فعامة الميثاق وخاصته عليهم هي الميثاق في أصول الدين وفروعه التي يجمعها « وأرسلنا إليهم رسلاً » يحملون كل رسالات الله المأخوذ عليهم ميثاقها .

ولكنهم خالفوه إلى أهواءهم تبديلاً لميثاق الهدى إلى ميثاق الهوى : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم » من رسالات الله ورسله « فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون » .

فالرسالة المرضية عندهم هي رسالة الهوى وليست رسالة الهدى إذ لا

يرضون من الرسائل إلا ما تهواه أنفسهم ، وحين يرونها تخالف أهواءهم بكثير أو قليل فـ « فريقاً كذبوا » من رسل الله ويكذبون « وفريقاً يقتلون » كما قتلوا من ذي قبل .

فالتكذيب السابق هو المحور ويلحقه الأحق وكما القتل ، ولا تعني « يقتلون » فقط حال الرسل الحاضرين معهم ، بل والإستقبال ، رضي بذلك القتل ، وقتلاً لتلك الرسائل بتكذيبات وتحريفات وتجديفات .

﴿ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٧١) :

« وحسبوا » ذلك الحسبان الغالط الهابط الساقط - على تكذيبهم وقتلهم أنبياءهم - « ألا تكون فتنة » وهما من أفتن الفتن في النشأتين ، وبذلك الحسبان وأنهم أبناء الله وأحباؤه فلا يعذبون « فعموا » عن إِبْصَارِ الحق « وصموا » عن سماعه ، وبذلك إبتعدوا عن رُوحِ الله ورحمته « ثم تاب الله عليهم » ليتوبوا « ثم عموا وصموا » تَكَرَّاراً وإِصْرَاراً « كثير منهم » فلم تك تنفع توبة الله عليهم إلا لقليل منهم « والله بصير بما يعملون » من طالح وصالح إذ لا تخفى عليه خافية .

هذا ، وذلك الحسبان الجاهل القاحل هو من أفتن الفتن وأعضل المحن « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤) فالعارف بخسرانه وفتنته يرجي أن ينتبه ، ولكن الحاسب فتنته رحمة وخسرانه نعمة ليس لينتبه .

وكان المرة الأولى من عماهم وصممهم هي قبل الرسالة الإسلامية ، ومن توبة الله عليهم إبتعاث محمد (ص) ليحيدوا عن باطل ما كانوا يحسبون ، والمرة الثانية هي بعد ظهور الإسلام حيث عموا وصموا عنه

« كثير منهم » وقليل هم مؤمنون برسالة الإسلام

ذلك ومن عماهم الأعمى وصممهم الأصم إفسادهم مرتين عالميتين كما شرحناهما في الأسرى، ولأن « عموا وصموا » كما « حسبوا ألا تكون فتنة » كل ذلك الثالث من فعلهم تقصيراً دون قصور ، ولم يكن من الله إلا أن « تاب الله عليهم » فقد ذاقوا بما قصروا وبألم أمرهم وما ربك بظلام للعبيد .

فقد نقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به بتكذيبهم وقتلهم أنبياء لهم ، ثم حسبوا ألا تكون فتنة ، ثم عموا وصموا ، ثم - بعد أن تاب الله عليهم - عموا وصموا مرة ثانية .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٣) :

هنا عرض لعقيدة - هي عقيدة العقدة - في اللاهوت المسيحي « إن الله هو المسيح ابن مريم » و « إن الله ثالث ثلاثة » : الإله الأب والروح القدس والابن ، بتأويل أن الله تنزل عن لاهوت الألوهية فتجسد في رحم البتولة العذراء فتمثل بشراً سوياً ! فهو - إذاً - الله أم « مريم » بديلة عن « روح القدس » كما تدل عليه « أنت قلت للناس إتخذوني وأمي إلهين من دون الله » .

ففي الحقول الكنسية إقتسمت الألوهية بين الله والمسيح وأمه وروح القدس ، ولكن الحظوة العليا في هذا البين للمسيح الذي لا يخلو دور الألوهية منه إلهاً أم ابناً لله أم أقنوماً من الأقانيم الثلاثة مهما كان غير ابن ،

فهو إذاً مثلث من الألوهية ! ومريم والروح والله لكلٍ خطوة واحدة منها لا تبقى حيث انتقلت إلى المسيح ! .

وهذه ترقية للسيد المسيح في قوسه الصعودي وتنزل الله في قوسه النزولي ، فقد كان عبداً ثم تشرف بشرف البنوة التشريفية ، ثم البنوة الصُّلبيّة ، ثم مشاركاً في ذات الألوهية في ثالوثها ، ثم إلهاً لم يبق بعدُ غيره إله ، لا إله الأب ولا إله الأم ولا إله روح القدس .

فلكلٍ من الفرق المسيحية المنحرفة واحدة من هذه المراحل اللاهوتية للمسيح ، والأصل الأصيل - على أية حال - هو المسيح لا سواء .

وذلك أنحس ما وصل إليه اللاهوت العقائدي في المسيحية ، بعدما تقولوا : إن المسيح (ع) هو ابن الله تشريفاً دون حقيقة البنوة ، ثم تخطوا هذه القيلة إلى أن المسيح ابن الله ، جزءٌ من كيانه كيفما كان تجزؤه ، ثم مشاركاً مع الله في جوهر الألوهية ، إلى أن الله تبدّل بكل كونه وكيانه إلى المسيح بظاهر الولادة المريمية ! .

ف« إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة إنتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً » (٤ : ١٧١) وهؤلاء هم المثلثون القائلون بالأقانيم الثلاثة .

ثم « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس إتخذوني وأمي إلهين من دون الله . . » (٥ : ١١٦) وأولئك هم الثنويون المريميون (١) .

ثم هاتان الآيتان (٧٢ - ٧٣) هنا عرض لثالث ثلاثة من ثالوث عقائدهم اللاهوتية هو توحيد المسيح (ع) في الألوهية ، إذابة للإله الأب بتخلٍ كامل

(١) القول الفصل حول التثليث والثنية راجع إلى آيتهما في النساء والمائدة .

وتجافٍ شامل في رحم مريم العذراء ، فتناسياً عنه فضلاً عن مريم وروح القدس ، ولذلك نراهم يقولون في شعارهم « إلهنا المسيح » معبرين عن مريم عليها السلام بـ « أم الإله » وأنه مولود غير مخلوق « مولود حيث برز بمظهر الناسوت بعد اللاهوت ، وغير مخلوق لأنه هو هو دون تعدد إلا بالمظهر، فهناك لاهوت وهنا ناسوت (١) ! .

ونسلمهم يذكرون في ذكرياتهم وأذكارهم أنه « الإله المخلص المنجي المتجسد » وذلك لا يخلوا عن محتملات تالية : أن الله - سبحانه - تنزل بكل كونه وكيانه عن لاهوت الألوهية والتجرد إلى ناسوت الجسم تجافياً عن كينونته المجردة اللامحدودة ، حلولاً في جسم المسيح ؟ وذلك مستحيل حيث المجرد لا يتبدل إلى نقيضه اللامجرد ! إلا إنمحاء عن وجوده فتكوناً بالكيان المادي ؟ فذلك فناء وهذا حدوث بنافيان ساحة الألوهية ! .

أم حلولاً لذاته المجردة اللامحدودة في جسم المسيح المحدود ؟ وهو جمع بين النقيضين : اللامحدود والمحدود ، اللهم إلا بتحول اللامحدود إلى محدود فكذلك الأمر ! .

فأصل التحول لله مستأصل عن ساحته فإنه قضية الحدوث ، ثم تحوله عن التجرد إلى المادة مستأصل أخرى لإستحالة تبدل النقيض إلى نقيضه ، اللهم إلا بفناءه ثم حدوث نقيضه مكانه وليس هذا من التحول ، وهو في نفسه مستحيل حيث الفناء في ساحة الألوهية مستحيل ! ثم انتقاله على تجرده اللامحدود إلى جسم المسيح ورحم مريم المحدودين ثالثة ، ظلمات

(١) نور الثقلين ١ : ٦٥٩ عن تفسير القمي عن ابي جعفر عليهما السلام في قوله : اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، اما المسيح فعصوه وعظموه في أنفسهم حتى زعموا أنه إله وأنه ابن الله وطائفة منهم قالوا : ثالث ثلاثة وطائفة منهم قالوا : هو الله ...

بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكذبها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

أجل فـ « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم - أو - إن الله ثالث ثلاثة » كفروا عن شرعة التوحيد الكتابية ، ولا نجد في الأناجيل - على تحريفها - نصاً أو ظاهراً في ألوهية المسيح أو بنوته لله أو التثليث ! كما فصلنا البحث حوله على ضوء الآية (١٧١) من النساء .

وليست خرافة ألوهية المسيح أو بنوته لله أو الثالوث إلا من المختلقات الكنسية منذ صعود المسيح (ع) وقد ترسبت هذه المختلقات الزور إلى حدّ يُعتبر سواها من التوحيد ، أم وبنوة المسيح التشريفية من البدع ^(١) .

(١) البدع ١٤ - ٤ مذهب المونارخيانisme منذ نهاية القرن الأول قام مبتدعون متهودون : « قيرنتوس والإبيونيون » - على حد تعبير مذهب الثالوث - يدعون إلى التوحيد المشدد والأقنوم الواحد - الإله الواحد - ١ فانكروا ألوهية المسيح : (القديس إيريناوس في كتابه ضد المبتدعين ١ - ٢٦) وفي نهاية القرن الثاني قامت البدعة : المونارخيانية - تعلم : أنه ليس في الله إلا أقنوم واحد : (ترتليانوس في كتابه ضد بركسياس : ٣) وهذه البدعة تقسم تبعاً لموقفها من شخص المسيح إلى فرعين : ١ - المونارخيانية الديناميكية أو المتبنية ، تعلم : أن المسيح إنسان عادي بسيط وله بطريقة فائقة الطبيعة من الروح القدس ومن مريم العذراء وقد هباه الله يوم اعتماده وبنوع خاص : القوة الإلهية وتبناه - تشريفياً - .

وأهم القائلين بهذه البدعة « تادوتس » الدباغ البيزنطي ، الذي ادخل تعاليمه روما حوالي سنة ١٩٠ ففصله عن الكنيسة البابا القديس فكتور الأول (١٨٩ - ١٩٨) بولس السميصاني مطران انطاكية الذي حكم عليه كمبتدع خلعه مجمع انطاكية المنعقد سنة ٢٦٨ وفوتينوس اسقف سرميوم الذي خلعه مجمع انعقد في سرميوم سنة ٣٥١ .

٢ - مذهب عدم المساوات SUBORDINATIONISME يسلم هذا المذهب على خلاف سابقه بثلاثة أقانيم إلا أنه ينكر على الأقنوم الثاني والأقنوم الثالث مساواتهما .

للآب بالجواهر وبالتالي بالالوهية الحقّة .

٣- المذهب الأريوسي : نسبة إلى الكاهن الاسكندري أريوس (+ ٣٣٦) الذي كان يعلم بأن الكلمة (LOGOS) ليس من الأزل ولم يولد من الآب بل هو خليفة الآب خرج من العدم قبل سائر الخلائق كلها ، فهو ليس مساوياً للآب في جوهره ، ومنها نُعتوا بـ « الأنوميين » بل هو خاضع للتغير وقابل للتطور وليس هو الله بالمعنى الخاص الحقيقي ، بل بالمعنى النسبي فقط إذ تبناه بسابق نظره إلى استحقاقه ، وقد حرّمت هذه البدعة في المجمع النيقاوي المسكوني الأول (٣٢٥) الذي وضع قانوناً للإيمان يعترف فيه : بأن يسوع المسيح هو ابن الله المولود من جوهر الآب ، وبالتالي يعلن حقيقة ألوهته ومساواته للآب في الجوهر (٥٤٥٠) .

٤- المذهب المكدونياني : نشأ من الأريوسية المعتدلة فرع لها هو شيعة (بنفما توماك ، أي : اعداء الروح القدس) التي ينسبونها منذ أواخر القرن الرابع ، وربما عن خطأ - إلى مكدونئوس : اسقف القسطنطينية الأريوسي المعتدل (عزل عام ٣٦٠ وتوفي قبل ٣٦٤) وهذه البدعة اطلقت مذهب عدم المساوات على الروح القدس أيضاً - معلنة إياه بالاستناد إلى عبرانيين ١: ١٤ خليفة وروحاً للخدمة - كالملائكة - وقد قام ضد دعاة هذه البدعة القديس اثناسيوس والكبادوقيون الثلاثة . . . فدافعوا عن الوهية الروح القدس وعن وحدة جوهره مع الآب والابن ، وقد حرمت هذه البدعة في مجمع عقد في الاسكندرية (٣٦٢) برئاسة القديس اثناسيوس وفي مجمع القسطنطينية المسكوني الثاني (٣٨١) وفي مجمع عقد في روما (٣٨٢) برئاسة البابا القديس داماسيوس (٧٤٥٠ - ٨٢) وقد أضاف مجمع القسطنطينية إلى قانون نيقية فقرة خطيرة يعلن فيها الوهية الروح القدس إعلاناً هو على الأقل غير مباشر وينسب إليه الصفات الإلهية « نؤمن . . . بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب الذي هو مع الآب والابن - يسجد له ويمجد ، الناطق بالأنبياء » .

٥- البروتستانية : طعن لوثر في الاصطلاحات التي نعبر بها عن الثلث ، إلا أنه حافظ على الإيمان بالثالوث ومع ذلك فإن مبدء الحكم الشخصي الذي نادى به أدى أخيراً إلى إنكار عقيدة الثالوث .

إن مذهب السومينية بالنسبة إلى فومتوس سوريني قد اعتنق عن الله فكرة التوحيد إلى -

والذي دس في الكنائس هذه الخرافة الجارفة هو الخصي الكوسج المصري خادم الرهبان « أوريفين » ^(١) إلى أن تشكلت مجمع نيقية (٣٢٥ م) إذ جاءت من الجماعات الروحية المسيحية من شتى الأقطار من يزيد على ألف مبعوث لانتخاب الأناجيل التي يجب أن تعتبر قانونية ، ولقد كان (٣١٨) شخصاً من هؤلاء من القائلين بالوهية المسيح ، وقد

= اقصى حد ، بحيث لا تسمح باقائهم إلهية ، وقد نظر الى المسيح على أنه إنسان محض والى الروح القدس على انه قوة إلهية لا شخصية .

٦ - أما علم اللاهوت والراسيونالي المعاصر: فانه كثيراً ما يحافظ على الاصطلاحات والتعبير الثالوثية التقليدية ، إلا أنه لا يرى في الأقاليم الثلاثة سوى تشخيص لصفات إلهية ، كالقدرة والحكمة والجودة ، ويرى (هرنك) : ان الايمان المسيحي في الثالوث ليس إلا وليد الجدل الذي قام بين المسيحية واليهودية فكان أن اكتفوا أولاً بعبارة : « الله والمسيح » رداً على عبارة « الله وموسى » ثم أضافوا إليها فيما بعد « الروح القدس » تقنين الثالوث الكنسي :

إن أقدم صيغة تعليمية رسمية لايمان الكنيسة بشأن الثالوث الأقدس هي قانون الرسل الذي اتخذته الكنيسة منذ القرن الثاني في شكل قانون العمد الروماني القديم كأساس لتعليم الموعوظين ولإعتراف الايمان في حفلة العمد عند اللاتين .

ثم ... قانون نيقية القسطنطينية (٣٨١ م) وقد نشأ ضد مذهبي آريوس ومقدونيوس ، ثم المجمع الروماني برئاسة البابا القديس داماسيوس (٣٨٢) يدين بصورة اجمالية أضراب القرون الأولى في الثالوث الأقدس ، ثم إلى القرن ٥ و ٦ قانون اثناسيوس ، ثم قانون مجمع طليطلة الحادي عشر (٧٦٥ م) ثم في القرون الوسطى قانون مجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥ م) ثم مجمع فلورنس (١٤٤١ م) ثم في العصر الحديث تعليم ليبوس السادس (١٧٩٤ م) ...

(كل هذه منقولات عن كتاب مختصر في علم اللاهوت العقائدي تأليف لودفيغ اوت الألمانية نقله الى العربية الأب جرجس المارديني ج ١ : ٧٣ تحت عنوان : البدع المضادة للتثليث وتحديدات الكنيسة التعليمية) .

(١) هوراهب اعزب عارف باللغات عاش في القرن الثاني .

اجتهد آريوس رئيس الموحدين بالبرهنة على أن المسيح مخلوق وأنه عبد الله مستدلاً بما لديه من الآيات الإنجيلية وبتفسير الأعزة والآباء من إيقليسيا ، واعترف بهذه الحقيقة الثلاثان الباقيان من الألف (أعضاء المجمع) وهم الموحدون الذين كانت تتألف منهم الأكثرية العظيمة من أعضاء المجمع النيقاوي .

ومن ناحية أخرى قام رؤساء الثالوثيين (وعلى رأسهم اثنا سيوس) للبرهنة على : أن المسيح إله تام وأنه متحد الجوهر مع الله ، وأخيراً ترجح رأى المثلثين لا لشيء إلا للسلطة الجبارة آنذاك من قسطنطين (قونستنتينوس) تحت ستار إيجاد الأمن بين المتخالفين ، وأن قسطنطين يرجح رأي صديقه البابا كاهن رومية الأعظم وهو من الأقلية الثالوثية في نيقية ، ويأمر بإخراج أكثر من سبعمائة من الرؤساء الروحيين الباقيين : الموحدين - من المجمع ، ويقتل آريوس رئيس الموحدين لكي يصفى جو المجمع (٣١٨) الباقيين المثلثين .

ولقد صرح المسيح (ع) بهذا الحادث الجلل العظيم تنديداً بالمثلثين وتمجيذاً للموحدين بقوله : « سيخرجونكم من المجمع ، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله وسيفعلون بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفوني » (انجيل يوحنا ١٦ : ٣ - ٣ و ١٣ : ٩) .

والآب لغة يونانية بمعنى الخالق وهم حُرّفوها معنوياً إلى الآب : الوالد .

ذلك ، فالنصرانية الموجودة الآن إن هي إلا من سلطان وثني ملحد وخصي كوسج مصري ! .

« وقال المسيح يا بني إسرائيل أعبدوا الله . . » وكما في الإنجيل حيث يصرح المسيح (ع) في ثمانين موضعاً أنه عبد الله ورسوله ومنه « إن الحياة الأبدية معرفة الله بالوحدانية وأن المسيح رسوله » (يوحنا ١٧ : ٣) و « أول

الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد « (مرقس ١٢ : ٢٩) وقد قال له الكاتب :
لقد قلت حسناً إن الله إله واحد وليس غيره من إله ولما رآه المسيح عاقلاً في
جوابه وكلامه خاطبه قائلاً : لست بعيداً عن ملكوت الله « (مرقس ١٢ : ٣٢ و ٣٤) .

ثم ويندد بطرس إذ قال له حاشاك يا رب ! فالتفت إليه وقال : اذهب
عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس «
(متى ١٦ : ٢٢ - ٢٣) .

وهكذا نرى الوفير من تصاريح برنابا في إنجيله الذي أملاه عليه
المسيح (ع) يصرح بخالص التوحيد الحق ولا يثبتك مثل خبير ^(١) .

(١) ففيه ١ : ٧ - ٧ : ٧ : وانصرف يسوع من أورشليم بعد الفصح ودخل حدود قيصرية
فيلبس ، فسأل تلاميذه بعد أن أنفذه الملاك جبرائيل بالشغب الذي نجم بين العامة
قائلاً : ماذا يقول الناس عني ؟ أجابوا : يقول البعض أنك إيليا وآخرون أرميا أحد
الأنبياء ، اجاب يسوع : وما قولكم انتم في ؟ أجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله .
فغضب حينئذ يسوع وانتهره بغضب قائلاً : اذهب وانصرف عني لأنك انت الشيطان
وتحاول ان تسيء إلي ، ثم هدد الأحد عشر قائلاً : ويل لكم إذا صدقتم هذا لأنني
ظفرت بلعنة كبيرة من الله على كل من يصدق هذا . . فبكى بطرس وقال : يا سيد لقد
تكلمت بغباء فأضرع إلى الله ان يغفر لي ، وفي برنابا ٨ : ١١ : « وأراد المسيح أن
يخرج بطرس فشفع له التلاميذ ثم هده ثانياً ألا يكرر مقالته الكافرة هذه » .

هذا وقد يصر علماء الأنجيل بموقف بطرس الخاطيء كالتالي : يقول مستر «فلك»
والدكتور «كود» و«برنيس» وهو الملقب بالمرشد الفاضل في لسان جويل : ان
بطرس رئيس الحوارين غلط في ما كتبه وجاهل بالأنجيل وقد ضل عن الايمان
الصحيح بالمسيح بعد نزول روح القدس ، ويصرح «جان كالوين» ان بطرس ابتدع
في الكنيسة بدعاً جارقة وأضاف المسيحية بها واستلب منها حريتها وجعل التسويقي
المسيحي تحت رجليه .

وهنا « إن الله هو المسيح ابن مريم » دون « إن المسيح هو الله » عبارة قاصدة لمعنى خاص هو أن الله الذي لا إله إلا هو هو المسيح حيث تحول عن لاهوته إلى ناسوت المسيح فلم يبق هناك إله إلا المسيح ، وأما « أن المسيح هو الله » ففيه قوس صعودي أنه تحول عن ناسوته إلى لاهوت الله وهم لا يقولون به ، إنما قولهم هنا هو القوس النزولي : إن الله تحول إلى المسيح ! .

وهنا في تعريف المسيح بـ « ابن مريم » تنديد شديد بهذه القولة الهاتكة الفاتكة أن كيف بالإمكان كون الله هو المسيح وهو كما يعلمون ابن مريم ، فهل إن مريم هي أم الله في تحويله إلى المسيح فلا إله - إذاً - إلا المسيح ! .

وما تأويلهم العليل الكليل أن المسيح هو الله من جزء الروح وهو ابن مريم من جزء الجسم ، إلا تناقضاً بيناً في حلول المجرد للأ محدود في الجسم المحدود .

مركز تحقيق كتاب ميثاق علوم إسلامي

ذلك وقد سمي من آله من المجانين « فلما عرفوه اخذوا يصرخون : مرحباً بك يا إلهنا ! وأخذوا يسجدون له كما يسجدون لله . فتنفس الصعداء وقال : انصرفوا عني أيها المجانين لأنني أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت . لذلك ارتاع الشعب وطفقوا يبيكون » (برنابا ١٩: ٩٢ - ٢٠) ويشهد على عبوديته الأرض والسماء قائلاً : « اشهد أمام السماء واشهد كل شيء على الأرض : اني بريء من كل ما قد قلت . لأنني انسان مولود من امرأة فانية بشرية وعُرِضة لحكم الله مكابذ شقاء الأكل والعمام وشقاء البرد والحر كسائر البشر لذلك متى جاء الله ليدين يكون كلامي كحسام يخترق كل من يؤمن باني اعظم من انسان » (برنابا ١٠: ٩٣ - ١١ و ١: ٩٤ - ٣) . ويعتبر من يدعوهم إلهاً ضالاً مستحقاً للمقت قائلاً : « إنكم قد ضللتُم ضلالاً عظيماً أيها الاسرائيليون لأنكم دعوتُموني إلهكم وأنا انسان واني أخشى لهذا ان ينزل الله بالمدينة المقدسة وباءً شديداً مسلماً إياها لاستعباد الغرباء . لعن الله الشيطان الذي اغراكم بهذا الف لعنة ! » (برنابا ١٢: ٩٢ - ٤) .

ولمذهب الحلول هذا أبعاد شاسعة بين المشركين والكتائبيين وحتى من عرفاء المسلمين مهما اختلفوا بين قوسي الصعود والنزول ، حلول الله في بشر أم تحوّل بشر إلى الله في وحدة الإثنين أو انمحاء غير الله في الله فيصبح بذلك إلهاً !!! .

وذلك العرفان الخارف لا يقف لحّد بين اللاهوتيين المنجرفين إلى هَوَات الأهواء البعيدة عن حق الوحي والوحي الحق .

وأما أن « الله ثالث ثلاثة » فقد تحتل معنيين اثنين ، أحدهما أن الأقانيم الثلاثة : الأب والإبن وروح القدس، هم ثلاثة وواحد وواحد هو ثلاثة ، والأقنوم الأصل هو الله ! وثانيهما أنه عبارة أخرى لـ « أن الله هو المسيح » تجافياً لله عن لاهوته إلى ناسوت الإبن، وتعامياً عن ألوهة الروح القدس .

ذلك ، وفي « من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من انصار » تنديد شديد بمؤلهي المسيح (ع) أنه لا يفيدهم الفداء الصليبي المزعوم وأنه باختيار الصلب ، أو اختيار أبيه : الله - له الصلب فدى بنفسه عمن يعتقد به وبألوهيته أو ثالثه .

فحتى لو كان المسيح (ع) مدعياً ذلك الإشراف أو راضياً به لكان - وعوداً بالله - من أهل النار ، فضلاً عمن اختلقوا له منصب الألوهية وأنه بتفديته هذه ينجي المعتنقين أكذوبة الثالث ، عن النار .

ثم « وما من إله إلا إله واحد » تجتث مستغرقة الألوهية بكل شؤونها عن غير الله ، أقنوماً ذاتياً أو صفاتياً أم سواء ، فأية مماثلة مع الله في أي من شؤون الألوهية والربوبية تحمل ألوهة ما هي بصورة مستغرقة مسلوبة عمن سوى الله .

وهنا « ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما

للفظالمين من انصار» تستغرق - في حرمان الجنة وإيواء النار خلوداً أبدياً ما دامت النار - كافة المشركين بالله ، المسؤولين معه غيره بينوة وتثليث وألوهة .

ثم و « لا تقولوا ثلاثة » عبارة ثالثة هي صيغة واضحة عن أقانيهم الثلاثة .

وحصيلة تقولاتهم اللاهوتية في حفل الألوهية بعد البنوة التشريفية هي ألوهية الإبن كما الروح القدس إعتباراً بأنها من جوهر الأب ، واحد هو ثلاثة وثلاثة هي واحد ، ثم توحيد الألوهية للإبن حيث حل فيه الأب فلا إله إلا المسيح .

ومن لوازم الأخير هو ألوهة مريم كما المسيح فإنها - إذاً - والدة الإله ، فلا دور بعد للإله الأب حيث تجافى عن كونه وكيانه إنتقالاً إلى رحم مريم إلى جسم المسيح .

ومن تصريحاتهم أن « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية : الله الأب ، والله الإبن، والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمي الخلق بواسطة الإبن وإلى الإبن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير » (١) .

وهكذا نجد الروحيين المسيحيين يحاولون تثبيت الثالث بأي وجه كان ، وحين يهاجم عليهم بالبراهين العقلية التي تحيل الثالث يعتذرون بأنه فوق العقل كما أن ذات الله فوق العقل ، رغم أنه تحت العقل حيث تحيله، دون ذات الله حيث يشبتها العقل ، فالجمع بين كون شيء ثلاثة وواحد هو جمع بين نقضين والمحال محال على أية حال .

ولكي يحموا عن ظاهرة التناقض يلجئون إلى صيغة « توحيد الثالث » تمثيلاً له بالذات المقدسة عندنا الموصوفة بالأوصاف الثلاثة الذاتية ، وأين ثلاثة من ثلاثة ؟!

(١) كما في كتاب قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست الامريكي .

فالصفات الذاتية الثلاث عبارات عن ذات واحدة غير متجزئة ،
فليس في الواقع إلا وحدة تجردية بسيطة دون أجزاء وصفات عارضة ولا
ذاتية مركبة ، ولكنهم يفسرون ثالوثهم بذوات ثلاث مُفصلة عن بعضها
البعض ولكنها متساوية الجوهر في وحدة حقة حقيقية (١) .

ذلك ، وإلى قول فصل سيأتي على ضوء آية الغلو حول خرافة الثالوث
والوهة المسيح وبنوته عقلياً ونقلياً على ضوء قوله تعالى « يضاهشون قول
الذين كفروا من قبل . . » حيث يشير إلى أنها خرافة وثنية عتيقة تسربت في
النصارى ثم ترسبت فيهم ، فهم ليسوا أصلاء في هذه الخرافة الجارفة ،
بل هم يقتفون آثار مختلف صنوف المشركين في تاريخ الاشرار .

(١) هنا يقول الكاتب المسيحي المعاصر رئيس مطارنة بيروت الأستاذ الحداد في ص ٤٤
من كتابه : القرآن والكتاب : « ان توحيد التثليث من ارقى مراتب التوحيد ولم تكن
البيئة البدائية في الحجاز لتقوى على استساغته لانهم ما اوتوا من العلم إلا قليلاً !
والنصرانية منذ كانت هي دين التوحيد مع قولها بعقيدة التثليث في الطبيعة الإلهية
الواحدة فالتثليث المسيحي الصحيح لا يعدد ولا يجزء اللاهوت الواحد في الله الأحد ،
فالنصرانية أولاً وأخيراً تؤمن بإله واحد كما ينص عليه مطلع دستور إيمانها الذي هو
شهادتها تحت كل سماء ومن ثم فالإيمان في الوهية عيسى - لا في تأليه عيسى - وفي
نأنسه وتجسده لا يزيد شيئاً ولا ينقص شيئاً من طبيعة الخالق الواحدة ، إذن فالعقيدتان
المسيحيتان « التثليث والتجسد » لا تمتان إلى الشرك بصله ، إنهما من صميم التوحيد
وتعتبرهما النصرانية القديمة في معناهما الصحيح تفسيراً منزلاً لحياة الحي القيوم في
ذاته السامية كما نزل به الانجيل .

وهذا التعليم الكامل لم يكن الرسل والحواريون يبشرون به لأول وهلة بل كانوا ينادون
بالتوحيد الأركان الأولى لأقوال الله في ديار الوثنية والشرك وبعد توطين الإيمان كانوا
يفسرون للمؤمنين غنى الطبيعة الإلهية في مناعها اللامحدود وتثلثها الذاتي اللامتناهي
على قدر ما يمكن للعقل البشري المحدود أن يستوعب حياة الحي القيوم اللامحدود .

﴿ أَقْلًا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٧٤):

توبة إلى الله مما يقولون على الله من جارفة خارفة هارفة ، واستغفاراً
إياه أن يستر عنهم هذه الانحرافات بمخلفاتها « والله غفور رحيم » للتائبين
إليه المستغفرين إياه .

﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴾ (٧٥):

هنا « إلا رسول » كما في غيره من الرسل يحصر كيان المسيح في
رسالة الله دون زائد ولا ناقص « وأمه صديقة » : هي كمال الصدق وتماحه
قالاً وحالاً وأعمالاً ، ومن الواقع الذي يثبت أنهما من البشر دون ألوهة ولا
بنوة أم أمومة لله، أنهما « كانا يأكلان الطعام » وأكل الطعام دليل الحاجة
المستمرة ، ثم الخارج منهما من حصيلة الطعام دليل آخر على بعدهما عن
ساحة الألوهية فـ « من أكل الطعام كان له ثقل - ثقل - ومن كان له ثقل فهو
بعيد مما إدعته النصرى لابن مريم (ع) » ^(١) ، إذا فكيف يكون
المسيح وأمه عليهما السلام إلهين من دون الله كما يُتساءل المسيح :
« أنت قلت للناس إتخذوني وأمي إلهين من دون الله . . » (١١٦: ٥) .

(١) نور الثقلين ١: ٦٦٠ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث
طويل يقول فيه : « وأما هفوات الأنبياء عليهم السلام وما بينه الله في كتابه فان ذلك من
ادل الدلائل على حكمة الله عز وجل الباهرة وقدرته القاهرة وعزته الظاهرة لأنه علم أن
براهين الأنبياء عليهم السلام تكبر في صدور امهم وان منهم من يتخذ بعضهم إلهاً
كالذي كان من النصرى في ابن مريم فذكر دلالة على تخلفهم عن الكمال الذي انفرد
به عز وجل ، الم تسمع إلى قوله في صفة عيسى حيث قال فيه وفي امه عليهما السلام :
« كانا يأكلان الطعام » يعني من اكل

ولأن أكل الطعام للمسيح وأمه واقعية لا تنكر كخصيصة ضرورية من خصائص الأحياء المخلوقين ، تلبية لحاجة جسدية لا مرية فيها ، فكيف يكون إلهاً من يحتاج إلى طعام ليعيش ، والله حيٌّ بذاته وحيٌّ قبل أن يخلق طعاماً وطعاماً .

وهنا دور « وأمه صديقة » دور التصديق لبشرية المسيح ورسالته حيث « صدقت بكلمات ربها وكتبته وكانت من القانتين » (١٢: ٦٦) .

وهكذا الرائع كما الشمس في رابعة النهار نبرهن لهم فـ انظر كيف نبين لهم الآيات « الدالة على كيان الألوهية وكيان المألوهين ككل » ثم أنظر أنى يؤفكون « وقد أفكهم الذين كفروا وهم « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله فأنى يؤفكون » ؟! .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٧٦) :

حجة ثانية - بعد برهان الفقر والحاجة للمسيح عليهما السلام - تحلق على كل المعبودين من دون الله ، ان كيف تعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ولو ملك لنفسه نفعاً أو دفع ضرر لم يكن بحاجة إلى من سواه ؟ .

فمهما كان فيمن دون الله نفع ودفع ضرر ، ولكن أحداً منهم لا يملك ضرراً ولا نفعاً بصورة مستقلة هي قضية طليق الملك لهما، حيث الملموس ليل نهار فسخ العزائم ونقض الهمم ، فلا تجد أحداً بإمكانه تحقيق كل ما يريد من نفع لنفسه أو سواه، أم دفع ضرر عن نفسه أو سواه ، وهذا هو المعنى من ملك الضر والنفع .

فـ ما لا يملك « لنفسه فضلاً عن سواه » ضرراً ولا نفعاً « فأي نفع في عبادته وطاعته ؟ والطاعة والعبادة المرسومة في الأكثرية الساحقة من

العابدين الله وسواه لا تعني إلا دفع الضر وجلب النفع ، فلتختص العبادة لمن يملكهما أن يضر وينفع، فليعبد دفعاً عن ضره وجلباً لنفعه في أية حلقة من حلقات الحياة .

إذاً فعرض « ضرراً ولا نفعاً » في معرض الحجاج لا يعني كل العابدين حيث المخلصون يعبدون الله لأنه الله لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً في ثوابه ، بل المعنيون هنا هم المشركون الذين يعبدون بغية دفع ضرر أو جلب نفع .

وتقدم « ضرراً » هنا على « نفعاً » كذلك يعني الأكثرية من هؤلاء حيث يحاولون دفع الضر عن أنفسهم قبل جلب النفع .

وهنا التعبير بـ « ما » دون « من » يعني اضافة إلى عناية التحليق على كل الكائنات عاقلة وسواها ، ان العاقلة منها كغيرها هما على سواء في « لا يملك ضرراً ولا نفعاً » لأن ملكهما يختص بمن يملك الكائنات كلها .

« قل اتعبدون . . والله هو السميع العليم » لكل ما يُسمع ويُعلم ، سمعاً للأقوال والأدعية وعلماً بالأحوال والأفعال بحیطة علمية على الكائنات ، وحيطة القدرة على اجابة السئولات « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير » (١٤: ٣٥) .

ذلك واصل الثالث : ١ - ثلاثة هي واحد وواحد هو ثلاثة ، باستحالته
٢ - وان المسيح ابن مريم ، فقد ولد بعد أن لم يكن فحادث ، ومولود غير مخلوق هنا تناقض ثان ٣ - وان صديقة حيث صدقت توحيد الألوهية ورسالة المسيح ٤ - وكانا يأكلان الطعام دلالة على الحاجة الى الطعام ٥ - و« لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً » ولو كانا إلهين لملكاهما لغيرهما كما لأنفسهما ، هذه براهين خمسة لتزييف خرافة الثالث والبنوة الإلهية فضلاً عن توحيد

الالوهية فيه بتجافي الإله عن لاهوته إلى ناسوت جسم المسيح (ع).

ذلك وحين يصدق النصارى ان المسيح (ع) كان أعهد أهل زمانه كما في تصاريح انجيلية، فهنا التساؤل : من ذا الذي كان يعبد المسيح (ع) هل هو نفسه أنه كان يعبد نفسه ، أم غيره فذلك الغير هو الله فهو - إذا - عابد مألوه .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (٧٧):

« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته فسبحرهم الله جميعاً » (٤: ١٧٢) - « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون. اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما امروا إلا ليعبدوا الله إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (١٠: ٣٠ - ٣١).

والغلو أي كان هو تجاوز الحد المعتدل عقلياً أو شرعياً أو عرفياً ، تجاوزاً إلى الإفراط كما هو المعني في الأغلب منه ، أم إلى حد التفريط ، وهو تخلف عن الحد صعوداً عنه أم نزولاً ، وقد يروى عن النبي (ص) أنه قال : « اياكم والغلو في الدين فإنما اهلك - هلك - من كان قبلكم الغلو - بالغلو - في الدين » ^(١) و « صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام

(١) ن مناسك ٢١٧ - جد مناسك ٦٣ - حم ٢١٥٢١ ، ٣٤٧ .

الغلاة والقدرية»^(١) و«احذروا على شبابكم الغلاة لا يفسدوهم فإن الغلاة شر خلق الله يصغرون عظمة الله ويدعون الربوبية لعباد الله وإن الغلاة لشر من اليهود والنصارى والمجوس والذين اشركوا»^(٢) و«إن فيهم من يكذب حتى إن الشيطان ليحتاج إلى كذبه»^(٣) و«لعن الله الغلاة والمفوضة فانهم صغروا عصيان الله وكفروا به وأشركوا وضلوا وأضلوا فراراً من إقامة الفرائض وأداء الحقوق»^(٤).

ولقد كثر الغالون على مدار الزمن الرسالي في أصول الدين والمذهب وفروعه، متتبعين نقاب الإخلاص وهم عنه في افلاس، وهم أخطر على الحق من الكفار والمنافقين حيث يخوضون مختلف حقول الدين ويشوهونه بنقاب الدين.

فالقائل بالولاية التكوينية أو التشريعية لنبي أو وصي نبي فضلاً عن سواهما غال فانهما من ميزات الربوبية، كما القائل بالتفويض فيهما فإنه من نفس النمط، والقائل بشفاعتهم الطليقة عن اذن الله، وإن ولايتهم تغني عن سائر التكاليف مثل ما يروى أن «حب علي حسنة لا يضر معها سيئة» وما أشبه من الغلو المورط في معاصي الله ومآسي الأمور!

وأحاديث التفويض مردودة أو مأولة، ف«ما فوض إلى رسول الله (ص) فقد فوضه إلينا»^(٥) يعني تفويض الولاية الشرعية فحسب، فيجب - إذا - التفويض إليهم بطاعتهم الطليقة كما يجب التفويض إليه (ص) في طاعته كما قال الله: «اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم» (٤: ٥٩) وكما لا تعني طاعة الرسول فوق ما أرسل به من احكام الله، كذلك

(١ - ٤) على الترتيب في سفينة البحار ٣: ٣٢٤ - ٣٢٥ عن النبي (ص) والضادق (ع).

(٥) سفينة البحار ٣: ٣٨٦ عن الصادق (ع).

طاعتهم التي هي استمرارية لطاعته .

واما ان يحلوا شيئاً أو يحرموا ما لم يحكم به الله ، أو يطلبوا من الله شيئاً من ذلك فذلك جرأة على الله محادة ومشاقة ^(١) .

ذلك ، فكل ما ورد من نسبة علم الغيب ما كان وما يكون وما هو كائن اليهم عليهم السلام، وأنهم هم وسائل الخلق المفوض إليهم أمره تكويناً أو تشريعاً ، أماذا من شؤون الربوبية ، كل هذه مردودة أو مأولة، ومما يروى عن الصادق (ع) : « ما جاءكم منا مما يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه وردوه إلينا وما جاءكم عنا مما لا يجوز أن يكون في المخلوقين فاجحدوه ولا تردوه إلينا » ^(٢) .

فـ « ما يجوز وما لا يجوز » محوّل إلى نص من الكتاب أو السنة القطعية ، إضافة إلى ما يراه العقل السليم من مختصات الربوبية غير الجائز تحولها إلى غير الله ، بإذن منه أو سواه ، كذاته تعالى وصفاته وأفعاله ، فإنه « باين عن خلقه وخلقه باين عنه » بينونه في هذه الثلاث كلها .

فالأمر ثلاثة ، منها المختصة بالله لا تعدوه إلى سواه ، ومنها العامة

(١) المصدر عن الكافي عن محمد بن سنان قال كنت عند أبي جعفر عليهما السلام فأجريت اختلاف الشيعة فقال : يا محمد إن الله تعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة صلوات الله عليهم وآلهم فمكثوا الف - الف الف - سنة ثم خلق جميع الأشياء فاشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوض أمورها إليهم فهم يحلون ما يشاءون ، بإذن الله تبارك تعالى ، ثم قال يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق ومن تخلف عنها محق ومن لزمها لحق خذها إليك يا محمد . اقول : لم يأذن الله لهم في ربوبيته وإنما يأذن في غيرها من الأمور غير المختصة به تعالى من بلاغ أحكامه ومن شفاعته بأذنه أماهيه .

(٢) سفينة البحار ١: ٣٢ خصص عن المفضل قال : قال أبو عبد الله (ع) :

بين الخلق قدر مساعيهم ، ومنها ما يمنحه الله خاصة عباده كما يسعون ،
انتجاباً لهم في رسالة أو عصمة أما دونها ، فمثل أنهم يعلمون متى يموتون
وأنه لا يقع ذلك إلا باختيارهم ، قد يجوز في حقهم حيث المنفي « وما
تدري نفس بأي أرض تموت » لا « متى تموت » فمن كرامات الله لهم أن
يعرفهم متى يموتون ، وهكذا يأول إقدامهم على شرب السم وما أشبه من
بواعث قتلهم .

ومن الغلو في حقهم أن الإمامة فوق الرسالة والنبوة ، فلأن
الرسول (ص) إمام كما هو رسول ، لذلك لا يفضلون عليه (ص) .

ذلك ، لأن الإمامة - على أية حال - هي فرع الرسالة واستمرارية لها ،
فكيف تكون - إذاً - فوق الرسالة ، وليس تفوق أئمتنا عليهم السلام على
سائر الرسل عليهم السلام إلا لما يحملون من العصمة القمة
المحمدية (ص) التي هي فوق العِصْم كلها .

لذلك ، لا تجد إماماً بعد نبي مفضلاً عليه ، بل هو خليفة له وممثل
عنه باستمرار دعوته ، فلأن استمرار الدعوة المحمدية المعصومة هو فوق
كافة الدعوات الرسالية ، لذلك نعتقد فيهم أنهم أفضل من كافة المرسلين
إلا الرسول الخاتم (ص) الذي هم أشعة من نوره .

لا فحسب ، بل والصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها
مفضلة على كافة المعصومين سوى المعصومين المحمديين عليهم السلام
أجمعين .

ذلك ، فالغلو مرفوض مرضوض في الدين كل الدين ، اصولاً عقيدية
أم فروعاً أحكامية أمأهيه من الدين ككل ، حيث الغلو تخلف عن شرعة
الحق ، فهو في حقل التقصير ضلال عامد ، وفي حقل القصور ضلال
خامد ، يجب على الدعاة إلى الله أن يوضحوا لهم الحق « فمن شاء فليؤمن
ومن شاء فليكفر » - « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .

ذلك ومن الغلو بحق المسيح (ع) تصعيده إلى منزلة الربوبية كما فعله النصارى في شتات عقائدهم الشركية إلا القليل ممن وفى لرعاية الحق من موحديهم ، أم تنزيله عن ساحة الرسالة كما فعله اليهود حيث قالوا إنه وليد السفاح .

والغلو أياً كان ليس إلا باطلاً فلا دور لـ « غير الحق » هنا إلا التأكيد ، إغفالاً للغلو في غير الحق كـ « يقتلون النبيين بغير حق » وما أشبهه .

وهنا « لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » تصاحي ما تعنيه هناك « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » أي من قبل أهل الكتاب وهم مختلف صنف المشركين على مدار تاريخ الإشراك .

تاريخ التثليث بقول فصل :

فقد يذكر لنا تاريخ الوثنية على طول خطوطها وبكل خيوطها خمسة عشر من التواليث مما يصدق هاتين الآيتين أن ثالث الوث النصارى إن هو إلا خرافة تقليدية لهم ، عن « الذين كفروا من قبل » في ثالث الوث : « قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » ! .

ذلك ، و « إن أقدم ما نعثر عليه في تاريخ الفراعنة الثالث المكون من الآلهة : (اوزيريس - ايزيس - حورس) : الأب والأم والولد ، ثم المكون من « آمون » وزوجه « موت » وإبنه « خونس » وهو تثليث بلدة « تب » وهم : الأب والأم والولد ، ثم المكون من « أنوبيس - معات - توت » ثم المكون من « آنوا - بعل - آيا » وهو ثالث الكلدانيين ، ثم المكون من « سن - شمش - عشتار » : الأب والإبن والأم ، ثم المكون من « مينوس - رادامانت - إيبال » أولاد « زوس » : الإله الأعظم ، ثم المكون من « الأب

والابن وروح القدس « وهو للمسيحيين^(١) والثالوث الخمسة عشر كالتالية :

(١) كما في كتاب حياة السيد المسيح لـ: فاروق الدملاجي ص ١٦٢ ، ويقول « برتشرود في كتابه : خرافات المصريين الوثنيين ص ٢٨٥ : لا تخلو كافة الأبحاث المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر احد انواع التثليث أو التولد الثلاثي أي : (الأب والابن وروح القدس) ويقول « موريس » في كتابه : الآثار الهندية القديمة ٦ : ٣٥ : كان عند اكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي ، أي الإله ذو اقانيم ثلاثة . وفي كتاب « سكان أوروبا الأول » ص ١٩٧ : كان الوثنيون القدماء يعتقدون بان الإله واحد ولكنه ذو ثلاثة اقانيم . واليكم ثوالثهم :

١- الثالوث البرهمي : يقول دوان في كتابه : خرافات التوراة والانجيل وما يماثلهما في الديانات الأخيرة : إذا أرجعنا البصر نحو الهند نرى أن اعظم وأشهر عباداته اللاهوتية هو التثليث ويدعون هذا التعليم بلغتهم « تري مورتى » وهي جملة مركبة من كلمتين ، فهـ تري « تعني : ثلاثة ، و« مورتى » هيآت ، فهي « ثلاث هيآت » هي « برهمة - فشنو - سيفا » ثلاثة اقانيم غير منفكين عن الوحدة وهي الرب والمخلص والمهلك ، ومجموع هذه الثلاثة اقانيم إله واحد ويرمزون عنها بثلاثة احرف هي : الألف - الواو - الميم ، ويلفظونها « أوم » ولا ينطقون بها إلا في صلواتهم ويحترمون رمزها في معابدهم احتراماً عظيماً .

ولما اراد برهمة : (خالق الوجود الذي لا شكل له ولا تؤثر فيه الصفات) أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار شخصاً ذكراً وهو « برهمة الخالق » ثم زاد في العمل الى الصفة الثانية من الوجود فكان « فشنو » : الحافظ ، ثم انقلب الى الصفة الثالثة الظلالية فكان « سيفا » : المهلك ، ويدعون هذه الصفات الثلاث ايضاً « تري مورتى » ويشبهونها بالنار ويدعونها ايضاً « النى - سوريا - اندرا » وغير ذلك من الأسماء الثلاثية . وفي كتب البرهميين المقدسة المعتبرة لديهم : ان هذا الثالوث المقدس غير منقسم في الجوهر والفعل والامتزاج ويوضحونه بقولهم :

برهمة الممثل لمبادئ التكوين والخلق ولا يزال خلاقاً إلهياً هو « الأب » و« فشنو » يمثل الحماية والحفظ وهو « الابن » المنفك والمنقلب عن الحال اللاهوتية و« سيفا » المبدى والمهلك والمبيد والمعيد وهو « روح القدس » ويدعونه : « كرشنا » : الرب المخلص والروح العظيم حافظ العالم المنبتق منه « فهـ فشنو » الإله الذي ظهر =

بالتناسوت على الأرض ليخلص الناس فهو احد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد . وفي الكيبتا - من كتبهم المقدسة - ان كرشنا قال : أنا رب المخلوقات جميعها ، أنا سر الالف والواو والميم « اوم » أنا برهمة وفشنو وسيفا، التي هي ثلاثة آلهة : إله واحد . فالأقنوم الثالث وهو في صفته المظلمة « المهلك » وفي صفته الحسنة « المعيد » يعبرون عنه بصورة حمامة ويقصدون بهذه الصورة الرمز عن الإعادة والخلق الجديد وهو الروح الذي يرف على وجه الماء - كما في التوراة ان روح الله كان يرف على وجه الماء - ويعبرون عن الأقانيم الثلاثة الأبدية الجوهرية بـ « اوم » .

وقال « الن » في كتابه « الهند » ٣٨٢ : يقول البرهميون في كتبهم الدينية : ان احد الأنقياء واسمه (اتنيس) رأى أنه من الواجب أن تكون العبادة لإله واحد فتوسل ببرهمة وفشنو وسيفا قائلاً : يا ايها الأرباب الثلاثة اعلموا اني اعترف بوجود إله واحد فأخبروني أيكم الإله الحقيقي لأقرب له نذري وصلاتي ؟ فظهرت الآلهة الثلاثة وقالوا : اعلم أيها العابد انه لا يوجد فرق حقيقي بيننا وأما ما تراه من ثلاثة فما هو إلا بالشبه والشكل والكائن الواحد الظاهر بالأقانيم الثلاثة هو واحد بالذات .

وقال موريس في آثار الهند القديمة ٤ : ٣٧٢ : لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديك دكتة مرور القرون صنمًا له ثلاثة رؤوس على جسد واحد والمقصود منه التعبير عن الثالوث .

٢ - الثالوث البوذي :

قال المستر فابر في كتابه اصل الوثنية : وكما نجد عند الهنود ثلوثاً مؤلفاً من برهمة - فشنو - سيفا ، هكذا نجد عند البوذيين فانهم يقولون : ان بوذا إله واحد ويقولون بأقانيمه الثلاثة ، وكذلك بوذي « جينست » يقولون عن : جيغا - انه مثلث الأقانيم . ويقول دافس في كتابه الصين ٣ : ١٢١ و ١٠٣ ودوان في كتابه خرافات التوراة والانجيل : البوذيون الذين هم اكثر سكان الصين واليابان يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يسمونه « فو » ومتى ودوا ذكر هذا الثالوث المقدس يقولون : الثالوث النقي « فو » ويصورونه في هياكلهم بشكل الأصنام التي وجدت في الهند . . . ويوجد في احد المعابد المختصة ببوتالا في منشوريا تمثال « فو » مثلث الأقانيم ، ومثله في اصل الديانة الوثنية لـ « مستر فابر » .

٣ - ثالوث تاوو :

يقول دوان في ١٧٢ من كتابه : انصار « لاو كومتزا » وهو الفيلسوف الصيني المشهور -

- وكان قبل المسيح (ع) بأربع سنين وستمائة - يُدْعَوْنَ شِيعَةَ « ناور » وهؤلاء يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم واساس فلسفته اللاهوتية أن ناور وهو العقل الأبدي انبثق منه واحد ومن هذا الواحد انبثق ثان ومن الثاني انبثق ثالث ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء وهذا القول بالتوليد والانبثاق ادهش العلامة مورييس لأن قائله وثني .

٤ - ثالث الثالوث الصينيين :

وقد جاء في الكتب الدينية الصينية ان اصل كل شيء واحد وهذا الواحد الذي هو اصل الوجود اضطر الى ايجاد ثان والاول والثاني انبثق منهما ثالث ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء .

٥ - ثالث الثالوث الهنود :

قال المستر هلسلي ستونس في كتابه الايمان والعقل (٧٨) يعتقد الهنود بإله مثلث الأقانيم ومتى ودوا التكلم عنه بصفة الخلاق يقولون : الإله برهمة ، ومتى راموا التكلم عنه بصفة الملك يقولون سيفاً أو مهديفاً ، ومتى ارادوا وصفه بصفة الحافظ يقولون : الإله فشنو ، ويقولون : إن هذا الثالث المقدس حاضر في كل مكان بالروح والقوة .

٦ - ثالث الثالوث المصريين :

المصريون القدماء كانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مصوراً في أقدم هياكلهم ويظن أهل العلم أن الرمز الذي يصورونه وهو جناح طير ووكر وأفعى ، أنه إشارة إلى ذاك الثالث واختلاف صفاته ، وقال دوان في (٤٧٣) وكان قسيسوا هيكل ممفيس بمصر يعبرون عن الثالث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم : ان الأول خلق الثاني والثاني مع الأول خلقا الثالث وبذلك تم الثالث المقدس ، وسأل « توليو » ملك مصر الكاهن تينشوكي ، سألته ان يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ أو هل يكون بعده من هو أعظم منه ؟ فقال له الكاهن : نعم يوجد من هو أعظم وهو أولاً : الله ، ثم الكلمة ومعهما روح القدس وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية فأذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة ، وقال بونويك في اعتقاد المصريين ٤٠٢ و ٤٠٤ وأغرب عقيدة عم انتشارها في ديانة المصريين الوثنيين القدماء هي قولهم بلاهوت الكلمة وأن كل شيء صار بواسطتها وانها منبثقة من الله وانها الله ، وكان « بلاتو » عارفاً بهذه العقيدة الوثنية وكذلك ارسطو وغيرهما ، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بسنين ولم تكن نعلم ان الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول -

ويعتقدون هذا الاعتقاد إلا في هذه الأيام ، وقال أيضاً : كما ان للكلمة مقاماً سامياً عند المصريين ، كذلك يوجد في كتبهم الدينية المقدسة هذه الجملة : إني اعلم بسرّ لاهوت الكلمة وهي كلمة رب كل شيء وهو الصانع لها فالكلمة هي الأقنوم الأول بعد الإله وهي غير مخلوقة وهي الحاكم المطلق على كافة المخلوقات .

٧ - ثلوث اليونان :

في كتاب ترقى التصورات الدينية ١ : ٣٠٧ « كان اليونانيون القدماء الوثنيون يقولون ان الإله مثلث الأقانيم ، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات اشارة الى الثلوث ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ويعتقدون بان الحكماء صرحوا : ان كل الأشياء المقدسة يجب أن تكون مثلثة ولهم اعتناء تام بها العدد في كافة احوالهم الدينية .

وقال دوان نقلاً عن اورفيوس - وهو احد كتاب وشعراء اليونان قبل المسيح بقرون - « كل الأشياء علمها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم » وهذا التعليم الثالوثي اصله من مصر وكثيرون من الآباء في الجيل الثالث والرابع قالوا : ان فيثاغورس وهير كليطوس وبلاطو علموا التثليث وقد اخذوا فلسفتهم في التثليث عن اورفيوس (انظر دوائر المعارف تأليف تشمبرس عند كلمة اورفيوس) .

٨ - ثلوث الرومان :

قال فيسك - في كتابه الخرافات ومخترعوها (٣٠٥) - وكان الرومانيون يعتقدون بالتثليث وهو أولاً الله ثم الكلمة ثم الروح .

٩ - ثلوث الفرس :

قال دوان (٢ : ٨١٩) : وكان الفرس يعبدون ألهاً مثلث الأقانيم مثل الهنود تماماً وهم : اورمزد ومترات واهرمان ، فأورمزد : الخلاق ومترات : ابن الله المخلص والوسيط ، واهرمان : المهلك ، ويوجد في كتابات زورسترسنان - الشرائع الفارسية - هذه الجملة : الثلوث اللاهوتي مضي في العالم ورأس هذا الثلوث « موناد » ، وقال هيجن (في الانكلوسكستين) ٢ : ١٦٢ والسيود دونلاب في (ابن الانسان ٢٠) وينصون في (المسيح الملاك) : كان الفرس يدعون متروس : الكلمة والوسيط ومخلص الفرس .

١٠ - ثالوث الفنلنديين :

قال بارخوس في القاموس العبراني كان للفنلنديين - وهم برايرة كانوا يسكنون شمالي بروسيا في القرون الخالية - : إله اسمه تريكلاف وقد وجد تمثال له في « هرتوبمبرج » له ثلاثة رؤوس على جسد واحد .

١١ - ثالوث الاسكندنافيين :

قال دوان (٣٧٧) وكان الاسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونها: اودين - تورا - فري - ويقولون عن هذه الثلاثة أقانيم انها إله واحد ، وقد وجد صنم يمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة « أوبسال » من « أسوج » وكان اهالي « أسوج ونروج والدنمرك » يفاخرون بعضهم في بناء الهياكل لهذا الثالوث وكانت جدران هذه الهياكل مصفحة بالذهب ومزينة بتمثيل هذا الثالوث ويصورون « اودين » ويده حسام و « تورا » واقفاً عن شماله وعلى رأسه تاج ويده صولجان و « فري » واقفاً عن شمال « تورا » وتمثاله فيه علامتا الذكر والأنثى ويدعون « اودين » الآب و « تورا » الابن البكر لآب اودين و « فري » مانح البركة والنسل والسلام والغنى .

١٢ - ثالوث الدرديين والتر والسييريين :

كان الدرديون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم وهم « تولاك » - فان - مولا - وسكان سييريا القدماء كانوا يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم ويدعون الأقموم الأول منه : خالق كل شيء والأقموم الثاني : إله الجنود ، والأقموم الثالث : روح المحبة السماوية - ثم يقولون : أقانيم ثلاثة إله واحد ، والتر الوثنيون عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم وعلى احد نقودهم الموجودة في متحف « بطرسبرج » صورة هذا الإله المثلث الأقانيم جالسا على حندوقة .

١٣ - ثالوث الجزائر الأوقيانوسية :

قال نيت - في كتابه الصنایع القديمة والخرافات الوثنية ١٦٩ - : سكان الجزائر في الأقيانوس عبدوا إلهاً مثلث الأقانيم فيقولون : الإله الآب - الإله الابن - الإله روح القدس ويصورون روح القدس بهيئة طير .

١٤ - ثالوث المكسيكيين :

قال اللورد كينكسبرو - في كتابه آثار المكسيك القديمة ١٦٤ : ٥ - : المكسيكيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونه « تركنيلوكا » ومعه إلهان آخران أحدهما واقف عن =

- ١ - الثالث البرهمي . ٢ - والبوذي . ٣ - وتاوو . ٤ - والصينيون .
- ٥ - والهنود . ٦ - والمصريين . ٧ - واليونان . ٨ - والرومان . ٩ -
- والفرس . ١٠ - والفلنندين . ١١ - والإسكندنافيين . ١٢ - والدرديين
- والتتر والسييريين . ١٣ - والجزائر الأوقيانوسية . ١٤ - والمكسيكيين .
- ١٥ - والهندوس الكنديين .

فقد يبدو أن من هامة التأثير للدعايات المسيحية في هؤلاء الأقوام
الثالوثية هي تشابه ثالوثهم مع ثوالثهم ، إضافة إلى الإباحية المركزة على
الفداء الصليبي الذي هو أيضاً من العقائد الوثنية .

ذلك ، ومن عجاب الأمر في مضاهات المسيحية المختلفة والوثنيات
أنها حسب سرد التاريخ الوثني والمسيحي ، كأنها نسخة طبق الأصل من
هذه الوثنيات ، ومثلاً على تلك المضاهاة المقارنة التالية بين بوطا والمسيح

يمين الإله المذكور والآخر واقف عن يساره واسم الإله الأول الواقف عن اليمين
« اهوتزليبوشتكي » والآخر اسمه : « تلالوكا » ولما عين « برتولوميو » مطراناً سنة
١٤٤٠ - أرسل القس « فرنسيس هرمنديز » إلى المكسيك ليشرّب بين الهندوسيين بالديانة
المسيحية وكان هذا القس عارفاً بلغة الهندوس ومن بعد مضي عام على ذهابه أرسل
مكتوباً إلى المطران المذكور يقول فيه : ان الهندوسيين يؤمنون بإله كائن في السماء وان
هذا مثلث الأقانيم وهو الإله الأب والإله الابن والإله روح القدس وهؤلاء الثلاثة إله
واحد ، واسم الأب « بزونا » واسم الابن « باكاب » مولود من عذراء واسم الروح
القدس « ايكيميا » ويعتقدون صنماً اسمه « تنكاتنكا » يقولون عنه إنه واحد ذو ثلاثة
أقانيم ، وانه ثلاثة أقانيم إله واحد .

١٥ - ثالث الهندوس :

قال سكوير - في كتابه رمز الحية ١٨١ - : والهندوس الكنديون يعبدون إلهاً مثلث
الأقانيم ويصورنه بشكل صنم له ثلاثة رؤوس على جسد واحد ويقولون : انه ذو ثلاثة
اشخاص بقلب واحد وإرادة واحدة . . .

منذ الولادة حتى الصلب والصعود في حلقاتها الأربعة عشر حسب الأسناد التالية(*) :

بوظا = المسيح ! :

المسيح	بوظا
١ لما تنزل المسيح في محل عالٍ سماوي ودخل رحم مريم العذراء صار الرحم كممثل البلور وكان يرى فيه قبل مولده ^(١) .	١ لما تنزل بوظا من محل عالٍ إلى رحم العذراء مايا شغ الرحم بنوره وكان يرى فيه قبل مولده ^(١) .
٢ علامة ولادته نجم طلع من المشرق اسمه نجم المسيح ^(٢) .	٢ علامة ولادته نجم طلع من الأفق وتسمى نجم بوظا ^(٢) .
٣ ولد المسيح ابن العذراء مريم التي حل روح القدس في رحمها يوم عيد الميلاد (٢٥) كانون الأول ^(٣) .	٣ ولد بوظا ابن العذراء « مايا » التي حل روح القدس في رحمها يوم عيد الميلاد (٢٥) كانون الأول ^(٣) .
٤ سر ملائكة السماء بولادته وخطبوا بيمنه وقالوا: العظمة لله في السماء والأرض وللناس المسرة حيث أوصل النور إلى محل الظلام ^(٤) .	٤ بعد ولادته سر به جنود السماء وبيمنه خطبوا خطابات وقالوا : إسم نجمه الصباح ^(٤) .

(*) هذه الاسناد وما قبلها من اسناد تاريخية نقلها عن كتاب « العقائد الوثنية للأستاذ محمد طاهر التنير البيروتي رحمه الله » .

(١) انجيل متى ب ١ .

(٢) انجيل متى ١: ٣ .

(٣) دوان (٢٩٠) .

(٤) لوقا ١٣: ٣ - ١٤ .

(١) بنسون (٢٠) ودوان (٢٩٠) .

(٢) دوان (٢٩٠) .

(٣) بنسون في مسيح الملاك (١٠) .

(٤) دوان (٢٩٠) .

- ٥ إن الحكماء عرفوا بوظا وأسراره
اللاهوتية وبعد يوم من ولادته رحب
الناس بولادته ^(١).
- ٦ قال بوظا في طفولته لأمه أنا أعظم
الناس ^(٢).
- ٧ ولد بوظا خفية وملك بمبارا أصر
في قتله حيث أخبر أنه يسلبه
ملكه ^(٣).
- ٨ لما بلغ بوظا الثاني عشر من عمره
دخل بعض بيوت الأصنام وسأله أهل
العلم عن مسائل فأجابهم عما سألوه
من المشاكل ^(٤).
- ٩ بوظي المنجي إغتسل غسل
التعميد وحينذاك كان روح الله
حاضراً لم يكن بوظا إلا اله العظيم
فحسب بل كان مع روح القدس
أيضاً حيث حل في العذراء مايا
فتجسم كوتاما بوظا ^(٥).
- ٥ زار الحكماء المسيح وعرفوا
أسراره اللاهوتية وليوم بعد ولادته
سموه إله الآلهة ^(١).
- ٦ قال المسيح في طفولته لأمه أنا ابن
الله ^(٢).
- ٧ ولد المسيح خفية وملك هيردوس
إهتم في قتله حيث سمع أنه يسلبه
ملكه ^(٣).
- ٨ لما بلغ المسيح الثاني عشر من
عمره ذهبوا به إلى بيت الأصنام في
أورشليم وسأله الأحبار عن مشاكل
المسائل فأجابهم بما حاروا فيه ^(٤).
- ٩ يحيى عمد المسيح في نهر الأردن
ونزل عليه روح الله كحمامة فكان
المسيح ابن الله مع كونه روح
الله ^(٥).

(١) متى ١: ٣ - ١١.
(٢) انجيل الطفولة ١: ٣.
(٣) انجيل متى ١: ٣.
(٤) انجيل الطفولة ١: ٣١ - ٢.
(٥) متى ١٣: ٣ - ١٧.

(١) دوان (٢٩٠)
(٢) كتاب الهري العقائد البوذية ١٤٥ - ١٤٦.
(٣) كتاب البيل - تاريخ بوظا ١٠٣ - ١٠٤.
(٤) بنسون في مسيح الملاك (٣٧) ويال في
تاريخ بوظا ١٦٧ - ١٦٩.
(٥) مسيح الملاك (٤٥).

- ١٠ مات بوظا ودفنوه ثم انفتح كفنه
وستر تابوته^(١) .
- ١١ بوظا هو الألف والياء أزلي أبدي
قيوم واحد^(٢) .
- ١٢ قال بوظا إن ذنوب العالمين عليّ
وأنا خلاصهم عنها^(٣) .
- ١٣ قال بوظا لتلاميذه أتركوا الدنيا
وحاولوا الفقر والضيق فيها^(٤) .
- ١٤ قال بوظا : الرجل العاقل يرى
حياة الزوجية نارية ولن يقرب هذه
الحياة إلا لضرورة الإجتنا ب عن
الزنا^(٥) .
- ١٠ مات المسيح ودفن ثم إنفتح كفنه
وبعثر عن قبره^(١) .
- ١١ المسيح هو الألف والياء أزلي
أبدي قيوم واحد^(٢) .
- ١٢ المسيح منجي العالم وقد أخذ
وتحمل ذنوب العالمين على
عاتقه^(٣) .
- ١٣ قال المسيح لتلاميذه أتركوا ثروة
الدنيا وعيشوا فقراء^(٤) .
- ١٤ قال المسيح يحسن للرجل ألا
يمن النساء إلا في ضرورة حيث
الزواج احسن من أن يحترق بالنار نار
الزنا^(٥) .

مركز تحقيقات كاتوليكية علوم إسلامية

ذلك بوظا = المسيح في هذه الشطرات واليكم : بوظا × برهما =
المسيح ! : مقارنة النصوص بين برهما والمسيح في (٢١) شطرة :

- (١) مسيح الملاك (٤٩) .
(٢) دوان ٢٩٣ .
(٣) تاريخ آداب السنسكريتي (٨٠) .
(٤) هاردي في كتاب رهبانية الشرق
٦٢، ٦ .
(٥) ريس داويس في كتاب بوظا (١٠٣) .
- (١) متى ب ٣٨ ويوحنا ب ٢٠ .
(٢) يوحنا ١: ١ ورويا يوحنا .
(٣) دوان ٢٩٣ والتعاليم المسيحية كما
مضت .
(٤) متى ١٦: ٢٥ - ٢٨ .
(٥) ١ - كورنثوس ٧: ١ - ٩ .

برهما

١ عرفت ولادة كرشنا من النجم الذي ظهر في المشرق^(١).

٢ كان كرشنا من السلالة الملكية ولكنه تولد على ذل وفقر في مغارة^(٢).

٣ لقد شع نور كرشنا المغارة عند ولادته تلعلع وجه أمه ديفاكى من نوره^(٣).

٤ لما ولدت ديفاكى كرشنا خافت عاقبة أمره وأخذت تبكي عليه فتكلم كرشنا وسلى خاطرها^(٤).

٥ عرف البقر الذكر أن كرشنا إله فسجد له^(٥).

٦ لما ولد كرشنا كانت أمه وخطيبها ناندا ، كانا غائبين حيث ذهباً إلى البلد لتسليم المصاليات إلى السلطان^(٦).

المسيح

١ لما ولد المسيح طلع نجم في المشرق ودل الناس على محل ولادته^(١).

٢ كان المسيح من السلالة المكية وخاطبه اليهود سلطاناً ولكنه تولد في مغارة على ذل ومسكنة^(٢).

٣ شع من نور المسيح المغارة عند ولادته وحارت عيون القابلة وخطيب مريم - يوسف - من نوره^(٣).

٤ تكلم عيسى عند ولادته مخاطباً أمه أنا ابن الله وكما أخبرك جبرائيل جئت لأخلص العالم^(٤).

٥ عرف الرعاة المسيح فسجدوا له^(٥).

٦ لما ولد المسيح كانت أمه وخطيبها غائبين حيث ذهباً ليسجلا اسمهما في الكراس المكي^(٦).

(١) انجيل متى ٢: ٣.

(٢) دوان (٢٧٩).

(٣) انجيل الولادة ٢: ١٣.

(٤) انجيل الولادة ١: ٢ - ٣.

(٥) لوقا ٢: ٨ - ١٢.

(٦) لوقا ٢: ١ - ٩.

(١) كتاب تاريخ الهند ٣: ٣١٧ و ٣٣٦.

(٢) دوان (٢٨٩).

(٣) دوان (٢٨٩).

(٤) تاريخ الهند ٣: ٣١١.

(٥) دوان (٢٧٩).

(٦) كتاب ويشنوبورانا ٢: ٥.

٧ سمع نائذا خطيب ديفاكى ام كرشنا نداء من السماء : خذ الطفل وامه وفر إلى كوكول واعبر نهر جهنه لأن الملك يريد قتله (١).	٧ يوسف النجار خطيب مريم نودي في المنام أن : خذ الطفل وامه وفر إلى مصر حيث الملك يريد قتله (١).
٨ أخبر الحاكم عن ولادة الطفل الإلهي وأراد قتله فقتل كل ذكر ولد في تلك الليلة لكي ينال بغيته (٢).	٨ أخبر حاكم البلاد عن ولادة الطفل الإلهي المسيح وأراد قتله فامر بقتل من ولد في تلك الليلة لكي ينال بغيته (٢).
٩ لدغت حية زميلاً لكرشنا فنظر اليه بالنظرة الإلهية فحيى من فوره (٣).	٩ لدغت حية زميلاً للمسيح فمسحه المسيح بيده فبرء من فوره (٣).
١٠ يوماً من الأيام سار كرشنا مع بقرات فانتخبته ملكاً لها وذهبت كل واحدة منها إلى المحل الذي عينه الملك (٤).	١٠ في شهر آذر جمع المسيح الأطفال وأخذ يتأمر فيهم كأنه ملكهم وكان لا يعبر أحد هناك إلا أمره أن يسجد لهذا الملك (٤).
١١ كان أول معجزات كرشنا أن شفى أبرصاً (٥).	١١ كان أول معجزات المسيح أن شفى أبرصاً (٥).
١٢ صلب كرشنا ومات على الصليب .	١٢ صلب المسيح ومات على الصليب .

(١) كتاب ويشنوبورنا الفصل ٣.

(٢) دوان (٢٨٠).

(٣) يارنخ الهند ٣: ٣٤٣.

(٤) تاريخ الهند ٢: ٣٢١.

(٥) تاريخ الهند ٢: ٢١٩.

(١) متى ٢: ١٣.

(٢) متى ٢: ١٥ - ١٧.

(٣) انجيل الطفولة ب ١٨.

(٤) انجيل الطفولة ١٨: ١ - ٣.

(٥) متى ٣٦: ٦ - ٧ وهذا ايضاً تصريحه

اخرى ان اولها تبديل الماء خمرأ في

عرس (يوحنا ٣: ١ - ١١).

- ١٣ لما مات كرشنا حدثت حوادث عظيمة واحتف خط أسود حول القمر واطلمت الشمس عند الزوال وامطرت السماء النار والرماد واشتعلت زبانية النيران وافسدت الشياطين في الأرض ورأى الناس أن الآلاف من الأرواح يتقاتلون ليل نهار^(١).
- ١٤ حدثت ثقبه في جنب كرشنا حيث اصابته الحربة القاتلة^(٢).
- ١٥ قال كرشنا للصياد الذي قتله : اذهب برحمتي الى السماء مكان الآلهة^(٣).
- ١٦ قام كرشنا بعد موته من بين الأموات^(٤).
- ١٧ دخل كرشته الجحيم^(٥).
- ١٨ كرشنا خالق كل شيء ولولاه لم يكن شيء^(٦).
- ١٣ حدثت بموت المسيح حوادث عظيمة فخرقت ستار بيت الأصنام وانكسفت الشمس من الساعة ٦ - ٩ وبُعثرت القبور وخرج عنها الكثير من الشياطين في الأرض ورأى الناس أن الآلاف من الأرواح يتقاتلون ليل نهار^(١).
- ١٤ حدثت ثقبه في جنب المسيح حيث اصابته الحربة القاتلة^(٢).
- ١٥ قال المسيح لأحد اللصوص الذين صُلبوا معه أنت اليوم معي في الجنة^(٣).
- ١٦ قام المسيح بعد موته من بين الأموات^(٤).
- ١٧ دخل المسيح الجحيم^(٥).
- ١٨ المسيح خالق كل شيء ولولاه لم يكن شيء فهو الخالق الأزلي^(٦).

(١) متى ب ٢٧.

(٢) دوان (٢٨٢).

(٣) لوقا ٢٣ : ٤٣.

(٤) متى ٢٨ : ٢٠.

(٥) دوان (٢٨٢) مع كثيرة اخرى من المدارك

المسيحية ذكرناها في « عقائدنا ».

(٦) يوحنا ١ : ٣ و ١ - كورنثس ٨ : ٦ و افسس ٣ : ٩.

(١) كتاب التصورات الدينية.

(٢) دوان (٢٨٢).

(٣) ويشنوبورانا (٦١٢).

(٤) دوان (٢٨٢).

(٥) دوان (٢٨٢).

(٦) دوان (٢٨٢).

١٩ كرشنا هو الألف والياء وهو الأول والآخر والوسط لكل شيء ^(١) .	١٩ المسيح هو الأول والوسط والآخر لكل شيء ^(١) .
٢٠ كرشنا برهما العظيم والقدوس وإنما ظهوره في الناسوت لسر من الأسرار العجيبة الإلهية ^(٢) .	٢٠ المسيح هو الله يهوه العظيم القدوس وإنما ظهر في الناسوت لسر من أسرار الوهيته ^(٢) .
٢١ كرشنا هو الألقوم الثاني من الثلاثة ^(٣) .	٢١ المسيح هو الألقوم الثاني من الثلاثة ^(٣) .

وهكذا نرى بعجاب كيف « يضاهاشون قول الذين كفروا من قبل » فيخاطبون بتنديد شديد : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل واضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » . فرؤساء الضلالة الشالوية الوثنية « قد ضلوا من قبل » ثم « واضلوا كثيراً » ومن ثم على طول الخط « وضلوا عن سواء السبيل » بحق الله ، سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ لَعْنَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) :

هنا تبرز بين لعنات المرسلين الإسرائيليين على هؤلاء الذين كفروا بالله ورسالاته ، لعنة داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام وكما نجدها في

(١) رؤيا يوحنا ٨: ١ و ٢٢: ٦ .

(٢) ١ - تيموثاوس ٣: ١٦ .

(٣) الأنجيل السالف ذكرها .

(١) وان (٢٨٢) .

(٢) ويشنوبورانا (٤٩٢) .

(٣) موريس ليمس في كتاب عقائد الوثنيين

الهنود (١٠٠) .

زبور داود والإنجيل ، وذلك اللعن المعلن « بما عصوا » الله ورسله « وكانوا يعتدون » على رسالات الله وأنبياءه وعباد الله .

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٩):

التناهي عن المنكر فرض وهو التفاعل في حقل المنكر نهياً وانتهاءً من الجانبين ، وتخصيص التناهي بالذكر لتقدم السلب على الإيجاب ، إضافة إلى أن ترك الواجب أيضاً منكر كفعل الحرام .

فواجب المؤمنين خلق جو التأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر بصورة جماعية حاسمة ، فالتفاعل الإيجابي في المعروف والتفاعل السلبي في المنكر ، هما فرضان جماعيان على الجموع المؤمنة على أية حال ما فسح المجال .

إذا فتركهما ولا سيما التناهي يستجر لعنة الله ورسله ، حيث يُترك بتركهما القرآن .

ذلك « وإن رحى الإسلام ستدور فحيث ما دار القرآن فدوروا به ، يوشك السلطان والقرآن يقتلان ويتفرقا »^(١) وذلك في سلطان العصيان

(١) الدر المشور ٣: ٣٩٩ - اخرج عبد بن حميد عن معاذ بن حيل قال : قال رسول الله (ص): خذوا العطاء ما كان عطاءً فإذا كان رشوة عن دينكم فلا تأخذوا ولن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر والمخافة ، إن بني يسأجوج قد جاءوا وإن رحى الاسلام . . . فإنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره فان اطعتموهم اضلوكم وان عصيتموهم قتلوكم ، قالوا يا رسول الله (ص) فكيف بنا إن أدركنا ذلك ؟ قال : تكونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير ورفعوا على الخشب ، موت في طاعة خير من حياة في معصية ، ان أول ما كان نقص في بني اسرائيل انهم كانوا يأمررون بالمعروف وينهون عن المنكر شبه التعزير فكان احدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكله وشاربه كأنه لم يعيب عليه شيئاً فلعنهم الله على لسان داود وذلك بما عصوا =

لشريعة الله في سلطات زمنية أو روحية لا تدور حيث ما دار القرآن .

والأمر والنهي هما على كاهل الربانيين الصالحين العارفين ، فمن حديث الرسول (ص) : « ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم ولا يفقهونهم ولا يفطنونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتفطنون . . »^(١) و « إذا عظمت أمتي الدنيا نزعتم منها هبة

وكانوا يعتدون والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم ، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم فلتاطرنه عليه أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض .

(٢) المصدر (٣٠١) أخرج ابن راهويه والبخاري في الوجدانيات وابن السكن وابن منده والبارودي في معرفة الصحابة والطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن ابن ابزى عن أبيه قال : خطب رسول الله (ص) فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر طوائف من المسلمين فأنهى عليهم خيراً ثم قال : ما بال أقوام . . . والذي نفسي بيده ليعلمن جيرانه أو ليتفقهن أو ليفطنن أو لأعاجلنهم بالعقوبة في دار الدنيا ثم نزل فدخل بيته فقال اصحاب رسول الله (ص) من يعنى بهذا الكلام إلا الأشعرين فقهاء علماء ولهم جيران من أهل المياه جفاة جهلة ، فاجتمع جماعة من الأشعرين فدخلوا على النبي (ص) فقال : ذكرت طوائف من المسلمين بخير وذكرنا بشر فما بالناس ؟ فقال رسول الله (ص) : لتعلمن جيرانكم ولتفقهنهم ولتأمرنهم ولتنهونهم أو لأعاجلنكم بالعقوبة في دار الدنيا ، فقالوا : يا رسول الله (ص) فأما إذن فأمهلنا سنة ففي سنة ما تعلمه ويتعلمون فأمهلهم سنة ثم قرأ رسول الله (ص) : لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، وفيه عن حذيفة بن اليمان عن رسول الله (ص) قال : والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن ان يبعث الله عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم ، وفيه أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده =

الإسلام وإذا تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حُرِّمت بركة الوحي وإذا تسأبت أمتي سقطت من عين الله» (١).

ذلك ، فكما النهي عن المنكر فرض كذلك الإتياء عنه وهما التناهي ، وترى الناهي عن المنكر يُنهى عن نفس المنكر أو منكر آخر حين ينهاء الآتي بمنكر ؟ .

الناهي عن المنكر عليه ألا يكون فاعلاً لنفس المنكر ولا سيما جهاراً ، وكذلك الأمر بالمعروف ، فأقل الواجب من شرط واجب الأمر والنهي أو السماح فيهما ألا يكون الأمر والناهي متجاهرين في ترك المعروف أو فعل المنكر : « أأمرؤ الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (٢: ٤٤) « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٣: ٦١) .

فليس على تارك معروف أن يأمر به ولا له ذلك ، كما ليس على فاعل منكر أن ينهى عنه ولا له ذلك مهما كانا مسؤولين عن واجب الأمر والنهي

فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلمه وذلك اضعف الايمان ، وفيه أخرج احمد عن عدي بن عميرة سمعت رسول الله (ص) يقول : ان الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروا فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة ، وفيه اخرج الخطيب في رواة مالك من طريق ابي سلمة عن ابيه عن النبي (ص) قال : والذي نفس محمد بيده ليخرجن من امتي اناس من قبورهم في صورة القردة والخنازير داهنوا اهل المعاصي سكتوا عن نهيمهم وهم يستطيعون .

(١) المصدر ٢: ٣٠٢ - اخرج الحكيم الترمذي عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : وفيه اخرج الطبراني عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله (ص) أتهلك القرية فيهم الصالحون ؟ قال : نعم ، فقيل يا رسول الله ولم ؟ قال : بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله عز وجل .

سورة المائدة / آية ٧٩ ١٧٧

تقصيراً عن تحقيق شرطهما ، فهما بالفعل مأموران بالأمر والنهي تحقيقاً حقيقياً لشرط الوجوب ، ومنهيان عنهما دون شرطه ، فقد اجتمع عليهما الوجوب والمحرمه بسوء الاختيار .

فالتأمر بالمعروف والتناهي عن المنكر هما مفروضان شرط شرطهما ، ولكن الإلتزام والإنهاء لا يقيدان بتحقيق شروط الأمر والنهي ، وكذلك الأمر والنهي لا يقيدان بفعل الأمر غير ما يأمر به من معروف أو تركه غير ما ينهى عنه من منكر ، فإنما الشرط أن يأمر بما هو مؤتمر به أو ينهى عما هو منته عنه .

فحين يأمر بمعروف هو فاعله عليه أن ياتمر بما هو تاركه ، وكذلك في حقل النهي والإنهاء ، بل والإلتزام والإنهاء هما أوسع نطاقاً من الأمر والنهي حيث لا يشترط في واجب الإلتزام والإنهاء ما يشترط في نفس الأمر والنهي .

فالتناهي كما التأمراً هما فرضان جماعيان يفرضان الرقابة التامة بين المؤمنين ، أن يراقبوا إخوانهم كما يراقبون أنفسهم ويقونها : « قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » (٦: ٦٦) « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ولأن التأمراً والتناهي هما بعد معرفة المعروف والمنكر ، فالمفروض قبلهما التعريف بهما للعارف والتعرف إليهما لغير العارف ، حتى تعم المعرفة .

فقد لا يكفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بشرط العدالة المطلقة في الأمرين والناهين ، إذ لا كفاية فيهما لتحقيق المعروف وإزالة المنكر عن المجتمع الاسلامي .

إذاً فالمفروض - اضافة إلى ذلك - التأمراً بالمعروف والتناهي عن المنكر ، أن يأمر بما هو فاعله ويأتمر فيما هو تاركه ، وينهى عما هو تاركه

وينتهي عما هو مقتطفه وذلك هو التآمر والتناهي .

فواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وواجب الائتمار والانتهاز ، يعبر عنهما بالتآمر والتناهي ، حيث فيهما الكفاية لخلق جو الخير في الكتلة المؤمنة .

ذلك ، والمنكرات دركات يجب التناهي عن أنكرها التي هي راس الزاوية فيها ، سواء أكانت بين المؤمنين أو الكفار ، فالمجتمعات التي لا تحاكم إلى شرعة الله ، فالمنكر الأكبر فيها هو الذي منه تنبع سائر المنكرات ، وهو رفض الألوهية بتوحيدها ، فلا جدوى من ضياع الجهد في مقاومة سائر المنكرات ما لم يقاوم رؤوس الزوايا فيها .

ثم يتقدم في ذلك الدور المنكر الذي ينكره الكل دونما اختلاف حيث لا يعذر مقتطفه حتى بين سائر المقرفين ، فليراع في حقل الأمر والنهي الأقدم الأساس فيهما ، ولكي تتفرع عليه فروعها فعلاً للمعروف وتركاً للمنكر ، توفيراً للجهود المبعثرة هنا وهناك ، وحشداً لها في جهات موحدة قوية صارمة ، في الأول فالأول من المنكرات الأساسية لإقامة الأسر التي عليها وحدة البنيان لصرح الإيمان .

ذلك ، واضعف الإيمان انكار المنكر بالقلب وكما في حديث الرسول (ص) « من رأى منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه » وليس هذا موقفاً سلبياً تجاه المنكر ، فلإنكار المنكر بالقلب - حين لا يستطيع الناهي إنكاره بيده أو لسانه - يعني إحتفاظ القلب بإيجابيته تجاه المنكر ، كالماء المختزن في خزانته ليروي العطاش عند الإمكانية والإستطاعة ، فلا بد للمؤمن أن يحمل خزانة قلبه من إنكار المنكر حتى إذا وجد سبيلاً لإنكاره بيد أو لسان أنكره بهما من فوره ، أم ولأقل تقدير لا يتأثر بالمنكرات المفعولة .

فقد تقيّد آية التناهي - هذه - الآيات المشترطة بصورة طليقة واجب الأمر والنهي بتحقيق المعروف وترك المنكر ككل في الأمر والنهي ، تقيدها بالمعروف المتروك للأمر والمنكر المفعول للنهي ، فليس الشرط العدالة الطليقة للأمر والنهي وإلا فلا يكفي العدول لتحقيق هذين الواجبين ، ثم فأين التناهي - إذاً - فيما إذا ينهى عما لا يقتضيه من منكر ، ثم يُنهى عما يقتضيه من منكر آخر ، فجو التأمّر والتناهي هو الجو الصالح الإيمانى برقابة صالحة بين المؤمنين حيث المؤمن مرآت المؤمن و « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

وكما التارك للمعروف والفاعل للمنكر ملعون على ألسنة رسل الله ، كذلك - وبأحرى - التاركون للتأمّر بالمعروف والتناهي عن المنكر ، كما لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بثالوث (١) : « ١ - بما عصوا ٢ - وكانوا يعتدون - و - ٣ - كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » وأقل التناهي متاركة فاعلي المنكر حتى يتركوه (٢) محاولة لترك المنكر حسب المستطاع .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٦٠ عن تفسير القمي بسند متصل عن مسعدة بن صدقة قال سأل رجل أبا عبد الله (ع) من قوم من الشيعة يدخلون في اعمال السلطان ويعملون لهم ويحبون لهم ويوالونهم ؟ قال : ليس هم من الشيعة ولكنهم من أولئك ثم قرأ : « لعن الذين - الى قوله - ولكن كثيراً منهم فاسقون » قال : الخنازير على لسان داود والقردة على لسان عيسى عليهما السلام .

وفيه عنه عن ابي عبد الله (ع) قال : لما بلغ امير المؤمنين (ع) امر معاوية وانه في مائة الف قال : من أي القوم ؟ قالوا : من أهل الشام ، قال (ع) : لا تقولوا من أهل الشام ولكن قولوا من أهل الشؤم ، هم من أبناء مصر لعنوا على لسان داود فجعل الله منهم القردة والخنازير

(٢) المصدر عن ثواب الأعمال بإسناده قال : قال علي (ع) : لما وقع التقصير في بني =

فهم في ذلك الثالث المنحوس « لبس ما كانوا يفعلون » فعلاً للمنكر
أم تركاً للنهي عن المنكر وتركاً للتناهي .

﴿ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ
سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (٨٠):

« ترى كثيراً منهم » : أهل الكتاب ولا سيما اليهود « يتولون » نصرة
ومحبة أُمَهِيه من شؤون الولاية « الذين كفروا » وهم هنا المشركون ، ومن
ذلك أنهم يفضلونهم على المسلمين حيث « يقولون للذين كفروا هؤلاء
أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » (٤ : ٥١) فـ « لبس ما قدمت لهم أنفسهم »
من شتات كفرهم وبالنتيجة « أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم
خالدون » عذاب في الأولى في ضنك المعيشة وآخر في الأخرى في ضنك
العذاب : « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة
أعْمَى » (٢٠ : ١٢٤).

ولقد نرى أهل الكتاب ولا سيما اليهود يتولون المشركين والملحدين
نقمة على المسلمين منذ عهد الرسول (ص) وحتى الآن حيث يؤلبونهم على
المسلمين بكافة المحاولات ، ولم تقم دويلة العصابات الاسرائيلية منذ زمن
قريب إلا بالولاء الجماهيري بين كتل الكفر شرقياً وغربياً ، وقد كان للإلحاد
الشيوعي السوكتي وأضرابه نصيب وفير من الإحتلال الصهيوني للقدس
وسائر فلسطين .

« إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه على الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه من ذلك ان
يكون اكيله وجليسه وشريبه حتى ضرب الله عز وجل قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم
القرآن حيث يقول عز وجل : « لعن الذين كفروا ... » وفيه عن تفسير العياشي عن
محمد بن الهيثم التميمي عن ابي عبد الله (ع) في قوله « كانوا لا يتناهون .. » قال :
أما انهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجلسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم
ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم .

وهذا درس للمسلمين في ضرورة إعتصامهم بحبل الله جميعاً ، كفاحاً صارماً في كل ميادين النضال بين الكفر والإيمان .

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٨١) :

وترى « النبي » هنا هو نبينا ؟ والقضية الأولى للإيمان به وما أنزل إليه هي ولاية المؤمنين به حيث « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » أم هو « النبي » الذي به يعتقدون - على حد دعواهم - ؟ والإيمان به يصونهم - لأقل تقدير - عن إتخاذ المشركين أولياء فإنه القضية الأولى للإيمان الكتابي ! .

وقد يعني « لو كانوا » إلى ذلك المعنى « لو كانوا » هؤلاء الكفار الذين إتخذوهم هؤلاء أولياء « لو كانوا يؤمنون بالله والنبي » محمد « وما أنزل إليه » كما المسلمون « ما إتخذوهم أولياء » لأنطباعهم على الكفر ، فهم يحددون عن الإيمان والمؤمنين بالله ، وتصديق ذلك العداء العام على المؤمنين المسلمين :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَالْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٨٢) :

هنا يقتسم الناس وجاه الذين آمنوا إلى ثلاث ، فالنسناس منهم هم « أشد عداوة للذين آمنوا » من اليهود والمشركين ، إخوان اثنان في ذلك الأشد بأشدّه ، والناس منهم وهم « أقربهم مودة للذين آمنوا - الذين قالوا إنا نصارى » حين قال المسيح « من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وإشهد بأننا مسلمون » (٥٢: ٣) فـ « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من

أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله .. « (٦١: ١٤) .

فهم أولاء الذين « قالوا إنا نصارى » من الحواريين. الصادقين في إيمانهم ومن تبعهم بإحسان ، وهم الموحدون القلة بين المثلثين الكثرة ، مؤمنين بالرسالة اليعسوية كما يصح ، ومن أهم قضاياه البشارة بالرسالة المحمدية (ص) .

فالإيمان الكتابي الصادق مصدق بالإيمان القرآني اللاحق وهو بارز في جمع من النصارى ، ولكن اليهود العنود هم أعدى الأعداء « للذين آمنوا » إذ لم يؤمنوا بالرسالة الموسوية إلا نفاقاً عارماً أو كفراً صارماً ، اللهم إلا القليل ممن وفى لرعاية الحق منهم .

ذلك ، وقد يروى عن النبي (ص) قوله : « ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله - أو - حدث نفسه بقتله » ^(١) وأما هؤلاء النصارى فهـ أولئك كانوا قوماً بين عيسى ومحمد عليهما السلام ينتظرون مجيء محمد (ص) ^(٢) وأضرابهم من المؤمنين بالحق .

ذلك ، ولكنه هل ترى المودة النصرانية غير المحلقة على كلهم للذين آمنوا ، كيف تجعلهم أقرب مودة لهم ، دون اليهود والمشركين وقد آمن منهما جموع كما آمن من النصارى ؟ .

هذا ، لأن الذين قالوا إنا نصارى هم جمع خصوص من المسيحيين ، ولا نجد جمعاً هكذا بين اليهود والمشركين اللهم إلا فالتين عنهم .

(١) الدر المنثور ٢: ٣٠٢ - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) :

(٢) نور الثقلين ١: ٦٦٣ في تفسير العياشي عن مروان عن بعض اصحابنا عن أبي عبد الله

(ع) قال : ذكر النصارى وعداوتهم فقال : قول الله « ذلك بان منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون » قال : أولئك ..

ثم و « بأن منهم . . » علل ثلاث لكونهم ككل ، وبطبيعة الحال الكتابية السليمة ، هم أقرب مودة للذين آمنوا .

فمهما كان بين اليهود أحبار كما بين النصارى قسيسون ورهبان ، ولكن أين أحبار من اليهود وأين قسيسون ورهبان من النصارى ، فظاهرة الإستكبار في أحبار اليهود ، وظاهرة عدم الإستكبار في القسيسين والرهبان ، هما ظاهرتان متناحرتان تجعلان اليهود والنصارى ككل متناحرين في حقل المودة للذين آمنوا .

ذلك ، لأن الحياة السعيدة قائمة بالعلم والتواضع أمام الحق ، والقيادة العلمية المتواضعة بين الذين قالوا إنا نصارى تجعل من شعوبهم عارفين الحق ، والتواضع البارز فيهم يجعل منهم غير متصلبين أمام الحق ، وليس لليهود طول تاريخهم - إلا القليل - هذه القيادة السليمة .

وأما المشركون فهم يفقدون أصل القيادة الصالحة إلى قيادة شركية طالحة بحتة كالحية ، وأنحس منهم اليهود الذين يعادون الذين آمنوا كما المشركين أو أكثر منهم ، وهم أهل كتاب وبينهم قيادات روحية توراثية ! .

ذلك ، وأما العداء العارم الذي يحمله المبشرون المسيحيون ضد الإسلام ، بدعايات وكتابات ومحاولات مضللة أخرى ضد الإسلام ، في حين لا نجد لليهود هكذا دعايات ؟ .

نقول فيها أولاً أنهم ليسوا من النصارى مهما « قالوا إنا نصارى » حيث لم يفوا لرعاية الحق في المسيح (ع) فهم خارجون عمن يصفهم الله تعالى بتلك المودة الايمانية .

وأما جحود اليهود عن الدعاية اليهودية ؟ فلأنهم يرونهم أنفسهم شعب الله المختار ، فلا يختارون - إذاً - ذلك الإختيار لمن سواهم ، ثم هم يعرقلون ضد المسلمين كافة العرقلات في مختلف الحقول حتى يخرجوهم

عن دينهم ، أو يخرجوهم فيميلوا إليهم ، فهم أشد وأنكى من المسيحيين ، وهم رؤوس كافة المشاكل ضد المسلمين وكما قال الله : « وفضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . . » .

ذلك ، ولا تعني « أقربهم مودة للذين آمنوا » إلا « الذين قالوا إنا نصارى » بمواصفات لهؤلاء ليس يحملها إلا جماعة خصوص من النصارى .

فهنا « ذلك لأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » والقسيس هو معرب كشيش ، عالم النصارى ، والرهبان هم المتعبدون المتزهدون علماء وسواهم ، فالعلم والزهادة في القيادة هما المؤثران الرئيسيان في صلاح الشعوب ، إضافة إلى عدم الاستكبار في تلك القيادة ، ومن ثم ، وعلى أثر هذه الثلاث : « قالوا . . قسيسين ورهباناً وهم لا يستكبرون » فهم :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (٨٣) :

وهؤلاء هم - ممن سبق - نصارى الحبشة حين بعث الرسول (ص) جماعة من المسلمين إلى النجاشي فلقوا إجابة لهذه الرسالة السامية دونما نكول أو خمول^(١) ولم يسبق لهم مثيل في اليهود ، ولا في المشركين ،

(١) الدر المنثور ٣: ٣٠٢ - أخرج عن جماعة انه بعث رسول الله (ص) عمرو بن أمية الضمري وكتب معه كتاباً إلى النجاشي فقدم على النجاشي فقرأ كتاب رسول الله (ص) ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه وأرسل النجاشي إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم ثم امر جعفر بن أبي طالب ان يقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم سورة مريم فآمنوا بالقرآن وفاضت اعينهم من الدمع وهم الذين انزل فيهم « ولتجدن اقربهم مودة - إلى - الشاهدين » وفيه عن سعيد بن جبير في الآية قال : هم رسل النجاشي الذين ارسل باسلامه واسلام قومه كانوا سبعين رجلاً اختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه =

اللهم إلا في فتح مكة حيث أسلم المشركون طوعاً أو كرهاً بعد ردحٍ طويل من الزمن من محارباتهم ومضايقاتهم ضد الرسول (ص) والذين آمنوا معه .

فقد « كان رسول الله (ص) وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين فبعث جعفر بن أبي طالب وإبن مسعود وعثمان إبن مظعون في رهط من أصحابه إلى النجاشي ملك الحبشة . . »^(١) مهاجرة مؤقتة ،

والسن ، وفي لفظ بعث من خيار اصحابه الى رسول الله (ص) ثلاثين رجلاً فلما أتوا رسول الله (ص) دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا انه الحق فانزل الله فيهم « ذلك بان منهم قسيسين . . » .

(١) المصدر : . . . لما بلغ المشركين بعثوا عمرو بن العاصي في رهط منهم ذكروا أنهم سبقوا اصحاب النبي (ص) الى النجاشي فقالوا : انه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش واجلامها زعم انه نبي وانه بعث اليك رهطاً ليفسد عليك قومك فاحيينا أن نأتيك ونخبرك خبرهم ، قال : إن جاءوني نظرت فيما يقولون ، فلما قدم أصحاب رسول الله (ص) فأتوا إلى باب النجاشي فقالوا : استأذن لأوليائ الله فقال : إذن لهم فمرحبا بأوليائ الله فلما دخلوا عليه سلموا فقال الرهط من المشركين ألم ترأيها الملك أنا صدقناك وانهم لم يحيوك بتحيتك التي تحيا بها ؟ فقال لهم : ما يمنعكم أن تحيوني بتحيتي ؟ قالوا : إنا حينئذ بتحية اهل الجنة والملائكة ، فقال لهم : ما يقول صاحبكم في عيسى وامه ؟ قالوا : يقول : عبد الله ورسوله وكلمة من الله وروح منه القاها الى مريم ، ويقول في مريم : انها العذراء الطيبة البتول ، قال : فأخذ عوداً من الأرض فقال : ما زاد عيسى وامه على ما قال صاحبكم هذا السعد ، فكره المشركون قوله وتغير وجوههم فقال : هل تقرأون شيئاً مما انزل عليكم ؟ قالوا : نعم ، قال : فاقرأوا فقرأوا وحوله القسيسون والرهبان وسائر النصارى فجعلت طائفة من القسيسين والرهبان كلما قرأوا آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق ، قال الله : ذلك بان منهم قسيسون - الى - مما عرفوا من الحق .

وفي نور الثقلين ١ : ٦٦١ عن تفسير القمي كان سبب نزول هذه الآية انه لما اشتدت قريش في اذى رسول الله (ص) وأصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة امرهم =

ودعاية للإسلام ، فاستنصاراً بمن يؤمن في هذه الرحلة ، وقد حصلت كأحسن ما يرام لصالح الإسلام حيث آمن النجاشي وجمع من القسيسين والرهبان وسواهم من « الذين قالوا إنا نصارى » .

فهؤلاء القدامى ومن يتابعهم بإحسان طول التاريخ الإسلامي ، هم المعنيون بهذه الآيات الواصفة لـ « الذين قالوا إنا نصارى » دون الضالين منهم والمضللين ، فهـ إن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب » (٣: ١٩٩) .

ولقد أمر الرسول (ص) المؤمنين أن يصلوا على النجاشي حيث مات في طريقه إليه (ص) مؤمناً بهذه الرسالة السامية ، فقال المنافقون : أنظروا

رسول الله (ص) أن يخرجوا إلى الحبشة وأمر جعفر بن أبي طالب أن يخرج معهم فخرج جعفر ومعه سبعون رجلاً من المسلمين حتى ركبوا البحر - ثم يستمر في القصة بزيادات عما نقلناه عن الدر المنثور إلى قوله - : ورجع عمرو إلى قريش فأخبرهم أن جعفرأ في أرض الحبشة في أكرم كرامة . . فكتب رسول الله (ص) إلى النجاشي يخطب أم حبيب فبعث إليها النجاشي فخطبها لرسول الله (ص) فأجابته فزوجها منه وأصدقها أربعمائة دينار وساقها عن رسول الله (ص) وبعث إليه (ص) بمارية القبطية أم إبراهيم وبعث إليه بثياب وطيب وفرس وبعث ثلاثين رجلاً من القسيسين فقال لهم انظروا إلى كلامه وإلى مقعده ومشربه ومصلاه فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله (ص) إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن : « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك - إلى قوله - : فقال الذين كفروا ان هذا إلا سحر مبين » فلما سمعوا ذلك من رسول الله (ص) بكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فأخبروه خبر رسول الله (ص) وقرأوا عليه ما قرأ عليهم رسول الله (ص) فبكى النجاشي وبكى القسيسون واسلم النجاشي ولم يظهر للحبشة إسلامه وخافهم على نفسه فخرج من بلاد الحبشة يريد النبي (ص) فلما عبر البحر توفي فأنزل الله على رسوله : « لتجدن أشد الناس - إلى قوله - : ذلك جزاء المحسنين » .

إلى هذا يصلي على عالج نصراني حبشي لم يره قط وليس على دينه فأنزل الله هذه الآية (١).

ولقد كان من كتاب رسول الله (ص) إلى النجاشي حين بعث وفده إلى الحبشة : « بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحح صاحب حبشة ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه فيه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته وأن تتبني وتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله قد بعثت إليكم ابن عمي جعفر بن أبي طالب معه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجيرتك إلى الله تعالى وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي والسلام على من إتبع الهدى .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ (٨٤):

(١) بحار الانوار ١٨ : ٤١١ عن الطبرسي قيل نزلت « إن من أهل الكتاب . . . في النجاشي ملك الحبشة واسمه اصحمة وهو بالعربية عطية وذلك انه لما مات نعه جبرائيل لرسول الله (ص) في اليوم الذي مات فيه فقال رسول الله (ص) : أخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير ارضكم ، قالوا : ومن هو ؟ قال : النجاشي ، فخرج رسول الله (ص) الى البقيع وكشف له من المدينة الى ارض الحبشة فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه ، فقال المنافقون . . . وقيل : نزلت في جماعة من اليهود كانوا اسلموا منهم عبد الله بن سلام ومن معه عن ابن جريح وابن زيد وابن اسحاق ، وقيل : نزلت في مؤمني اهل الكتاب كلهم .

أقول : هذا الأخير هو الأصح إذ « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة . . . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » مهما كانت النصارى اقرب ايماناً

« ومالنا » إستفهام إستنكار لعدم الإيمان بعد مجيء الحق الناصع ، أن الحق بنفسه مطلوب فطري وعقلي ، ولا سيما في رجاء الرحمة على ضوء الإيمان به « ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » الذين سبقونا بصالح الإيمان .

فالإيمان بالله هنا رأس الزاوية ، « وما جاءنا من الحق » من الله هو شرعة الحق ، « ونطمع أن يدخلنا » هو التاج الآجل - بعد العاجل - للإيمان الحق ، وهذه هي أصول الدين بفروعه في الشرعة القرآنية .

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٥) :

« ... بما قالوا » قوله الإيمان والعمل الصالح دون مجرد قوله اللسان ، وهذه الإثابة مما يبرهن لنا أن « أقربهم مودة للذين آمنوا » ليسوا كل النصارى ، وإنما هم الموصوفون بهذه المواصفات الناحية منحى الإيمان ، دون الناحية عن الإيمان أو العوان بين الإيمان والأيمان .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ (٨٦) :

تلك هي صفة صالح الإيمان ، وهذه صفة كالح الكفر وبينهما متوسطات بين « أثابهم الله » و « أصحاب الجحيم » فقد يعذبون قدر ما يستحقون ثم مصيرهم إلى الجنة .

ذلك ، ولأن جدد الإيمان من المسيحيين ظلوا شيئاً ما على الرهبانية المبتدعة فاثرت في المسلمين ، لذلك تأتي هدى من الله تعدل هذه الحالة إلى ما شرعه الله :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ
وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا
رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ
مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ
يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَرْتُمْ ۖ فَطَعَامُ عَشْرَةِ
مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ
تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفَرَةُ
أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
إِنَّمَا الْحَمِيرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ
عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ
الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَمْرِ
وَالْمَيْسِرِ وَيُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۚ فَهَلْ أَنْتُمْ
مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا

فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾
 لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا
 طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا
 وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾
 يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَبْلُغَنَّكُمْ اللَّهُ شَيْءٌ مِّنَ الصَّيْدِ
 تَنَاسَلَهُ وَأَيَّدِكُمْ وَمِمَّا حَكَّمُ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ
 فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ قَلْعًا عَذَابُ الْإِيمِ ﴿١٩﴾ يَأَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُمْ
 مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ
 مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ
 أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ
 عَمَّا سَلَفَ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
 انْتِقَامٍ ﴿٢٠﴾ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَّكُمْ
 وَلِلْيَارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا

اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٨﴾ *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ (٨٨) :

هذه ، و « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (٣٢: ٧) هاتان الآيتان تعدلان إفراط التقشف المتسرب من رهبنة النصارى ، المترسب في البعض من المسلمين ، والتحریم هذا يشمل مثله : تحريماً تشريعياً أم شخصياً على نفسه أم على غيره ، والأخيران هما تحريمان عمليان .

و « طيبات ما أحل الله لكم » قد تعني غير المباحات والمرجوحات ، فالمحرمات خارجة عما « أحل الله لكم » فتبقى الواجبات والمستحبات وتحريمهما تشريعياً أم بنذر أو عهد أو يمين تحريم لطيبات ما أحل الله ، وأما أن تحرم على نفسك مرجوحاً أم ومباحاً في تركه رجاحة ، بحلف وشبهه فلا يدخل في نطاق التحريم فإنهما ليسا من الطيبات مهما كانا مما أحل الله ، وليست الرهبنة المنهية إلا تحريم الراجحات واجبة أو مندوبة .

وقد يشمل تحريم طيبات ما أحل الله إضافة إلى التشريعي منه والعملي ان يعتقد في حرمة محلل أو يفتي به أو يعامله معاملة المحرم ، أو أن يخلط الحلال بالحرام دون تميز فيحرم - إذاً - الحلال ، فالنهي إذاً يشمل كل مراحل التحريم دونما استثناء .

وما توصيف البعض بـ « رهباناً » إمتداحاً لهم طليقاً ، فإنما هو إمتداح أمام المتورطين في اللذوذ المادية وجمع الأموال من اليهود ، ويؤيد ذلك

الوسط النسبي : « ورهبانية إبتدعوها ما كتبناها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » (٥٧: ٢٧).

إذاً فالرهبانية المكتوبة عليهم كانت مشروطة بشروط وملابس خاصة أمام اليهود ، ثم نسخت في شرعة الإسلام مع سائر ما نسخ من أحكام توراتية أو إنجيلية ، فما كانت الرهبانية المكتوبة كأصل من شرعة الناموس ، بل هي كتابة مؤقتة لمصلحة خاصة في ملابس خاصة غير مستمرة ولا راجعة ، فلا رهبانية - إذاً - في الإسلام .

وهنا « لا تعتدوا » نهى عن الإعتداء في حقل الطيبات في جانبي الإفراط والتفريط ، فمن الإفراط تحريم طيبات ومن أنحسه الإخصاء الذي صمم عليه بعض المجاهيل من المسلمين ، ومن التفريط تحليل البعض من غير الطيبات ، كما وهو نهى عن الإعتداء على الله وعلى نفسك وسواك

ثم « طيبات ما أحل الله » تعم الطيبات الجنسية نكاحاً محلاً ، وطيبات المساكن والملابس والمطاعم والمشارب ، دون أي إفراط أو تفريط .

ولقد ورد في الآثار المروية عن النبي (ص) وأئمة أهل بيته الأطهار عليهم السلام التنديد الشديد بتحريم ما أحل الله بالفاظ مختلفة عدة ، مما يشعرنا بملابسة خاصة عند نزول هذه الآية ، وإن الرهبة المدسوسة بين المسلمين ما كانت تقف لحد مثل ترك المقويات والمشهيات حتى لا يشتهي النساء ، ثم وترك إتيان النساء ، فقد وصلت إلى العزم على الإخصاء والجب وما أشبه فنهى عنها النبي (ص) ونزلت هذه الآية والتي في الأعراف وأضرابهما مما تحلل الطيبات^(١) .

(١) في الدر المنثور ٢: ٣٠٧ - ان رجلاً أتى النبي (ص) فقال يا رسول الله (ص) إني إذا -

أكلت اللحم انتشرت للنساء واخذتني الشهوة واني حرمت علي اللحم فنزلت هذه الآية ، وفيه عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في رهط من الصحابة قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسبح في الأرض كما تفعل الرهبان فبلغ ذلك النبي (ص) فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك قالوا : نعم فقال النبي (ص) : لكني اصوم وافطر وأصلي وأنام وانكح النساء فمن اخذ بستتي فهو مني ومن لم يأخذ بستتي فليس مني ، وفيه عن ابن مسعود قال كنا نغزو مع رسول الله (ص) وليس معنا نساءنا فقلنا ألا نستخصي فنهانا رسول الله (ص) عن ذلك ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب الى اجل ثم قرأ عبد الله هذه الآية ، وفيه عن ابي قلابه قال : أراد ناس من اصحاب رسول الله (ص) ان يرفضوا الدنيا ويتركوا النساء ويترهبوا فقام رسول الله (ص) فغلظ فيهم المقالة ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد شددوا على انفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا واستقيموا يستقم بكم ، قال : ونزلت هذه الآية ، وفيه عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا ان رجلاً من اصحاب النبي (ص) رفضوا النساء واللحم وارادوا ان يتخذوا الصوامع فلما بلغ ذلك رسول الله (ص) قال : ليس في ديني ترك النساء واللحم ولا اتخاذ الصوامع ، وفيه اخرج ابن ابي شيبة وابن جرير عن ابي عبد الرحمن قال : قال النبي (ص) لا آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً ، وفيه اخرج ابن جرير عن السدي قال ان رسول الله (ص) جلس يوماً فذكر الناس ثم قام ولم يزداهم على التخويف فقال ناس من اصحاب رسول الله (ص) ما حدثت عملاً فان النصراني قد حرموا على انفسهم فنحن نحرم فحرم بعضهم أكل اللحم والودك وأن يأكل منها وحرم بعضهم النوم وحرم بعضهم النساء فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء وكان لا يدنو من أهله ولا يدنون منه فأتت امرأته عائشة وكان يقال لها الحولاء فقالت لها عائشة ومن حولها من نساء النبي (ص) ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تنطيين ؟ فقالت وكيف أنطيب وامشط وما وقع علي زوجي ولا رفع عني ثوباً منذ كذا وكذا فجعلن يضحكن من كلامها فدخل رسول الله (ص) وهن يضحكن فقال ما يضحكن ، قالت يا رسول الله (ص) الحولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا فأرسل اليه فدعاه فقال ما بالك يا عثمان ، قال : اني تركته لله لكي اتخلي للعبادة وقص عليه امره وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقوال، رسول الله (ص) اقسمت =

أجل « لا تحرموا .. ولا تعتدوا » إعتداءً على الله تشريعاً خلاف ما شرعه ، ثم على نفسك تحريماً عملياً لما أحل الله ، ثم على غيرك ، ومن ثم اعتداءً في حقل طيبات ما أحل الله إسرافاً أو تبذيراً ، فإن كل ذلك إعتداءً تشملها « لا تعتدوا » .

« وكلوا مما رزقكم الله ... » أمر عقيب حظر يفيد الإباحة بمختلف مراحلها ، ثم « حلالاً طيباً » تفيد سماح الأكل بالرزق الحلال فإن منه حراماً كما « تتخذون منه سكرأ ورزقأ حسناً » (٦٧: ١٦) فتقيد « رزقأ » بـ « حسناً » يلمح أن هناك رزقأ سيئاً ، وذلك قضية التوحيد الأفعالي أن المأكول المحرم رزق سيء لمن أختره بسوء الاختيار .

وقد تعني « كلوا » كافة التصرفات كما « لا تأكلوا أموالكم بينكم

عليك إلا رجعت فواقعت أهلك فقال يا رسول الله (ص) إني صائم قال : أفطر : فافطر وأتى أهله فرجعت الحولاء إلى عائشة قد اكتحلت وامتشطت وتطيبت فضحكت عائشة فقالت : مالك يا حولاء فقالت : إنه اتأها أمس فقال رسول الله (ص) ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وانكح النساء فمن رغب عن ستي فليس مني فنزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا » يقول : لا تجب نفسك فان هذا هو الاعتداء وأمرهم أن يكفروا إيمانهم فقال : لا يؤأخذكم الله باللغو في إيمانكم ... وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال ان رجلاً من اصحاب النبي (ص) منهم عثمان بن مظعون حرموا اللحم والنساء على انفسهم واخذوا الشفار ليقطعوا مذاكيرهم لكي تنقطع الشهوة عنهم ويتفرغوا لعبادة ربهم فأخبر بذلك النبي (ص) فقال : ما أردتم ؟ قالوا : اردنا ان نقطع الشهوة عنا ونتفرغ لعبادة ربنا ونلهو عن الناس فقال رسول الله (ص) : لم أؤمر بذلك ولكني امرت في ديني أن اتزوج النساء فقالوا نطيع رسول الله (ص) فأنزل الله هذه الآية فقالوا : كيف نصنع بإيماننا التي حلفنا عليها فأنزل الله « لا يؤأخذكم الله ... » وفيه عنه (ص) ان خصاء امتي الصيام وليس من امتي من خصى أو اختصى .

سورة المائدة / آية ٨٧ - ٨٨ ١٩٥

بالباطل » (١٨٨:٢) فقد بلغ الأكل إيجابياً وسلبياً مبلغ العموم لحد لولا القرينة المعينة لخصوص الأكل لما تعين به .

وقد تعني « مما » الحظر عن أكل كل الحلال حيث الانفاقات الواجبة والمستحبة تنهدر بذلك الإسراف والتبذير ، اللهم إلا من له كفاف لا زائد ولا ناقص .

ذلك ، ومن اطيب الطيبات المحللة نكاح الطيبات ، فتركه مع الحاجة إليه وأنت على سعة من المال إما حمق أو فجور أم رهينة ليست في الإسلام^(١) .

أترى أن حلف المسلم على ترك طيبات محللة محظور عليه أن يلغي يمينه ؟ :

مركز تحقيق كتاب تبيين علوم إسلامي

(١) المصدر أخرج عبد الرزاق وأحمد عن أبي ذر قال دخل على رسول الله (ص) رجل يقال له عطاف بن بشير التميمي فقال له النبي (ص) هل لك من زوجة ؟ قال : لا ، قال : ولا جارية ؟ قال : ولا جارية ، قال : وأنت موسر بخير ؟ قال : نعم ، قال : انت إذا من اخوان الشيطان لو كنت من النصارى كنت من رهبانهم ان من ستي النكاح شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم أبالشيطان تتمرسون ما للشيطان من سلاح أبلغ في الصالحين من النساء إلا المتزوجين أولئك المعطهرون المبرؤون من الخنا ويحك يا عكاف . . . تزوج والأفانت من المذبذبين .

وفيه أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي نجيح قال : قال رسول الله (ص) : من كان موسراً لأن ينكح فلم ينكح فليس مني ، وفيه عنه قال : قال رسول الله (ص) : مسكين مسكين مسكين رجل ليس له امرأة ، قيل يا رسول الله (ص) وإن كان غنياً ذا مال ؟ قال : وإن كان غنياً ذا مال ، قال : ومسكينة مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج قيل يا رسول الله (ص) وإن كانت غنية أو مكثرة من المال ؟ قال : وإن كانت .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٨٩) :

« ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم . لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم » (٢٢٥) .

اللغو في الأيمان يعني - ككل - اليمين اللاغية كالتالية :

- ١ - أن تجعل الله عرضة ليمينك دون تقصّد لإمر يحتاج إلى يمين كأن تقول لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء ^(١) .
- ٢ - أو أن تحلف بترك الواجب أو فعل الحرام ، أو الإلتزام بترك سنة أو فعل مرجوح فإنه من لغو الأيمان إذ لا تُثبت امراً ولا تنفي بحساب الشرع .
- ٣ - أم تحلف على فعل راجع لزاماً وسواه ، أم على ترك مرجوح لزاماً وسواه ولا تنوي الإلتزام به .

(١) كما في الكافي عن مسعدة عن الصادق (ع) في الآية قال : اللغو قول الرجل : ومثله ما في الدر المنثور ١ : ٢٦٩ عن عائشة أن رسول الله (ص) قال : هو كلام الرجل في يمينه كلاً والله وبلى والله ، وفيه عن الحسن قال : مر رسول الله (ص) بقوم يتصلون ومع النبي (ص) رجل من اصحابه فرمى رجل من القوم فقال : اصببت والله اخطأت والله فقال الذي مع النبي (ص) حنث الرجل يا رسول الله (ص) فقال : كلاً أيمان الرعاة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة ؟

٤ - أم تحلف هكذا ناوياً إلزامك به ثم تلغيه تحلة مفروضة أم راجحة أم محرمة .

٥ - أم حلقاً بغير الله فإنه محذور إذ لا حلف إلا بالله كما لا نذر إلا بالله .

ومهما كان المناسب لملازمة الآية نظرة إلى سالفاتها هو الثاني ولكن لفظ الآية لا يتقيد بها ، حيث يعم هذه الخمسة دون إبقاء ، ومهما كانت الأخيرة لا تحسب من « أيمانكم » فكذلك الأربعة الباقية .

كما وأن « واحفظوا أيمانكم » تعم كل حفاظ على الأيمان ، حفاظاً لها عن كل لغو ، فمهما كان اللغو في الأيمان في مراحلها الخمس غير مؤاخذ بها كأصل ، حيث المؤاخذة هي « بما عقدتم الأيمان » و « بما كسبت قلوبكم » ولكن اللغو في الأيمان محذور مغفور .

فالأيمان الصحيحة الصالحة هي واجبة الحفظ ألا تلغ ، والأيمان الباطلة غير الصالحة هي واجبة الإلغاء وهي نفسها محظورة مهما كانت بجنب « ما عقدتم الأيمان » - و - ما كسبت قلوبكم « مغفورة » ، فالمؤاخذة - إذاً - ليست هي الألسن ، بل هي القلوب ، ثم كفارته . . .

فالأيمان اللأغية مؤاخذ بها بما عقدتم الأيمان ، تعقيداً في صالحها بإلغاءها دونما عذر ، حيث تجب تمسيتها ، أو تعقيداً حين تحلفون في صالح كأن لا تنووا تحقيقها ، أم في طالح فإنها معقدة شرعياً حيث لا تنفذها شرعة الله ، أم في أمر لاغٍ لا صالح ولا طالح كأن لا تنووا أمراً كقول لا والله وبلى والله .

ولأن « ما عقدتم الأيمان » قد تشمل هذه الخمس كلها مهما اختلفت دركاتها ، فقد تكون الكفارة المتفرعة على التعقيد محلقة عليها كلها ، فإن ضمير المفرد هنا لا مرجع له إلا « ما عقدتم » : جعلتم تعقيداً للأيمان إيجابياً أو سلبياً ، نية أو عملية أماهيه من منافر اليمين .

ذلك ، ولكن « ما عقدتم » لا تشمل ما لم تنو أمراً كالأخير إذ لم تعقد فيه لا نية ولا أمراً نويته ، بل هو ليس من اليمين أصلاً .

فلورجع الضمير إلى « اللغو في أيمانكم » كانت الكفارة تشمل الرابعة مع ما سواها ، ولكن بعده مرجعاً ، وبعدة تفسرياً حيث لا تفرع الكفارة على غير المؤاخذ به - هذان البعدان يبعدان ذلك الرجوع ، « فكفارته » أي « ما عقدتم الأيمان » حيث تعني الأيمان المعقدة المؤكدة حتى تكون بمنزلة العقد المؤكد والجبل المحصّد - خلافاً للتي ليست معقودة على شيء - تعقيداً في أصلها كان تحلف على تحقيق محذور أو ترك محبور ، أم تعقيداً في النية في الحلف المحبور ، أم تعقيداً في تحقيق محبور نويته في حلف ، فهذه الثلاثة مشمولة لـ « ما عقدتم الأيمان فكفارته » . . . حيث كسبت قلوبكم فيها ريناً وشيناً ، تخلفاً عن شرعة الله إيجاباً أو تحريماً متخلفاً عنها ، أم تخلفاً في نيتك عما تحلف صالحاً ، أم تخلفاً عن تطبيق ما حلفت ونويت .

ذلك فاللغو في الأيمان المعقدة فيه الكفارة بكل أقسامها ، لمكان « فكفارته » حيث تعني « ما عقدتم » من لغو الأيمان ، ولكنه متقيد بما كان التعقيد محرماً ، وأما القاصر المعقد عن جهل فلم يكسب قلبه شيئاً حتى يستلزم كفارة .

ذلك « واحفظوا أيمانكم » من أن تكون لغواً أو أن تلغوا فيها ، فالأيمان اللأغية غير القاصدة ولا المعقدة محظورة غير مؤاخذ بها ولا كفارة فيها ، والأيمان القاصدة المعقدة إن كانت صالحة فحفظها هو نية الالتزام بها وتحقيقها ، وغير الصالحة حفظها تركها فلا يفعلها ، وإذا فعل فلا يعمل طبقها .

ذلك ، فاما المعتبرة الحاصرة لكفارة اليمين بالحنث في اليمين

الصالحة فهل تصلح لتقييد الآية ؟ والأيمان اللاغية المعقدة كلها معنية بطليق « فكفارته » الراجع إلى « ما عقدتم الايمان » إضافة إلى الطليق العام في « ذلك كفارة ايمانكم إذا حلفتكم » حيث الحلف بعد الايمان يختصها بغير الأولى والأخيرة اللاغية تماماً ١ .

ولكن الذي يوهن الخطب هو أن ترك نية العمل وترك العمل في المحبور هما واحد ، تشملها القائلة « إذا لم تف به » ثم تعقيد المحذور بيمين فيه الكفارة إذا حقق المحذور ، وإلا فلا كفارة كما في الصحيح : « ما حلفت عليه مما فيه البر فعليه الكفارة إذا لم تف به وما حلفت مما فيه المعصية فليس عليك فيه الكفارة إذا رجعت عنه وما كان سوى ذلك مما ليس فيه بر ولا معصية فليس بشيء » (١) وعلى أية حال :

« فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » .

هنا الأوسط يختلف حسب مختلف الأوساط في الإطعام ، ولكن « كسوتهم » طليقة اللهم إلا أن تعني تكسوتهم كسوتهم وهم الأهلون ، ولكنه احتمال لا يحتمل الاستدلال ، كما وأن « تحرير رقبة » طليقة نعم أية رقبة .

ثم الأوسط يعم كم الطعام وكيفه ، فإذا كان أقله كما لكل مد وأكثره مدان ، وهو كيفاً خبز وأكثره لحم ورز فالأوسط هنا بين الكمين كمدي ونصف وبين الكيفين كلحم فقط أوز .

ومن الكم هو الكم الزمني ، فإن كان يطعمهم في الأقل طعاماً وفي الأكثر آخر فالأوسط هو الأوسط بينهما (٢) وكما منه الأوسط أكلاً بين

(١) هو صحيح زكاة قلت لأبي عبد الله (ع) : أي شيء الذي فيه الكفارة من الايمان ؟ فقال : ما حلفت . . . (الكافي ٤٤٦ : ٧ والتهذيب ٣ : ٣٣٠ والاستبصار ٤ : ٤٢) .

(٢) نور الثقلين ١ : ٦٦٦ عن الكافي الحلبي عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال : هو كما =

أهليكم ، فهذا مربع من الأوسط يشمله « أوسط ما تطعمون أهليكم » .

وهنا « عشرة مساكين » نص في عديدهم فلا يكفي إطعام واحد منهم عشرة طعمات وما أشبه ، وظاهر الإطعام هو كامل الطعام .

وترى إن كان عنده ما يكفي إطعام الأقل من عشرة مساكين فهل يرجع إلى صيام ثلاثة أيام ؟ طبعاً نعم فإن « لم يجد » تنحو منحى المذكورات الثلاث .

ثم ترى إن لم يستطع - إذاً - الصيام فهل يرجع إلى واجب الإطعام ؟ لا دليل عليه اللهم إلا تطوعاً للخير ، وأما « الميسور لا يسقط بالمعسور » فلا دور له في مجال النص .

وهل إن « كسوتهم » تعني بثله بستر العورتين ، أم لا أقل من ثوبين^(١) قميصاً وإزاراً ، أم ما صدقت عليه كسوة فيكفي قميص واحد يكسو الأعالي والأداني^(٢) ؟ الظاهر إجزاء الأخير شرط أن يكسو العورتين تماماً ، والأحوط إضافة إزار معه ، حيث إن « كسوتهم » طليقة يكتفى فيها بمسماها المتعود ، ولأن الكسوة مهما قلت هي زائدة على الإطعام فقد تكفي عنه حين لا تكفي كسوة .

= يكون انه يكون في البيت من يأكل أكثر من المد ومنهم من يأكل أقل من المد فينبى ذلك وان شئت جعلت لهم أدماً والأدم ادناه ملح وأوسطه الخل والزيت وارفعه اللحم .
(١) ومما يدل عليه رواية الحلبي عن ابي عبد الله (ع) في كفارة اليمين . . . او كسوتهم لكل انسان ثوبان .

(٢) نور الثقلين ١: ٦٦٧ عن الكافي عن ابي بصير قال سألت ابا جعفر عليهما السلام عن « كسوتهم » قال : ثوب واحد ، وفي الدر المنثور ٣: ٣١٣ عن حذيفة قال : قلنا يا رسول الله « أو كسوتهم » ما هو ؟ قال : عباءة عباءة ، وعنه (ص) قال : عباءة لكل مسكين .

ذلك كفارة مخيرة بين هذه الثلاثة «فمن لم يجد» شيئاً منها وهو ما زاد عن مؤنة أهله ^(١) «فصيام ثلاثة أيام» ولا يشترط فيها التتابع إذ لم يشترط ، خلاف البعض الآخر كـ «شهرين متتابعين» ^(٢) و«ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم» في اللأغية غير الأولى «واحفظوا أيمانكم» كما يجب «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون» .

وفي نظرة أخرى إلى الآية لمحات :

١ - « لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » تنهى فيما تنهى عن المنوفى

(١) رور الثقلين ١ : ٦٦٦ عن الزكافي الحبي عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال : هو كما يكون انه يكثر في البيت من يأكل أكثر من المد ومنهم من يأكل أقل من المد فبين ذلك ران شئت جعلت لهم أدماً ولأدم أدناه ملح وأوسطه الخل والزيت وارفعه اللحم .
« فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » ما حد من لم يجد وإن الرجل يسأل في كفه وهو يجد ؟ فقال : إذا لم يكن عنده فضل عن قوت عياله فهو ممن لم يجد .

(٢) المصدر عن الكافي عن الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال : صيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين متتابعات لا يفصل بينهما ، وفيه عنه (ع) قال : السبعة الأيام والثلاثة الأيام في الحج لا تفرق إنما هي بمنزلة الثلاثة الأيام في اليمين .

وفي الدر المنثور ٣ : ٣١٤ - أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة يا رسول الله (ص) نحن بالخيار قال : أنت بالخيار إن شئت اعتقت وإن شئت كسوت وإن شئت اطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات . أقول : ولا قوة لهذه الثلاث على تقييد إطلاق الآية فالأقوى إجزاء الأيام المتفرقات والأحوط ان تكون متتابعات .

ذلك وقد يروى عن النبي (ص) ان رجلاً قال له علي إيام من رمضان أفأقضيهما متفرقات ؟ فقال (ص) : أرأيت لو كان عليك دين فقضيت الدرهم فالدرهم اما كان يجزيك ؟ قال : بلى قال : فالله احق ان يعفو ويصفح (تفسير الفخر الرازي ١٢ : ٧٨) أقول : وهذه استفادة لطيفة من طليق الآية وكما هنا ، ولا تطبق فيما نص على واجب التتابع كـ «شهرين متتابعين» .

الآيمان ، فلا تعني « لا يؤاخذكم » هنا إلا أصل المؤاخذه فإنه « بما عقدتم الآيمان - و- بما كسبت قلوبكم » . وتعقيد اليمين عما يجب تركه محرم في كل مصاديقه .

٢ - « من أوسط ما تطعمون » قد تعني الأوسط شخصياً لا جماعياً ، فليس الأوسط في الجماعة المؤمنة مفروضاً على البائس الفقير الذي لا يطعم أهليه بأوسطه إلا خبزاً طازجاً ، ثم « كسوتهم » طليقة لا تنقيد بأوسطها إذ لا دليل عليه هنا .

٣ - وهنا « تحرير رقبة » دون تقيّد بمؤمنة ، هي مثل « ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » (٣: ٥٨) و« في الرقاب » في واجب إيتاء المال كما في (٢: ١٧٧) أم واجب الزكاة والصدقات كما في (٩: ٦٠) وكذلك واجب « فك رقبة » (٩٠: ١٣) .

فقد قيدت الرقبة بالمؤمنة في قتل الخطأ (٤: ٩٢) لا سواء ، ولم تقيد فيما سواء إطلاقاً ، فهل تقيّد « رقبة » في هذه العديدة المديدة بـ « مؤمنة » لأنها قيدت في قتل الخطأ ؟ وهذا خطأ من التقييد ، بعيد عن صالح التعبير الطليق ! .

وحصيلة الحكم في الآية هي حرمة اللغو في الآيمان أياً كان ، ولكن المؤاخذه مختصة بتعقيد الآيمان كفارة وسواها ، ثم سائر اللغو الذي ليس فيه تعقيد الآيمان لا مؤاخذه فيه بكفارة وسواها كأن تحلف دون أن تعقد على شيء أم تحلف بغير الله .

فالحلف بالله دون نية الإلتزام ، أو الحلف به بما هو محذور ، أو الحلف مع النية ثم النقص ، فالكفارة هي في هذه الثلاث لا سواها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ

يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ :

لقد حرمت آيات تحريم الإثم الـ (٤٨) بصورة طليقة كل إثم وهو ما يبطل عن الثواب ، وكانت في قمتها الخمر فإنها مفتاح لكل المنكرات ، مبطله عن كل ثواب هو قضية عقل الإيمان ، فإذا زال العقل زالت الإنسانية والإيمان وانفتحت كل أبواب الشر واللاإيمان .

نرى (١١) آية من آيات الإثم مكية والباقية مدنية ، ومن المكية : « قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق .. » (٣٣: ٧) .

وإذا كان الإثم محرماً فماذا ترى في كبائر الإثم : « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش » (٣٧: ٤٢) كما « ومن يشرك بالله فقد إفترى إثماً عظيماً » (٤٨: ٤) ثم نسمع الله يكبر إثم الخمر في آية البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » (٢١٩) ، وبينهما مكية كـ « ومن ثمرات النخيل تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا » (٦٧: ١٦) حيث عد السكر رزقاً سيئاً ، ومدنية كـ « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. » (٤٣: ٤) مهما كانت نازلة قبل آية البقرة أو بعدها ، فإن لها دوراً عظيماً في تحريم الخمر إذ تقرر الحظر عن الصلاة - وهي عمود الدين - عند السكر، إذاً فهو عمود اللادين حيث يصد عن عمود الدين صداً فارضاً محتوماً .

ومن أغرب الغرائب أن جماعة مثل الخليفة عمر ما كان يترك الخمر طوال هذه الآيات مكيات ومدنيات قائلًا : « اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب المال والعقل فنزلت هذه الآية فدعي عمر فقرأت عليه

فلما بلغ « فهل أنتم متتهون » قال عمر : انتهينا انتهينا ^(١) .

وقد شرب الخمر قبل آية المائدة كما تعود به بلحى بعير وشجَّ به رأس عبد الرحمن بن عوف ثم قعد ينوح على قتلى بدر فبلغ ذلك رسول الله (ص) فخرج مغضباً يجر رداءه ورفع شيئاً كان في يده فضربه به فقال عمر : أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله فأنزل الله « إنما يريد الشيطان » فقال عمر : انتهينا انتهينا ^(٢) .

(١) الدر المنثور ١: ٢٥٢ - اخرج ابن أبي شيبة واحمد في المسند ١: ٥٣ وأبو داود في سنة ٣: ١٣٨ والترمذي في صحيحه والنسائي في السنن ٨: ٢٨٧ وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في المستدرک ٣: ٢٧٨ و ٤: ١٤٣ وصححه والبيهقي في سننه ٨: ٢٨٥ والضياء المقدسي في المختارة عن عمر أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فانها تذهب المال فنزلت : يسألونك عن الخمر والميسر . في البقرة فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت التي في النساء « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . . » فكان منادي رسول الله (ص) إذا أقام الصلاة نادى ان لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرأت عليه فلما بلغ « فهل أنتم متتهون » قال عمر : انتهينا انتهينا .

أقول : وأخرجه الطبري في تاريخه ٧: ٢٢ والجصاص في احكام القرآن ٢: ٢٤٥ وأقره الذهبي في تلخيصه والقرطبي في تفسيره ٥: ٢٠٠ وابن كثير في تفسيره ١٥: ٢٥٥ و ٢: ٩٢ نقلاً عن احمد وابي داود والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه وعلي بن المديني في اسناد صالح صحيح وفي تيسير الوصول ١: ١٢٤ وتفسير الخازن ١: ٥١٣ وتفسير الرازي ٣: ٤٥٨ وفتح الباري ٨: ٢٢٥ وتفسير الألويسي ٧: ١٥ .

(٢) في لفظ الزمخشري في ربيع الأبرار وشهاب الدين الأبهسي في المستطرف ٢: ٢٩١ شرب عمر الخمر قبل آية المائدة . .

سورة المائدة / آية ٩٠ - ٩١ ٢٠٥

فهلا يكون بيان الله في آي التحريم قبل المائدة بياناً شافياً حتى أبتلي
بما أبتلي به ثم انتهى عند آية المائدة ؟! وهذا مس من كرامة القرآن ، ذلك
الكتاب البيان !

ذلك ! وقد يتحسر الخليفة حين تنزل آية المائدة قائلاً : ضيعة لك
اليوم قرنت بالميسر^(١) ويكأنها ما قرنت به في آية البقرة ؟

ذلك وبعد قولة الإنهاء لم يكن لينتهي عن شرب النبيذ الشديد أخت
الخمرة اللعينة^(٢) وليس ينقضي العجاف من تفقه الخليفة وطغواه في تقواه
أمام أكبر الكبائر فضلاً عن سائرها وسائر الصغائر ! .

آيات تحريم الخمر تلويحاً وتصريحاً هي متفقة الدلالة عليه ، مهما
كانت متدرجة المدلول في بيان آحاد التحريم وأبعاده ، وهذه الخاتمة لها في
القرآن كله تحمل أكد التأكيدات وأشد التشديدات في حرمة الخمر
وخلفياتها الخطرة فردية وجماعية .

هنا « إنما » « رجس » « من عمل الشيطان » « فاجتنبوه » « يوقع بينكم
العداوة والبغضاء » « ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » و « فهل انتم
منتهون » هذه السبع تفتح على حقول الخمر الدركات السبع الجهنمية ،
بأخواتها « الميسر والأنصاب والأزلام » وهي تتقدمها كرئيسة لها ، وهي حقاً

(١) المصدر ٣: ٣١٥ وفيه ايضاً قوله : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام بعداً لك
وسحقاً ؟ وقد قرنت بالميسر في البقرة ا .

(٢) للاطلاع على مدارك شربه راجع تفسير آية البقرة في الفرقان وكما تخلع عنده على أبعاد
أخوى فيه حقل الخمر .

٢٠٦ الجزء السابع

كما هي مفتاح كل شر^(١) وأكبر الكبائر^(٢) ولذلك نراها محرمة في كافة الشرائع^(٣) .

كما وأن « لعلكم تفلحون » « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » و « واحذروا » ترغيبات ثلاث في تركها ، وتلك - إذًا - عشرة كاملة هي عشيرة لحقل الخمر ، مصرحة ومشيرة إلى بأسها ونحسها وبخسها وفلاح التاركين إياها .

في هذه الآية يُردف ذلك المربع مع بعضها البعض لأنها كلها حزمة واحدة ذات رباط عريق في مزاولتها ، وأنها من معالم الجاهلية المتفلغلة فيها ، فقد كانت الذبائح على النصب أو المستقسمة بالألزام يصاحب شواءها نوادي الخمر كما يصاحبها الميسر ، شركاء أربع في شهواتهم

(١) في الكافي عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال : ان الله جعل للمعصية بيتاً ثم جعل للبيت باباً ثم جعل للباب غلقاً ثم جعل للغلق مفتاحاً فمفتاح المعصية الخمر ، وفيه عن أبي عبد الله (ع) قال : ان الله جعل للشرا أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب .

وفي الدر المنثور ٣: ٣٢٢ - اخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : اجتنبوا الخمر فانها مفتاح كل شر ، ورواه مثله عنه (ص) أبو الدرداء .

(٢) في الكافي عن اسماعيل قال اقبل ابو جعفر عليهما السلام في المسجد الحرام فنظر اليه قوم من قريش فقالوا : هذا إله أهل العراق فقال بعضهم : لو بعثم اليه بعضكم فأتاه شاب منهم فقال : يا عم ما اكبر الكبائر ؟ قال : شرب الخمر .

وفيه عن أبي البلاد عن أحدهما عليهما السلام قال : ما عصي الله بشيء أشد من شرب المسكر ان أحدهم يدع الصلاة الفريضة ويشب على أمه وابنته واخته وهو لا يعقل .

(٣) اخرجنا خمسة عشر آية من التوراة والانجيل وملحقاتهما تصرح بحرمة مغلفة للخمر ، راجع تفسير آية البقرة : يسألونك عن الخمر والميسر في الفرقان .

الجماعية بملاساتها الأخرى التي تفتح مغاليقها الخمر ومعه الميسر .

فالأنصاب هي ما ذبح على النصب وهي الأوثان ، ذبحاً للتقديس والتقريب والتبرك ، والأزلام هي القداح التي كانوا يستقسمون بها الذبيحة وكما في أخرى بداية المائدة « وأن تستقسموا بالأزلام » فإنه قتل للحيوان بصورة الميسر ، فالذي قدحه هو المعلّى يأخذ النصب الأعلى وإلى من لا نصيب له حيث لا يصيب قدحه الهدف المرام مهما كان هو صاحب الذبيحة أو المشترك فيها فيخسرهما كلها .

فهـ الميسر « هنا محرم على أية حال ، والأزلام ميسر خاص فيه الذبح غير المشروع بالميسر المحرم على أية حال فهو محظور على محظور ، والأنصاب ذبح للحيوان على النصب « وما ذبح على النصب » فهو أيضاً محظور على محظور ، فأصل الحظر في الأنصاب والأزلام هو الميسر المشترك بينهما ، مع ما يختص كل واحد بخاصة خاصة .

وما هو دور هذه المحرمات في نهاية العهد الرسالي والمسلمون هم مسلمون طيلة سنين ؟ إن لها الدور العام لكافة المكلفين على مدار الزمن ، إضافة إلى إجتثاث الجذور الجاهلية التي ترسبت في هؤلاء المسلمين من ذي قبل ، فبقيت منها بقايا وزوايا لا بد من القضاء عليها ، فلا بد من تنقية تلكم الرواسب عن بكرتها ، إستاصالاً لها بأسرها حتى يكون الحاكم - فقط - هو الله بشرعته النقية النقية .

هنا رأس الزاوية في هذه الزوايا الأربع الجاهلية هي : الخمر ، وهذه هي المرحلة الأخيرة في علاج مشكلتها في المنهج الإسلامي السامي ، فقد حرمت على طول الخط التشريعي مكياً ومدنياً بأنها من الإثم ، ثم أنها الرزق السيئ كما في العهد المكي ، ثم في العهد المدني مانعة عن الصلاة ، وإن فيها اثماً كبيراً ، ومن ثم « رجس من عمل الشيطان » وإلى سائر السبعة والعشرة الكاملة .

وهنا « يا أيها الذين آمنوا » تستجيش القلوب المؤمنة بحسب درجات الإيمان ، وأن الإنتهاء عن الخمر وأخواتها هو قضية الإيمان ، مما يوحي أن اقترافها خروج عن الإيمان ، كما وأن قرن « الأنصاب » وهي للمشركين بأخواتها يوحي بأنها كلها في صف الإشراك بالله ، مهما اختلفت من الناحية العقيدية والعملية ، فهناك عقيدة الإشراك وفي الثالوث الباقية عملية الإشراك ، وقد جمعت كلها بأحكام « رجس من عمل الشيطان ... »

ثم « رجس » ترجس الخمر ذاتياً وعملياً ، شرباً وسواه من محاولات فيها تقريباً وتقديماً لشربها ، كما وترجس الثلاثة الأخرى ، فالميسر رجس في نفسه ورجس في الأموال المستفادة منه ، ورجس فيما يتقامر به ، فهو ثالث من الرجس ! والأنصاب رجس في أصلها وهي النصب لأنها أوثان : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » ورجس فيما ذبح عليها : « وما ذبح على النصب » والأزلام رجس في الإستقسام بها وفي المستقسم بها ، ثم وهي « من عمل الشيطان » .

وترى « رجس » في الخمر دليل نجاستها كسائر النجاسات العينية ؟ ورجس الميسر لا يعني نجاسة آلات القمار ولا نجاسة المقامرين ، إنما هو نفس الميسر رجاسة عملية تنجس الأرواح والمجتمعات ! .

والرجس لغوياً هو كل ما استقذر من عمل وأصله من الرجس وهو الصوت الشديد ، وسحاب رجاس إذا كان شديد الصوت بالرعد ، فالرجس - إذاً - في مثل الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هو العمل القبيح الذي فيه رعد القباحة صاعقة والوقاحة ، وليس هكذا أي نجس ظاهري في مجرد مسّه ، كما وأن « من عمل الشيطان » يؤكد ذلك القبح الوقبح .

ثم وكيف تعني « رجس » تلك النجاسة الجسمية المتعدية الغيبية وقد عد الله المنافقين من الرجس : « سيحلفون بالله لكم إذا إنقلبتم إليهم

لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس وماواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون « (٩٥: ٩) » وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون « (١٢٥: ٩) » كما « فاجتنبوا الرجس من الأوثان » (٣٠: ٢٢) و « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (٣٣: ٣٣) فلا تعني الرجس فيها ولا فيما سواها (١) النجاسة الخبثية المعروفة ، إنما هي النجاسة العقيدية والعملية والأخلاقية ، ولا نجد - ولا مرة يتيمة - يعنى من الرجس في آياته هذه النجاسة ، فكيف يستدل بمجرد لفظة الرجس هنا على نجاسة الخمر جسماً ، فهي فيها نجاسة عقلية وخلقية فعقيدية وعملية أماهيه .

ذلك ، إضافة إلى أن واجب الإجتنب المتفرع على « رجس من عمل الشيطان » لا يفرض الإجتنب الخبثي فإنه - قطعاً - غير واجب ، اللهم إلا شرباً للخمر وما أشبه من محاولات لها ، وعملاً للميسر والأنصاب والأزلام ، ثم النجاسة الظاهرية ليست من عمل الشيطان وإلا لكان المعصومون عليهم السلام مصحوبين بعمل الشيطان لمكان النجاسات الخبثية الطارئة عليهم كما على سواهم ! كما ولا يلزم من كون شيء من عمل الشيطان نجاسته الخبثية كالميسر والأنصاب والأزلام وسائر الأشياء والأعمال المحرمة .

ذلك ، والروايات الواردة بحق الخمر نجاسة وسواها معروضة على

(١) ومما سواها « كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » (١٢٥: ٦) « قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » (٧١: ٧) « ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » (١٠٠: ١٠) ثم و « رجس » في « إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس » (١٤٥: ٦) لودلت على النجاسة الجسمية ، لم تكن قرنية على أن الرجس في سائر القرآن هو هيه ، وقد تلمح « فانه » أن ليس الرجس هو النجاسة الجسمية حيث الميتة والدم المسفوح كذلك نجسان فلما اختلفت هذه النجاسة بلحم خنزير ؟ ! .

الآية الساكتة لأقل تقدير عن نجاستها ، أو الظاهرة في النجاسة غير الظاهرية ، أم تتساقط لكون الدالة على طهارتها نصاً ، وسواها لأكثر تقدير ظاهرة ، ولكن الأمر بالتجنب أعم من النجاسة الظاهرية ^(١) فالأقوى طهارة

(١) ذهب الى طهارة الخمر من اصحابنا الصدوق وأبوه والجعفي والعماني وجماعة من المتأخرين كالمحقق الخراساني والأردبيلي والسيد في المدارك والفاضل الخراساني ، ومن المعاصرين المرجع الديني السيد أبو القاسم الخوئي ، وأما إخواننا فالشهرة المطلقة بينهم كما عندنا على النجاسة والقائلون منهم كما منا بالطهارة قلة مثل ربيعة شيخ الامام مالك وحكي عن حبل المتين انه قال : اطبق علماءنا الخاصة والعامة على نجاسة الخمر الا شرذمة منا ومنهم لم يعتد الفريقان بمخالفتهم .

ومن الأخبار الدالة على الطهارة صحيحة ابن أبي سارة قال قلت لأبي عبد الله (ع) : إن اصاب ثوبي من الخمر أصلي فيه قبل أن اغسله ؟ قال : لا بأس ان الثوب لا يسكر . أقول : وهي إنتباهة حسنة حيث ربط الامام (ع) الرجاسة بالاسكار ، إذا فهي الرجاسة العقلية حيث تُسكر العقل ، دون الرجاسة الظاهرية حيث لا تُسكر الملابس أو مظاهر الجسم ، وموثقة ابن بكير قال : سألت رجلاً أبا عبد الله (ع) وأنا عنده عن المسكر والنبذ يصيب الثوب ؟ قال : « لا بأس » وصحيحة علي بن رثاب المروية عن قرب الأسناد قال سألت أبا عبد الله (ع) عن الخمر والنبذ المسكر يصيب ثوبي فأغسله أو أصلي فيه ؟ قال : صل فيه إلا ان تقدره فتغسل منه موضع الأثر ان الله تبارك تعالى انما حرم شربها (وسائل الشيعة ابواب النجاسات ب ٣٨ ج ١٠ و ١١ و ١٤) وغيرها من الروايات .

ومما استدلل بها للنجاسة موثقة عمار الساباطي عن أبي عبد الله (ع) قال : سألت عن الدن يكون فيه الخمر هل يصلح ان يكون فيه خل أو ماء كامخ أو زيتون ؟ قال : إذا غسل فلا بأس (المصدر ب ٥١ ح ١) وصحيحة الحلبي عن أبي عبد الله (ع) في الإناء يشرب فيه النبيذ ؟ فقال : تغسله سبع مرات (المصدر باب الأشربة ب ٣٠ ح ٢) وموثقته الأخرى عن دواء يعجن بالخمر ؟ فقال : « لا والله ما احب أن انظر اليه فكيف أتداوى به انه بمنزلة شحم الخنزير أو لحم الخنزير » (المصدر ٣٠ : ٤) وموثقة عمار الساباطي عن أبي عبد الله (ع) قال : لا تصل في ثوب اصابه خمر أو مسكر واغسله ان عرفت =

الخمير فضلاً عن الفقع والعصير العني قبل الثلثين ، وإن كان الأحوط التطهير عنها .

١- ثم « رجس - من عمل الشيطان - فاجتنبوه » تعم كل المحاولات الناحية منحي شربها حيث التحريم موجّه إلى نفس الخمر وأخواتها ^(١) وكما في

موضعه فان لم تعرف موضعه فاغسل الثوب كله فان صليت فيه فاعد صلاتك .
أقول : وغير الأخير لا صراحة فيه ولا ظهور في النجاسة والأخير معارض بما سبق وليس وجوب الغسل دليلاً على النجاسة فقد يكون كوجوب ازالة اجزاء ما لا يؤكل لحمه مثل الشعر والوبر ، وأما الحمل على التقية فلا دور له في امثال هذه الموارد التي تقل فتاوى اهل السنة الموافقة لها ، وأما تقديم هذه الاخبار بصحيفة علي بن مهزيار بالاسناد عن سهل بن زياد قال قرأت في كتاب عبد الله بن محمد الى ابي الحسن (ع) جعلت فداك روى زرارة عن ابي جعفر وابي عبد الله عليهما السلام في الخمر يصيب ثوب الرجل انهما قالوا : لا بأس بأن يصلي فيه انما حرم شربها وروى غير زرارة عن ابي عبد الله (ع) انه قال : إذا اصاب ثوبك خمر أو نبيذ - يعني المسكر - فاغسله ان عرفت موضعه وان لم تعرف موضعه فاغسله كله وان صليت فيه فاعد صلاتك ، فأعلمني ما آخذ به ؟ فوقع بخطه (ع) وقرأته : خذ بقول ابي عبد الله (ع) (جامع احاديث الشيعة ص ٣٣ ب ٧ رقم ٢ من التهذيب والاستبصار والكافي) .

أما هذه الصحيحة فليست هي بصحيحة ، فان في تعارض المنشقول عن الامامين ، إن كان الحق مشكوكاً بينهما ليس من المرجح قول ابي عبد الله على قوله الآخر مع الباقر (ع) وان كان كلاهما صادرين كما هو نص الرواية فكيف يصح الأخذ بقول لأبي عبد الله وترك قوله الآخر الذي يقول به الباقر (ع) ؟ ولا موقف للتقية في اي من الطهارة والنجاسة ، بل ان كان هناك تقية فالقول بالنجاسة موافق للتقية والقول الآخر مخالف له .

(١) في الكافي عن جابر عن ابي جعفر عليهما السلام قال : لعن رسول الله (ص) في الخمر عشرة : غارسها وحارسها وعاصرها وشاربها وساقها وحاملها والمحمولة اليه وباعها ومشتريها وأكل ثمنها .

أقول : وحول الخمر لعنات اخرى بالنسبة لحضور مائدة يشرب عليها الخمر وبيع =

حديث رسول الله (ص) ولا معنى لحرمتها في نفسها إلا للمحاولات المرغوبة المترتبة منها ، ولذلك لعن فيها عشرة ، لا فقط شاربها ، فكل المحاولات حول الخمر ، الناحية منحي شربها هي محرمة قضية حرمتها في نفسها حيث تعني كل ملاساتها إلى شربها .

٢ - ومن ثم « رجس » وأخواتها تدل - فيما تدل - على حرمتها الذاتية على مدار الزمن الرسالي ، فلا تجد رسالة ربانية إلا بتحريم الخمر كما فصلناه على ضوء آية البقرة .

و « رجس » هذا يعم ترجيس صالح الروح والجسم والقال والحال والأعمال ، رجساً فردياً وجماعياً ، خلقياً وخلقياً وعقيدياً وعلمياً ومعرفياً وفي كل الحقول الإنسانية عن بكرتها ، أسراً لها بأسرها في وثاقها حيث تحرر الإنسان وتطلقه عن عقلية الإنسانية بل وعن العقلية الحيوانية حيث يصبح حيواناً مجنوناً شرساً .

ومن ثم « من عمل الشيطان » كوصف ثان لهذه الأربعة فيه وجهان ، إنها - وفي قمتها الخمر - من صنع الشيطان ، فهو أول مبتدع لها كما وهو من عمله المستمر في شيطنة الأعمال ، ومن عمله وسوسته في صدور الناس بحق الخمر وأخواتها ، ثالثاً من عمل الشيطان ، فأين المؤمن ومبتدع الشيطان وعمله الشيطاني وسوسته ؟ ولذلك نراها أنها من أوليات المحرمات (١) .

= العنب ممن تعلم أنه يعمل خمرأ كما في الدر المنثور ٣: ٣٢٥ - اخرج البيهقي عن ابي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (ص) : من حبس العنب ايام قطافه حتى يبيعه من يهودي او نصارني أو ممن يعلم انه يتخذ خمرأ فقد تقدم في النار على بصيرة .

(١) وسائل الشيعة ١٧: ٢٤٣ ح ٢٠ في الأمالي بسند متصل عن محمد بن مسلم قال سئل ابو عبد الله (ع) عن الخمر فقال : قال رسول الله (ص) : « ان أول ما نهاني عنه ربي =

٣- « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وهنا واجب الإجتنب متفرع على مثني « رجس من عمل الشيطان » فهذه ضابطة ثابتة أن كل رجس وعمل للشيطان هو واجب الإجتنب رجاء الإفلاح في معتركات الحياة ، فإفلاج الشيطان لشيطناته ، وضمير الغائب في « فاجتنبوه » راجع إلى « رجس » فيشمل كل هذه الأربعة ، تفريعاً لواجب الإجتنب على « رجس » الموصوفة بـ« من عمل الشيطان » أم هو راجع إلى عمل الشيطان ، أم إلى المذكورات الست .

ذلك ، ولا تختص الخمر بما يؤخذ من العنب والتمر ، بل هي كل ما تخمر العقل بطبيعة حاله أيأ كان مأخذه ، وكما فيما استفاض نقله عن النبي (ص) ^(١) والخمر تعني كل مسكر ، فقد « حرم الله الخمر وكل مسكر

= جل جلاله عن عبادة الأوثان وشرب الخمر وملاحاة الرجال » واخرجه مثله عنه (ص) أم سلمة كما في الدر المنثور ٣: ٣٢٦. مكتبة توير علوم إسلامي
أقول : فالأحاديث الواردة عنه (ص) ان آية المائدة هي التي حرمت الخمر ، انها مختلفة معروضة عرض الحائط إلا أن تعني غلظ الحرمة لا اصلها .

وفي عيون الأخبار بإسناده الى الريان بن الصلت قال سمعت الرضا (ع) يقول : ما بعث الله عز وجل نبياً إلا بتحريم الخمر ، وفي سيرة ابن هشام عن خلاد بن قره وغيره من مشايخ بكر بن وائل من اهل العلم ان اعشى بن قيس خرج الى رسول الله (ص) يريد الاسلام فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه بعض المشركين من قريش فسأله عن أمره فأخبره انه جاء يريد رسول الله (ص) ليسلم فقال له يا ابا بصير فانه يحرم الخمر . . .

(١) في الدر المنثور ٣: ٣١٨- عن ابن عباس ان رسول الله (ص) حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام ، وفيه قال رسول الله (ص) : ان من الخنطة خمراً ومن الزبيب خمراً ومن التمر خمراً ومن العسل خمراً وانهاكم عن كل مسكر ، وفيه مثله عن ابن عباس عنه (ص) « وكل مسكر حرام » .

= وفيه أخرج مسلم والبيهقي عن جابر بن عبد الله ان رجلاً قدم من اليمن فسأل =

حرام» (١) .

ذلك ، والخمر والميسر هما أختان متماثلتان في الرجاسة والنحوسة ، كما وتختصان بالذكر في « إنما يريد الشيطان » مما يدل على زيادة الرجاسة فيهما على الأنصاب والأزلام .

فهـ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر » وهما من أخطر الأخطار على الأمة الإسلامية وكافة الناس ، فإن عامل العداوة والبغضاء عامل لكل إفساد في الأرض بمختلف حقوله « ويصدكم عن ذكر الله » ككلّ عشواً عن ذكره تعالى إلى كل لغو ولهو « وعن الصلاة » التي هي عمود الدين وعماد اليقين ، فهذه أقانيم ثلاثة لثالوث الخمر والميسر بين إيجابية العداوة والبغضاء وسلبية ذكر الله والصلاة ، فهي ذاهبة بمعنى « لا إله إلا الله » المتمثلة لزاماً بين المؤمنين ، « فهل أنتم متتهون » ؟ .

هنا يتبين لنا بوضوح هدف الشيطان بخيله ورجله ، وغاية كيد وميده وثمرة رجسه بعمله أنه فُصم عرى المحبة والوداد بين خلق الله وبينهم وبين الله ، بالعداوة والبغضاء هناك ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة هنا ، وهل الدين إلا الحب ؟ وهو ذاهب به بالخمر والميسر في هذا البين .

فالخمر بما تفقد الإنسان من الوعي ، وما تثير من عرامة اللحم والدم

= النبي (ص) عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر فقال النبي (ص) أو يسكر هو ؟ قالوا : نعم قال رسول الله (ص) : كل مسكر حرام إن الله عهد لمن يشرب المسكران يسقيه من طينة الخبال قالوا يا رسول الله (ص) وما طينة الخبال ؟ قال : عرق أهل النار أو عصارة أهل النار .

(١) الدر المنثور ٣: ٣١٧ - أخرج ابن مردويه عن ابن عمر عن رسول الله (ص) قال :

وبما تهيج من شهوات ونزوات فتُطلق صاحبها عن أسر العقلية الإنسانية - بل والحيوانية - بأسرها ! .

والميسر بما تصاحبه - على أية حال - من خسارات فأحقاد ، مهما لم يخسر مالياً فإنه يخسر من كيانه في سباق اللعب ، وإن كان يزيده عداوة وبغضاً أن ذهب ماله ! ، هاتان أختان شرستان هرجتان محرجتان من يصاحبهما .

لذلك ، فكما الخمر قليلها محرم إلى جنب كثيرها ، كذلك الميسر محرم في غير شرط إلى جانب ما فيه شرط ، فإن نفس التغلب في ميدان الميسر تورث العداوة والبغضاء ، كما أن نفس الإلهاء عند المقامرين يصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

فحتى ولو لم يورث الميسر عداً بين المقامرين ، فهو لا بد وأن يصد عن ذكر الله وعن الصلاة بطبيعة الحال الملتهبة فيه .

إذاً فكل ما يوقع العداوة والبغضاء أو يصد عن ذكر الله وعن الصلاة - فضلاً عما يورثهما - إنه محرم ، غرضاً عما في الخمر والميسر من تورث الأعصاب وخسار الصحة البدنية والعقلية .

وهل ترى محرماً قط مثل الخمر والميسر - في تحليق الضرر على كل الحقول ، ولا سيما الخمر التي تذهب بالمقول وتجعل من شاربها بهيمة مجنونة شرسة !؟ .

لذلك نرى في الخمر حداً أدبياً ليس في الميسر إلا تأديباً تعزيرياً ، مما يدل على مدى فاعلية الخمر في حقول الإفساد أكثر من الميسر ، بل وهي التي تيسر الميسر وكل محظور .

فشارب الخمر علماً وعمداً يُضرب الحد^(١) وإن شرب قليلاً لا يسكر^(٢) فإن شارب القليل يورد في مشرب الكثير ، ثم ولا داعي له في ذلك التذوق اللعين إلاً ازدياداً ، فيه فاعلية الخمر ، وحدة ثمانون جلدة لتظافر الأثر على ذلك الحد^(٣).

(١) كما استفاض به الأثر من طريق الفريقين فمن طريق اصحابنا صحيحه محمد بن اسماعيل بن بزيع عن ابي الحسن (ع) قال : سألت عن الفقاع فقال : هو خمر وفيه حد شارب الخمر « (التهذيب في حد المسكر رقم ٣٦) ومعتبرة ابن فضال قال : كتبت الى ابي الحسن (ع) وسألت عن الفقاع فقال : هو الخمر وفيه حد شارب الخمر « (الكافي ٦ : ٤٢٤ رقم ١٥) وصحيفة سليمان بن خالد قال كان امير المؤمنين (ع) يجلد في النبيذ المسكر ثمانين كما يضرب في الخمر ويقتل في الثالثة كما يقتل صاحب الخمر « (الاستبصار ٤ : ٢٣٥) ومن طريق اخواننا في الدر المنثور ٣ : ٣١٦ - اخرج ابو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس ان الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله (ص) بالأيدي والتعال والعصي حتى توفي رسول الله (ص) فقال ابو بكر لو فرضنا لهم حداً فتوخى نحو ما كانوا يضربون في عهد رسول الله (ص) فكان أبو بكر يجلد هم أربعين حتى توفي ثم كان عمر من بعده فجلدهم كذلك أربعين حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين وقد شرب فأمر به ان يجلد فقال لم تجلدني بيني وبينك كتاب الله قال : وفي اي كتاب الله تجد ان لا اجلدك - الى أن قال - : فقال عمر فماذا ترون ؟ فقال علي بن ابي طالب نرى انه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى اقترى وعلى المفترى ثمانون جلدة فأمر عمر فجلد ثمانين « اقول : لا نصدق خلاف ذلك الحد على عهد رسول الله (ص) مهما كان مستفاداً من القرآن أو هو سنة ، إذ انقطع الوحي كتاباً وسنة بعد الرسول فكيف يتجدد حد لم يكن في زمن رسول الله (ص) !؟ .

(٢) كما في خبر اسحاق بن عمار الساباطي سأل الصادق (ع) عن رجل شرب حسوة خمر ؟ قال : يجلد ثمانين جلدة قليلها وكثيرها حرام « (علل الشرايع ٣ : ٢٢٥) .

(٣) منه موثق ابي بصير كان علي (ع) يجلد الحر والعبد واليهودي والنصراني في الخمر والنبيذ ثمانين « (الكافي ٧ : ٢١٥) والتهذيب في حد المسكر رقم ٩١) وهنا روايات =

أبعد ذلك كله « هل أنتم منتهون » وهو إستفهام انكاري يلمح أن جماعة من المسلمين لم يكونوا ليتنوها عنه مع كرور المناهي مكياً ومدنياً في الذكر الحكيم ! كما سبق نقله عن الخليفة عمر من قوله : انتهينا انتهينا ، وخطاب الإيمان الموجه إلى أمثاله من المتورطين في هذه الكبيرة وأمثالها ليس إلا لإقرارهم بالشهادتين سواء أكان مع إيمان ما أم بنفاق ، فلا يدل على صالح الإيمان بمجرد خطابه ، بل هو إلى صالحه وطالحه وكالحه حيث لم يك ينتهي صاحبه رغم كرور المناهي عن الخمر .

ذلك ، فكل المحاولات حول الخمر محرمة حتى بيع العنب ممن تعلم

= اخرى تجعل حد العبد نصف الحر وقضية درء الحدود بالشبهات وان الأقل هو الثابت الاقتصار بالأربعين .

وفي الدر المنثور ٣: ٣٢٥ - اخرج عبد الرزاق واحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن معاوية بن ابي سفيان عن النبي (ص) قال : من شرب الخمر فاجلدوه قالها ثلاثاً ان شربها الرابعة فاقتلوه ، وفيه اخرج عبد الرزاق عن ابي موسى الأشعري ان النبي (ص) حين بعثه الى اليمن سأله قال : إن قومي يصنعون شراباً من الذرة يقال له المزرق فقال النبي (ص) أيسكر ؟ قال : نعم قال فانهم عنه قال نهيتهم عنه ولم ينتهوا قال : فمن لم ينته في الثالثة منهم فاقتله ، وفيه اخرج عبد الرزاق عن مكحول قال : قال رسول الله (ص) من شرب الخمر فاضربوه ثم قال في الرابعة من شرب الخمر فاقتلوه ، ورواه مثله عنه (ص) أبو هريرة ، والزهرى وعمر بن دينار إلا أن فيه فحدوه بل فاضربوه ، اقول : وقصة الحد والضرب في شرب الخمر متواترة عن النبي (ص) رواها عنه مثل هؤلاء في اصل الحد قبيضة بن ذؤيب وأبي الرمذ البلوي ، وشرحبيل بن أويس وام حبيبة بنت ابي سفيان .

وفي لفظ الديلمي قال وفدت على رسول الله (ص) فقلت يا رسول الله إنا نصنع طعاماً وشراباً فنطعمه بني عمنا فقال : هل يسكر ؟ قلت : نعم فقال : حرام ، فلما كان عند توديعي اياه ذكرته له فقلت يا نبي الله انهم لن يصبروا عنه قال : فمن لم يصبر عنه فاضربوا عنقه .

أنه يعمل خمرًا ، أم حضور مائدة يشرب عليها الخمر ، أما إذا من ملابسات في حقل الخمر .

هذا ، ومن غرائب لوفق العددي بين ثالوث « الأصنام والخمر والخنزير » ان كلاً منها مذكورة مرات خمس في الذكر الحكيم .

تلك هي الخمر ، المحرم قليلها وكثيرها ، الثابت حدها فيهما ، وأما الميسر فقد يعم القمار ككل بشرط وسواه حيث الحكم المذكورة في الآية مشتركة بينهما ، والقول إن « الميسر » لامحة إلى شرط الإنتفاع بميسر فيه وإلا فلا ميسر ، مدفوع بنص الحكم هنا ، ولو اختصت الحرمة بميسر الحصول على المال لكان كل ما في تحصيله يسر محرماً ، ولم يكن الميسر بالنسبة لمن يدفع الشرط محرماً ! .

ذلك ، وطلاق الآية وأضرابها وطلاق الرواية في حرمة الميسر يحرمانه على أية حال ، بشرط وسواه ، وبآلته الخاصة وسواها ، مهما كان بالشرط وخصوص الآلة أشد تحريماً ، ثم بشرط دون آلة ، ومن ثم بآلة دون شرط ، وأخيراً دون شرط وآلة .

والضابطة الأصلية في حرمة الميسر كما الخمر هي حصيلة « العداوة والبغضاء ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة » وكما يروى أن « كلما ألهى عن ذكر الله فهو الميسر »^(١) مهما اختلفت دركاته في رهن وسواه ، وبآلة خاصة وسواها .

(١) كما في مجالس المفيد الثاني ولد الشيخ الطوسي بسنده عن امير المؤمنين (ع) في تفسير الميسر . . . وفي رواية جابر عن ابي جعفر عليهما السلام قيل يا رسول الله (ص) ما الميسر ؟ قال : كل ما يقامر به حتى الكعاب والجوز ، والمقامرة هي المغالبة وهي تتحقق دون شرط كما تتحقق بشرط ، وفي رواية تحف العقول ان ما يجيء منه الفساد محضاً لا يجوز التقلب فيه من جميع وجوه الحركات ، ولا ريب في فساد القمار . =

ثم « الميسر » هو اسم مكان وليس اسم آلة ، فهو مكان اليسر ومجاله ، وهو بطبيعة الحال يسر محرم يورث العداوة والبغضاء ، من يسر الحصول على مال دونما سعي فانه اكل بالباطل ، حيث لم تفد في الميسر حتى تستحق عنه بديلاً ، ويسر الحصول على تغلب ، ولا تغلب إلا في فضيلة ، ويسر بث العداوة والبغضاء ، ويسر الصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وعلى الجملة هو يسر في محذور دونما سعي تستحق به أي حق ، فضلاً عن باطل من مال أم وأهم منه رجاحة الحال في تخيل البال .

اجل يجوز الشرط في سباق الخيل أو السباحة وما أشبه لمكان رجاحة السباق في أمثالها حيث تنفع لنضال وما أشبه من فوائد عامة وعوائد هامة ، حسب ما تدل عليه النصوص ، مثل سباق الرمي والخيل والسباحة ، حيث تنفع المسلمين في حفل الجهاد ، فسباق الرمي يشمل كافة الأسلحة المتطورة ، كما الخيل تشمل كل المركوبات جواً وبرياً وبحرياً ، ثم السباحة هي كما هي مهما اختلفت أشكالها .

فهذه الثلاثة مما لا بد منها في جبهات الحرب ، ولذلك هي محبوبة غير محظورة ، وهكذا الأمر في سائر الإعدادات الحربية لمكان عامة الأمر

= وفي الدر المنثور ٣: ٣١٩ عن النبي (ص) قال : اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزر بها زجراً فانها من الميسر رواه عنه (ص) أبو موسى الأشعري وسمرة بن جندب وابن مسعود ، فلم يشترط فيه الشرط ، وفيه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (ص) من لعب بالزردشير فقد عصى الله ورسوله ، وعن عبد الرحمن الخفيمي سمعت رسول الله (ص) يقول : مثل الذي يلعب بالزرد ثم يقول فيصلي مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقول فيصلي ، وعن يحيى بن أبي كثير قال : مر رسول الله (ص) بقوم يلعبون بالزرد فقال : قلوب لاهية وأيدي عاملة والسنن لاغية .

أقول : وذكر الآلات الخاصة للقمار لا يدل على حصر الحرمة في الميسر فيها ، وإنما هو بيان للمصاديق المتعددة في القمار .

٢٢٠ الجزء السابع

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ولكن الأشبه في الكل أن يكون الجعل من ثالث حتى يبعد عن الميسر كل البعد .

ولئن قلت : كما أن صالح التدريب على معدات حربية للجهاد يتقدم على محظور العداوة والبغضاء ، كذلك صالح الإستقواء فكراً قد يتقدم عليها وكما في الشطرنج وما أشبه .

قلنا : نحن على حرفة النص المختص بالسباق في حقل التدريب الحربي ، ثم القوة الفكرية لا تختص بمثل اللعب بالشطرنج فلها مندوحة في حقول المباحات والراجحات واجبة وسواها ، إضافة إلى أنها فائدة شخصية ، ولكن التدريب للجهاد فائدة جماعية لا مندوحة عن السباق فيها من غيرها .

ثم وبالإمكان أن تخصص أموال لهذه السباقات المشروعة دون أخذ وعطاء بين المتسابقين .

إذاً فلا يعني الاستثناء إلا تقديم الأهم على المهم ، ولا مهمة في سائر الميسر السباق إلا اللهو ، وأما السباق في نطاق الأمر فهو عبادة وليس لهواً حتى يلهمي عن ذكر الله أو يورث العداوة والبغضاء .

ولو أن عبادة ما أورث العداوة والبغضاء فليست بالتي تترك صدأ عنهما حيث المعادي البغيض في حقل العبادة هو خارج عن كتلة الإيمان ! .

إذاً فكل السباقات التي تنحو منحى الحصول على الطاقات والقوات الجهادية ، هي محبورة غير محظورة ، وعمل منها السباق في الحقول العلمية .

والضابطة المستفادة من هذه الآية أن كلما يورث العداوة والبغضاء ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة محرمة كحرمة الخمر والميسر ، اللهم إلا

سورة المائدة / آية ٩٠ - ٩١ ٢٢١

تطبيق المسؤوليات الإسلامية التي قد توجب العداوة والبغضاء في الذين يكرهون تلکم المسؤوليات ، كافرين ومسلمين .

فالاخلافات العلمية من جراء ترك القرآن والإقبال إلى غيره من ضوابط مختلفة لا تتبنى القرآن والسنة ، هذه محرمة ، كما الإقبال إلى غير القرآن لحد يلهي عن القرآن ، هو كذلك محرم .

فالأصل الرباني في شرعة الله هو الإتجاه إلى الله بتوحيده وتوحيده عباده .

ولأن أضرار الخمر تحلق على كافة المجالات الحيوية للإنسان ، روحياً وجسماً ، فردياً وجماعياً ، فلا تحل على أية حال وإن للإستشفاء بها من مرض، وقد روي الأ شفاء فيها، وقد اعترف بأطراف من مضارها القاطعة جمع من غير المسلمين (١) لحد منعوا عن الاستشفاء بها (٢) .

(١) ففي كتاب (خواتر وسوانح في الاسلام) لـ هنري الفرنسي : « ان أحد سلاح يستأصل به الشرقيون وأمضى سيف يُقتل به المسلمون هو الخمر وادخالها ولقد جردنا هذا السلاح على اهل الجزائر فأبنت شريعتهم الاسلامية أن يتجرعوه فتضاعف نسلهم ولو انهم استقبلونا كما استقبلنا قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا كتلك القبيلة التي شربت خمرنا وتحملت أذلاء لنا «وقال بتنام» المقنن الانجليزي « من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فإن من شربها من ابناء افريقيا آل امر نسله للمجنون ، ومن استدامها من اهل اوروبا زاغ عقله ، فليحرم شربها على الأفريقيين وليعاقب عقاباً صارماً الأوروبيون ليكون العقاب بمقدار الضرر » .

(٢) في كتاب لطبيب أمريكي يسمى (كيلوج) منع التداوي بالخمر لأن ضررها في الجسم عند التداوي اكثر من نفعها بالشفاء الموقت لما تفعل في الأمعاء وباقي الأحشاء من الضرر ، وفي كتاب « اليد في الطب » يذكر نحواً من ثلاثين صفحة حول أضرار الخمر .

ويقول العالم الانجليزي (بتنام) في كتابه (أصول الشرايع) ترجمة المرحوم احمد :

فتحى زغلول باشا تحت عنوان : الجرائم الشخصية ما نصه : النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله وفي الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون ، ففي الأول يكتفى بمعاقة الأول على السكر كعمل وحشي وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه بالتشرو وقد حرمت ديانة محمد (ص) جميع المشروبات وهذه من محاسنها . وفي كتاب اليد الطبي تأليف الأستاذ كبلوج تحت عنوان : الاستعمال الطبي للخمر من الصفحة ١٧٥ - الى - ٥٠٤ ومما كتب فيه : إنني لست أبحث في منع الخمر للسكر ، فهذا فرغ منه العلماء ، وإن بحثي اليوم في مضاره الطبية وأن التداوي به يجلب للإنسان أمراضاً لا قبل له بها فإن التداوي به ممنوع طبيّاً وليس فيه أدنى فائدة . وقال الأستاذ (لبيج) إنه إذا اعتدل الانسان في شربه قوي جسمه وأكسبه نشاطاً ، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين وهم الأستاذ للمان والأستاذ بيرن والأستاذ دروى ، ثم الأستاذ ادوارد سميث الانجليزي ، وقد برهن الثلاثة الأول على بطلان ما تقدم بقولهم : إن الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها ، وزاد الأخير بقوله : إنه حلل الدم فلم يجد فيه أدنى شيء من العناصر التي يتركب منها الخمر ، وقال الدكتور ملر الاسكوتلاندي : الخمر لا تشفي شيئاً ، وقال الدكتور هيغنوتوم أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لا أعلم مرضاً قط شفي بالخمر ، وقال الدكتور جونسون الانجليزي : ان الخمر ليس ضرورياً البتة ليستعمل دواء ، وقال في إبطال قولهم : إن الخمر غذاء وأنه يحفظ الجسم أو يقوي العضلات : ما هذه القوة إن هي إلا إسم آخر من اسماء السموم ، فقولنا : فلان نشوان طرب ثمل ، معناه : مسموم وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر أو أي سم آخر من العقاقير السامة التي تعد بالمئات في الجسم فإن جميع الأعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لإخراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط ، وقال في نقض قولهم : إن الخمرة تمنع المرض : إن الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة ، فإذا كان ما تقولون حقاً فأضرار الخمرة أشد من تلك الأمراض فتكاً بالجسم ، فكيف بها إذا كانت لا تشفي منها شيئاً ، فإن تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لا تترك أثراً في النسيج والأثر الحقيقي إنما يكون في النسيج . وقال الدكتور سميث الانجليزي رداً على الأستاذ لبيج : ان الخمرة يخسر بسببها الجسم جزءاً من الحرارة ، بل يزيد ذلك الفقد .

ذلك وفي صحيح مسلم مع شرح الامام النووي ص ٣٦٤ - ان طارق بن -

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٩٢):

« وأطيعوا الله » في محكم كتابه « وأطيعوا الرسول » في سنته الجامعة غير المفرقة : « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » - « واحذروا » من عصيان الله ورسوله « فإن توليتم » عما فرض عليكم « فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين » : لوعي الكتاب والسنة ، والله هو المبلغ عنه ، الواجبة طاعته على أية حال ، فهو المثيب وهو المعاقب .

سويد سأل النبي (ص) عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال : إني أصنعها للدواء ، فقال الرسول (ص) : إنه ليس بدواء ولكنه داء .

ذلك ، وقد أثبت الدكتور (باركس) و (السيرجون هيل) مفتش عام في الجيش البريطاني والدكتور هنري مارتس وآخرون : أن الخمر لا يشفي المرضى ولا ينفع الجسم ، وقال (باركس) في أبطال القول : لا ضرر في الخمر الصافي : إن الخمر الصافي هي سم صاف ، وقد أخذ يبطل القول : أن الخمر يمحو الهم والكسل ويجعل الفقير الذي لا منزل له ولا صاحب يشعر بأنه غني أو ملك أو . . . : أن الإنسان إذا سكر حتى أصبح لا يشعر بما هو عليه وفقد الإحساس ونسي ما هو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية الرفيعة القدر الشريفة المنزلة ، والشعور الشريف الذي تكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية .

ويذكر الصنطاوي الجوهري في تفسيره ١ : ١٩٦ منذ ثمان سنين جاء رجل الى مصر من أعضاء دار الندوة (البرلمان) للسويد والنرويج ، وذكر انه رئيس جمعيات منع الخمر في العالم وانه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا وانجلترا والروسيا والصين واليابان - وكل الحكومات ساعدته - وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه في امريكا حرم خمسة وأربعون مليوناً من اهلها الخمرة على أنفسهم . وقال : إن ولي العهد لبلاد السويد ربي على ألا يشرب الخمر ونحن نفتخر بأنه أول ملك لا يشرب الخمر في أوروبا .

وهنا « فاعلموا » إعلام صارخ بحجة بارعة أخيرة للأسماع الصاغية « أنما » حصراً لكيان الرسول في « على رسولنا البلاغ المبين » وكل بلاغاته حول الخمر طول العهدين كانت مبيّنة رغم تطلّبات الخليفة عمر « اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَّاناً شَافِئاً » ويكأن بيان الله غير شافٍ في سائر الآيات المحرمة للخمر ! .

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩٣) :

هنا يُنفى « جناح » أيّ كان عن « الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيما طعموا » - مضيّاً ، فليس النص « يطعمون » - أيّ كان شرط الإيمان وعمل الصالحات أولاً ، ثم تقوى بعدهما ومعها إيمان وعمل الصالحات ، ثم تقوى وإحسان ، فما هي صالحات هنا بعد صالحات ، ودرجات ثلاث من التقوى ودرجات ثلاث من الإيمان ثم إحسان - أخيراً - بعد درجات التقوى والإيمان ؟ .

هنا « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » منهم هؤلاء الذين كانوا يشربون الخمر قبل هذه الآية ثم انتهوا (١) فلا يبقى عليهم جناحه « إذا ما

(١) في الدر المنثور ٣: ٣٢٠ عن ابن عباس قال : لما نزل تحريم الخمر قالوا يا رسول الله (ص) فكيف باصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر فنزلت « ليس على الذين . . . » وفيه عن البراء بن عازب قال : مات ناس من اصحاب النبي (ص) وهم يشربون الخمر فلما نزل تحريمها قال اناس من اصحاب النبي (ص) كيف باصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فنزلت هذه الآيات ، اقول : لا تعني « لما نزل تحريم الخمر » إلا نزول آية المائدة بهذه الصراحة والتأكيدات دون نزول اصل التحريم حيث سبقتها فيه مكيات ومدنيات ، ولو كان نزول اصل التحريم لما كان جناح على الذين كانوا يشربونها قبل التحريم حتى يسألوا عنهم وتنزل آية براءتهم ! .

سورة المائدة / آية ٩٣ ٢٢٥

اتقوا » الخمر منذ نزول الآية فتركوها فإنها كفارة له ، فكلما يقرب إليه راجح واجباً وسواه ، وكلما يبعد عنه مرجوح محرماً وسواه ، وأصل ثان هو المودة بين المؤمنين على توحيد الله وعبوديته ، فكل ما يورث العداوة والبغضاء بينهم محرم ، اللهم إلا ما هو مفروض يفرضه الله ويرفضه متخلفون عن طاعة الله كافرين ومسلمين .

وهنا « يا أيها الذين آمنوا » تنظيم في حقل الإيمان بعقل الإيمان ، اعتصاماً بحبل الله دون تفرق عنه أو تفرق فيما بينهم ، حيث إن الإيمان هو رمز الوحدة في كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فلا عداوة - إذاً - ولا بغضاء .

وعلى الفارق بينهما أن العداوة هي الباطنة أم هي أعم من الظاهرة ، والبغضاء هي الظاهرة قضية صيغة التفضيل ، فهما العداوة باطنة وظاهرة ، والمفروض بين قبيل الإيمان الاعتصام بحبل الله جميعاً دون أي تفرق .

فالمفروض على المؤمنين تكريس كل طاقاتهم وامكانياتهم في الاعتصام بحبل الله جميعاً ، وسلب كافة التفرقات حتى يسودوا سائر الناس النسناس الذين يتربصون بهم كل دوائر السوء فـ « انتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

فإن تركوا المعصية توبةً فالله يتوب عليهم دون أن يبقى جناح الشرب لزاماً عليهم .

ذلك ، ولأن شرب الخمر ناقض للإيمان فلا بد بعد التقوى عنه من تجديد الإيمان وعمل الصالحات التي تصلح لجديد الإيمان ، ومن ثم تقوى ثانية على منها التقوى في التصميم بعد التقوى في ترك الشرب حتى تكون توبة نصوحاً ، فإن مجرد الترك لا يستلزم واقع الترك إلا بتصميم عليه ، وإيمان ثان بعد جديده يتبنى ذلك التقوى ، ثم تقوى في التصميم

بعد التصميم فإن من التصميم ما هو غير صميم ، وأخيراً « أحسنوا » إحساناً لمراتب الإيمان وعمل الصالحات والتقوى ، مما يدل على غلظ الحرمة في الخمر وأخواتها حيث يبقى جناحها لولا هذه التنقيتات .

ومن هنا نتبين أن هذه المذكورات في هذه الآية كانت محرمة طول العهد الرسولي مكيًا ومدنيًا ، ولم تكن لأحد عاذرة في شرب الخمر واقتراف أخواتها ، فإن كرور الآيات هنا وهناك مراراً وتكراراً كانت تمنع عنها بأشدّ مهما اختلفت صيغ التحريم ، حتى وصلت إلى ذلك التهديد الحديد « فهل أنتم متتهون » مهما لم تنتهوا طوال كرور الآيات المذكورات الناهيات بمختلف التعبيرات .

وهنا « ما طعموا » تعم طعم عوائد الميسر وذبائح الأنصاب والأزلام إلى طعم الخمر ، حيث الشرب طعمٌ مهما لم يكن كل طعم شرباً ، وكما في مثل « ومن لم يطعمه إنه مني » فالعبارة الصالحة لجامع شرب الخمر وطعم الثلاثة الأخرى هي « طعموا » .

ف« لا جناح » هنا وجاه « فهل أنتم متتهون » هناك تبين كبيرة عدم الإنتهاء والعفو عن المنتهين بتلك الشروط المسرودة التي لا نظيرة لها في شروطات التوبة في سائر الكبائر ، مما يدل على أن هذه الأربعة هي من أكبر الكبائر .

ذلك ، فليس نفي الجناح هنا فيما طعموا تحليلاً للمحرمات قضية أنهم آمنوا وعملوا الصالحات واتقوا واحسنوا ، فإن قضيتها-وبهذه التأكيدات المتكررة-ترك المحرمات دون إقترافها حيث القضية لا تحمل نقيضها ، وإنما ينفي الجناح عن المؤمنين الصالحين شرط أن يكفروا عما طعموا فيما سبق من حرام إذا طعموه ، أم يتركوه مهما لم يطعموه ، تحليلاً للمأكولات

المحللة ككل ، وتوبة على الذين أكلوا محرّمات ثم تابوا هكذا توبة نصوح (١).

ذلك ، والتقوى بحالها قضيتها العليا ترك امهات المعاصي وهذه الأربع هي من اكبر كبائرها ، فكيف تجتمع مع طعم الخمر بعد تحريمها بهذه التأكيدات الوطيدة ، ولا نجد تأكيدات وتنديدات بكبيرة مثل ما نجدتها في الخمر والميسر ، واليكم نصوصاً من امير المؤمنين ومولى المتقين إيضاحاً لما ورد في القرآن من قضايا التقوى وصفات المتقين فضلاً عما في آيتنا من مثلث التقوى والايمان ومثنى عمل الصالحات وموحد الإحسان الذي يجمع في خضمه مثلث الايمان والتقوى وعمل الصالحات :

« فاتقوا الله عباد الله ، وفروا إلى الله من الله ، وامضوا في الذي نهجه لكم ، وقوموا بما عصبه بكم ، فعلي ضامن لفلجكم أجلاً ، إن لم تمنحوه عاجلاً » (الخطبة ٢٧ / ٧٥) - « أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقى وأما الإمرة الفاجرة فيمتنع فيها الشقي » (٩٩ / ٤٠) - « فاتقى عبدي ربه ، نصح نفسه ، وقدم توبته ، وغلب شهوته » (١٨٨ / ٦٢) (٢).

(١) الدر المنثور ٣: ٣٢١ - اخرج ابن ابي شيبة وابن المنذر من طريق عطاء بن السائب عن محارب بن دثار أن ناساً من اصحاب النبي (ص) شربوا الخمر بالشام فقال لهم يزيد بن ابي سفيان شربتم الخمر؟ فقالوا: نعم ، لقول الله « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا . . . » فكتب فيهم الى عمر فكتب إليه إن أذاك كتابي هذا نهراً فلا تنتظر بهم الليل وإن أذاك ليلاً فلا تنتظر بهم النهار حتى تبعث بهم إلي لا يفتنوا عباد الله فبعث بهم إلى عمر فلما قدموا على عمر قال : شربتم الخمر؟ قالوا : نعم فتلا عليهم : « انما الخمر والميسر . . . » قالوا : اقرأ التي بعدها « ليس على الذين آمنوا . . . » قال : فشاور فيهم الناس فقال لعلي ما ترى؟ قال : أرى أنهم شرعوا في دين الله ما لم يأذن به الله فيه فان زعموا انها حلال فاقتلهم فقد أحلوا ما حرم الله وان زعموا انها حرام فاجلدوهم ثمانين ثمانين .

(٢) و « أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب الأمثال ، ووقت لكم الآجال ، وألبسكم -

فهذه شريعة من التقوى وإليكم جماعها من إمام المتقين ويعسوب الدين حيث يصف المتقين عن بكرتهم لمن يستوصفهم^(١):

الرياش ، وأرفع لكم المعاش ، وأحاط بكم الإحصاء ، وأرصد لكم الجزاء ، وآثركم بالنعم السوابغ ، والرّفد الروافغ ، وأنذركم بالحجج البوالغ ، فأحصاكم عدداً ، ووظّف لكم مدداً ، في قرار خبرة ، ودار عبدة ، انتم مختبرون فيها ، ومحاسبون عليها « (١٣٧/١/٨١) - « أوصيكم بتقوى الذي أعذر بما أنذر ، واحتج بما نهج ، وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً ، ونفث في الأذان نجياً ، فاضل وأردى ، ووعد فمّنّى ، وزين سيّات الجرائم ، وهوّن موبقات العظائم » (١٤٥/٢/٨١) - « عباد الله إن تقوى الله حمت أوليائه محارمه ، وألزمت قلوبهم مخافته ، حتى أسهرت ليلاليهم ، وأظلمات هواجرهم ، فأخذوا الراحة بالنصب ، والرّي بالظلم ، واستقربوا الأجل ، فبادروا العمل ، وكذبوا الأمل ، فلاحظوا الأجل » (٢٢٠/١١٢) - « أبن العقول المستصبحة بمصابيح الهدى ، والأبصار اللامحة إلى منار التقوى ، ابن القلوب التي وهبت لله ، وعوقدت على طاعة الله » (٢٥٦/١٤٢) - « ألا وبالتقوى تقطع حُمة الخطايا » (٢٧٧/١٥٥) - « فاتقوا الله تقيّة من سمع فخشع ، واقترف فاعترف ، ووَجَل فعمِل ، وحاذر فبادر ، وأيقن فأحسن ، وعَبّر فاعتبر ، وحذّر فحذّر ، وزجر فازدجر ، وأجاب فأناب ، وراجع فتاب ، واقتدى فاحتذى ، وأري فرأى ، فأسرع طالباً ، ونجا هارباً ، فأفاد ذخيرة ، وأطاب سريرة ، وعمر معاداً ، واستظهر زاداً ليوم رحيله ووجه سبيله وحال حاجته وموطن فاقته ، وقدم أمامه لدار مُقامه ، فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له ، واحذروا منه كُنه ما حذركم من نفسه ، واستحقوا منه ما أعدّ لكم بالتنجّز لصديق ميّعاده ، والحذر من هول معاده » (١٤١/٢/٨١) - « فاتقوا الله عباد الله ، تقيّة ذي لب شغل التفكير قلبه ، وأنصب الخوفُ بدنه ، وأسهر التهجد غرار نومه ، وأظلم الرجاء هو اجر يومه ، وظلف الزهد شهواته ، وأوجف الذكر بلسانه ، وقدم الخوف لأمانه ، وتنكب المخالجات عن وضوح السبيل ، وسلك أقصد المسالك إلى النهج المطلوب ، ولم تفتله فاسلات الغرور ، ولم تعم عليه مشتبهات الأمور » (١٤٤/٢/٨١).

(١) هذه الخطبة اجابة لهمام صاحب له (ع) حين قال: يا أمير المؤمنين صف لي المتقين ..

«أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معاشهم ، ووضعهم من الدنيا مواضعهم .

فالمثقون فيها هم أهل الفضائل ، منطلقهم الصواب ، وملبسهم الإقتصاد ، ومشيمهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا اسماعهم على العلم النافع لهم ، نُزِلَتْ انفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء ، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين ، شوقاً إلى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشروورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة ، تجارة مربحة يسرها لهم ربهم ، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلون ترتيلاً ، يُحزنون به أنفسهم ، ويستشيرون به دواء دائهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً ، وظنوا انها نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم ، فهم حائسون على أوساطهم ، مفترشون لجباههم وأكفهم ورُكَبهم وأطراف أقدامهم ، يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم ، وأما النهار فعُلمااء علماء أبرار أتقياء ، قد براهم الخوف بَرِّي القِداح ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من

= حتى كاني أنظر إليهم فتناقل (ع) ثم قال : يا همام « اتق الله وأحسن » فـه ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » فلم يقطع فخطب (ع) هذه الخطبة فلما انتهت صعد همام صعدة كانت نفسه فيها .

مرض ، ويقول لقد خولطوا ولقد خالطهم أمر عظيم ، لا يرضون من أعمالهم القليل ، ولا يستكثرون الكثير ، فهم لأنفسهم متهمون ، ومن أعمالهم مشفقون ، إذا زُكِّي أحد منهم خاف مما يقال له فيقول : أنا أعلم بنفسي من غيري ، وربّي أعلم بي مني بنفسي ، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني أفضل مما يظنون ، واغفر لي ما لا يعلمون ، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين ، وحزماً في لين ، وإيماناً في يقين ، وحرصاً في علم ، وعلماً في حلم ، وقصداً في غنى ، وخشوعاً في عبادة ، وتجملاً في فاقة ، وصبراً في شدة ، وطلباً في حلال ، ونشاطاً في هدى ، وتحرّجاً عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمسي وهمه الشكر ، يبيت حذراً ويصبح فرحاً ، حذراً لما حذر من الغفلة ، وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة ، ان استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب ، قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى ، يمزج الحلم بالعلم ، والقول بالعمل ، تراه قريباً أمله ، قليلاً زلله ، خاشعاً قلبه ، قانعاً نفسه ، منزوراً أكله ، سهلاً أمره ، حريزاً دينه ، ميّته شهوته ، مكظوماً غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون ، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين ، وإن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين ، يعفو عن ظلمه ، ويُعطي من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشه ، ليناً قوله ، غائباً منكروه ، حاضراً معروفه ، مقبلاً خيره ، مُدبراً شره ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغض ، ولا يائس فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه ، لا يُضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذُكّر ، ولا ينابز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصائب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق ، إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعلّ صوته ، وإن بغي عليه صبر ، حتى يكون الله هو الذي ينتقم له ، نفسه منه في عناء والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من

نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة
ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة » (الخطبة ١٩١ / ٣٧٦) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلْبِسُوا إِلَيْكُمْ اللّهُ بَشِيءٌ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ
وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴾ (٩٤) :

هنا « يا أيها الذين آمنوا » دون خصوص الحُرْم ، و « بشيء » من
الصيد « دون تقييد بصيد الحرم قد تدل على الحظر عن الصيد كأصل ،
فأصله محظور والإعتداء فيه أشد حظراً حيث « فله عذاب أليم » .

فحين تنال الصيد الأيدي والرماح بسهولة فهنا الإبتلاء ، فليس لغير
المحتاج إليه أن يناله على وفرة ، وليس للمحتاج أن يناله أكثر من سؤله^(١)
كما وليس للحُرْم نيلٌ منه على أية حال ، فطالما البلوى بالصيد الوفير لغير
الحُرْم غير خطير ، فهي للحُرْم خطير خطير^(٢) .

وطالما صيد اللهو حيث لا يُعنى إلا إيهاء حرام على أية حال ، فمطلق
صيد البر حرام على الحُرْم على أية حال مهما كان لحاجة ، وهذه الآية تبين
حرمة الصيد كأصل ثم التالية تغلظ جرمته وأنتم حرم .

وهنا مواصفة « الصيد » بـ « تناله أيديكم ورماحكم » دليل اختصاصه
بصيد البر ، وكما في آيات عدة .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٧١ في الكافي علي بن ابراهيم عن ابن ابي عمير عن حماد عن
الحلي قال سألت ابا عبد الله (ع) عن قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا
ليلبسواكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم » قال : حشر عليهم الصيد في كل
مكان حتى دنا منهم ليلبسهم الله به .

(٢) المصدر عن ابي عبد الله (ع) في الآية قال : حشرت لرسول الله (ص) في عمرة
الحديبية الوحوش حتى نالتها أيديهم ورماحهم .

ذلك « ليعلم الله » علماً منه علامة عليكم لا علماً : معرفة « من يخافه بالغيب » الطليق بذاته ، فإنه حاضر بآياته ، و « بالغيب » عن الناس ولكنه ليس إلا في صيد بالغيب .

« فمن اعتدى بعد ذلك « البلاء أن يصيد دون مبرر أو ان يعتدي في الصيد المحظور » فله عذاب اليم » ولا سيما فيما يصيد تلاعباً بحياة الصيد دونما حاجة إليه فانه ظلم خالص كالس .

وهنا « بشيء من الصيد » تعم إلى قسم من نوع الصيد وهو البري ، قسماً من أي صيد بري كالفروخ والبيض حيث تناله الأيدي على أية حال .

وقد يلمح ذلك التهديد الشديد ببلوى الصيد أنه كان في السنة محرماً كأصل ، وإلا فلا دور للتهديد عن الصيد ولما يأت النهي عنه ، وهكذا تتأيد الروايات الناهية عن صيد اللهو ، فقد امتحن الله هذه الأمة بصيد البر ولا سيما وهم حُرْم ، كما امتحن بني اسرائيل بصيد البحر « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » (١٦٣: ٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَفَّةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ (٩٥) :

لقد مضى قول فصل حول « الصيد وأنتم حرم » في الآية الأولى من المائدة ، ومنه أن « حرم » تعني إلى حالة الإحرام الكون في الحرم ، فإيلا إن كان الصيد في كلتا الحالتين ! وهنا محور النهي هو قتل الصيد متعمداً دون الآية الأولى الطليقة في حرمة الصيد بكل المحاولات الإيجابية بحقه ، وعلل الاختصاص هنا لبيان الجزاء الخاص ، فليس في غير قتله

عمداً ذلك الجزاء قضية النص الخاص لموضوعه وهو القتل المعمد .

وطليق « الصيد » هنا حقيق للدلالة على حرمة قتل أي صيد ، من محرم اللحم ^(١) إلى محلله ، بل وعمل المحرم الأكل أشد محظوراً من محلله حيث لا يبرره جل أكله على أية حال ، اللهم إلا ما يصاد لغير الأكل من المنافع المحللة ، فما يُصاد دون أي نفع فمحظور صيده على أية حال وإن لم تكونوا « حرماً » فإنه إيذاء وظلم دون أي مبرر ، تلاعباً لاغياً بحياة حيوان لا يضررك ولا ينفعك .

إذا فقتل هكذا صيد وأنت محرم في الحرم يحمل ثالوثاً من المحظور بل وزيادة هي اللهو في الصيد فإنه محرم في غير الحاجة الحيوية .

وهل يضاعف الجزاء في قتل الصيد محرماً في الحرم ؟ طليق « فجزاءه » الراجع إلى طليق القتل متعمداً ، هو كالنص في وحدة الجزاء

مركز تحقيق كتاب تيسير علوم إسلامي

(١) كما في صحيح معاوية « إذا احرمت فائق قتل الدواب كلها إلا الأفعى والعقرب والفارة فإنها توهمي السقاء وتضرم أهل البيت وأما العقرب فإن نبي الله مديده إلى حجر فلسعته العقرب فقال : لعنك الله لا تذرني برأ ولا فاجراً والحية إذا ارادتك اقتلها وإذا لم تردك فلا تردّها والكلب العقور والسبع إذا أرادك فاقتلها فإن لم يردك فلا تؤذها والأسود الغدر فاقتله على كل حال وارم الحوأة والغراب رمياً على ظهر بعيرك » (الكافي ٧٧: ١) وفي صحيح حرير « كل ما خاف المحرم على نفسه من السباع والحيات وغيرها فليقتله ولو لم يردك فلا تردّه » (التهذيب ٥٥١: ١ والاستبصار ٢٠٨: ٣ والكافي ٣٦٣: ٤) وصحيح الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال : لا تستحلن شيئاً من الصيد وأنت حرام ولا أنت حلال في الحرم ولا تدلن عليه محلاً ولا محرماً فيصطاده ولا تشر إليه فيستحل من اجلك فإن فيه الفداء لمن تعمدّه » (الكافي ٣٨١: ٤) .

أقول : فاستثناء هذه المذكورات دليل حرمة غيرها من الصيد ولا سيما « شيئاً من الصيد » الشامل لكل صيد .

فالصحاح الواردة في المضاعفة ^(١) غير صحاح إلا أن تُحمل على الرجحان .

والقول إن الصيد هو المحلل فقط لا والمحرم ، بحجة أنه لا ضمان في قتل الضاريات ، مردود بأنه مخصص بدليل ، كما الاستدلال بـ « أحل لكم صيد البحر . . وحرم عليكم صيد البر ما دتم حرمًا » إعتباراً بحل صيد البحر مطلقاً وحيوان البحر يعم المحلل والمحرم ! وحل صيد البر خارج الإحرام كذلك ! هو كذلك مردود بأن المحلل من الصيد لا يختص بحل الأكل برأً وبحراً ، وأن صيد البر لهواً محرم في حقل المحللات ، والصيد هو كل وحشي غير أهلي لا تصل إليه الأيدي بصيده ، وطلاق الصيد يشمل المحرم أكله إلى المحلل ، ما فيه منافع أخرى أم ليست .

« ومن قتله منكم متعمداً » وتعمد القتل حالة الإحرام والحرم المحظور فيهما القتل يلمح بشرط العلم بالإجرام والحرم كالعلم بالحرمة وقصد القتل مع العلمين ، كما و « ليزوق وبال أمره » ثم « ومن عاد فينتقم الله منه » تؤيدان شرط العلم بالإحرام والحرم إذ لا وبال ولا انتقام في قتل الصيد في غير الإحرام والحرم إلا لهواً وهنا المحظور المعاقب عليه هو قتل الصيد وأنتم حرم مطلقاً ، فما لم تجتمع أعمدة العمدة الثلاث لم يحكم على القاتل بالجزاء .

إذاً فالجاهل بالحرم أو الإحرام ، كالجاهل الحرمة إلى غير العامد في

(١) مثل قول الصادق (ع) على المحكي في الحسن الصحيح عن معاوية بن عمار : ان أصبت الصيد وأنت حرام في الحرم فالفداء مضاعف عليك وان أصبته وأنت حلال في الحرم فقيمة واحدة وأنت أصبته وأنت حرام في الحل فانما عليك فداء واحد » (الكافي ٤ : ٣٩٥) والموثق عنه (ع) وان أصبته وأنت حرام في الحرم فعليك الفداء مضاعفاً . (التهذيب ١ : ٥٥٣) .

القتل ، هم شركاء ثلاث في الخروج عن « متعمداً » فالروايات الواردة خلاف ذلك مأولة أو مطروحة ^(١) .

ثم « فجزاء مثل ما قتل من النعم » تعني مماثلة الجزاء من النعم لما قتل من الصيد ، فإن كان في النعم ما يماثل المقتول فليقتل كفارة عما قتل ، وإن لم يكن مماثل إلا أقل منه أو أكثر جسماً وقيمة فليقتل الأقل ويدفع بقية الثمن لأهله ، وليدفع قيمة الصيد المقتول في الأكثر ، فالمماثلة هي المفروضة عيناً وقيمة ، وإلا فقيمة .

ففي حمار الوحش أو بقره حمار أهلي أو بقر ، وفي الظبي شاة ^(٢)

(١) وفي نور الثقلين ١: ٦٧٣ في مجمع البيان : فأما إذا قتل الصيد خطأ أو ناسياً فهو كالمتعمد في وجوب الجزاء عليه وهو مذهب عامة أهل التفسير وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام ، وفيه ٦٧٨ في تهذيب الأحكام عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا أصاب المحرم الصيد خطأ فعليه الكفارة فإن أصابه ثانية خطأ فعليه الكفارة ابداً إذا كان خطأً فإن أصابه متعمداً كان عليه الكفارة فإن أصابه ثانية متعمداً فهو ممن ينتقم الله ولم يكن عليه الكفارة .

(٢) في صحيح حريز عن الصادق (ع) في قول الله عز وجل « مثل ما قتل » في النعامة بدنة وفي حمار الوحش بقرة وفي الظبي شاة وفي البقرة بقرة » (التهذيب ١: ٥٤٤) وفي صحيح زرارة وابن مسلم في محرم قتل نعامة عليه بدنة فإن لم يجد فاطعام ستين مسكيناً وإن كانت قيمة البدنة أقل من اطعام ستين مسكيناً لم يكن عليه إلا قيمة البدنة » وفي صحيح أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد الله (ع) قال : إذا أصاب المحرم الصيد ولم يجد ما يكفر من موضعه الذي أصاب فيه الصيد قوم جزاءه من النعم دراهم ثم قومت الدراهم طعاماً لكل مسكين نصف صاع فإن لم يقدر على الطعام صام لكل نصف صاع يوماً » (الكافي ٤: ٣٨٧ والتهذيب ١: ٤٠٣) أقول : نصف الصاع محمول على الرجحان لما قدمناه من لمحة الآية وصحيح ابن عمار عن الصادق (ع) من أصاب شيئاً فداه بدنة من الأبل فإن لم يجد ما به يشتري بدنة فأراد أن يتصدق فعليه أن يطعم ستين =

وهكذا ، ولأن المماثلة العادلة بحاجة إلى خبروية عادلة ، إذاً فـ« يحكم به ذوا عدل منكم » بالمماثلة .

ذلك ، وليكن المماثل « هدياً بالغ الكعبة » مما يدل على وجوب المماثلة العينية ، فلا تكفي القيمة ما أمكنت تلك المماثلة ، و« بالغ الكعبة » تعني البلوغ المناسب للكعبة وهو قربها خارجها وخارج المسجد الحرام ، وكما في « ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام » حيث يعني الحرم .

«أو كفارة طعام مساكين» وهي طبعاً فيما لا يسطع على المماثل عيناً أو قيمة ، ويطبق « مساكين » يُطلق واجب الإطعام في طليق الجمع ، وهو بطبيعة الحال قَدْر المستطاع .

ثم « أو عدل ذلك صياماً » حين لا يسطع على ذلك الطعام ، وأقل العدل في عدل ذلك عدل ثلاثة مساكين وهو ثلاثة أمداد ، كما وهي كفارة ثلاثة أيام من الصيام في أقلها ، ليطبق « كفارة » الشامل لأقلها دون أكثرها وأوسطها .

ذلك و« ليدوق وبال أمره » حيث جاء بالمحظور المحظور ، صيد بقتله وهو من الحُرْم .

وهنا « عفا الله عما سلف » يختص بمن أدى الكفارة الواجبة ، فـ« ومن عاد ينتقم الله منه » تلمح أن ليست في العدد كفارة ، لأنه عصيان كبير كبير لا تمحيه وتكفره أية كفارة إلاّ النعمة الربانية بعد الموت ^(١) « والله عزيز ذو

= مسكيناً لكل مسكين مد فإن لم يقدر على ذلك صام مكان ذلك ثمانية عشر يوماً مكان كل عشرة مساكين ثلاثة أيام » (التهذيب ١ : ٥٤٥) .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٧٨ في الكافي عن أبي عبد الله (ع) في محرم أصاب صيداً ؟ قال : عليه الكفارة قلت : فإن أصاب آخر ؟ قال : إذا أصاب آخر فليس عليه كفارة وهو ممن قال الله تعالى : « ومن عاد فينتقم الله منه » .

انتقام » ، ولأن الكفارة توبة عملية حيث تكفر الخطيئة، والعائد هنا مهدد بالانتقام دون أية كفارة ، فذلك دليل على أنه ليس في العود المعمد كفارة .

﴿ أَجَلٌ لَّكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٩٦) :

هنا « صيد البحر - و - صيد البر » تعنيان المصدر والصادر من البحر : عمل الصيد ونفس الصيد ، مهما كان حل الأكل أم سائر الحل ، ثم « وطعامه » تختص بحل طعامه ، سواء أكان طعام الصيد وهو الجِلُّ أكله منه ، أم طعام البحر دون صيد وهو ما يلقيه البحر بأواجهه دون صيد (١) مما يدل على عدم إختصاص الحل في طعام البحر بصيده ، خرج الميت في الماء صيداً وغير صيد ، كما خرج غير السمك والروبيان بقاطع السنة اللهم إلا ما ليس له فلس .

إذا فصيد البحر طليق في جِلِّه ، في جِلِّه وإحرامه ، في حاجته ولهوه ، اللهم إلا ما لا يستفاد منه اطلاقاً فغير حلٍ لمكان « متاعاً لكم وللسيارة » ، وللإيذاء والتبذير ، وإلا ما خرج بقاطع السنة من أكل غير السمك الأملس غير المفلس والروبيان .

وتحريم صيد البر ما دمتم حرماً بتحريم عميم وأنتم حرم ، وجه الحل المشروط وأنتم غير حرم ، وهو شرط الحاجة متاعاً وعدم اللهو في صيده ، ثم « واتقوا الله الذي اليه تحشرون » تعني عامة التقوى في سائر الحقول

(١) الدر المشور ٢ : ٣٣١ - اخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) :

« احل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم » قال ما لفظه ميتاً فهو طعامه ، أقول : يعني لفظه دون صيد ومات خارجه .

إلى خاصة التقوى في حقل الصيد برأ وبحراً ، فما دل دليل من قاطع الكتاب والسنة على حله كان جلاً ، أم على حرمة كان حراماً ، وفي العوان بينهما عوان حكمه الحل للضوابط الفوقية العامة في حل كل شيء إلا ما أخرجه الدليل كـ « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً » ، وهنا « حرم عليكم ما دتم حراماً » كما تحرم صيد البر على الحرم كذلك تلمح بحله لغير الحرم ، فقد يجوز أكل صيد البر من الحرم لغير الحرم ، لاختصاص حرمة بالحرم .

ولأن إحلال صيد البحر وطعامه طليق ففيما يشك كونه من المحرم المستثنى نرجع إلى ذلك الإطلاق فجعل كالسماك التي نشك أنها من ذوات الفلوس لكون حاضرها ملساء فيما احتمال كونها ذوات فلوس واردة أنها ذهبت عبر المنازعات ، وأما التي لا أثر عن الفلوس فيها ولا تحت آذانها فهي شاردة عن ذلك الإحتمال اللهم إلا إذا كانت من الصنف الذي لا فلس تحت آذانها وهي قليلة الفلوس في مظاهرها وخفيقتها لحد تذهب عبر الإصطكاكات البحرية وسباقاتها بين الرفاق أو المتنازعات .

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ

الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ

وَالْقَلْبَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨﴾

مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
 وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ
 وَلَوْ أَجَبَك كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ۚ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن
 أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ
 الْقُرْءَانُ تُبَدَّ لَكُمْ ۚ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٩٨﴾
 قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿٩٩﴾
 مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
 وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَثُرُهُمْ
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ
 وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ۖ
 أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠١﴾
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسُكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُمْ مِّن ضَلَّ
 إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا
 حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتَيْنَا ذَوَا عَدْلٍ
 مِنْكُمْ أَوْ ءَانَحَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ
 فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِءَ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ
 ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَمِينِ ﴿١٠٦﴾
 فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَانَحَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا
 مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ
 لَشَهِدْتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِيهِمَا وَمَا أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ أَذَقْنِي أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا
 أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

وَالْقَلِيلَ ذَلِكَ لِنَعْلَمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ :

هنا في « الكعبة البيت الحرام » بما « جعل الله » قياماً للناس تحمل قيامات فيها قوامات للناس في مناسك الحج والعمرة التي هي إشارات إلى كل هذه القيامات .

فلقد « جعلها الله لدينهم ومعاشهم »^(١) فهي قيام لهم وقوام لدينهم ومعاشهم حيث تتلاقى عندها مختلف جماهير المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها ، فليجعلوا أمرهم في الدين والدنيا شورى بينهم حتى يحصلوا على حصالة من صالحة الآراء والتصميمات لصالح دينهم ودنياهم ، إصلاحاً لسلطتهم الزمنية والروحية ، وتوحيداً لهما في الشورى الصالحة بين الرعيلى الأعلى من الربانيين .

فالحج مؤتمر ومتنبدب لا تنوب عنه أية عبادة أخرى أو صدقة^(٢) ، إذا كان حجاً فيه قيام للناس ، دون مجرد مناسك لا يعرفون معناها ومغزاها ، فـ « من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه »^(٣) .

وهنا « جعل » جعل تشريعى لذلك القيام للناس وجاه النسناس ، فكما للنسناس مؤتمرات يوحى فيها بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ،

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨٠ عن ايان بن تغلب قال : قلت لأبي عبد الله (ع) جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس قال : ...

(٢) المصدر ٦٨٠ في كتاب علل الشرائع بإسناده الى عبد الرحمن بن ابي عبد الله قال قلت لأبي عبد الله (ع) ان ناساً من هؤلاء القصاص يقولون : إذا حج رجل حجة ثم تصدق ووصل كان خيراً له ؟ فقال : كذبوا لو فعل هذا الناس لتعطل هذا البيت ان الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس .

(٣) نور الثقلين ١ : ٦٨٠ عن مجمع البيان هو المروي عن ابي عبد الله (ع) .

ويدرسون فيها شيطانات على الناس يحققونها فيهم في كافة الأبعاد الحيوية الإنسانية والاسلامية .

كذلك على الناس القائمين بشريعة الحق الهائمين في الإيمان بالحق أن يحققوا كفاحاً صارماً ضد النسناس الخناس ، فضحاً لخططهم الساحقة الماحقة للحق وأهله ، وخير مؤتمر لذلك القيام والإقدام هو مؤتمر الحج السنوي بعد مؤتمر الجمعة الأسبوعي ، ومؤتمرات صلوات الجماعة .

و « الكعبة » هي المربعة المرتفعة من كل شيء ، ثم أصبحت علماً للكعبة المباركة ، الموصوفة هنا بـ « البيت الحرام » وهي بيت الله الحرام ، حرمة الإحترام دون أي إخترام ، ومن حرمتها حرمة الصيد « وأنتم حرم » أمناً لكل ذي حيات بل والنبات اللهم إلا الخطر فمقابلة بالمثل .

ذلك ، وكل محرمات الحرم إلى محرمات الإحرام هي من حرمة الكعبة البيت الحرام « قياماً للناس » لخلق أجواء الأمن .

وهنا محور « قياماً للناس » هو الكعبة المباركة ويلحقها زماناً « الشهر الحرام » وهو الأشهر الحرم الخمس جمعاً بين ثلاثة الحج وأربعة القتال بترك المتكرر بينهما، وهذه الخمس هي « محرم - رجب - شوال - ذي القعدة - ذي الحجة » كما فصلناه في بداية المائدة ، ومن ثم في مناسك الحج: « الهدى والقلائد » .

في كل هذه الأربعة يكمن « قياماً للناس » ففي الهدى والقلائد قيام للناس المطعمين في سماحة الإنفاق وفي رمز الفداء ، وللناس المطعمين في شبعهم من اللحم وعلى حد قول الرسول (ص): « إنما جعل الله هذا الأضحية لتشبع مساكينهم من اللحم فأطعموهم منها » .

وأما إذا تهدرت هذه اللحوم حرقاً أو دفناً فهناك الطامة الكبرى ، قياماً

للنسناس الضاحكين علينا أغنياء وفقراء ، وعوداً لنا عن تطبيق حكم الله أغنياء وفقراء^(١) .

في كل هذه قيام للناس في الحفاظ على أنفسهم وسماحتهم وشجاعتهم وخلقها الطيبة ، تمرناً على صالح الأقوال والأعمال وأمن الحياة وطمأنتها .

ولقد ألقى الله في قلوب العرب منذ جاهليتهم فضلاً عن إسلامهم حرمة هذه الأشهر فكانوا لا يروعون فيها نفساً ولا يطلبون فيها دماً ولا يتوقعون فيها ثأراً حتى كان الرجل يلقي قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه ، فكانت مجالاً فاسحاً آمناً لكل الناس ، ولا سيما العائشين الحرم المبارك المكي .

فكما الحرم منطقة أمن من حيث المكان ، كذلك الشهر الحرم منطقة أمن من حيث الزمان ، ولا سيما حين يتلاقيان فيتلافيان كل ما يسبب اللأمن ، وجعل الهدى والقلائد أمنة من كل أذى للمهدين والمقلدين ، وكل هذه من خلفيات الحرمة البالغة المدى لـ «الكعبة البيت الحرام» حيث جعلت بشعائرها الزمانية والمكانية والعملية «قياماً للناس» فيما يتوجب عليهم أو يرجح لهم فيه قيام للناس وجاه النسناس، فالكعبة البيت الحرام هي منطقة أمان في المكان والزمان لا للإنسان فحسب بل وللنبات والحيوان أيضاً نفسياً وفي ضمير الإنسان ، منطقة أمان في مصطرع الحياة الثائر الفائر الطاغى بشواظه الشذاذ وبدخانته على المكان والزمان ، حتى ليتخرج الحرم أن يمدوا أيديهم إلى أي ذي حياة اللهم إلا ما يزهد في الحياة أو يخرجها .

ذلك ، وقد نستشعر من كل مناسك الحج قيامات فردية وجماعية اسلامية ، لو أن حجاج البيت استشعروها وطبقوها لأصبحوا بسائر

(١) لمعرفة واسعة حول واجب الأضاحي راجع الفرقان ١٧ : ١٠٤ - ١١٩ ورسالتنا الفارسية (اسرار مناسك - أدلة الحج) .

الملتحقين بهم قضية الخلفية الصالحة لهذه الإستشعارات والقيامات ، لأصبحوا أصحاب طاقات في كافة الحيويات الإسلامية ، علمية - عقيدية - خُلُقِيَّة - سياسية - اقتصادية وحربية أماهيه من قيامات فيها قوامات لدولة موحدة إسلامية سامية تستقل أمام سائر القدرات التي امتلكت الأرض بمن عليها .

« ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض » ولعلمه المحيط بكل شيء يريد ليجعلكم تحيطون على مختلف الطاقات نتيجة ذلك المؤتمر ، فليعلموا أنه تعالى يعلم طبائع الإنسان بسؤله أياً كان فيقرر شرعته تلبية لكل سؤال له صالح وزيادة لا يعلمها إلا الله .

وقد تلمح « لتعلموا » هنا أن الحج يضمن في مشاعره كل جنبات شرعة الله فقد قال الله فيه بصورة مجملية وإشارات عملية كل ما أراد أن يقوله لكافة المكلفين إلى يوم الدين .

ذلك ، فقد « فرض عليكم حج بيته الحرام الذي جعله قبلة للأنام ، يردونه ورود الأنعام ، وبألّهون إليه ولوه الحمام ، وجعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته ، وإذعانهم لعزته ، واختار من خلقه سُماعاً أجابوا إليه دعوته ، وصدقوا كلمته ، ووقفوا مواقف أنبيائه ، وتشبهوا المطيفين بعرشه ، يُحرزون الأرباح في متجر عبادته ويتبادرون عنده موعد مغفرته ، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً ، وللعائدين حرماً ، فرض حقه ، وأوجب حجّه ، وكتب عليكم وفادته فقال سبحانه : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » (الخطبة ١ / ٣٥) .

« ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً ، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض

حَجَرًا ، وأقل نتائق الدنيا مدرأ ، وأضيق بطون الأودية قطراً ، بين جبال خشنة ، ورمال دمة ، وعيون وشلة ، وقوى منقطعة، لا يزكوا بها خف ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يشنوا عطاياهم نحو فصار مثابة لمنتجع أسفارهم ، وغاية لملتقى رحالهم ، تهوي إليه ثمار الأفئدة ، من مفاوز قفار سحيقة ، ومهاوي فجاج عميقة ، وجزائر بحار منقطعة ، حتى يهزوا مناكبهم ذُللاً يهللون لله حوله ، ويرملون على أقدامهم شعثاً غبراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوَّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم ، ابتلاءً عظيماً وامتحاناً شديداً واختباراً مبيناً وتمحيصاً بليغاً ، جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته « (٣٦٤/٢/١٩٠) ».

انتباهة ضافية :

وهنا توافقات بين مختلف الزمن سنة وشهراً وأياماً ، فـ « إن عدة الشهور عند الله إثني عشر شهراً في كتاب الله » (٢٦: ٨) توافق تكرار عديد الشهر في كتاب الله إثني عشر مرة ، ثم لفظ اليوم بمختلف صيغه تكرر (٣٦٥) مرة عديداً أيام السنة ، ثم نجد لفظ اليوم جمعاً (٢٣) مرة ومثنى (٣) مرات وبلفظ « أياماً » (٤) مرات والمجموع (٣٠) عدد أيام الشهر في الأكثر .

فهل إن هذا تناسق لاغ أم هو قاصد كما في سائر التناسقات القرآنية التي لم يكشف العلم عنها النقاب حتى الآن ؟!

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٩٨) :

هذا تحذير عن كل تهذير وتهذير بجنب الله « أن الله شديد العقاب » كما هو بشارة « أن الله غفور رحيم » فهو « أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة » ومن العقاب الشديد ما هو على « من أذنب ذنباً صغيراً أو كبيراً وهو لا يعلم أن لي أن أعذبه أو أعفو

عنه لما غفرت له ذلك الذنب أبداً ، ومن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً وهو يعلم أن لي أن أعذبه أو أن أعفو عنه عفوت عنه «^(١) .

ذلك، ومن بعده تعقبة التحذير للعصاة الذين لا يتوبون إلى الله ولا يتوبون :

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ (٩٩) :

أجل و « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » وليس الرسول ليلغ إلا ما عليه رسالة ، دون أي بلاغ آخر أم حساب « والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » فهو يحاسبكم بما يعلم من سرّ وعلانية .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١٠٠) :

« قل » لهؤلاء الذين تعجبهم كثرة الخبيث « لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » فلا تعجب الكثرة إلا الخاوي عن العقلية الإيمانية وأنت لك عقلية الوحي ، فـ « لو أعجبك » خطاب من الرسول بوحي الله لهؤلاء المعجبين بكثرة الخبيث وليس خطاباً إياه ، وحتى لو شمله فيما شمل، فـ « لو » هنا تحيل له الإعجاب من كثرة الخبيث ، فهي بحقه إحالة واقعية وبحق الآخرين إحالة تكليفية تعني أن قضية الإيمان هي ترك ذلك الإعجاب العُجاب اللّهم إلا ممن هو ضعيف الإيمان ، لذلك :

(١) نور الثقلين ١: ٦٨١ في كتاب التوحيد بسند متصل عن معاذ الجوهري عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله عن جبرائيل قال : قال الله جلّ جلاله : من اذنب ...

« فاتقوا الله يا أولي الألباب » عن محاذيره ، فلا تستوحش في طريق الهدى لقلة أهله ، حيث اللب الإيمانى هو قيد الفتك وإن عارضك العالمون « لعلكم تفلحون » حيث تُفلجون كافة العراقيل التي تحول بينكم وبين قضا الإيمان الصادق المتين .

ذلك و « الخبيث والطيب » تعمان القال والحال والأعمال ، وما تقدم الخبيث هنا في الذكر إلا لتقدمه في المظاهر الجلابة الغلابة فـ « قليل من عبادي الشكور » .

ذلك ، والأكثرية هي دوماً مفئدة مزيفة اللهم إلا بين الصالحين ، فلا إعتبار بطليق الأكثرية ، إلا ما هي بين القلة المؤمنة الصالحة أحياناً ، ولكن القلة بين الكثرة منهم أيضاً هي الأصلح كضابطة .

وهنا عدم إستواء الخبيث والطيب أمر فطري عقلي حسي شرعي وفي كل الحقول ، اللهم إلا من يرى الخبيث طيباً والطيب خبيثاً فيرجع الخبيث رغم طيبه على الطيب زعم خبيثه بلبسه بينهما قاصراً أو مقصراً .

وعدم الإستواء هذا في مثلث القال والحال والأعمال قد يحوله إلى الإستواء أم رجاحة الخبيث على الطيب كثرة في عَدَد وعُدَد بالمظاهر المختلفة التي تجلب العيون والأهواء ، ولكن العقلية الإنسانية فضلاً عن الإيمانية تناحر خرافة الإستواء أو الأفضلية المعكوسة حين تتحكم على مختلف الموازين والمقاييس ، وأما حين تتحكم الأهواء الماردة والعقول المعقولة بطوعها، الشاردة، فهنالك الويل كل الويل، حيث تختل الموازين حين يحتل الخبيث الأمكنة والمكانات والكراسي والزعامات .

ذلك ، فـ « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » (١٩٧:٣) .

وحين يختلط الخبيث والطيب على المجاهيل قصوراً أو تقصيراً فالله

هو الذي يميز بينهما : « لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (٣٧: ٨) فَمَالَ الْخَبِيثَ الْفَضِيحَةَ مَهْمَا طَالَ وَكَثُرَ ، كَمَا أَنَّ مَالَ الطَّيِّبِ كَحَالِهِ النَّصُوعِ فَقَدْ « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » (١٤ : ٢٧) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلُكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلُكُمْ عَنِ اللَّهِ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ (١٠٢) :

هذه الآية تقتسم السؤال عن أشياء إلى محظور ومحبور إعتباراً بالعاقبة المحظورة والمحبورة ، فالسؤال هو كسائر الموضوعات التكليفية بحاجة إلى سماح لولاه فليس محبوراً سواء أكان محظوراً أم سواء .

فالسؤال عما لا يتوجب على السائل علمه ولا يرجح غير محبور ، فإن نفس السؤال محظور على أية حال إلا فيما يرجح علمه على جهله ، وهنا محور الحظر « إِنْ تَبَدَّلْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ » فكما الإساءة إلى النفس دون مبرر هو أرجح منها محظور ، كذلك السؤال عن أشياء إِنْ تَبَدَّلْ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ .

ذلك ، ومن السؤال في غير موقفه ما يشدُّ التَّكْلِيفَ كما تساءل بنو إِسْرَائِيلَ حَوْلَ الْبَقَرَةِ^(١) كما منه ما يسيء في نفسه حين يبدو كأن يُسْأَلَ

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٣٥ - أخرج ابن حبان عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) خطب فقال : أيها الناس إن الله تعالى قد افترض عليكم الحج فقام رجل فقال : لكل عام يا .

المعصوم عن بعض النسل ، أو يتهدر في السؤال ويهذي ويتمسخر ، فقد « خرج رسول الله (ص) وهو غضبان محمراً وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال : أين آبائي ؟ قال : في النار ، فقام آخر فقال : من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة ^(١) وهو غير من يدعى إليه ! .

= رسول الله (ص) ؟ فسكت عنه حتى أعادها ثلاث مرات قال : لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمتم بها ذروني ما تركتكم فانما هلك الذين قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبياءهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم .

وفيه عن ابن عباس أن رسول الله (ص) أذن في الناس فقال : يا قوم كتب عليكم الحج فقام رجل من بني أسد فقال يا رسول الله (ص) في كل عام ؟ فغضب غضباً شديداً فقال : والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما استطعتم وأذن لكفرتم فأتروني ما تركتكم وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا وإذا نهيتكم عن شيء فانتهاوا فأنزل الله « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت النصارى من المائدة فاصبحوا بها كافرين فنهى الله عن ذلك وقال : لا تسألوا ، أي إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ولكن انتظروا فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه ، وفيه عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله (ص) : « أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » .

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣٥ - أخرج الفريابي وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله (ص) . . فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد (ص) نبياً وبالقرآن إماماً أنا يا رسول الله حديث عهد بجاهلية وشرك والله أعلم من آباءنا فسكن غضبه ونزلت هذه الآية .

أقول : وذلك من جراء كثرة الاسئلة المحرجة لخاطره الخطير ، غير المعنية في ما يحتاجون إليه ، وكما في المصدر ٣٣٤ عن انس في الآية ان الناس سألوا نبي الله (ص) حتى احفوه بالمسألة فخرج ذات يوم حتى صعد المنبر فقال : لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أنبأتكم به فلما سمع ذلك القوم ارموا وظنوا ان ذلك بين يدي امر قد حضر فجعلت =

ذلك ، وقد يعني السؤال الإستجھال ، كأن الله لم يعرف السؤال فما بين حكماً يتساءل عنه ، و « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وترك أشياء في غير نسيان ولكن رحمة منه لكم فاقبلوها ولا تبحثوا عنها » (١) .

وأما سؤال الإستعلام فيما يرجح فرضاً وسواه فهو فرض أو سواه وكما يقول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ويقول رسول الله (ص) : « خذوا العلم قبل رفعه وقبضه . . » (٢) .

= التفت عن يميني وشمالي فإذا رجل لاف ثوبه برأسه ييكي فقال يا رسول الله (ص) من أبي ؟ فقال : أبوك حذافة وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه . . فقال النبي (ص) : ما رأيت في الخير والشر كالיום قط أن الجنة والنار مثلتا لي حتى رأيتهما دون الحائط ، وفيه عن ابن عباس قال : كان ناس يسألون رسول الله (ص) استهزاءً فيقول الرجل من أبي ويقول الرجل تفضل ناقتي ابن ناقتي فأنزل الله فيهم هذه الآية . وفي نور الثقلين ١ : ٦٨٢ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بسند متصل عن اسحاق بن يعقوب قال سألت محمد بن عثمان العمري أن يوصل لي كتاباً قد سألت فيه عن مسائل اشكلت علي فورد في التوقيع بخط مولانا صاحب الزمان : وأما ما وقع من الغيبة أن الله عز وجل يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا . . » أنه لم يكن أحد من آبائي إلا وقد وقعت في عنقه بيعة لطاغية زمانه واني اخرج حين اخرج ولا بيعة لأحد من الطواغيت في عنقي .

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٣٦ - اخرج ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول الله (ص) :

(٢) وفيه اخرج احمد وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن أبي امامة أن رسول الله (ص) وقف في حجة الوداع وهو مردف الفضل ابن عباس على جمل آدم فقال : أيها الناس خذوا العلم قبل رفعه وقبضه ، قال : وكنا نهاب مسألته بعد تنزيل الله الآية : « لا تسألوا . . » فقدمنا إليه اعرابياً فرشونه برداء على مسألته فاعتم بها حتى رأيت حاشية البرد على حاجبه الأيمن وقلنا له : سل رسول الله (ص) كيف يرفع العلم وهذا القرآن =

ذلك. « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » فإن نازل القرآن إجابة عن كل سؤال وكل سؤال صالح للإجابة ، وأما أن تحرّجوا موقف الرسول (ص) في غير حين نزول القرآن فلا ، فإنه لا يجيب إلا بالوحي ، وحين جاء الوحي كتاباً أو سنة بأمر فلا سؤال بعدئذ ، حيث يعني أن بيان الله غير شاف أم إنه نقص عما يجب للمكلفين ، وأما السؤال عن حكم لما ينزل في الكتاب أو السنة أم هو مجهول لدى السائل مهما نزل فلا محذور فيه ، فإنما السؤال عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم أحكاماً أو موضوعات ، هذا هو المحذور وما سواه مجبور .

فقد تعني الآية ما عنته «أسكتوا عما سكّت الله عنه» فإن الله لم يسكت عما سكّت عنه جهلاً أو بخلًا ، وهذا يختص بما بيّن بوجه طليق أو عام دون تقيّد ، أم أمر لم يبيّن مع ما بيّن من أضرابه .

ومرجع الضمير في « عنها » هو « أشياء إن تبدلكن تسؤكن » ؟ وأي فرق في السؤال المسمي حين ينزل القرآن وحين لا ينزل ؟ !.

مركز حقيقه كالمؤثر علوم إسلامي

بين أظهرنا وقد تعلمناه وعلمناه نساءنا وذرائنا وخدامنا فرفع رسول الله (ص) رأسه قد علا وجهه حمرة من الغضب فقال : أوليست اليهود والنصارى بين أظهرها المصاحف وقد أصبحوا ما يتعلقون منها بحرف مما جاء به أنبياءهم ألا وإن ذهاب العلم أن تذهب حملته .

وفي نور الثقلين ١ : ٦٨٣ في أصول الكافي عن أبي الجارود قال : قال أبو جعفر عليهما السلام إذا حدثكن بشيء فاسألوني من كتاب الله قال في بعض حديثه ان رسول الله (ص) نهى عن القيل القال وفساد المال وكثرة السؤال فقليل له يا بن رسول الله (ص) اين هذا من كتاب الله ؟ قال : ان الله عز وجل يقول : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من امر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس » وقال : « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً » وقال : « لا تسألوا عن أشياء ان تبدلكن تسؤكن » .

من الفارق أن الإجابة حين ينزل القرآن هي حسب الحكمة الربانية دون الخارجة عنها ، فقد يأتي الجواب عن سؤال الأهلّة « قل هي مواقيت للناس » حيث الجواب يختص بما يحتاجون في دينهم ، دون ما لا يعنى فيه من مختلف الأهلّة من الواجهة الكونية ، وأما حين لا ينزل القرآن فسؤال الرسول محرّج وسؤال غيره مخرج عن صالح الإجابة لمكان عدم العصمة أم نفاذ الحكمة الصالحة .

فلأن القرآن هو إجابة عن كل سؤال وسؤال صالح للإجابة فلا يبدي ما يسوءكم من الجواب ، ولكن سائر الإجابة كسائر السؤال لا يختص بما هو صالح في حقل التكليف ، كـ « من أبي » و « كم أعيش » وما أشبه مما لا يعنى ، كالسؤال حول حكم عام أو مطلق يعنى منه تقيّد أو تخصص كما كان في قصة البقرة لبني اسرائيل ، فإن المطلق والعام وما أشبه في مقام البيان نصاً أو ظاهراً ليس قاصراً عما يرام ، إذاً فسؤال القيد تجاهل عن صالح البيان ، كأن الله لم يرد ما يصلح أو لم يبين ما أراد ، كما حصل من الخليفة عمر في قصة الخمر !

إذاً فكل سؤال عن أي مسؤول فيما لا يعنى من صالح الدين أو الدنيا محظور ، وكل سؤال فيما يعنى من صالح الدارين مجبور ، ونازل القرآن يعم صالح النشأتين ، فلذلك « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » .

وهنا « عفا الله عنها والله غفور حلیم » هو عفو عن السؤال المحظور والإجابة المحظورة المسيئة في وحي القرآن بالنسبة لهذه الأمة المرحومة ، وعفو عن مادة السؤال التي هي في إجمال ، مثلث من العفو شمله : « عفى الله عنها » وهي في الأخير مواصفة ثانية لـ « أشياء » أولها « إن تبد لكم تسؤكم » .

ولو تقدمت « عفا الله عنها » على « إن تبد لكم » لم تشمل الأولين ،

إذا فتأخيرها تأخير قاصد إلى هذه العنايات الثلاث .

فقد عفى الله عن أشياء لم يبينها فلا تسألوا عنها ، وعفى الله عن ذلك السؤال المحظور فلا تكررره ، وعفى الله عن إبداءها بعد السؤال فلا تحفوا .

ذلك ، ومن ثم تذكير بسابق هكذا سؤال بجوابه العضال : « قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » كالسائلين حول البقرة في قصتها الإسرائيلية فقد كفروا بكرر سؤالهم في مثل « أدع لنا ربك . . » والسائلين « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إثننا بعذاب أليم » (٨: ٣٢) أو « فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » (٧: ٧٠) وكسؤال قوم موسى « أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة » و « إذ قالوا لنبي لهم إبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . . فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم » وما أشبه من السؤالات الكادحة القادحة غير المعنية لعاقل فضلاً عن مؤمن ، فإنما سؤال المؤمن هو عن سؤال الإيمان ، مزيداً للمعرفة دون استجهاال أو استعجال .

ذلك ! فلقد جاء هذا القرآن لا ليقرر عقيدة فحسب ، أو شريعة فحسب ، بل ليربي أمة صالحة فالحة في كافة الحقوق ، إنشاءً لهم على منهج عقلي وخلقي ، فهنا يعلمهم أدب السؤال ، فطالما هناك في وحي الكتاب والسنة أمور مجملة أو مجهلة فهي قاصدة بالوحي نفس الإجمال والإجهال ، وقد يروى عن النبي (ص) قوله بهذا الصدد : « ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبياءهم » .

فإنما المعرفة في الإسلام تطلب لمواجهة حاجة واقعة أو مدققة وفي حدود الواقع المرام ، دون التكهّنات غير المعنية في سؤال الحياة الإنسانية المسلمة .

أجل ، إن الإسلام منهج واقعي جادٌ يعيش الإنسان بكل متطلبات الحياة الحقّة الواقعية ، بعيدة عن طائفة الفروض فقهية أو فلسفية أماهيه مما لا تعني الحياة الإسلامية الواقعية وكما لا تعنيها ، من دراسات مجردة بفقه الفروع أم فلسفة العقول ، لا مجال لها إلا في المدارس تلهية للطلاب وتضخيماً لحجم العلوم ، وهناك علوم لا تدرس أم تهمل هي التي تبني الحياة الإسلامية وهي العلوم القرآنية اليتيمة بين أهل القرآن ! .

فلم يأت هذا الدين المتين ليكون مجرد شارة أو شعار ، أو ليكون موضوع دراسة مجردة لا علاقة لها بالحياة ، ولا ليعيش مع الفروض التي لم تفرض إذ لم تقع ، أو يضع لهذه الفروض الطائفة أحكاماً فقهية تطير عبر الأثير .

ذلك ، والآية التالية تذكر مواضيع من هكذا أسئلة لا تُعنى ، المستجرة لمتعودات جاهلية جهلاء :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُخَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١٠٣) :

ومن هذا القبيل جاهلية التّبني الفارغ والتحول المارق لزوجة أمّا : « ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » (٣٣ : ٤) .

وهنا هذه الأربع مواصفات لأنعام أربعة ، اختلقوا في الجاهلية حدوداً بهذه المواصفات لجلها أو حرمتها ، وقد سألوا عنها فأجيبوا بـ « ما جعل الله . . » تعني جعلاً شرعياً حيث هي مجعولة تكوينياً .

و « بحيرة » من البحر : السعة ، وهي هنا الناقة التي ولدت عشرة أبطن فكانوا - إذاً - يشقون أذنّها فيسيبونها فلا تُركب ولا يحمل عليها ،

فكما كانت بحراً في ولادها ، كذلك فلتكن بحراً في حريتها .

و « سائبة » هي التي تسب في المرعى فلا تُرد عن حوض ولا علف إذا ولدت خمسة أبطن أم عشرة^(١).

و « وصيلة » هي الشاة الأنثى الوصيلة بأخيها فلا يذبح من أجلها لأنهما توأمان ، أم طليق التوأم فلا تذبح من أجلهما^(٢).

و « حام » من الإبل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلها تضرب حمى ظهره فسمي حاماً فلا ينتفع له بوبر ولا ينحر ولا يركب له ظهر ، فإذا مات كانوا فيه سواء ، أم هو فحل الإبل ككل^(٣).

ذلك ، ومهما اختلف في تفسير هذه الأربع لم يختلف في أن أي

(١-٣) نور الثقلين ١: ٦٨٣ في معاني الأخبار عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال: إن أهل الجاهلية كانوا إذا ولدت الناقة ولدين في بطن قالوا وصلت فلا يستحلون ذبحها ولا أكلها وإذا ولدت عشرين جعلوها سائبة ولا يستحلون ظهرها ولا أكلها والحام فحل الإبل لم يكونوا يستحلونه فأنزل الله أنه لم يكن يحرم شيئاً من ذلك ، وقد روي أن البحيرة الناقة إذا أنجبت خمسة أبطن فإن كان الخامس ذكراً نحروه فأكله الرجال والنساء وإن كان الخامس أنثى بحروا أذنوا أي شقوه وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها فإذا ماتت حلت للنساء، والسائبة البعير يسب بنذر يكون على الرجل إن سلمه الله عز وجل من مرض أو بلغه منزله أن يفعل ذلك والوصيلة من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن فإن كان السابع ذكراً ذبح وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركت في الغنم وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم تذبح وكان لحومها حراماً على النساء إلا أن يكون يموت منها شيء فيحل أكلها للرجال والنساء والحام الفحل إذا ركب ولد ولده قالوا قد حمى ظهره وقد يروي أن الحام هو من الإبل إذا نتج عشرة أبطن قالوا قد حمى ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلاء ولا ماء وفي تفسير العياشي قال أبو عبد الله (ع) البحيرة إذا بحرت وولد ولدها نحرت .

اختلاق لحل أو حرمة في الأنعام أم سواها ، مما لم يجعل الله ، إنه هذر هذر لا موقع له من القبول^(١) .

والقول إن تحرير الأنعام من الذبح أو النحر ليس إلا كتحرير الإماء والعبيد فكيف جاز هنا دونما هناك ؟ إنه غول وزور من القول ، قياساً أمام النص ، فالله يقول : « ما جعل الله » وأنت تقول أنا أجعل قياساً على سائر التحرير .

ذلك ، وكل تقييد أو تحرير في أي قال أو حال أو فعال ، إنما تقبل بدليل من كتاب أو سنة حيث الشارع - فقط - هو الله دون سواه ، مهما كان رسولاً فضلاً عن سواه ! .

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣٧ - اخرج احمد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي في نوادر لأصول وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي الأحوص عن أبيه قال : أتيت رسول الله (ص) في خلقان من الثياب فقال لي : هل لك من مال ؟ قلت : نعم ، قال : من أي المال ؟ قلت : من كل المال ، من الابل والغنم والخيول والرقيق ، قال : فإذا آتاك الله مالاً فليز عليك ثم قال : تنتج اهلك رافية آذانها ؟ قلت : نعم وهل تنتج الابل إلا كذلك ؟ قال : فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول : هذه بحر وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه الصرم ؟ قلت : نعم ، قال : فلا تفعل ان كل ما آتاك الله لك حل ثم قال : ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، قال أبو الأحوص : أما البحيرة فهي التي يجدهون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا اشعارها ولا البانها فإذا ماتت اشتركوا فيها ، وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة ابطن وتلد السابع جدياً وعناقاً فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض وإذا ماتت كانوا فيها سواء ، والحام من الابل إذا أدرك له عشرة من صلبه كلها تضرب حمى ظهره فسمي الحام فلا ينتفع له بوبر ولا ينحر ولا يركب له ظهر فإذا مات كانوا فيه سواء .

سورة المائدة / آية ١٠١ - ١٠٤ ٢٥٧

ومهما اختلفت الروايات في معاني هذه الأربع ، وأن تحريرها كان لنذر أو أمر سواء أم للأصنام ، فالأصل المعلوم هنا حرمة كل تحرير وسواء ما لم يأذن به الله .

هذا ، وليست الجاهلية لفترة غابرة من الزمان ، بل وقد نلمسها الآن بمختلف صورها كأشبع ما كان ، فهي حالة متكررة في كل زمان ومكان لم تتمكن فيهما شرعة الله كأصل يحلّق على كافة الحركات والسكنات من أقوال وأحوال وأعمال .

وقد نجد جاهليات بين المسلمين تشبه سائر الجاهليات مهما اختلفت الأسماء ، حيث الأسماء الخاوية ليست لتقرر الحقائق كما الحقائق لا تتبدل بتبدل الأسماء .

فحينما ينفك رباط القلب بالإله الواحد على ضوء شرعته ، ينفك عنه كثيراً أو يسيراً ، نجد فكاً عارماً عن الحقائق بنفس القدر .

أفليس المسلم الذي يحرق حيواناً للأولياء والقديسين ، أو ينذر لهم عملاً ، أليس يماثل الوثني الذي يحرق أو ينذر لوثنه؟ ولا نذر أو تحرير إلا لله فيما أذن به الله ! .

وهكذا يتيه الجاهل في منحنيات ودروب لا عداد لها مهما كان موحداً لله في مبدئه .

أجل « ما جعل الله . . ولكن الذين كفروا » بالله وبسوحى الله « يفترون على الله الكذب » ومهما كان قليل منهم يعقلون فيفترون عن عقلية شيطانية تزيفاً لشرعة الله وهم حَمَلَة مشاعل الضلالة ، ولكن « أكثرهم لا يعقلون » حيث يفترون ما يفترون تقليدياً دون أية عقلية أو علم ، ومن عدم عقلهم :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١٠٤) :

ذلك التقليد الأحقق الأعمى في تلك الأكثرية غير العاقلة شرعاً جاهلة قاحلة لهم يتبعون فيها هم وآباءهم شيطانات الأقلية المضللة .

« وإذا قيل لهم « أولاء الشارعين ما لم يأذن به الله » تعالوا إلى ما أنزل الله » في كتابه « وإلى الرسول » الحاكم بين الناس بما أراه الله وهو سنته النازلة بوحى ثان بعد القرآن « قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا » لأنهم آباءنا الأقدمون ، فللقدم قداسة تؤتسى ، ولكن « أولو كان آباءهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » كما هم لا يعلمون ولا يهتدون ، فذلك تقليد من جاهلين أقدمين ، وليست القدم حجة لصدق الجهالة السابقة ، إنما هي البرهان المبين وليس إلا الله ولرسل الله .

فحتى إذا كان آباءهم يعلمون ويهتدون فلا يصح في ميزان العقل إتباع غير الله ورسوله حيث الخطأ لزام غير المعصوم .

وهذه الآية هي من عساكر الآيات التي تفرض الرجوع إلى كتاب الله وسنة الرسول (ص) ، دون أي سناد إلى غيرهما مهما كان سناداً عليمياً عيلاً إذ لا أعلم من الله ولا أصدق منه حديثاً .

ذلك ، فالتقليد ذميم ليس إلا من ذميم غشيم ، اللهم إلا في ضرورة مفروضة كأن يقلد الجاهل عالماً يعلم علمه وتقواه ، ولكنه أيضاً محذور إذا كان هناك أعلم منه أو أتقى ، فضلاً عن الله ورسوله الحامل عنه حكمه .

فلا يبرر تقليد الجاهل جاهلاً مثله أي عقل أو أدنى شعور ، ولا تقليد عالم غير تقى أو تقى غير عالم وهناك عالم تقى ، ولا تقليده على علمه وتقواه وهناك من هو أعلم منه أو أتقى ، فأنحس دركات التقليد هو تقليد الأعمى أعمى مثله وكما هو سنة جاهلية في تقليد الآباء القدامى لا لشيء إلا لقدمتهم على جهلهم كما هم جاهلون ، ثم وهناك بين الآباء القدامى عالمون كالأنبياء وسائر الأولياء ! هم ليسوا ليتبعوهم حيث يخالفون

أهواءهم ، فإنما يتبعون نظرائهم من المجاهيل .

وهنا « لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » ضربة قاسية قاضية على هكذا تقليد حيث المقلّد - كما المقلّد - لا يعلم شيئاً فيه يقتدى ، ولا يهتدي إلى علم حتى يعلم فيقتدى .

فقد يقلد الجاهل جاهلاً مثله بفارق أن المقلّد يهتدي إلى علم فيقلّد فيه ، ولكن الذي سدت عنه منافذ الهدى كيف يقتدى ويحتذى فيما لا يهتدي « أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون » ! .

وهنا الواو في « أولو » عطف على محذوف معروف هو أدنى منه محظوراً ك: إذا كان آباءهم يعلمون أنهم ضالون تقلدونهم ؛ أم إذا كانوا علماء يخالفون وحي الله تتبعونهم ؟ « أولو كان . . . » وهو أنحس تقليد أن الآباء لا يعلمون شيئاً من هدى ولا ضلال بل هم كما هم أولاء جاهلون ، حلقات جاهلة تشابه بعضها البعض في الجاهلية الجهلاء .

إذاً فذلك تقرير لواقع تقليدهم الأنحس الأركس ، دون أن يبرر تقليداً يضاد وحي الله مهما كان المقلّد عالماً عيلاً .

إذاً فكافة التقاليد عمياء هباء خواء إلا ما يحصل فيه على هدى ليست فوقها هدى ، وهي في جو وحي القرآن والسنة منحصر فيهما منحسر عما سواهما مهما كان فيه وفر من العلم والهدى فان وحي الله أهدي وأنقى سبيلاً .

ولقد فصلنا القول حول الإجتهد الصالح وصالح التقليد بمناسبات في طيات آيات كالزمر والنجم وما أشبه فلا نعيد « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر فلو شاء لهداكم أجمعين » .

« فيا عجبا ومالي لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها

٢٦٠ الجزء السابع

في دينها ، لا يقتصون أثر نبي ، ولا يقتدون بعمل وصي ، ولا يؤمنون بغيب ، ولا يعفون عن عيب ، يعملون في الشبهات ، ويسيروا في الشهوات ، المعروف فيهم ما عرفوا ، والمنكر عندهم ما أنكروا ، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم ، وتعويلهم في المهمات على آرائهم ، كأن كل امرئ منهم إمام نفسه ، قد أخذ منها فيما يرى بغير ثقات وأسباب محكمات » (الخطبة ٨٦ / ١٥٧) .

وحين يصل أمر التقليد الأحق والضلال الأعمق إلى ذلك العمق من الحق فلا تفيد دلالة ولا هدى فـ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١٠٥) :

تري هكذا يؤمر الداعية الرسالية والرساليون المؤمنون به ؟ وهي « عذراً أو نذراً » ؟ لا يُسمح للداعية ترك الدعوة مهما كان المدعوون صلتين هكذا وصلبين ! وقد سجن ذا النون إذ ذهب مغاضباً تاركاً للدعوة الرسالية وهم مصرون على الضلال ! .

فعلى الداعية مواصلة الدعوة « عذراً أو نذراً » ولا سيما رسل الله ، فمهما كان « سواء عليهم » أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ولكن ليس سواء عليك ، فإن في استمرار الدعوة الرسالية قطع لأعداء هؤلاء الذين قد يعتذرون بانقطاع الدعوة ، وفسح لمجال الهدى للذين قد تؤثر في هداهم تواتر الدعوة ! .

هنا يخاطب « الذين آمنوا » لا الرسول ، فإن رسالته غير رسالتهم إذ هي أعلى وأنبل ، ثم « عليكم أنفسكم » فرض أصلي لا حول عنه على أية حال ، ثم إذا أثرت دعوتكم فيمن سواكم فواقع لفرض آخر ، وإذا لم تؤثر

فواقع لمسؤولية أخرى فـ« لا يضركم من ضل » بعدئذٍ « إذا اهتديتم » إلى هدي أنفسكم كواقع وإلى هدي من سواكم كبلاغ حين لا يهتدون .

فلا تعني الآية - إذا - سلب المسؤولية الدعائية المثبتة على عواتق المؤمنين ، الثابتة بتواتر الآيات والروايات التي تحمل فرض الدعوة والدعاية والتوجيه والأمر والنهي ، وإنما تعني - فيما تعني - أن واقع الضرر اللأزب هو ألا تقوا أنفسكم ، وأما وقاية الآخرين كواقع فليست هي من مسؤوليات الداعية حتى الرسول فـ« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » وإنما المسؤولية الثانية هي دعوة الآخرين وهي من ضمن « عليكم أنفسكم » حيث الدعوة هي من الواجبات على المؤمنين بشروطها .

إذا فالمحور الأصيل الذي ليس عنه بديل « عليكم أنفسكم » ثم إذا حققتم حق الهدى في أنفسكم ومن ثم دعوتهم الآخرين فلم تؤثر فيهم ، إذا « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » كما يترجم علوم إسلامي

ذلك ، وحتى إذا اهتديتم في أنفسكم وتركتم الهداية للآخرين فأيضاً « لا يضركم من ضل » كثيراً « إذا اهتديتم » حيث الأصل هو « عليكم أنفسكم » ومن ثم الوصل أن تهتدوا الضالين كما تستطيعون ، فهذا الاحتمال يحتمل سلب الضرر نسبياً .

ومن الخطر الخطر جداً التمسك بمثل هذه الآية لترك المسؤولية الدعائية وهي نازلة في الظروف التي لا تنفع الدعوة - أمأهيه - وهكذا يجيب الرسول (ص) من سأله عنها بقوله : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهدي متبعاً ودنياً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخاصة نفسك ودع عنك أمر العوام إن من وراءكم أيام الصبر ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين

رجلاً يعملون مثل عملكم»^(١) والإنعزال هنا ليس إلا للحفاظ على الأهم ، تركاً للمهم الذي لا يؤثر أم ويضر بالأهم .

ذلك ، ثم خطاب « الذين آمنوا » يحول « من ضل » إلى غيرهم ، فلا صلة لهذه الآية - إذا - بترك مسؤولية الأمر والنهي فيما بين المؤمنين أنفسهم ، الثابتة بضرورة الشرعة الربانية ككل ، وعلى حد قول الرسول (ص) : « أين ذهبتم إنما هي لا يضركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم »^(٢) : ضرراً منهم إليكم في إضلال بكل قوله ، ما حققتم مسؤولية « عليكم أنفسكم » .

(١) الدر المنثور ١: ٣٣٩ ، اخرج الترمذي وصححه وابن ماجه وابن جرير والبيهقي في معجمه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن أبي أمية الشعباني قال أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية؟ قال : آية؟ قال وقوله : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم .. » قال : والله سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله (ص) قال : بل اتتمروا ..

(٢) المصدر اخرج احمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن أبي عامر الأشعري انه كان فيهم شيء فاحتبس على رسول الله (ص) ثم أتاه فقال : ما حبسك ؟ قال : يا رسول الله (ص) قرأت هذه الآية قال فقال له النبي (ص) : أين ذهبتم ، وفيه اخرج ابن مردويه عن محمد بن عبد الله التيمي عن أبي بكر الصديق سمعت رسول الله (ص) يقول : ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بذل ولا أقر قوم المنكر بين أظهرهم إلا عمهم الله بعقاب ما بينكم وبين ان يعمكم الله بعقاب من عنده إلا ان تأولوا هذه الآية على غير امر بمعروف ولا نهى عن منكر « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم .. » وفيه اخرج ابن مردويه عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال : خطب أبو بكر الناس فكان في خطبته قال رسول الله (ص) : يا أيها الناس لا تتكلموا على هذه الآية « .. عليكم أنفسكم .. » إن الداعر ليكون في الحي فلا يمنعه فيعمهم الله بعقاب .

فالمفروض على الذين آمنوا ككل فرضاً على أعيانهم « عليكم أنفسكم » ثم لا تفرض الدعوة والأمر والنهي إلا فرض كفاية على أمة منهم فيهم الكفاية عَدَدًا وَعُدَدًا وهم العاملون بالمعروف الذي به يأمرُونَ والتاركون المنكر الذي عنه ينهون ، على شروط مسرودة في الكتاب والسنة .

فلا تحمل هذه الآية - إذاً - إلا فرض الأعيان لقبيل الإيمان بينهم أنفسهم ، ثم « لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم » أي لا يضرركم إلا ضلالكم ، وأما ضلال غيركم فليس يضرركم ، اللهم إلا إذا تركتم واجب الدعوة إلى الهدى بشروطها ، فهناك أيضاً لا يضرركم ضلالهم أنفسهم ، بل المضر هو ترك واجب الدعوة التي هي أيضاً داخلة في نطاق « عليكم أنفسكم » حيث تفرض واجبات الإيمان ككل ، شخصياً وجماعياً ، ومن الثاني واجب الدعوة الكفائية .

ذلك ، فـ « عليكم أنفسكم » كتأويل أول تعني بالنسبة للمضالين غير المؤمنين إذا لا تؤثر فيهم الدعوة ، وهي كتأويل ثان بين المؤمنين أنفسهم تعني ظروفاً خاصة لا يجب أو لا يسمح فيها الأمر والنهي بين المؤمنين أنفسهم حيث لا يجدى نفعاً أو يستجر ضرراً هو أضر من ضلالهم^(١)

فـ « عليكم أنفسكم » في خطاب الإيمان تجمع مجامع شروط الإيمان ومنها الدعوة والأمر والنهي قدر المستطاع ثم « لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم » إلى شروطات الإيمان .

ذلك وفي نظرة أخرى إلى الآية نرى « عليكم أنفسكم » تفرض على

(١) الدر المنثور ٢ : ٣٤ - اخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : ذكرت هذه الآية عند رسول الله (ص) فقال نبي الله : لم يجيء تأويلها لا يجيء تأويلها حتى يهبط عيسى بن مريم عليهما السلام .

المؤمنين الحفاظ على أنفسهم فرضاً على الأعيان ، فالمقصر الأول في كافة الفلتات عن قضية الإيمان هو المكلف نفسه ، ومن ثم هؤلاء الذين يضللونهم عن صراط الإيمان ، كما وهم مقصرون إذا تهاونوا عن الدعوة المفروضة عليهم بكل مراحلها .

ثم « لا يضرركم » لها أبعاد ثلاثة أبعدا أنه « لا يضرركم » ضرراً أصيلاً « من ضل » وأنتم تاركون واجب دعوتهم وأمرهم ونهيهم ، ثم البعدان المذكوران من ذي قبل هما المشتركان في عذر المؤمن في ترك الدعوة ، فـ « إلى الله مرجعكم جميعاً » مؤمنين وضالين « فينبئكم بما كنتم تعملون » من خيرٍ وشرير ، وإنباء عن غفلة وغفوة مقصرة ، وإنباء عن طاعة قد لا يرجي الفلاح بها ، ثم إنباء بحصائل الأعمال حيث تجزون ما كنتم تعملون .

وهنا بعدُ رابع له « لا يضرركم » هو إضرار الإضلال ، فما دام المؤمن حفيظاً على إيمانه بما عنده من طاقات وإمكانات فلا يخاف « من ضل » أن يضلّه عن سواء السبيل ، وهذا من أظهر الأبعاد بين كل الاحتمالات الثلاث سابقة ولاحقة حيث « لا يضرركم » إخباراً وإنشاءً تنفي ضررهم أنفسهم بما يختارون ميسرين في الضرر لا ميسرين ، فحين لا تطبقون مسؤولية « عليكم أنفسكم » كما يجب كفاحاً ضد عراقلهم ، فهم بإمكانهم أن يضرروكم إضلالاً وسواء .

فحين يخاطب الذين آمنوا بـ « عليكم أنفسكم » ليس ليعنى منهم أن يؤمنوا كأصل ، بل هو إستحكام عرى الإيمان لحد لا ينظر المؤمن بما يضره الكافرون ، وهذه - إذا - نظيرة : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع سواء فتردى » (١٦: ٢٠) حيث يعني النهي عن الصدّ الأمر باستحكام العقيدة

والعملية لصالح يوم الحساب لحد لا يستطيع الكافرون به أن يصدوك عن الساعة عقيدياً أو عملياً .

وهكذا يؤمر المؤمنون بإحكام عرى الإيمان في « عليكم أنفسكم » أن يصبحوا سداً حصيناً مكيناً أميناً لا تضره - على أشده - أية محاولة كافرة ، فإنهم « أشداء على الكفار رحماء بينهم » حيث تعني « رحماء بينهم » تعاملهم في كافة الرحمات ، لكي يصبحوا أشداء على الكفار في كافة العرقات .

إذا - « لا يضركم » تعني كأول محتمل وأقواه ضرهم أنفسهم بما يختارون ضد المؤمنين ، لا الضر الموجه إليهم عقاباً من الله فإنه هو ضره عدلاً وليس ضرهم عداءً ! .

ذلك ، فأقوى الاحتمالات هو تحقيق « عليكم أنفسكم » لحد « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » : ذلك الإهداء الصارم الذي يصد عنكم كل اعتداء عارم ممن ضل ، حيث الضالون الصامدون في ضلالهم يحاولون على طول الخط أن يضرروكم كما يستطيعون^(١) .

فـ « عليكم أنفسكم » علمياً وعقيدياً وخلقياً وعملياً وسياسياً واقتصادياً وحربياً ، وفي كل ما تتطلبه شروط صامد الإيمان فردياً وجماعياً ، إعداداً كاملاً شاملاً يضعف أمامه العدو أياً كان ، وحينئذ « لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون » (١١١:٣) « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (١٣٩:٣) وفي جملة واحدة : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (٨:٦٠) .

(١) وهكذا يعني ما يروى « حب علي حسنة لا يضر معها سيئة » أي ان حبه يدفع عن السيئة .

هذا ، ثم سائر الضرر ممن ضل ، المسير منهم غير الميسر لهم ، كوزر ضلالهم ، إنه المحتمل على هامش ذلك الضرر الميسر لهم ، و « لا يضرركم » يجمع الإنشاء إلى الإخبار ، إنشاءً بواجب الاستعداد لحد زوال الضرر ، وإخباراً بزواله قدر الاستعداد ، « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

إذا فالضرر المنفي في « لا يضرركم » مهما كان ضرراً دنيوياً أو أخروياً فهو ضرر من الضالين أنفسهم كأصيل ، دون ضرر العذاب من الله تقصيراً في دعوتهم إلى الله من أهل الله ، فانه ليس ضرراً منهم ، مهما كان ضرراً من الله بهم لمكان التقصير في حقهم فتزر وازرة مثل وزرهم ..

فالمحور الأصيل بين محتملات الآية السبع ضررهم بما يختارونه وجاء المؤمنين ، وليست سلبية ذلك الضرر إلا بإيجابية « عليكم أنفسكم » بعد الإيمان ، وبقدر تلك الإيجابية .

فمن المفروض على الذين آمنوا أن يصنعوا أنفسهم بشروطات الإيمان بقدر سلبية الضرر ممن ضل ، فكلما تحقق بُعدٌ من « عليكم أنفسكم » تحقق بُعدٌ من « لا يضرركم من ضل » في نفس البعد وبقدرة ، وهنا يهر قول الرسول (ص) أمام المنجرفين في تفسير هذه الآية : « أين ذهبتم إنما هي لا يضرركم من ضل من الكفار إذا اهتديتم » .

وقد تعني « عليكم أنفسكم » للذين آمنوا - كأصل - ثنائية المسؤولية الوقائية : أن يقي كل نفسه لحيد « لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم » ثم يقي المجاهيل منهم الذين لا يستطيعون أن يقوا هكذا أنفسهم ، وهذه المسؤولية الثانية هي متقدمة على مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ هي متأخرة عن مسؤولية التعليم وكما تتقدم في آيتها عليها : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٣: ١٠٤) .

صحيح أن دعوة الكافرين مفروضة على المؤمنين ، ولكنها متأخرة عن مسؤوليتهم تجاه أنفسهم ، إذا فالمسؤوليات الإيمانية تترتب كالتالية : أن تصنع نفسك بحيث لا يضررك من ضل إذا اهتديت ، ثم أن تصنع سائر المؤمنين ، ومن ثم أن تأمرهم بالمعروف المتروك وتنهائهم عن المنكر المفعول ، ومن ثم تأخذ في دعوة الكافرين مهما كانت بضمن إصلاح المؤمنين ، ولكنها كهامش على التواصي بالحق والتواصي بالصبر بين المؤمنين أنفسهم .

وبصيغة أخرى واجب غير المؤمن هو الإيمان أولاً ثم العمل بقضايا الإيمان ومن ثم دعوة الآخرين إلى الإيمان وقضاياها ، وفي حقل الإيمان الأصل هو نفسه تقبلاً ودعوة ، ثم العلم بواجبات الإيمان نفسياً وتعلماً ومن ثم العمل بها نفسياً ودعوة .

وبعد خامس أنكم إذا طبقتم شرائط الإيمان فليستم تعاقبون بضلال الآخرين حيث لا تزر وازرة وزر أخرى : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » (١٣٤: ٢).

فعلى المؤمن الإشتغال بصناعة نفسه وخاصته وحفاظتها كما فرضت عليه ، ثم لا يهزهزه الهزاهز، ولا يزيله القواصف أو يحركه العواصف ، فلا يزول الحق عن مقره مهما قل أهله بما يجول الباطل في مقراته وإن كثر أهله فـ لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الأبواب لعلكم تفلحون » (١٠٠: ٥).

وهنا « لا يضررك » كما هي إخبار كذلك هي إنشاء بصيغة الإخبار ، فلا يغررك تقلب الذين كفروا في البلاد ولا يضررك فتقلب على عقبيك خوفاً عن العزلة والخطفة كما : « قالوا إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » (٥٧: ٢٨).

وبعد سادس هو في سياق الإنشاء أن لا تشتغلوا بمن ضل تغافلاً عن أنفسكم ، فعساكم تنحازون إليهم يسيراً ثم كثيراً بغية تحويلهم عن الضلال وهم يحاولون المعاكسة ، فقد يتغلبون عليكم في صراع الحق والباطل ، فإهلاك النفس في سبيل إنقاذ الغير هو في نفسه ضلال وموت ، وكما نرى عديد الموت والضلal أنهما سيان في القرآن ، فكما الضالون يذكرون (١٧) كذلك الموتى ، لمكان المساوات بين الضلال والموت ! .

فكما لا يجوز التعرض للموت لإنجاء الآخرين ، كذلك التعرض للضلal لهدي الآخرين ، فالدعوة إلى الله بين مجبورة ومحظورة ، فالمجبورة هي المؤثرة غير المتأثرة ، - أم - لأقل تقدير - لا مؤثرة ولا متأثرة ، والمحظورة هي المتأثرة أو المؤثرة المتأثرة ، فتترك الدعوة في المحظورة حيث المسؤولية الكبرى فيها « عليكم أنفسكم » ثم « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » حين تنصرون بدعوتهم .

ذلك ، وعلى أية حال فلا مساس لهذه الآية بالآيات الآمرة بالدعوة والأمر والنهي فانها لا تعني ما تعنيه هذه الآيات ، على أن الدعوة بمختلف شؤونها الصالحة ليست مما تقبل النسخ اللهم إلا أن تُنسخ شرعة الله ككل ، حيث الدعوة هي لزام الشرعة نشرأ وتطبيقاً وتحليفاً على كافة المكلفين في كافة الشؤون الحيوية : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني » (١٢: ١٠٨) و « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » (٣: ١١٠) وكيف تنسخ السبيل الرسولية والرسالية وسند خيرية الأمة الآمرة الناهية .

ثم وهنا سابع حيث تعني « أنفسكم » كلاً نفسه ، ثم ذويه الذين هم كنفسه ، ثم سائر المؤمنين فانهم إخوة أنفسهم كنفس واحدة ، فواجب الوقاية والحفاظ هنا يعم ذلك المثلث مهما كانت الأضلاع متدرجة ، من نفسك إلى ذويك وإلى سائر المؤمنين .

فهذه أشواط سبعة مستفادة من طليق الآية « عليكم أنفسكم » فبترك كل واحد منها يفتح درك من دركات الجحيم السبع ، كما بتطبيق كل تطوف حول كعبة الحق وحق الكعبة المباركة .

وهنا الشوط السابع وهو الحفاظ الجماهيري المتجاوب بين المؤمنين أنفسهم ، هو الذي يحافظ على كيان الإيمان عن أية عرقلة ضد الإيمان ، فهو على غرار : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا . . » و « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٣: ٢٠٠) فـ « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » .

ولأن « عليكم أنفسكم » تشمل فرض الحفاظ على النواميس الخمسة : عقيدة وعقلاً ونفساً وعرضاً ومالاً على ضوء معرفة الله وعبوديته الصالحة ، وذلك حفاظ جماعي بين المؤمنين أنفسهم ، حزمة واحدة حول قبيل الإيمان، وعزمة واحدة للحفاظ على كتلة الإيمان ، فليجدوا في السير في جادة جادة متناصرين حتى الموت ، لذلك يذكر فيما يلي تناصر الإيمان عند الموت في الوصية المفروضة فإن « عليكم أنفسكم » من أبعادها صالح الوصية لاصلاح المعوزين ولا سيما من الأقارب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْإِيمِينِ ﴿١٠٦﴾ :

ذلك ، ولقد سبق فرض الوصية في نفسها من ذي قبل : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » (٢: ١٨٠) .

فواجب الوصية يقتضي واجب الحفاظ عليها بطريقة حازمة حاسمة

٢٧٠ الجزء السابع
تحقيقاً للوصية ، وهي الشهادة الصالحة : « إثنان ذوا عدل منكم أو آخران
من غيركم » .

وهنا خطاب الإيمان يبين أن « شهادة بينكم » هي من قضايا الإيمان
حفاظاً على حقوق الموصي والموصى له والموصى إليه ، جمعاً بين حقوق
المؤمن في موته وحياته ، وهي أخرى من حقوق الحياة الخاصة .

و « إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية » تبين أن حين الوصية
المكتوبة هو عند حضور الموت كما في آيتها الأخرى « كتب عليكم .. »
وحضور الموت هو حاضر أسبابه الظاهرة علماً أو ظناً أو احتمالاً قريباً
عادياً .

وترى « إن أنتم .. » هي شرط لواجب الشهادة لواجب الوصية ؟ فلا
شهادة لها في غير الضرب في الأرض ، أم ولا وصية ! .

الوصية عند الموت مكتوبة حضراً أو سفراً لآيتها الطليقة « إذا حضر
أحدكم الموت » ثم وإثبات الوصية بحاجة إلى حجة شرعية وهي الشهادة
الشرعية المتمثلة في ذوا عدل منكم ، إذاً فـ « إن أنتم .. » بيان لأهم
ظروف الشهادة وأخرجها .

وهنا « ذوا عدل منكم » تعني من المؤمنين الموثوقين، وظاهر العدل هو
طليقه دون خاصة الوثاقة في موقف الشهادة ، فلو غُيّت هذه الخاصة
لكانت العبارة « ذو عدل منكم فيها » ثم لا وثاقة خاصة فيمن هو فاسق
بعهد الله ، حيث المجرم بحق الله هو أكرم بحق الناس ، إضافة إلى أن
قضية هامة الشهادة على الوصية بهذه التأكيدات القيمة هي العدالة البالغة
الطليقة، وما دامت هي ميسورة فلماذا - إذاً - النقلة إلى العدالة النسبية غير
الكافية ولا الوافية ؟ .

ثم « أو آخران من غيركم » تعني ذوي عدل من غير المؤمنين ، أن

يكونا موثوقين عند أصحابهما ، عدلين في قضاياهم ، وكما تعنيهم « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة . . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » فالمتقون من أهل الكتاب هم العدول منهم ، فهم القاصرون ، ومن ثم المقصرون في عدم الانتقال إلى الإسلام شرط عدلهم في شرعتهم .

و « أصابتكم مصيبة الموت » هي إصابة سببه المتعود ولما يمت ، وإلا فكيف يخاطب بخطاب التكليف ؟ وبديل الشهادة هنا كسائر البديل يختص بما لم يحصل على أصيل ، ولأن الأصيل هو فقط « ذوا عدل منكم » فلا دور لغير ذوي عدل من المسلمين بعد فقدانهما إلا لذوي عدل من غيرهم ، حيث العدالة هي الحفيظة على الشهادة دون مجرد الإسلام ، فليفضل العدل غير المسلم ، على غير العدل المسلم في موقف الشهادة ، حيث الضرورات تبيح المحظورات^(١) فمهما كانت شهادة غير المسلم على الوصية محظورة في الحالات العادية ، فهي لا بد منها عند فقدان المسلم العدل حفاظاً على واجب الوصية حجة لواجب الحقوق ، ولأن المحور هنا الوثوق فليفضل العدل غير المسلم على المسلم غير العدل .

ولأن العدالة النسبية لا توجد عند غير الموحدين ، فليكن « غيركم »

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨٦ في عيون الأخبار في باب ما كتبه الرضا (ع) الى محمد بن سنان في جواب مسأله في العلل : وعلة ترك شهادة النساء في الطلاق والهلل لضعفهن عن الرؤية ومحاماتهن للنساء في الطلاق لذلك لا تجوز شهادتهن إلا في موضع ضرورة مثل شهادة القابلة وما لا يجوز للرجال أن ينظروا إليه كضرورة تجوز شهادة أهل الكتاب إذا لم يوجد غيرهم وفي كتاب الله « اثنان ذوا عدل منكم » مسلمين « أو آخران من غيركم » كافرين .

أقول وروى ما في معناه حول « أو آخران » أبو الصباح الكتاني وهشام بن سالم عن أبي عبد الله (ع) .

من الموحدين ، ولأن مجرد عقيدة التوحيد لا تعدل الموحداً إلا بالإيمان الكتابي حيث المحور الصالح للعدالة هو وحي الله تعالى، فغير الكتابي خارج عن محور العدالة مهما كان موحداً ، ولمكان « تحبسونهما من بعد الصلاة » فليكونا من الكتابيين المصلين ، حيث الصلاة وأشباههما من فروض الدين هي من قضايا العدالة ، فقد تجوز - إذا - شهادة اليهودي والنصراني ، بل والمجوسي ^(١) إذا كانوا عدولاً يصلون .

والقول إن « من بعد صلاة العصر » تعني صلاة المؤمنين، مردود بأنه لا صلة لصلاتهم بتحكيم إقسام غيرهم ، فلتكن صلاتهم مهما كان مع صلاة المسلمين .

أجل ، والحالة بعد الصلاة ، هي حالة قدسية كحصيلة أوتوماتيكية للصلاة ، فهي أقرب الحالات - ولا سيما للعدول - إلى صدق الشهادة ، فرعايتها - إذا - حيطة عادلة كأحوط ما يكون للعدول تخوفاً عن العدول عن حق الشهادة فيضيع حق المؤمن حياً أو ميتاً ، و« ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد إيمان بعد إيمانهم واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدي القوم الفاسقين » فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فهما عندها أفحش وانكر ، فالإقسام بعد الصلاة أحوط وأثبت من كل أقسام

(١) المصدر في الكافي عن يحيى بن محمد قال سألت أبا عبد الله (ع) عن « شهادة بينكم . . » قال : اللذان منكم مسلمان واللذان من غيركم من أهل الكتاب فإن لم يجدوا من أهل الكتاب فمن المجوس لأن رسول الله (ص) سن في المجوس سنة أهل الكتاب في الجزية وذلك إذا مات الرجل في أرض غربة فلم يجد مسلمين أشهد رجلين من أهل الكتاب يجلسان بعد العصر فيقسمان بالله . . .
أقول : وقد ورد جواز شهادة غير المسلمين عند الضرورة من طرق أخرى عن أئمتنا عليه السلام .

الإقسام ، فإنه يختلف حسب مختلف الحالات والمجالات وكما يروى عن النبي (ص) « من حلف عند هذا المنبر على يمين آثمة فليتبوء مقعده من النار ولو على سواك أخضر »^(١) فإذا كان إثم الحلف الآثم عند المنبر أكثر فليكن بعد الصلاة أكثر وأظهر .

وهنا « تحبسونهما من بعد الصلاة » - قد - تختص به « آخران من غيركم » لأقربيه المرجع وغرابة حبس العدلين بعد الصلاة من شهود المسلمين وإقسامهما، فهذه وما بعدها حائطة تسد فراغ الإيمان .

ولا يعني الحبس هنا توهيناً إياهما ، بل هو توطين لصدقهما « فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى » فذلك إقسام مع تلقي الشهادة حتى « إن ارتبتم » فيها عند إلقاءها أن « لا نشتري » نحن المقسمان بالله « لا نشتري » بارتياحكم « ثمناً » ولو كان المشتري له « ذا قربى » لنا أم للموصى ، ثم « ولا نكتم شهادة الله » التي شهدناها تلقياً أن نلقيا « إنا إذا » لو اشترينا به ثمناً « لمن الآثمين » .

فضمير الغائب في « به » هو الأمر المرتاب في الوصية ، ثم « ولا نكتم شهادة الله » في الوصية ، فحين الإرتياب في الوصية من الوصي أم سواء فنحن نشهد كما سمعنا لأنها شهادة الله ، حيث حصلت بأمر الله تلقياً ، فلتؤد لله كما حصلت ، كما وأنها مشهودة لله « وكفى بالله شهيداً » و « أقيموا الشهادة لله » (٢: ٦٥) .

« إنا إذا » إن اشترينا به ثمناً « لمن الآثمين » : المبطلين عن الصواب الثواب خلاف ما أمر الله ، وقد يرجع الضمير بما رجع إلى الإقسام ، فه لا نشتري بالقسم ثمناً » .

(١) آيات الأحكام للجصاص ٣: ٥٩٩ .

وهنا « إرتبتم » خطاب إلى من يهمهم أمر الوصية وصياً وموصى له وموصى إليه وحاكماً شرعياً هم كلهم غير الشهداء ، حضوراً في الوصية وغير حضور .

وهنا « شهادة بينكم » مصدراً دون إسم فاعل كـ « الشاهد بينكم » تلمح لأكد الشهادة أن تكون خليصة غير خليطة بأية شائبة ، فلذلك إشتطت فيها - إن كان الشاهدان من غيركم - تلك الشروط المغلظة .

ثم « حضر أحدكم الموت » هو حضور مقدماته القرية حسب المعلوم أو المظنون ، و « أو آخران من غيركم » لها الصلة القربى بـ « إن أنتم ضربتم في الأرض » فإن السفر هو الذي قد لا يوجد فيه مسلم يشهد ، وأما الحضر للمسلم فهو بطبيعة الحال في بلد إسلامي أم فيه مسلم إذ لا يساكن المسلم جماعة غير مسلمين إلا أن يكون فيهم مسلمون ، فلا إضطرار إلى شهادة « آخران من غيركم » إلا « أن ضربتم في الأرض » .

فحصالة المعني من الآية أن واجب الوصية حسب آية البقرة - وهو على من كان عنده مال - هو عند حضور الموت وكما هنا ، وواجب عندها محتوم هو استشهاد عدلين مؤمنين بظاهر العدالة لحد لا يصدق عليهما انهما فاسقان ، وإلا فآخران من غيركم عدلين فيما سوى الإيمان وهو التطبيق الكامل لشرعتها الكتابية مهما كانا قاصرين في ترك الإسلام أو مقصرين ما داموا ملتزمين بشرعة إيمان كتابي ، اللهم إلا من يعاند المؤمنين مهما كان قاصراً في تركه الإسلام فضلاً عن المقصر ، حيث العدالة هي الكافلة لاستقامة الشهادة ولن تستقيم في جو العناد .

فأقل شرط في شهادة غير المسلم العادل في شرعته عدم العناد لقبيل الإيمان قاصراً أو مقصراً ، فمن المستحيل أن يستأن الله لهامة الشهادة في الوصية من يعادينا ، ولا ريب أن المسلم الفاسق غير المعاند - إذا - خير من

العادل غير المسلم ، المعاند .

وقد يقال إن النقلة إلى عدلين من غيرنا لا مجال لها إلا عند إعواز مسلمين عدلين وسواهما ، فاشتراط العدالة في الشاهدين المؤمنين ليس إلا عند امكانية الحصول على العدلين فلذلك لم يكن اشتراط العدالة إلا في غير الضرب في الأرض ، ثم فيه « آخران من غيركم » ؟

ولكن « إن أنتم ضربتم » لم يشترط فيه إعواز المسلمين عن بكرتهم ، بل هو إعواز العدول ، فهو شرط للنقلة إلى غير المسلمين ، إعتباراً بظرف الإعواز من المسلمين .

وليس فرض القسم إلا في موقف الإرتياب لمكان « ان ارتبتم » ولا مكان للإرتياب إلا في « آخران من غيركم » لعدم الإيمان ، وأما الارتياب في « إثنان ذوا عدل منكم » فلا مكان له قضية حرمة المؤمن العادل ، وأما الكتابي العادل فعدم إيمانه مجال للإرتياب بشأنه .

﴿ فَإِنْ عُرِّرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَأَخْرَأَنِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٧) :

« فإن عثر » من ملامح الشهادة تأكيداً « على أنهما » وهما « آخران من غيرهم » أم وذوا عدل منكم « استحقا إثمًا » إبطاء عن الصواب أن اشتروا به ثمنًا خلاف ما أقسما له : « إن ارتبتم لا نشترى به ثمنًا ولو كان ذا قربى إنا إذا لمن الآثمين » فقد استحقا الآن إثمًا أقسما على تركه .

« فإن عثر . فأخرا » عليهما شاهدان آخران ممن شهدوا الوصية « يقومان مقامهما » في حق الشهادة وهم « من الذين استحق عليهم - الأثم - الأوليان » ، أتراهم شاهدين كما هما ؟ ولم تسبق شهادتهما إلا « آخران من غيرهم » ثم كيف « استحق عليهم الأوليان » ! أم هما شاهدان مسلمان ؟

وهما الأصيلان والموقف هنا للبديلين ! فلو كان هناك مسلمان لم يصل الدور إلى « آخران من غيركم » ! .

إذا فهما ليسا من الشاهدين لا أصيلين ولا بديلين ، إنما هما ممن حضر الوصية أو لم يحضر وليست لهم شهادة لأنهم من الموصى لهم أو الأوصياء ، وشاهد الوصية لا بد وأنه غير الوصي والموصى له ، فهما إذاً من هؤلاء الذين يستحق عليهم الإثم وهما الأوليان بالوصية .

فه الأوليان « هما الأوليان بالوصية فهي عطف بيان أو وصف ثان عن « آخران » أي الآخران الأوليان بالموصي وصياً أو موصى له ، وهذا أصلح عناية من « الأوليان » فهما الأوليان بالميت ، الأوليان بالإقسام حيث الحق راجع اليهما فليدافعا عن حقهما حين يضيع بالشهادة الآثمة من الشاهدين ، فالآخران الأوليان من الذين استحق عليهم في الشهادة الآثمة الأوليان بتلك الوصية لهما حق الإقسام لا بطلان هذه الشهادة واحقاق الحق . . كما هو حق لكل صاحب حق حين يضيع حقه بشهادة آثمة .

وهنا في اختلاف قراءة « الأوليان » دليل اختلاف واضطراب الأفهام ، وقد حصل لأبي بن كعب فيها إفحام للخليفة عمر حيث « قرأ » من الذين استحق عليهم الأوليان « قال عمر : كذبت ، قال : أنت أكذب ، فقال رجل : تكذب أمير المؤمنين ؟ قال : أنا أشد تعظيماً لحق أمير المؤمنين منك ولكن كذبت في تصديق كتاب الله ولم أصدق أمير المؤمنين في تكذيب كتاب الله ، فقال عمر : صدقت » (١) .

وهذان الآخران الأوليان من الذين استحق عليهم الإثم في هذه الشهادة الآثمة ، هما « فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما » وقد تقبل

(١) الدر المنثور ٢: ٣٤٤ - اخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن عدي عن أبي مجلز ان أبي بن كعب قرأ . . .

شهادتهما وإن كانا من أهل الحق بديلة عن هذه الشهادة الآثمة ومع فقد الشهادة العادلة المسلمة ، حيث لا مجال لتصديق هذه الشهادة الآثمة فلتقبل شهادة الأولى بالوصية بحق نفسه ومن أشبهه « من الذين استحق عليهم » - « وما اعتدينا » طور الصدق و « إنا إذاً لمن الظالمين » بحق الموصي والشاهدين وبحق من له الحق في هذا البين .

إذاً فنسج العبارة الناضجة في ترتيب شهادة الوصية :

١ - « إثنان ذوا عدل منكم » ٣ - « أو آخران من غيركم » « وإن عشر على أنهما » منكم أو من غيركم « إستحقا إثمًا » على الوصية ، فهي - إذاً - ساقطة ، فليتحول إلى « آخران يقومان مقامهما » غير الأولين الفاقدين ولا الآخرين الساقطين ، وإنما هما « من الذين استحق عليهم » الإثم في تلك الوصية المظلومة ، وهم كل من ترتبط بهم الوصية ، وصياً وموصىً له ، ثم هما « الأوليان » بينهم بالوصية .

صحيح أن شهادة الوصي والموصى له ليست صالحة كأصل لأنها إقرار لصالح الشاهد ، ولكنها مقبولة عند إعواز الشهادة الصالحة ، ولا سيما إذا كانت نقضاً لتلك الشهادة الآثمة ، فتحويلاً للوصية إلى أعدل سمة مرضية في هذا البين .

فهنا « الأوليان » عطف بيان أو وصف له « آخران » فقد بين أولاً أن حق الشهادة بعد سقوطها من « آخران » الأولان ، منتقل إلى « آخران » ثانيان ، ثم وصفا انهما « من الذين استحق عليهم » في تلك الشهادة الآثمة ، ومن ثم أنهما « الأوليان » بالميت من بين هؤلاء ، فهما - إذاً - من الموصى لهم ، فإنهم أولى من الموصى إليهم ، إذ لا دور لهم إلا تحقيق الوصية بحق الموصى لهم .

والأصح كون « الأوليان » وصفاً ثانياً له « آخران » الآخران ، فلأنهما

معرفان بوصفهما « من الذين استحق عليهم » فقد جاز وصفهما بـ « الأوليان » معرفاً .

واستحقاق الإثم هو طلب تحقيقه بالشهادة الخائنة ، والعائر على ذلك هو من له مصلحة في تلك الوصية ، سواء أكان من أصحاب الحق أم من أوليائهم ، والعثور ليس إلا عند إلقاء تلك الشهادة ، عثوراً من الحضور في تلقيها أو سائر العثور .

فالمفروض في مجلس إلقاء الشهادة حضور جمع من الأوصياء أو الموصى لهم أو الورثة مهما كان الأصل هم الموصى لهم الواصل اليهم حق الوصية ، أم كلهم أم طائفتان منهم والكسور هنا سبعة ، أم الإطلاع على الوصية بأية طريقة كانت ، وإن لم يكونوا حضوراً كما هو الأكثر في السفر .

فليس حضور أي من هؤلاء شرطاً في أصل الوصية إلا الشاهدان ، ثم الأوليان هما الأولى بالميت في وصيته من بين الجميع ، فإن كان هناك أكثر من اثنين فواجب الشهادة فقط لاثنتين منهم، وإن كانت شهادة الكل ايضاً ممضاة، فليس « الأوليان » تحصر العدد فيها ، وإنما هما أقل من يشهد في هذا البين .

ولأن شهادة هؤلاء ليست إلا لصالحهم لذلك لا تقبل منهم كأصل وضابطة ، وإنما المقبولة شهادة من لا ينتفع شخصياً وإن انتفع في قرباه كما أشير به « ولو كان ذا قربي » للشاهدين أو الميت .

لذلك فالدور الأول في الشهادة هو لغير من له الحق ، عدلين مسلمين أو غير مسلمين ، « فإن عشر على انهما استحقا إثماً » على ذوي الحق في الوصية ، أن طلبا عليه إثماً « فأخبران يقومان مقامهما » وهما « من الذين استحق عليهم » ذلك الإثم الذي حققه الشاهدان ، ولكن من هما من بين

هؤلاء ؟ هما « الأوليان » بالميت بحق الوصية، فهما من الموصى لهم الأقرباء ، ثم غير الأقرباء ، ثم الأوصياء والورثة أيهم أولى بهذه الوصية تحقيقاً وانتفاعاً ، سواء أكانوا حاضرين عند الوصية أو غائبين مطلعين عليها .

« فيقسمان بالله لشهادتنا » حين شهدنا مجلس الوصية « أولى من شهادتهما » إذ نحن الأوليان ، فلنا حق الحفاظ على حقوقنا عند سقوط الشهادة المرسومة « وما اعتدينا » لا على الشاهدين ولا الميت ولا على سائر من له الحق في الوصية « إنا إذاً » لو اعتدينا « لمن الظالمين »

وقد نتلمح من ملامح الآية أن الوصية عند الضرب في الأرض راجحة لحد الفرض حيث السفر من الأسباب القريبة للموت ، ولكي تكون شهادة الوصية من عدلين مؤمنين ، فإنها استبقاء للموصي في صالح مسؤولياته الحيوية الإيمانية ، ولذلك نرى أكيد الأمر بها ، والحفاظ على شؤونها في آيات عدة ، وتكرارها مع الدِّين في بيان الأنصبة والسهام : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » مما يجعل الوصية بمثابة الدين أو أفضل استثناء حيث تجعل قبل الدين ! .

رجعة أخرى الى الآيات الثلاث :

« تحبسونهما » هم الضاربون في الأرض ، المصابون بمصيبة الموت ، ولا يعني الحبس هنا توهيناً بحق « آخران من غيركم » إنما هو إيقاف لهما « إن ارتبتم » فيهما ، لمكان عدم إيمانهما ، فليُجبر ذلك الكسر بجابر عند الارتباب لا سواء ، هو إقسامهما بالله بعد الصلاة ، ان يصليا صلاتهما حسب شرعتهما ، إن كانت هناك مهلة إلى وقت الصلاة ، وإلا فصلاة نافلة تحلق على كل شرائع الله ، فهي على أية حال ليست صلاة الموصين إذ لا رباط لها بخلق حالة الاطمئنان بصدقهما في إقسامهما بالله ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فهي تنهاهما أن يشتريا به ثمناً ،

ثم « فيقسمان بالله » بعد الصلاة ، فهذه سياجات ثلاث له آخران من غيركم : ١ - عدلهما في شرعتهما ، ٢ - إقسامهما بالله توكيداً لصديق شهادتهما ألا يشتريا به ثمناً قليلاً ، و ٣ - أن ذلك الحلف هو بعد صلاتهما ، وهذه الثلاث تسد فراغ إيمانهما « إن إرتبتم » .

ثم « إن عُثِر » والعائر هو صاحب الحق في الوصية وصياً وموصى إليه ، « علي أنهما استحقا » طلباً لتحقيق إثم هو إبطاء عن الثواب ، إبطاء عن حق الوصية ، فـ « شاهدان » « آخران يقومان مقامهما » في هذه الشهادة ، وهما « من الذين استحق عليهم » الإثم ، فالإثم المستحق به « آخران من غيركم » هو الفاعل له « استحق عليهم » ثم « الأوليان » وصف ثان له « آخران يقومان » فـ « الذين استحق عليهم » هنا هم أصحاب الوصية وصياً وموصى له وورثة ، فـ « الأوليان » هما من هؤلاء ، إن ورثة فهم أحق من الكل ، وإن موصى لهم فأحق من الوصي ، « فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين » .

﴿ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١٠٨) :

« ذلك » التأكيد الأكيد في أبعاد الشهادة للوصية ، والحيطة البالغة فيها « أذنَى أَنْ يَأْتُوا » « آخران من غيركم » « بالشهادة على وجهها » دون إثم أو ظلم ، وحين لا يأتون « أو يخافوا أن ترد أيمانهم » بعد أيمانهم « أولاء » الآخرين الأوليان فيفتضحوا في شهادتهم الآثمة « واتقوا الله » في كل حقول الشهادة « واسمعوا » عظة الله ، وشهادة الله وحق الله واعلموا ان « الله لا يهدي القوم الفاسقين » (١) .

(١) المصدر اخرج الترمذي وضعفه وابن جرير وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة من طريق أبي النضر وهو الكلبي عن باذان =

مولى أم هاني عن ابن عباس عن تميم الداري في هذه الآية قال : برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان الى الشام قبل الاسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له بديل بن أبي مريم بتجارة ومعه جام من فضة يريد به الملك وهو عظم تجارته فمرض فأوصى اليهما وامرهما أن يبلغا ما ترك أهله ، قال تميم فلما مات اخذنا ذلك الجام فبعناه بالف درهم ثم اقتسمناه أنا وعدي بن بداء فلما قدمنا الى أهله دفعنا اليهم ما كان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع الينا غيره ، قال تميم فلما اسلمت بعد قدوم رسول الله (ص) المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر وأديت اليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم ان عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله (ص) فسألهم البينة فلم يجدوا فامرهم ان يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فانزل الله هذه الآية فقام عمرو بن العاصي ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بداء .

وفيه عن ابن عباس قال خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى اليهما فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخصوصاً بالذهب فأحلفهما رسول الله (ص) بالله ما كتماه ولا اطلعنا ثم وجد الجام بمكة فقبل اشتريناه من تميم وعدي فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا احق من شهادتهما وأن الجام لصاحبهم وأخذ الجام وفيه نزلت « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم . . . » وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال كان تميم الداري وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران الى مكة في الجاهلية ويطيّلان الإقامة بها فلما هاجر النبي (ص) حولاً متجرهما الى المدينة فخرج بديل بن أبي مارية مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة فخرجوا جميعاً تجاراً الى الشام حتى اذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصيته بيده ثم دسها في متاعه وأوصى اليهما فلما مات فتحا متاعه فأخذوا منه شيئاً ثم حجّزاه كما كان وقدما المدينة على أهله فدفعوا متاعه ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئاً فسألوهما عنه فقالوا هذا الذي قبضنا له ودفع الينا فقالوا لهما هذا كتابه بيده قالوا ما كتبنا له شيئاً فترافعوا الى النبي (ص) فنزلت هذه الآية فأمر رسول الله (ص) ان يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا له غير هذا ولا كتبنا فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ثم ظهر معهما على إناء من فضة منقوش ممّوه بذهب فقال أهله هذا من متاعه ولكننا اشتريناه منه ونسينا أن =

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ

الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرُ
نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ
كَهَيِّئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي
وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ

نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا فترافعوا إلى النبي (ص) فنزلت الآية: وإن
عشر على أنهما استحقا إثمًا « فأمَرَ النبي (ص) رجلين من أهل بيت المبيت أن يحلفا على
ما كتما وغيبا ويستحقانه ، ثم ان تميم الداري أسلم وبايع النبي (ص) وكان يقول :
صدق الله ورسوله ، أنا أخذت الإناء . . .

أقول : لأن شؤون النزول المنقول ليست قطعية ، وانها على قطعيتها لا تحدد الآية
بنفسها فضلاً عن ان تنسخها ، فلا نصدق مما نقلناه إلا الموافق لما استفدناه من هذه
الآيات حول الوصية .

مُبِينٌ ﴿١١١﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي
 وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَآشَهِدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ إِذْ قَالَ
 الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
 يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
 وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَذَكُورٌ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٤﴾
 قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ
 السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ ۖ
 وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا
 عَلَيْكُمْ ۖ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم مِّنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ
 أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنَ دُونِ اللَّهِ
 قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۖ إِنْ
 كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي

نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا
أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ
شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ
عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾
قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (١٠٩):

هنا يسأل المرسلون « ماذا أجبتكم » وفي أخرى يسأل المرسل إليهم ماذا
أجبتكم المرسلين : « ويوم يناديههم فيقول ماذا أجبتكم المرسلين . فعميت
عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون . فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً
فعسى أن يكون من المفلحين » (٢٨ : ٦٧) وفي ثالثة يجمع بينهما في

السؤال : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » (٧:٧) .

فسؤال المرسل إليهم سؤال إستفهام استفحام عمن خالف الرسل ، واستعظام لمن اتبعهم ، وسؤال المرسلين هو سؤال إعلام وتعظيم ، فهنا « لا علم لنا » لهم جواب ، ولأنهم لم يقصروا في رسالاتهم فليس لهم تباب وعتاب .

وهنا في استجواب الرسل نجد الجواب « لا علم لنا » وهم عارفون الجواب حيث واجهوا مصدقين ومكذبين ؟ ثم الله أشهدهم على ما هم غائبون ليشهدوا يوم يقوم الأشهاد ، فقد يعنون تخضعاً أمام الله حيث لا يسألهم إستعلاماً فـ « إنك أنت علام الغيوب » أم ويعنون « لا علم لنا » كما يحق حيطة على كل ما أجبنا ، فقد أجبنا أمام من واجهناهم كما « وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد » (١١٧) فالمتقي من العلم هو علم الغيوب « إنك أنت علام الغيوب » .

ولأن العلم بالإجابة كأصل ، الغائبة عنهم أحياء وأمواتاً ، ذلك مسلوب عنهم مهما علموا أقوالهم وأعمالهم بما عرفهم الله كما تدل آيات شهادة الرسل على الأعمال ، فـ « لا علم لنا » صادقة أولاً وأخيراً ، فأولاً وقبل أن يعرفهم الله لا علم لهم إلا ما واجهوه ، وأخيراً بعدما عرفهم الله لا علم لهم محيطاً كما يعلم الله ، ثم وقضية الأدب الرسالي ، هي الاعتراف بالجهل أمام الرب تبارك وتعالى .

ومن جهة ثالثة بما أن العلم بغيب النيات والطويات خاص بالله فـ « إنك أنت علام الغيوب » وليس العلم بالمظاهر .. مهما خلق على كلها بإذن الله - ليس علماً أمام العلم بالغيوب ، إذ « لا علم لنا » كما يكفي « إنك أنت علام الغيوب » .

فشهداء الأعمال لا يشهدون إلا بمظاهرها الحاضرة لديهم أو المحضرة بإذن الله عندهم ، وأما النيات وسائر الطويات فهي المختصة بعلام الغيوب ، وقد يكون ذلك التعليم يوم القيامة بعد ذلك التساؤل ، حيث العلم الطليق يوم الدنيا لهؤلاء الشهداء هو مما يصد عنهم كل ضرٍ وشرٍ كما يجلب كل خير ، وذلك العلم مسلوب عن الرسول (ص) فضلاً عن سواه كما قال الله عنه : « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » (١٨٨:٧) فمن الغيب المستكثر للخير والصاد عن مسّ السوء هو العلم بأعمال المكلفين ككل ، وبنياتهم وطوياتهم ما تشمله الشهادة يوم يقوم الأشهاد .

إذاً فالجامع بين واقع الشهادة من الأشهاد يوم يقوم الأشهاد ، وعدم علمهم بمادة الشهادة ، هو أن ذلك العلم يختص بما بعد الموت وبعد ذلك التساؤل ، ومما يشهد له قول المسيح « وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » . (١١٧:٥) .

ثم وهنا في « علام الغيوب » لمحة إلى أن علمنا بغيب الأعمال الظاهرة حين نغيب عنها هنا أم بعد الموت ، هو علم قليل بغيب ما كما علمتنا ، ولكن العلم الحق وحق العلم بكل الغيوب ، إنه يختص بك .

إذاً « لا علم لنا » يعني علماً وافياً بما أجبنا ، فالإجابات بالنيات والطويات وهي محاور الإجابات غائبة عنا لا علم لنا بها ، ثم إجابات الأقوال والأعمال وهي مظاهر الإجابات ، إنها ليست بالتي تحلّق على كل المسؤول عنهم هنا « ماذا أجبتكم » ؟ .

ذلك ، ومن جهة رابعة قد يكون موقف المسائلة أذهلهم عما كانوا يشهدون حياتهم وما أشهدهم الله حياتهم ومماتهم ، وفي الحق إنه موقف مذهل مزلزل كل الخليقة مهما كانوا من الرسل .

فحين ينسى الإنسان ذاته أمام ربه فقد ينسى متعلقاته بأخرى ، وما علم الرسل بما أجيبوا وسواء علماً لهم ذاتياً ، ولو كان لكان منسياً كما الذوات ، وقد تجمع هذه الثلاث : « لا علم لنا سواك » ^(١) فلولاك لما كان لنا علم ، ثم ولا علم لنا أمامك ، فنحن صغار صغار أمامك يا رب فيما أنت أعلم به منا ، وأما حين تستشهدنا بما أشهدتنا من أعمال عبادك فنقيم شهادتك بإذنتك « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجثنا بك شهيداً على هؤلاء . . » (١٦: ٨٩) ، أجل فعند ذلك « طاشت الأحلام وذهلت العقول فإذا رجعت القلوب إلى أماكنها « نزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله » (٢٨: ٧٥) ^(٢) .

(١) نور الثقلين ١: ٦٨٨ في معاني الأخبار بسند متصل عن موسى بن جعفر قال : قال الصادق عليهما السلام في هذه الآية : « يقولون لا علم لنا سواك » .

(٢) في الدر المنثور ٢: ٢٤٢ - أخرج الخطيب في تاريخه عن عطاء بن أبي رباح قال جاء نافع بن الأزرق إلى ابن عباس فقال: والذي نفسي بيده لتفسرن لي آية من كتاب الله عز وجل أو لا كفرن به فقال ابن عباس ويحك أنا لها اليوم أي؟ قال : أخبرني عن قوله عز وجل : يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا ، وقال في آية أخرى : ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله ، فكيف علموا وقد قالوا : لا علم لنا - إلى قوله - : فقال ابن عباس ثكلتك أمك يا ابن الأزرق إن للقيامة أحوالاً واهوالاً وفظائع وزلازل فإذا تشققت السماوات وتناثرت النجوم وذهب ضوء الشمس والقمر وذهلت الأمهات عن الأولاد وقذفت الحوامل ما في البطون وسبحرت البحار ودكدكت الجبال ولم يلتفت والدالي ولد ولا ولد إلى والد جيء بالجنة تلوح فيها قباب الدر والياقوت حتى تنصب على يمين العرش ثم جيء بجهنم نقاد سبعين ألف زمام من حديد ممسك بكل زمام سبعون ألف ملك لها عينان زرقاوان تجر الشفة السفلى أربعين عاماً تخطر كما يخطر الفحل ولو تركت لأنت على كل مؤمن وكافر ثم يؤتى بها حتى تنصب عن يسار العرش فتستأذن ربها في السجود فيأذن لها فتحمده بمحامد لم يسمع الخلاق بمثلها تقول لك الحمد يا إلهي إذ جعلتني انتقم من أعدائك =

فيا للهلل من ذلك الإستجواب الرهيب العجيب الذي يذهل الرسل ما كانوا يعلمون بما علّموا ، فإنه يوم الحشر العظيم والحشر العميم من الملا الأعلى والأدنى والمتوسطين من الملائكة والجنة والناس أجمعين ، الإستجواب الذي يراد به المواجهة ، مواجهة المرسل إليهم أجمعين برسلهم أجمعين ، مواجهة المصدقين منهم والمكذبين ليعلن في موقف الإعلان أن هؤلاء الرسل الكرام إنما جاءوا من عند الله العزيز الحكيم ، وما هم أولاء مسؤولون بين يدي رب العالمين في ذلك اليوم العظيم .

فالرسل - إذاً - يعلنون أن العلم الحق وحق العلم هو الله وحده لا شريك له ، وأن ما لديهم من علم لا ينبغي أن يُدلوأ به بحضرة صاحب العلم المحيط ، بل وهم عما عندهم ذاهلون ، تحويلاً للشهادة بأسرها إلى رب العالمين ، وحين يأتي موقفها فهو الأمر لإقامة الشهادة « يوم يقوم الأشهاد » حين « يقوم الناس لرب العالمين » وهكذا يكون أدب المتعلم أمام المعلم أن يكل العلم إليه مهما علم ما علّمه .

فكما أنه هو الذي يفتح مغاليق الشهادة الأرضية بأجواءها، وشهادة الأبدان بأعضائها ، كذلك هو الذي يفتح مغاليق ألسنة سائر الشاهدين من المرسلين والكرام الكاتبين فيغرق المكلفون في خضمّ الشهادات أمام رب العالمين .

ذلك ، ولأن المسيح بن مريم عليهما السلام هو الذي فُتِن قومه فيه ، وهو الذي غام الجو حوله بمختلف الشبهات ومختلفها فخاض أناس في

- إلى قوله - ويعلو سواد العيون بياضها ينادي كل آدمي يومئذ يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها حتى ان ابراهيم ليتعلق بساق العرش ينادي يا رب نفسي نفسي لا أسألك غيرها ونيكم (ص) يقول : يا رب امتي امتي لا همة له غيركم فعند ذلك يدعى بالانبياء والرسل فيقال لهم : ماذا اجبتم قالوا لا علم لنا طاشت ...

أوهام وأساطير حول كونه وكيانه ، لذلك هنا يختصه الخطاب كنموذج من ذلك الإستجواب على ملأ الحشر ممن ألوهه وعبدوه من دون الله ، ومن ألوهه وألغوه من درجات الصالحين ، ومن هم عوان حيث آمنوا به رسولاً ، وأمام سائر المرسلين والمكلفين .

وحصالة البحث حول الآية أن ضرورة تلقي شهود الأعمال أعمال المكلفين ليست إلا قبل إلقاءها ، دون ما قبله برزخاً فضلاً عما قبله في حياة التكليف .

إذاً فـ « لا علم لنا » بغيب الأعمال التي ما شهدناها « إنك أنت علام الغيوب » قد تعني - فيما عنت - أننا لا نعلم غيب أعمال المرسل إليهم ، التي ما شهدناها ، إلا أن تعلمنا إياها ولما ، ثم الله أعلمهم فاستشهدهم حيث « نزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هااتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله » (٢٨: ٧٥) .

ولو أن شهداء الأعمال كانوا يعلمونها ككل يوم الدنيا لاستكثروا من الخير وما مسهم السوء كما يقول الله تعالى عن الرسول (ص) : « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء » (١٨٨: ٧) .

وكيف يعلم كل الأعمال وهو لا يعرف المنافقين إلا فيما قد يعرفهم الله إياه : « ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم » (١٠١: ٩) .

فكما قد تبرر « لا علم لنا » بهول الموقف المذهل ، وأدب الحضور ، كذلك يبرر أنهم لما يعلموا غيب الأعمال ثم أعلمهم الله ليشهدوا .

ولماذا ذلك السؤال العضال ؟ لكي نعلم أنهم على محذرتهم الرسالي ليسوا على شيء أمام الله ، وأن هول الموقف يذهلهم كما يذهل الآخرين : فـ « إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما

ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد « (٢٢: ١) .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١١٠) :

هنا « إذ قال الله » بصيغة الماضي دليل أن ذلك السؤال كان في حياته أو بعد رفعه وإن كان قد تشمل بعد موته ويوم القيامة مضياً للمستقبل قضية تحقق الوقوع كأنه مضى وقد مضى ، فقد يصدق المروي عن النبي (ص) : « إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممها ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقربها .. » ^(١) ثم « فلما توفيتني .. » في استجواب آخر تؤكد أن هذه الاستجابات كلها بعد رفعه ، ثم بعد موته ، ومن ثم يوم القيامة ، مواقف ثلاثة قد تعنيها كلها « إذ قال الله » بمرتبها فـ « إن الله إذا علم أن شيئاً كائن أخبر عنه خبر ما قد كان » ^(٢) وهنا وفي آيات بعدها يعدد الله تعالى على المسيح ابن مريم عليهما السلام خمساً أصيلة من نعمه ، عليها أم عليه ، تذكيراً بعظيم منته تعالى عليه في هذه الإذاعة القرآنية وليذكر أولوا الألباب فلا يقولوا : إنه الله أو ابن الله .

(١) الدر المنثور ٢: ٣٤٦ - اخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر وابن مردويه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله (ص) : ... يقول يا عيسى ابن مريم : اذكر نعمتي .. ثم يقول : «أنت قلت للناس .. فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو امرنا بذلك .. فيجاثيهم بين يدي الله الف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم الى النار .

(٢) نور الثقلين ١: ٦٩٢ في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام ...

١ - « اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً » فقد كانت نعمة تكلمه في المهد تبرئة لهما فهي نعمة عليهما ، ثم نعمة تكلمه كهلاً برسالة الوحي تحقيقاً حقيقاً بالله لهما إذ أكد براءته وأمه مما قيل عليهما ، وأكد بركتهما في هذه الرسالة السامية ، فتكلم المسيح (ع) في المهد عنى واقعاً هو براءتهما ، ومستقبلاً هو رسالته ، فلم يكن وقتئذٍ نبياً ، ومما يبرهنه « وكهلاً » بعد « مهداً » حيث الفاصل بينهما خلوة عن ذلك التكلم الرسولي ، فتكلمه في المهد كان رسالياً في بعده وهو « كهلاً » كان رسولياً بكل الأبعاد ، ثم لا بُعد رسالياً ولا رسولياً لتكلمه بين « مهداً وكهلاً » ، ومما تشهد له النعمة التالية :

٢ - « وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل » إذاً فما كان معلماً رسولياً هذه الأربع وهو في المهد ، فإنما علمها « كهلاً » رسولاً برسالة الوحي .

وهنا « الكتاب والحكمة » قبل « التوراة والانجيل » علّه من ذكر العام قبل الخاص ، حيث التوراة والإنجيل هما كتابان حكيمان ، فقد علم قبلهما أو معهما كل كتاب وحكمة بالوحي ، تحليقاً لوحيه الرسالي على كل كتابات الوحي من ذي قبل وكل الحكيم المطوية فيها .

ولأن تعليم هذه الأربع - وهو رسالته جمعاء - لا يكفي دليلاً عليها عند الناس فإلى نعمة ثالثة هي آيته الرسولية بعد الرسالية المعطاة إياه :

٣ - « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير . . . وإذ تخرج الموتى بإذني » وهذه ذكرى شاملة لعديد آياته ومديدها ، تبيناً أنها كلها بإذن الله ، فلم يكن منه إلا صنعة ونفخة ولكن الخلق إنما هو « بإذني » إذناً غير مخول إلى المسيح (ع) حتى يكون هو الخالق وكيلاً أو بديلاً ، فلم يأذن الله له في الخلق والإحياء أمّا أشبه من آية ، فلإنما فعله في حقل الآيات - فقط - تخلق ، دون تخليق ، وتُحيى دون إحياء ، وتبرىء دون إبراء ، فالجانب

الواقعي من هذه الآيات هو « بإذني » والجانب الصوري هو من فعلك ، فلا إذن تكويناً في هذه الأمور الربانية ، وإنما هو إذن رباني فيها بموازات ما فعله المسيح (ع) .

ذلك ، فـ « تخلق » كـ « تخرج وتبريء » لا تعني أن حقيقة هذه الأعمال هي له ، فإن « بإذني » تحولها عن ظاهر فعله إلى واقع فعل الله .

ولا يعني الإذن تخويلاً أو تحويلاً أم توكيلاً له في هذه الآيات الرسولية ، وإنما يعني قرناً لإذنه تكويناً مع هذه المحاولات المأذونة تكليفاً ، فـ هل من خالق غير الله « (٣: ٣٥) ؟ » قل الله خالق كل شيء « (١٠٢: ٦) » .

ذلك ، وتكرار « بإذني » مرات أربع في هذه الآيات الرسولية الأربع ، دون أن تذكر مرة واحدة بعدها أجمع ، إنه تكرار قاصد إلى تزييف القول : أنه أعطي الإذن علماً وقدرة ثم حققه تدريجياً عند كل آية .

كلّا ! فكما أنه لم يكن خالقاً بنفسه ، كذلك لم يكن خالقاً بالإذن المخول تكويناً إليه ، وإنما كان الله هو الذي يأذن في تحقيق كل آية آية ، لا أنه يأذن له في تحقيق آية آية ، ولأن الآية الربانية ليست إلا بعلم طليق وقدرة طليقة هما من اختصاصات الربوبية ، فلا تنتقل إلى أي من المربوبين كما لا تنتقل ذاته إلى ذواتهم ولا صفاته إلى صفاتهم فإنه « باين عن خلقه وخلقته باين عنه » ! .

وفي نظرة عميقة هنا يقتسم كيان الخلق للطير اقتساماً بيناً بين المسيح المأذون وبين الله الخالق ، فللمسيح « تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني » فلم يكن مخلوقه بالأذن الأول هو خلق الطير حتى في جسمها ، وإنما « كهيئة الطير » وهي شاكلتها الطينية ، فقد يشاركه كل خالق من الطين وسواه كهيئة الطير دون آية ميزة هنا اللهم إلا « بإذني » حيث أذن له الله في

ذلك الخلق مقدمة لما يأذن الله في خلق الطير ، فالإذن الأول تكليفي بسماع ذلك الخلق أمراً من عنده تعالى لما يرومه من خلق الطير .

وعملية ثانية هي كالأولى في عدم كونها من الخلق « فتنفخ فيه » كمرحلة ثانية منه تحضيراً للتكوين الرباني « فتكون طيراً بإذني » والإذن هنا ذو بعدين ، فالأول كالأول في تشريعية الإذن ، فلو لم يأذن الله له أولاً وثانياً لم يكن له ما فعله لغاية التكوين الرباني ، وأما الثاني فهو تكوين الطير جسمياً وروحياً ومما صنعه بإذن الله كهيئة الطير ونفخ فيه ، فالنص هنا « فتكون طيراً » لا « فتكوّن طيراً » فذلك الإذن التكويني موجه إلى مصنوع المسيح المنفوخ فيه وليس إلى المسيح الصانع النافخ .

وليس « فتكون طيراً بإذني » إلا كـ « إنما امرنا لشيء » إذا أردناه أن نقول له كن فيكون « حيث المتعلق للإذن هو متعلق التكوين دون وسيط ، بفارق أن سائر تكوينه تعالى هو خالص التكوين ، وهذا تكوين كحجة على رسالة المسيح حيث كوّن طيراً بإذنه قرناً له « تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني » .

وصيغة الخلق هنا بالنسبة للمسيح - ولا خالق إلا الله - إنما تعني أنه صنع بإذن الله ما هو مادة لخلق الله دون سائر الصانعين لتمثيل حيث لا يخلقها الله حيواناً أو إنساناً ، إذأ فبين صنع الانسان وخلق الله تعالى عموم من وجه ومادة الاجتماع هي الآيات الرسولية التي فيها محاولات للرسول قرن فعل الله ، ثم الافتراق هو في خلق الله دون آية ، وصنع غير الله دون قرن لخلق الآية الربانية .

ذلك ، والإذن التكويني لا يتعلق بطبيعة الحال إلا بمادة الخلق « فتكون طيراً بإذني » دون وسيطه المسيح وإلا لكان « فتكوّن طيراً بإذني » .

ولو عني من الإذن نيابة المسيح ووكالته عن الله في ذلك الخلق لم

يعبر عنها بالإذن مهما كان « فتكوّن » بديلة عن « فتكون » بل هو عبارة أخرى كـ « فتخلق طيراً بقوتي التي أعطيتك » وما أشبهه .

ولو كان المسيح هنا هو الخالق المخوّل والموكل بذلك الخلق لما صح طائل التعبير هكذا ، وإنما العبارة الصالحة الناصحة عنه « وإذ تخلق من الطين طيراً بقوتي » .

وهكذا تعني « وتبريء الأكمه والأبرص بإذني » بإشارة الإبراء وإرادته الظاهرة منه ، وإذن التكوين منه تعالى ، وكذلك « وإذ تخرج الموتى بإذني » إخراجاً عن أجدانهم بإذن السماح التكليف ، وإخراجاً عن الموت إلى الحياة بالإذن التكوين ، فالإذن الأول موجه إلى المسيح نفسه والثاني موجه إلى الموتى المخرجين .

ذلك ، وعبارة أخرى عن فعلة المسيح وإذن الله : « أني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبريء الأكمه والأبرص بإذن الله وأحيي الموتى بإذن الله » (٢٩: ٣) .

فإن بإذن الله في خلق الطير ذو قواعد ثلاث : - أخلق - فانفخ . . فيكون طيراً ، وكله « بإذن الله » مهما اختلف الإذن في « فيكون » عنه في الأولين تكويناً وتشريعاً .

وفي تذكير الضمير هناك : « فيه - فيكون » وتأنثه هنا « فيها - فتكون » لمحة باهرة أن المنفوخ فيه لم يكن إلا « الطين كهيئة الطير » فقد ذكر الضمير اعتباراً بالطين وأنت اعتباراً بهيئة الطير ، فلا عاذرة للمتشبثين بمثل هذه الآية في تخيل الولاية التكوينية لغير الله أيأ كانوا .

ولأن تكملة الرسالة وتحقيقها كما يريد الله ليست إلا بالكف عمن ينقصها أو ينقضها فإلى نعمة رابعة :

٤ - « وإذ كففت بني اسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا

منهم إن هذا إلا سحر مبين » فقد كفهم عن تغلب حجاجهم عليه ، وأخيراً لما أرادوا صلبه كفهم عن صلبه فـ ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم .

ثم « الأكمه » هو من ولد أعمى ، كما الأعمى من ولد بصيراً ثم عمي ، و « الأبرص » من به برص خلقياً ، ولا يقدر على تغيير الأصل إلا من خلق الأصل .

ومن ثم « إذ تخرج الموتى بإذني » فالإخراج له نسبة إليك دعاء وإشارة ، ثم النسبة الأصيلة إلى الله حيث تخرج الموتى بإذني دون إذنك وحولك وقوتك ، والإخراج بديل الإحياء ، حيث يدل على إخراجهم من قبورهم ، للتدليل على ثابت الموت دون ظاهره ، فإن غير المقبور ، الساكن الحس ، قد لا يكون ميتاً في الواقع .

وهنا الإذن التكويني متعلق بـ « تكون طيراً » حيث تتكون طيراً بإذن الله ، فلم يقل « فتكون طيراً بإذني » حتى يكون الإذن موجهاً إليه في ذلك التكوين ، إذا فالإذن هنا كـ « كن » في سائر التكوين « أن نقول له كن فيكون » .

فإنما المحور في هذه الأربع وغيرها من آيات الله البينات رسولية ورسالية ، هو إذن الله تكويناً لها قريناً بظاهر المحاولة في إبرازها ، فلا فارق بين محاولات الرسل في إظهار الآيات وبين سائر المحاولات إلا أن الله يأذن تكويناً عند محاولات الرسل تدليلاً على إختصاصهم بالله وصدقهم في رسالة الوحي ، ولا يأذن عندما سواها من محاولات فإنه تضليل ، فقد يأذن في محاولات لإبراز آيات ، ثم يأذن عندها بتحققها ، والرسل إنما هم في ذلك الحقل بين إثنين اثنين: تكليفاً في الأول وتحقيقاً منه في الثاني ، فـ « تخلق » تسوية للطين على شاكلة الطير ، ثم تحولاً له إلى الطير ، كلاهما « بإذني » ثم « فتنفخ فيها - فتكون طيراً » كلاهما « بإذني »

و « تبرئ الأكمه والأبرص » محاولة الإبراء وتحققه كلاهما « بإذني » « وإذ تخرج الموتى » محاولة وتحققاً كلاهما « بإذني » .

فكما لم يكن واقع هذه الخوارق إلا باذن تكويني من الله ، كذلك لم تكن المحاولات المناسبة لها إلا باذن تكليفي من الله ، فليس الله ليأذن في حقل الآيات تحقيقاً إلا بعدما يأذن لمحاولة الرسل كما يحق .

فلو صنع المسيح ألف صنعة ، أم نفخ ألف نفخة في آلاف من السنين، لم يكن الله ليأذن في تحقق هذه المحاولات ما لم يأذن بها من ذي قبل فـ « إنما الآيات عند الله » و « إنما أنزل بعلم الله » فالقدرة والعلم الناتجة عنها الآيات يختصان بالله دون سواه .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١١١) :

الحواريون هم المؤمنون الأولون بالسيد المسيح (ع) وترى « أوحيت » تعني وحي الرسالة ؟ ولا يساعده « أن آمنوا بي » حيث الإيمان بالله يسبق وحي الرسالة بأشدّه وأشدّه، لأن الرسل مصطفون بين الأصفياء ! بل ويزاده « هل يستطيع ربك » وما أشبه في الآية التالية حيث تدل على بساطة الإيمان لأضعفه دون وسيطه فضلاً عن أشدّه بأشدّه .

إذا فقد « ألهموا » ^(١) دون رسالة مهما كانت جزئية هامشية ، وذلك هو الإيمان الأول، ومن ثم الأخير، وهو بطبيعة الحال أكمل وأفضل : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وإشهد بأننا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » (٥٣: ٣) .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٨٠ في تفسير العياشي عن محمد بن يوسف الصنعاني عن أبيه قال سألت أبا جعفر عليهما السلام : « إذ أوحيت إلى الحواريين » ؟ قال : ألهموا .

ذلك ، وإلهام الإيمان في أصله أدنى من الإلهام إلى المؤمن كما
« وأوحينا إلى أم موسى أن ارضعيه . . » (٧: ٢٨) إذ كان افضل وأعلى من
وحي الإلهام إلى الحواريين . ولقد كان ذلك الإيحاء اليهم :

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ
عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٢) :

فلقد أوحى الله إليهم أن آمنوا عند هذه القالة الغائلة فقالوا « آمنا
واشهد بأننا مسلمون » وعله بعد سابق الآيات الرسولية للمسيح (ع) .

وترى الموحى إليه بالرسالة يقول لمحوّر الرسالة « هل يستطيع ربك »
شكاً في إستطاعة الله ، وهتكاً في التعبير عن الله « ربك » دون « الرب -
أو - ربنا - أو - رب العالمين » فكان جوابهم « إتقوا الله إن كنتم مؤمنين »
حيث هددوا توبيخاً بعدم الإيمان الصالح لحدّ اللايمان .

وتوجيه الآية بما يعارض نصها قبيح ، مثل « هل يستطيع ربك »^(١)
زعماً أنها تعني هل يستطيع أن تطلب من ربك أو « هل يطيعك ربك »^(٢) سناداً
لهما إلى معصوم ، ذلك تزييف للثقل الأكبر فرية عليه بالثقل الأصغر ، ولا
سيما في الآخر فإنه يجعل الله في طوع عبده ! .

وكل ذلك للحفاظ على زعم رسالتهم، فقد أولوا الإستطاعة بمعنى
الإطاعة ، والإطاعة بمعنى الطوع ، والطوع بمعنى الرضا ، سلسلة من

(١) الدر المشهور ٣: ٣٤٦ - اخرج الحاكم وصححه الطبراني وابن مردويه عن عبد الرحمن

بن غنم قال سألت معاذ بن جبل عن قول الحواريين : هل يستطيع ربك أو يستطيع
ربك ؟ فقال : أقرأني رسول الله (ص) هل يستطيع ربك .

(٢) المصدر اخرج ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي ان علياً (ع) كان يقرأها : هل يستطيع

ربك ، قال : هل يطيعك ربك ، ومثله عن السدي .

التأويلات العليلة في « هل يستطيع » حتى يستطيعوا الحفاظ على عصمة متخيلة للحواريين .

وهذه من التأويلات الهارفة الخارفة من هؤلاء الله الذين لا يرجون لكلام الله وقاراً ، ويكأن الدلالات القرآنية لا تمشي إلا كما يهوون ويمشون ! .

وترى ما هو الفارق بين هذه القيلة الغيلة وبين قالة اليهود : « ادع لنا ربك . . . » بل ان قالتهم أولاء أقل إساءة من قالة هؤلاء ! .

ذلك ، وفي اقتراح آية سماوية وبهذه الصيغة المهينة بعدما رأوا آيات المسيح (ع) الرسولية حيث « رسولاً إلى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم . . . » (٤٩: ٣) تدل على ان بزوغ دعوته كان بآيات إضافة إلى آية ولاده من ذي قبل .

إن في ذلك الإقتراح أساءة أدب من هؤلاء ، فأوحى إليهم أن آمنوا بي وبرسولي حيث كانت قالتهم قالة اللايمان .

فقد استحقوا من الله تنديدات شديدة تحملها الآيات التالية ومنها هنا « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » : تقوى عن طغواهم على الله ، وعن قيلة الشطحات وتطلبية مثل تلكم الآيات من الله ، مسحوبة بالتشكك في استطاعة الله ! .

فالمسيح (ع) الذي هو بنفسه آية وقد اتى بآيات فهم غرقى آية البينات ، كيف يسوغ لهم أن يتطلبوا إليه « هل يستطيع ربك . . . » ؟ فلذلك يوحى إليهم هنا « أن آمنوا بي وبرسولي » .

فعجباً من أناس يحاولون تأويل الآية خلاف نصها حفاظاً على عصمة متخيلة للحواريين في بداية أمرهم ، تقديماً لها على عصمة القرآن العظيم وكما أولوا عصيان آدم إلى ترك الأولى وما أشبه من تأويلات عليلات هي

مس من كرامة العصمة القرآنية .

ولا يذكر الإنجيل قصة تطلب المائدة إلا بصورة أخرى هي أنكى وأضل سيلاً ، أنهم تطلبوا منه أن يحول لهم الماء خمرًا فأمنوا به لما تحول (١) !

وبصورة أخرى هي أخف وطأة وأقل مساً من كرامة الإيمان (٢) والصورة الواقعية هي المذكورة هنا بما يليها ، محافظة على كرامة الله

(١) في انجيل يوحنا ٣: ١ - ١١ - ١ - « وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل وكانت ام يسوع هناك ٢ - ودعي ايضاً يسوع وتلاميذه الى العرس ٣ - ولما فرغت الخمر قالت ام يسوع له ليس لهم خمر ٤ - قال لها يسوع مالي ولك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد ٥ - قالت أمه للخدام مهما قال لكم فافعلوه ٦ - وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة ٧ - قال لهم يسوع املاؤا الأجران ماءً فملأوها إلى فوق ٨ - ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا الى رئيس المتكا فقدموا ٩ - فلما ذاق رئيس المتكا الماء المتحول خمرًا ولم يكن يعلم من اين هي ولكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء وعلموا دعاء رئيس المتكا العريس ١٠ - وقال له كل انسان انما يضع الخمر الجيدة أولاً ومتى سكروا فحينئذ الدون اما انت فقد ابقيت الخمر الجيدة الى الآن » هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل واظهر مجده فأمن به تلاميذه !

(٢) ففي انجيل متى في منتهى الأصحاح الخامس عشر : واما يسوع فدعا تلاميذه وقال : اني اشفق على الجميع لأن لهم الآن ثلاثة ايام يمشون معي وليس لهم ما ياكلون . ولست اريد ان اصرفهم صائمين لثلا يخوروا في الطريق . فقال تلاميذه من اين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عنده ؟ فقال لهم يسوع كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا : سبعة وقليل من صغار السمك . فأمر الجموع ان يتكثوا على الأرض واخذ السبع خبزات والسمك وشكر وكسر واعطى تلاميذه والتلاميذ اعطوا الجمع فاكل الجمع وشبعوا ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة والاكلون كانوا اربعة آلاف ما عدا النساء والأولاد .

اقول : وورد مثلها في سائر الأناجيل .

٣٠٠ الجزء السابع

ومسيحه ، وبياناً لقلّة إيمان الحواريين رغم توفر الآيات الرسولية للسيد المسيح (ع) .

ذلك ! وإلى عاذرتهم الغادرة المائرة المايدة في تطلب المائدة حيث تضيف إلى قالتهم غالة أخرى :

﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (١١٣) :

فهنا لا «أن نأكل منها» ولا «تطمئن قلوبنا» ولا «نعلم أن صدقتنا» ولا « نكون عليها من الشاهدين » لا تبرر شيء منها ذلك السؤال الهاتك الفاتك ، حيث الأكل غير مخصوص بمائدة السماء ، والحاجة المدقعة إلى أكل ، أم التبرك بمائدة السماء . تقضى بعبارة أدبية كـ « هل تطلب من الله أن ينزل عليها مائدة . . » .

وهلاً تأخر « نريد أن نأكل منها » على الثلاثة الأخرى ، تقدماً للحاجة الباطنية على البطنية الروحية ؟

فهذا مما يبرهن أن تطلبهم الخواء البواء لم يك يقصد منه - كأصل - مزيد الإيمان والإيقان ، حيث الدور الأول فيه « نريد أن نأكل منها » ومن ثم « وتطمئن قلوبنا » .

ثم كيف « تطمئن قلوبنا » فحين لم تطمئن قلوبهم بسائر الآيات البيّنات الرسولية العيسوية فلا دور للإيمان أو مزيده بآية في سؤال الأكل ، وكذلك « نعلم أن صدقتنا » ومن ثم « ونكون من الشاهدين » أفلم يكونوا شاهدين في سابقة الآيات السابغة ؟ أم هم اعلم من الله بنوعية الآيات القاطعة ؟ فهذه الطلبة هي بعبارة أخرى نكران لآيات المسيح الرسولية ، الظاهرة البارزة لهم من ذي قبل .

إذاً فما زادتهم هذه الأعذار القاحلة غير تخسير ، ظلمات بعضها فوق

بعض ! فالأثر الوارد بحق خلوصهم وتخليصهم أولاء الحواريين مطروح أو مأول بغير البداية من أمرهم الإمر^(١) كما في آية الصف : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة . . » (١٤) وذلك « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت وإتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » (٥٣:٣).

ذلك ، وقد تكون تطلبة آية المائدة من بعضهم دون جمعهم ، ثم المخلصون منهم في آخر أمره هم - فقط - منهم ، أم وممن سواهم ، دون المستحق لعذاب الله فيهم في ذلك التهديد الحديدي « لأعذبه عذاباً . . » .

فعلى آية حال فقد تعدى الحواريون في سؤالهم هذا طور العبودية بأدبها رغم تقدم الآيات الباهرة لرسالة المسيح ، فأوحى إليهم الله « أن آمنوا بي وبرسولي » فقد تشابه أمرهم هذا تطلبات المشركين الطوائلات الغائلات آيات يشتهونها بعد أهم الآيات وأعمها وهي القرآن العظيم ، ولكنهم لحرمة إيمانهم الصالح في مستقبل أمرهم أوحى إليهم أن آمنوا . . وأجابهم فيها بدعاء المسيح (ع) عيداً وآية تنضم إلى سابقة الآيات السابغة مزيداً للحجة وتزويداً للمحجة ، مهدداً إياهم باليم العذاب إن كانوا بها كافرين :

(١) نور الثقلين ١ : ٦٩٠ في عيون الأخبار باسناده الى علي بن الحسن الفضال عن ابيه قال قلت لأبي الحسن الرضا (ع) لم سمي الحواريين الحواريين ؟ قال : اما عند الناس فانهم سموا حواريين لأنهم كانوا قصارين يخلصون الثياب من الوسخ بالغسل وهو اسم مشتق من الخبز الحوار ، واما عندنا فسمي الحواريون حواريين لأنهم كانوا مخلصين في انفسهم ومخلصين لغيرهم من اوساخ الذنوب بالوعظ والتذكر .

﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (١١٤):

وقد بدل « ربك » هنا بـ « ربنا » كما بدل الإستطاعة بواقع المستطاع « أنزل » ، وضمن دعاءه هذا الأديب الأريب سؤلات ثلاث لا تحمل من أسؤلتهم تلك إلا « نأكل منها » بغير التعبير : « وارزقنا » .

فـ « تكون لنا عيداً » كمفخرة في إجابة الدعاء أمام الغلاظ الشداد الألداء من كفر بني إسرائيل « لأولنا وآخرنا » مهما كنا مؤمنين من قبل مطمئنين بسابقة الآيات ، فقد دمج نفسه في متطلبي هذه المائدة ولم يكن ليشارك في رسالة نفسه ولا في استطاعة ربه إستجابة سؤله ، فهذا أدب أول في دعاءه (ع) ، خليصاً عما دعوه ليدعوا ، من سوء الأدب وخلط الإرب . وعيد المائدة فيه تجديد حياة الملة وتنشيط نفوس العائدين وذكرى لهم على مر الزمن « لأولنا وآخرنا »

ثم « وآية منك » هي الأخرى بعد معظم الآيات التي بعثت بها إلى بني إسرائيل ، فكلما كثرت الآيات كثرت الإطمئنانات ، لا لقصور في سابقة الآيات فإنها سابغات ، وإنما لقصور متطلبيها وتقصيرهم ، وليس منهم المسيح نفسه فإن « آية » منكراً ليست إلا للقاصرين والمقصرين ، دون المسيح الذي هو نفسه آية ومعه كبريات الآيات ، التي هي معرفة وهذه بجنبها منكراً .

ومهما كانت تطلبة آية بعد سائر الآيات تطلبة خواء ، ولكنها حين تتضمن « عيداً » فليس الله منها براء ، ولا سيما إذا كانت هذه الآية رزقاً لأبدانهم مع كونها رزقاً لأرواحهم في بعدي العيد والآية .

ومن ثم « وارزقنا وأنت خير الرازقين » مما يلوح أنهم كلهم كانوا في حاجة ملحة مدققة إلى أكل لم يجدوه في أرض الله ، فليطلبوه من خير

الرازقين أن ينزله عليهم من سماءه فانه « هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » والقائل : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » .

ولقد أخرج حاجة الأكل كفرع - رغم ما قدموها كأصل - أدباً بارعاً في الدعاء في تقديم سؤال الروح على سؤال الجسم ، فقد بان البون بين دعاءهم الهارع القارع ودعائه البارع وأين دعاء من دعاء .

وكما البون بين هؤلاء الحواريين بداية ونهاية وبين حوارى نبينا محمد (ص) وأهل بيته المعصومين عليهم السلام ^(١) .

ذلك ولكن أدب المسيح (ع) أثر فيهم كأفضل ما أمكن وأجمله بين هؤلاء اليهود الصلدين الصلتين حيث لازموه وساندوه في مختلف المجالات وكانوا مذياعاً لصوته الرسالي بين الناس ^(٢) .

﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١١٥) :

مرکز تحقیقات فقهی و حقوقی اسلامی

(١) بحار الأنوار ١٤ : ٢٧٤ - ٧ عن الكافي بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) قال : ان حوارى عيسى (ع) كانوا شيعته وان شيعتنا حواريون وما كان حوارى عيسى (ع) باطوع له من حوارينا لنا وانما قال عيسى (ع) للحواريين : من انصاري الى الله قال الحواريون نحن انصار الله « فلا والله ما نصره من اليهود ولا قاتلوهم دونه وشيعتنا والله لم يزلوا منذ قبض الله عز ذكره رسوله (ص) ينصرون ويقاتلون دوننا ويحرقون ويعذبون ويشردون في البلدان جزاهم الله عنا خيراً » .

(٢) ففي البحار (٨) احمد بن عبد الله عن احمد بن محمد البرقي عن بعض اصحابه رفعه قال قال عيسى بن مريم عليهما السلام يا معشر الحواريين لي اليكم حاجة اقضوها لي ، قالوا : قضيت حاجتك يا روح الله فقام فغسل اقدامهم فقالوا : كنا نحن احق بهذا يا روح الله ! فقال : ان احق الناس بالخدمة العالم ، انما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم ثم قال عيسى (ع) بالتواضع نعلم الحكمة لا بالتكبر وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل » .

إذا فلم تكن الإجابة بدعاءهم المسيح أن يدعوا الله ، فإنما هي بدعاء المسيح (ع) حيث خلص دعاءه عما تقولوا وأخلص في دعائه مستنداً إلى تلكم الثلاث التي هي كلها مرضية عند الله .

هنا « قال الله إني منزلها عليكم » برهان لا مرد له أنه أنزلها عليهم فإن الله لا يخلف الميعاد مهما كان الموعدون غير صالحين ، وفيهم مثل السيد المسيح (ع) وهو من أصلح الصالحين حيث دعى ما دعى فأجيب هكذا فيما دعى ، فالحوار حول : هل إن الله أنزل المائدة أم لم ينزلها ؟ إنه بوار من حوار .

وليست قصة استغفائهم المروية بالتي تنقض ما وعده الله مسيحه (ع) فلو أنه تعالى كان قابلاً لاستغفائهم لما كان واعداً لإنجاز طلبتهم ، ولو أن استغفائهم يعقب العفو ، لما كان - إذاً - إعفاء عما طلبه المسيح (ع) فأين دعائه من دعاءهم ! .

وهنا التهديد الحديد بعد نزول آية المائدة بـ « أعذبه عذاباً .. » دليل باهر أنها ما كانت الآية الأولى النازلة لإثبات رسالته ، بل هي آية مقترحة بعد آيات كافية ، وهكذا يكون دور الآيات المقترحة أن يشمل المكذب بها عذاب الإستئصال ، فكما ان تطلب آية المائدة بعد سائر الآيات الفضلى كان من حصائل عدم الايمان فاستحقوا التنديد الشديد « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » كذلك هم يستحقون نكال العذاب إن كفروا بهذه الآية المقترحة .

وهكذا تصرح آيات عدة أن وعيد العذاب يختص بمقترحات الآيات إذا لم يؤمنوا بها ، وبعد إذ أتهم آيات بينات ، ولو أن الحواريين لم يروا - قبل اقتراحهم آية المائدة - آيات المسيح (ع) لم يكن في اقتراحهم هذا كيفما كان تأنيب وقد انبوا بـ « اتقوا الله إن كنتم مؤمنين » ولا وعد التعذيب بعد وقد أوعدوا : « فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » وكما عذب من كفر منهم ان جعلهم خنازير ، ومن سواهم

سورة المائدة / آية ١١٤ - ١١٥ ٣٠٥

« إذ كانوا يجحدون بآيات ربهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » (٣٦: ٤٦) .

ذلك ، ومن ثم قد توحى « وإذ أوحيت . . إذ قال الحواريون . . »
- حيث كان ذلك الإيحاء بعد إقتراحهم آية المائدة - أنهم كان عليهم ذلك
الإيمان بما رأوا من آيات الله البينات، فلما تطلبوا مائدة من السماء أوحى
إليهم « أن آمنوا بي وبرسولي » بما أر يتكم تلكم الآيات .

وأما هذه المائدة السماوية كيف كانت وكم ؟ فلنسكت عما سكت الله
عنه مهما ورد في الآثار لكمها وكيفها مختلف الأخبار .

وهنا بعد صُراح الوعد بإنزال المائدة تهديد شديد بمن يكفر بعده
« فمن يكفر بعد منكم فلإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين » وذلك
الوعيد هو قضية صارم الحجة لصراح المحجة ، فكلما ازدادت الحجة عِدَّة
وعِدَّة ازداد عذاب المتخلفين عِدَّة وعِدَّة ، وكما نرى بمدار الزمن الرسالي
عذابات الإستئصال وسواها على قدر النكرانات لآيات الرسالات بقدر
الحجج البالغة فـ« من يعمل سوءً يجز به » وعلى قدره حيث « إنما تجزون
ما كنتم تعملون » .

ثم « لا أعذبه أحداً من العالمين » مستقبلاً قد يعني تفوق عذابهم على
مستقبل العذابات دون ماضيها ، فما ورد من جعل الكافرين منهم قردة
وخنازير ، تسوية بينهم وبين قردة من اليهود لا يطاردهم « لا أعذبه أحداً من
العالمين » ثم والخنازير أنحس من القردة وقد لا يسبق سابق تحول الإنسان
خنزيراً في أمة من الأمم ولا يلحقه لاحق ، وفي الأثر عن الرسول
الأظهر (ص) « فمسخوا قردة وخنزير » (١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٨ - أخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في
كتاب الأضداد وأبو الشيخ وابن مردويه عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله (ص) : =

٣٠٦ الجزء السابع

ولأن جعل اليهود قردة كأصحاب السبت وارد في القرآن «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين» (٢: ٦٥).

ولم يرد جعلهم خنازير ، وقد أوعدها «عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» وأنبا بالعذابين : «قل هل أنبئكم بشرٍ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ..» (٥: ٦٠) لذلك قد يصدق هذا المروي عن الرسول (ص) انه قوله فما أجمله ، أن البعض من هؤلاء الحواريين حولوا إلى خنازير^(١) حيث الوعيد كان راجعاً إليهم دون من سواهم من الذين كفروا بعد نزول المائدة .

ذلك وليس بذلك البعيد أن يمسح جماعة من الحواريين خنازير وفيهم أنحس منهم وهو يهوذا الأسخريوطي الذي باع المسيح بدراهم ليصلبوه فشبه لهم وصلب بديلاً عنه ، ثم الباقون هم الصالحون الممدوحون في آيتي آل عمران والصف .

انزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا وأمروا الا يخونوا ولا يدخروا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير .

(١) كما في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن ابي الحسن (ع) قال : ان الخنازير من قوم عيسى سألوا نزول المائدة فلم يؤمنوا بها فمسخهم الله خنازير ، وفيه عن عبد الصمد بن بNDAR قال سمعت ابا الحسن (ع) يقول : كانت الخنازير قومًا من القصارين كذبوا بالمائدة فمسخوا خنازير ، اقول : والجمع بين الروايتين هو المروي عن رسول الله (ص) ان جماعة منهم مسخوا قردة وآخرين مسخوا خنازير كل على قدر كفرهم بالمائدة .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ
عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ (١١٦):

عرض لمذاهب اللاهوت :

إن للإنسان وما أشبهه أيًا كان من الخليقة المتكاملة بالعبودية لله قوسين
صعودي ونزولي ، فالنزولي هو دركات التخلف عن معرفة الله وعبوديته ،
والصعودي درجات فيهما .

ثم الصعودي، منه مجبور هو به مأمور، وهو التقدّم في جناحي المعرفة
والعبودية ، سيراً من نقطة العبودية إلى حضرة الربوبية دون أية وقفة في
النشآت كلها ، وحصيلتها كمال المعرفة والعبودية إلى غير ما حدّ ولا نهاية
وكما عن أول العارفين والعبّادين : « ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك
حق عبادتك » وليس في هذا المجال أي منال إلا تنالي الدرجات فيهما ،
فرسالة ونبوة وما أشبه من مراتب العصمة ، دون بنوة ولا نيابة ولا وكالة ولا
خلافة عن الله ، وهذا هو المسلك الصالح لصالحي عباد الله .

ثم إن هناك - خارجاً عن الحق المُرَام - ضرورياً ستة للسالك إلى الله
بجناحي المعرفة والعبودية ، مع كل ضربه من القوس النزولي لله سبحانه :
١ - من سالك إلى الله يستحق كرامة النبوة الربانية مجازياً وهو مستمر
في مسالك المعرفة والعبودية ، وقد تندد به « وقالت اليهود عزيز ابن الله
وقالت النصارى المسيح ابن الله ... » .

٢ - وآخر واصل إلى الله فلا عبادة إذاً لمكان الوصول إلى الغرض
الأسمي مستدلاً بمثل قوله تعالى : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ؟ »
واليقين ذو درجات غير متناهية كما الله غير متناه ولا محدود .

٣٠٨ الجزء السابع

٣ - وثالث حاصل بوصوله على جزء من ذات الربوبية فهو ولد له وكما يدعيه بعض النصارى للسيد المسيح (ع) وتندد به « أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء فقدره تقديراً » .

٤ - ورابع فان بوصوله في ذات الربوبية .

٥ - وخامس إتحد بذات الله كما الأقانيم الثلاثة ، حيث هي واحدة والواحدة هي الثلاثة ! .

٦ - وسادس أصبح هو الله ، وتندد به مثل قوله تعالى : « إن الله هو المسيح ابن مريم - إن الله ثالث ثلاثة - إتخذوني وأمي إلهين من دون الله » .

فقد نزلوا الله تعالى في ذلك المسدس عن منزلة الربوبية إلى اتخاذ الولد تشريفاً أو حقيقة ، أو خارجاً عن المعبودية ، أو إتحاداً ثالوثياً أم وحدانياً بالعبد ..

والقرآن ينسف كل هذه الأقاويل المائلة عن جادة الصواب بصائب البراهين ، تركيزاً على المسلك الأول من مسالك المعرفة والعبودية .

وهنا عرض بصورة التانيب وسيرة التبرء لعيسى ابن مريم من الثالوث المريمي كما هي من المختلقات الشركية للمسيحيين ، كما تصرح الكنيسة الكاثوليكية : « كما أن المسيح لم يبق بشراً كذلك مريم أمه لم تبق من النساء بل إنقلبَت وينوسة : « إلهة » ولذلك تراهم كثيراً ما يحذفون أسماء الله مثل « يهوه » من كتب المزامير ويثبتون مكانها إسم مريم كقوله : إحمداوا الله يا أولاد ، فالكاثوليك لأجل إظهار عبوديتهم لمريم طووا هذا من الزبور وبدلوه إلى « إحمداوا مريم يا أولاد » وهذه الكنيسة كلما صلي فيها مرة واحدة بالصلاة الربانية : « أبانا الذي في السماوات » يصلى فيها

بالصلاة المريمية عشرون مرة (١) .

(١) عن الأب عبد الأحد داود الآشوري العراقي في كتابه الأنجيل والصليب ، ويقول جرجس صال الانجليزي في كتابه مقاله في الاسلام - عندما يذكر بدع النصارى : من ذلك بدعة كان اصحابها يقلون بالوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هي الله ويقربون لها أقراصاً مضفورة من الرقاق يقال لها : كُليْرُس ، وبها سمي اصحاب هذه البدعة كُليْرُن ، وهذه المقالة بالوهية مريم كان يقول بها بعض اساقفة المجمع النيقاوي حيث كانوا يزعمون ان مع الله إلهين هما عيسى ومريم ومن هذا كانوا يدعون مريميين وكان بعضهم يذهب الى انها تجردت عن الطبيعة البشرية وتألّفت وليس هذا بعيد عن مذهب قوم من نصارى عصرنا قد فسدت عقيدتهم حتى صاروا يدعونها تكملة الثالوث كأنما الثالوث ناقص لولاها وقد انكر القرآن هذا الشطط لما فيه من الشرك ثم اتخذه محمد ذريعة للطعن في عقيدة التثليث « (ص ٦٧ - ٢٨ وهذا الكتاب ألفه جرجس صال رداً على الاسلام ونقله هاشم العربي الى العربية) .

والمجمع المسكوني الثالث ٤٣١ يلقب مريم « ام الله » وفي اللاهوت العقائدي ان مريم هي حقاً ام الله ، تقول الكنيسة في قانون الرسل بان ابن الله ولد من مريم العذراء فهي ام الله من حيث هي ام ابن الله « (ج ٣ ص ١٠٨ لمؤلفه لودويغ اوث) وفي مقالة للأب « انستاس الكرملي » المنشورة في العدد الرابع العشر من السنة الخامسة من مجلة الشرق الكاثوليكية البيروتية تحت عنوان : قدم التعبد للعذراء - بعد ذكر عبارة سفر التكوين في عداوة الحية للمرأة ونسلها وتفسير المرأة بالعذراء : ألا ترى انك لا ترى من هذا النص شيئاً ينوه بالعذراء تنويهاً جلياً إلى أن جاء ذلك النبي العظيم « ايليا » الحي فأبرز عبادة العذراء من حيز الرمز والابهام الى عالم الصراحة والتبيان ، ثم فسر هذه الصراحة والتبيان بما في سفر الملوك الثالث (بحسب تقسيم الكاثوليك) من ان ايليا حين كان مع غلامه في رأس الكرمل أمره سبع مرات ان يتطلع نحو البحر فأخبره الغلام بعد تطلعه المرة السابعة انه رأى سحابة قدر راحة الرجل طالعة من البحر ، فمن ذلك النشن قلت : ان هو إلا صورة مريم على ما حققه المفسرون ، بل وصورة الحبل بلا دنس أصلي ، ثم قال : هذا اصل عبادة العذراء في الشرق العزيز وهو يرتقي الى المائة العاشرة قبل المسيح والفضل في ذلك عائد الى هذا النبي ايليا ، العظيم ، ثم -

وهنا يبرئُ المسيح نفسه من هذه التقولة الحمقاء : « قال سبحانه » من هذه الأقاويل « ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » من هذا وسواه من باطل « إن كنتُ قلته فقد علمته » إذ أنت « تعلم ما في نفسي » ما ظهر منها وما بطن « ولا أعلم ما في نفسك » حيث « إنك أنت » لا سواك « علام الغيوب » والنفس المضاف إلى صاحبها تعني نفس الذات ، فلا تدل إذا على أن الله نفساً كما لمن سواه .

هذا « وإذا قال الله » حكاية عن الماضي دون مستقبل القيامة أم والبرزخ فـ « ما دمت فيهم » لا تعني فترة حياته ، بل هي حياته فيهم ، ثم « فلما توفيتني » تعني رفعه إليه كما قال : « إني متوفيك ورافعك إلي » فقد كان ذلك القول بعد ذلك التوفي .

وأما « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » فالمشار إليه هو يوم العذاب والرحمة فهو منذ البرزخ إلى القيامة ^(١) .

وهنا « إلهين من دون الله » تعني أنهم اتخذوا بعد الله ودونه هذين : الابن والأم-إلهين ، وقد اعتقدوه في وجهين اثنين : أن الله تحول إلى رحم مريم فأصبح بصورة المسيح ، وإذا فلا إله أصلاً إلا المسيح ، ثم أمه لأنه والدته ، أو أن الله أولد المسيح من مريم وهو باق في ألوهيته بلا انتقال إلا جزءاً منه صار هو المسيح ، فـ « من دون الله » ما تتحملهما معاً حيث تعني الإشراف بالله من هو أدنى منه .

- قال : ولذلك كان اجداد الكرمليين أول من آمن أيضاً بالإله يسوع بعد الرسل والتلامذة وأول من أقام للعذراء معبداً بعد انتقالها إلى السماء بالنفس والجسد .

(١) الدر المنثور ٣ : ٣٤٩ - اخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله سمع النبي (ص)

يقول : إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم ودعى كل اناس بإمامهم ، قال ويدعى عيسى فيقول لعيسى يا عيسى أنت قلت . .

وهنا لا نُصرُّ بتسمي مريم إلهة ، حيث الإِتخاذ أعم من التسمية كما
« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن
مريم » (٣١: ٩) .

وذلك الإِتخاذ مشهود في الكنائس وسواها حيث يعتقدون لها السلطة
الغيبية المخولة ، فلها أن تستجيب لمن شاءت أو تخيب ! .

وإِتخاذ إله أو آلهة من دون الله صيغة متكررة في القرآن عن الإِشراك
بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، سواء أنكر وجود الله أم أقرَّ به ، إنكاراً عن بكرته
كالماديين ، أم بتأويل تحوُّله إلى إنسان كالمسيحيين القائلين بذلك
التحول .

ذلك ، وفي إجابة المسيح (ع) في ذلك الإستجواب الرباني بيان لأدب
عبودي بارع ، فتقديم « سبحانك » تنزيه له سبحانه عن أن يكون له
شريك ، ثم « ما يكون لي » سلب ليكنونة ذلك التقول عن نفسه ، لأنه
ليس بحق له لمكان عبوديته ، ولا على الله لمكان وحدته في ربوبيته ، ثم
« إن كنت قلته » تعليق على المحال من كينونة هذه القولة أن « فقد علمته »
إذ لا يخفى عليك أيُّ كائن ، ثم يبرهن أخيراً كلاً السلب والإيجاب
به تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » تأكيداً لحيطة العلمية الطليقة
الربانية الوحيدة به إنك أنت علام الغيوب » وكل هذه واقعة وبوحي الله
في صيغة التعبير حيث « لقاء الله » (١) وقد أُرعد منه استجوابه تعالى كل
مفصل منه حتى وقع (٢) ، ومن ثم يأتي بما قال لهم :

(١) الدر المنثور ١: ٣٤٩ - أبو هريرة عن النبي (ص) « فلقاء الله : سبحانك .. وفيه عن
أبي هريرة عن النبي (ص) قال : ان عيسى حاجه ربه فحاج عيسى ربه والله لقاء حاجته
بقوله : « أنت ... »

(٢) المصدر عن ميسرة قال : لما قال الله : يا عيسى ابن مريم ...

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١١٧):

ما قلت لهم « في حقل الألوهية » إلا ما أمرتني به « دون ما تأمرني به نفسي أو عقلي مهما صلحتا ، ولا ما أمرني غيري » ، وإنما أنا رسولك لا أقول لعبادك « إلا ما أمرتني به » وهو هنا « أن أعبدوا الله ربي وربكم » دون تخصص لي في مقام العبودية فضلاً عن دعوى الربوبية ، وماذا فعلوا وافتعلوا في هذه الدعوة التوحيدية ؟ « وكنت عليهم شهيداً » أشهد ماذا يقولون ويعملون أو يعتقدون بإشهادك لي إياها « ما دمت فيهم » على أرض الرسالة ، ثم « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » بكل شهادة كما كنت أنت الرقيب عليهم ما دمت فيهم « وأنت على كل شيء شهيد » لا تفلت منك فائتة ولا تفوت عنك فائتة .

وهنا « كنت أنت الرقيب عليهم » حصر لتلك الرقابة فيه تعالى ككل ، وأما شهادته كسائر الشهود يوم القيامة فهي بما أشهده الله عليه من أعمالهم عند الشهادة أو قبلها يوم يقوم الأشهاد .

وقد يصدق الانجيل دعوته التوحيدية كما في (متى ١٩ : ١٦ - ١٩ ومرقس ١٨ : ١٠ ولوقا ١٨ : ١٩) : « وإذا واحد تقدّم وقال له أيها المعلم الصالح . . فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله » .

وكما يندد ببطرس ويعتبره شيطاناً إذ قال له : « حاشاك يا رب » ، فالتفت وقال لبطرس : إذهب عني يا شيطان . أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (متى ٢٢ : ١٢ + ٢٣ : ٨) .

ولقد صدق الله دعواه هذه في هذه الإذاعة القرآنية حيث يحكي عنه

سورة المائدة / آية ١١٧ ٣١٣

مصدقاً إياه : « إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »
(١٩: ٣٦ و ٤٣: ٦٤).

فذلك هو السيد المسيح (ع) معرفة وعبودية ورسالة صالحة ، ومن زهده (ع) ما يقول عنه الإمام علي أمير المؤمنين (ع) : « وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليهما السلام : فلقد كان يتوسد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشيب ، وكان إدامه الجوع ، وسراجُه بالليل القمر ، وظلاله في الشتاء مشارق الأرض ومغاربها ، وفاكهته وزيحانه ما تنبت الأرض للبهائم ، ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يُذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه » (الخطبة ١٥٨ / ٢٨٣) .

ذلك ، ولا تنقيد شهادته يوم القيامة بما شهده منهم ما دام فيهم بل ويشهد على عامة أهل الكتاب ولم يكن فيهم إلا فترة لا تحمل إلا قطرة من بحرهم : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » (٤: ١٥٩) وذلك بإشهاد الله له كل أعمالهم أولاً وأخيراً ، مهما كانت له شهادة حاضرة ما كان فيهم ، إذ لم يكن ليشهد إلا أقوالاً وأعمالاً ممن كان يعاشرهم ، دون أن يحشرهم كلهم ولا سيما في أحوالهم الغائبة .

إذاً فالشهادة الرسولية تحلّق في إلقاءها على كافة الأقوال والأعمال والأحوال من الأمم ، حيث تحلّق عليها تلقياً بما يلقيه الله إياهم حاضرين لموقف الرسالة وغائبين ، والقدر المعلوم من ذلك الإلقاء هو يوم يقوم الأشهاد ^(١) اللهم إلا ما استثنى ، وليست شهادة المسيح (ع) وغيره من

(١) الدر المنثور ٢: ٣٤٩ أخرج ابن أبي شيبة واحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال خطب رسول الله (ص) =

الشهداء إلا وسيطة بين الله والمكلفين من عبادة دونما استقلال لهم أو استغلال ، فالله هو الذي أشهدهم تلقياً كما أشهد أعضاءهم كلهم والأرض بأجواءها وأشهد الكرام الكاتبين .

وليست هذه الشهادات الأربع يوم يقوم الأشهاد إلا لشهادة الله ، لو أنهم تشككوا فيها ، فليس لهم نكران شهادات أعضاءهم والأرض بما عليها ، مهما اجترثوا على التشكك في سائر الشهادات .

﴿ إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١١٨) :

يا لله لمسيح الله في موقفه ذلك الرهيب العجيب ! وأين أولئك الذين أطلقوا عليه هذه الفرية الرهيبة العجيبة ، سواء أكانوا متخذه وأمه إلهين من دون الله، أو المكتفين بهذه الفرية القاحلة الجاهلة نقلاً وتناقلًا ، حيث يتبرء منها ذلك العبد الصالح الطاهر ذلك التبرء الواجب بموقفه منهم الراجف ، إبتهالاً من أجلها إلى ربه ذلك الإبتهاال المنيف المنيب !؟

هنا تسمع المسيح بعدما أجاب ما أجاب بكل تأدب في ذلك الإستجواب ، تسمعه يحاول أديباً أريباً لبيباً أن يغفر الله من يصلح للغفر منهم تقديماً لحق العذاب : « إن تعذبهم » أولاء الناقلين عني ما نقلوه من فاتكة الفرية وهاتكتها ، « فإنهم عبادك » ولك أن تعذبهم إستحقاقاً حقيقاً .

= فقال : ايها الناس انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ثم قرأ « كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » ثم قال : ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ألا وإنه يجاء برجال من امتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يا رب اصحابي اصحابي فيقال : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم فيقال : أما هؤلاء لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم .

عادلا لعصيانهم وبهتانهم العظيم « وإن تغفر لهم » أي غفر صالح في موقف الفضل والرحمة ما لم تناف العدالة « فإنك أنت العزيز » الغالب على أمرك غير مغلوب « الحكيم » حيث تضع عزتك في مواقف الحكمة دون ظلم ، ولا رحمة غير صالحة ، فإنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة .

وترى كيف سمح المسيح (ع) في ذلك الموقف الرهيب أن يلفظ بغفر لهم وهم أولاء الذين نكبوه ومسوا من كرامة الله فيما ارتكبوه ، وهو القائل : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٤: ٤٨) وهؤلاء ممن أشركوا بالله إفتراءً على الله وعلى رسول الله ؟ .

علَّ الوجه في تلك السماحة في ذلك السماح أنهم ما كانوا كلهم مشركين مهما كانوا مشتركين في نقل هذه القولة عنه (ع) فعلهم إنقسموا إلى أقسام كما هي الواقعة بين المنحرفين من المسيحيين ، من ناقل عنه (ع) هذه ، غير قائل به ، أم قائل بالبنوة التشريفية للمسيح (ع) فالأمومة التشريفية لابن الله بهذا المعنى ، أم غير قائل بهما بل هو عامل معهما معاملة عبد مع الرب ، إلتماساً منهما ما يُلتمس من الله وهو شرك خفيف ، أم قائل بحقيقة البنوة له والأمومة لأمه ، أم قائل بتحول الإله من لاهوت الألوهية إلى ناسوت البشرية تمثلاً بالمسيح ، أماهيه من هرطقات كنسية جارفة هي دركات ، ولكنها لا تحسب كلها بحساب الإشراك بالله المصطلح في القرآن وهو عبادة الصنم أو الطاغوت .

فمن الجائز أنه ذكر « إن تغفر لهم » بصوغ التشكك إعتباراً بجائز الغفر عند الله عن بعض هذه الأخطاء .

ذلك ، ومن الغفر هنا أن يغفر لهم عن واقع فريتهم توفيقاً لهم للإستغفار والإنابة إلى الله ، قبل موتهم ، إذ ليس في كلامه (ع) ما يدل على ، أو يشير إلى : أن طلب الغفر لهم ينحو إلى ما بعد موتهم ، حيث دعى

ما دعى بعد توفيه وقبل وفاته ، لكل هؤلاء الذين كانوا معه وإلى يوم الدين ، أن يغفر لهم إن استغفروا ، أو يوفقهم لكي يستغفروا ، فقد وقع دعاءه (ع) موقعه وهو أعلم بما وعى ودعى ، والجواب الصواب عما دعى هو ما :

﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٢٠) :

هنا « قال الله هذا . . » ضابطة ثابتة تحلق على كل الأقوال والأحوال والأعمال وهي : « ينفع الصادقين صدقهم » والصادقون هم الذين تصدق أقوالهم أحوالهم وأعمالهم كما تصدق أحوالهم ، أعمالهم وأقوالهم ، صدقاً في مثله ، وهو النافع اليافع دون أي ضرر .

ذلك والصدق في المقال التزامه بصدق الحال والفعال وكما يروى أن رجلاً من أهل البدو استوصى النبي (ص) فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعاية ما وصى به كفه عن عامة المعاصي إذ ما من معصية عرضت إلا ذكر أنه لو اقترفها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه ويخبر بها الناس فلم يقترفها مخافة ذلك .

ومن نفع الصدق أن كبائر الواجبات فعلاً وكبائر السيئات تركاً تكفر السيئات كما في آيات ، وأن مراحل خاصة من الصدق تؤهل للشفاعات .

فهؤلاء الناقلون عن المسيح ما نقلوا إن صدقوا في توبتهم عما أقروا وأوبتهم إلى الله ، فقد ينفعهم صدقهم يوم القيامة ، كما وأن الشرك الخفي من بعضهم قد يكفر بصلاح الإيمان والأعمال .

إذاً فذلك من الأدب البارع للمسيح (ع) حيث جاء بهذه الشرطية

تقدماً له « إن تعذبهم » حيث يستحقونه بما إفتروا أم واقترفوا من إشتراك بالله ، تعليلاً به « فإنهم عبادك » وللمولى أن يعذب عباده بما قصرُوا ، وتأخيراً له « وإن تغفر لهم » فإنهم عبادك مهما قصرُوا « فإنك أنت العزيز الحكيم » ففضيلة العزة الحكيمة والحكمة العزيزة أن هؤلاء بين مجذبين ومغفور لهم .

ثم وبالنسبة للصادقين الخالصين ، العائشين الصدق يوم الدنيا « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » يوم الدين ، وفوق هذه الجنات جنة الرضوان حيث « رضي الله عنهم ورضوا عنه » ومجمع الجنتين ولا سيما الأخرى « ذلك الفوز العظيم » .

ذلك ، ومن هؤلاء المرضيين الراضين السيد المسيح (ع) فإنه من أصدق الصادقين وأصلح الصالحين .

وهنا « رضي الله عنهم ورضوا عنه » تُحكّم عرى الصلاحية الأكيدة لهؤلاء الصادقين أن « رضي الله عنهم » حيث وقفوا حياتهم لمرضات الله ، كما « ورضوا عنه » تسليماً لمرضاته ، وذلك الرضوان المزدوج في هذا البين يتبلور أكثر في ذلك اليوم .

والمشيئة الطليقة الربانية بحق العباد تتبني مُلكه للكون اجمع وقدرته عليه اجمع ، فـ « لله مُلك السماوات والأرض وما فيهن » والمُلك الحقيقي يحوي المُلك الحقيقي ، وهما ليسا إلا الله دون سواه « وهو على كل شيء قدير » .

(٦) سُورَةُ الْأَنْعَامِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانُهَا خَمْسُ وَسِتُّونَ وَفَاتَةٌ

مركز تحقیقات کتب ویر علوم اسلامی

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۚ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۚ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى
عِنْدَهُ ۚ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ ۚ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾
وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۚ فَسَوْفَ
يَأْتِيهِمْ أَنْبَتْؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ
أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ
لَكُمْ ۖ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي

مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
 ٦٠ ءَاخَرِينَ ۖ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ
 بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۖ
 ٦١ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ
 ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ۖ ٦٢ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا
 وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ۖ ٦٣ وَلَقَدْ آسَفْنَاهُ بِرُسُلٍ مِنْ
 قَبْلِكَ فَخَافَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۖ ٦٤
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُكْذِبِينَ ۖ ٦٥ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 قُلْ لِلَّهِ كُنْزٌ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى
 يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ٦٦

سورة الأنعام - مكة - وآياتها مائة وخمسة وستون

« سورة الأنعام » هي المكية الثانية في ترتيب التأليف القرآني ، وأولها

الفاتحة ، وهي فاتحة الكتاب تأليفاً وتنزيلاً .

وملامح آيات الأنعام في سياقها المتصل الأليف تدلنا على وحدتها تأليفاً وتنزيلاً ، وكما تظافرت الرواية عن النبي (ص) وأئمة هل بيته عليهم السلام أنها نزلت جملة واحدة في مكة^(١) وشذّر من آياتها بين واحدة

(١) الدر المنثور ٢: ٣ - أخرج الطبراني ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله (ص) : نزلت عليّ سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتهليل وفيه عن أنس عنه (ص) مثله بزيادة - يسد الخافقين - وفيه عن جابر قال لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله (ص) ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق » ومثله عن أبي بن كعب عنه في « جملة واحدة » . وفيه أخرج البيهقي في الشعب والخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال : « أنزل القرآن خمساً خمساً ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه إلا سورة الأنعام فانها نزلت جملة في ألف يشيعها من كل سماء سبعون ملكاً حتى ادوها إلى النبي (ص) ما قرئت على عليل إلا شفاه الله » .

وفي نور الثقلين ١: ٦٩٦ عن أصول الكافي بإسناده إلى الحسن بن علي بن أبي حمزة رفعه قال : قال أبو عبد الله (ص) إن سورة الأنعام نزلت جملة - وذكر كما في ثواب الأعمال سواء إلا في آخره : ولو يعلم الناس ما في قراءتها ما تركوها . وفي تفسير الفخر الرازي ١٢: ١٤١ عن أنس قال : قال رسول الله (ص) : « ما نزل عليّ سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام وما اجتمعت الشياطين لسورة من القرآن جمعها لها وقد بعث بها إليّ مع جبريل مع خمسين ملكاً أو خمسين ألف ملك يزفونها ويحفونها حتى اقروها في صدري كما أقر الماء في الحوض ولقد أعزني الله وإياكم بها عزاً لا يذلنا أبداً ، فيها دحض حجج المشركين ووعد من الله لا يخلفه » أقول في انحصار النزول جملة واحدة في الأنعام تأملات فإن السور الصغار والبعض من الكبار نزلت جملة واحدة .

وفيه عن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا (ع) قال : « نزلت الأنعام جملة شيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتكبير فمن قرأها سبحوا له إلى يوم القيامة » .

وتسع^(١) التي قيل إنها مدنية ، إنها كسائرهما قد تكون مكّية حيث السياق لا يصدّق مدنيتهما ولم يرد في ذلك نص يعتمد عليه .

وهي نموذجة كاملة عن القرآن المكي - ككل - عرضاً فصيحاً فسيحاً
لهامة الربوبية الوحيدة ، وسائر المواضع العقيدية التي تعالجها من مبدءها

(١) في تفسير الفخر الرازي ١٢: ١٤١ عن ابن عباس أنها مكية نزلت جملة واحدة فامتلا منها الوادي وشيعها سبعون ألف ملك ونزلت الملائكة ما بين الأخشين فدعا الرسول (ص) الكتاب وكتبوها من ليلتهم إلا ست آيات فأنها مدنيات « قل تعالوا أتّل ما حرم ربكم عليكم » إلى آخر الآيات الثلاث وقوله « وما قدروا الله حق قدره » الآية وقوله « ومن اظلم ممن افترى على الله كذباً » .

وقيل المدنية فيها فقط « قل تعالوا . . » والتي بعدها ، وقيل هما آيتان غيرهما نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود وهو الذي قال « ما أنزل الله على بشر من شيء » .
وقيل إنها مكية إلا آية واحدة وهي « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة » .

وقيل مدنيتهما الآيات ٢٤ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ كما في تفسير البرهان ١: ٥١٤ .

وقد تلمح الآية (٩١) أنها مدنية حيث تذكر أهل الكتاب : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباءكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » ولكنه قد يكفي وجود البعض من اليهود في العهد المكي مهما كانوا من السُفر المتوردين للتجارة ، حيث القرآن المكي سيخلق في دعوته كسائر القرآن على كافة المكلفين قلوا أو كثروا قاطنين في مكة أو مسافرين .

وهكذا يكون دور الآية (١١٤) : « افغير الله ابتغى حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين » وهذه طبيعة حالة الخلط حينذاك بين المشركين والكتابيين في التسافر التجاري وغيره بين مكة والمدينة وغيرها .

ذلك ثم لا نجد في غيرهما من التسع أما هي اقل ما تلمح بمدنيتهما ! .

سورة الأنعام / آية ١ ٣٢٣

إلى منتهاها ، بكل مقوماتها ، مبرهنة عليها بالآيات الآفاقية مع الأنفسية ،
محلقة على الحشد الكوني الذي يزحم أقطار النفس والحس ، ويلمس كل
الأبعاد العقلية والحسية .

ذلك ! مع بارع التناسق لمنهج العرض في شتى المشاهد
والمعارض ، آخذة على الأنفس أقطارها بالروعة الباهرة ، باطنة
وظاهرة ، وبالحيوية الدافقة والإيقاع تصويرياً وتعبيراً ، مواجهة النفوس من
كل دروبها ونوافذها وحتى في موسيقاها .

ومن مميزات سائر القرآن مكيأ ومدنيأ تكاثر الحجاج فيها على
ناكري الحق المبين .

وكما نزلت - على حد المروي عن الرسول (ص) - معها موكب من
الملائكة سداً ما بين الخافقين ، نرى ذلك الموكب الملائكي لائحة الأعلام
في قطاعات السورة ، موكب ترتج له النفس ويرتج معها الكون ، وهي
كالنهر الجاري المتدافق بالأمواج المتلاحقة ، ما تكاد تصل موجة منها إلى
قرارها حتى تبدو الموجة التالية .

والموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة متصل متواصل لا يمكن
تجزئة السورة إلى مقاطع كل يعالج جانباً ، إنما هي موجات متفقات مع
بعضها البعض ، مما يبرهن نزولها جملة واحدة ، فهي موحدة التأليف
والتنزيل .

ولماذا سميت سورة الأنعام ؟

١ - لأنها تحمل « الأنعام » ستاً لم تحملها سواها لأكثر تقدير إلا
ثلاثاً (١) ؟

٢ - أم ولأن هؤلاء المشركين الأنعام « بل هم أضل » « جعلوا الله مما
ذرا من الحرث والأنعام نصيباً » (١٣٦) وكأنه بحاجة إلى أكل منها كما

(١) كسورة النحل في آياتها الثلاث ٥ - ٦٦ - ٨٠ ، والأنعام (٣٢) مرة في القرآن كله =

يقتسمون ! تنزيلاً لساحة الربوبية إلى نازل الخلق المحتاجين بل واحوج حيث حَوَّجوه إلى أنفسهم ، ثم جعلوا ما لله لشركاءهم ؟ .

٣ - أم ولأنهم شاقوا الله في التشريع تحريماً من الأنعام وتحليلاً : « وقالوا هذه أنعام وحرث ججر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها إفتراء عليه » (١٣٨) - « وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم » (١٣٩) ؟ وهذه شيمة الأنعام التي لا تعقل وهم اضل منها سبيلاً ، « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (٤٧: ١٢) . ذلك ! ثم لا نجد في سائر سور القرآن - المذكورة فيها الأنعام - أمثال هذه التنديدات والحججيات على هؤلاء الأناسي الأنعام إلا قليلاً ، مما يفضل - ككل - تسمية سورة الأنعام باسمها .

٤ - ثم الملاحظ فيها أنها تحمل آية يتيمة منقطعة النظير بحق الدواب ككل - الشاملة - للأنعام بصورة أخرى هي أخرى ، حيث تجعلها من المحشورين يوم الدين كسائر المكلفين وهي : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون » (٣٨) .

وذلك المربع بكل زواياه وحواياه يرجح إسم الأنعام لهذه السورة كأخرى ما تسمى به سورة في القرآن وكله أخرى مهما اختلفت الدرجات .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (١) :

نرى خمساً من السور تفتتح بـ « الحمد لله » : الفاتحة وهذه الأنعام والكهف : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً » وسبأ : « الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير » والفاطر : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

فالحمد في أم الكتاب هو أم الحمد في الكتاب لمكان « رب العالمين » المحلقة على ربوبية الله في الخلق والتدبير لكل كائن ، وربوبية التشريع الأخير الشامل لكل شرعة ربانية .

والحمد في الكهف ناحٍ منحى التشريع ، وفي سبأ يختص ملكه وملكه السماوات والأرض و « في الآخرة » جزاء وفاقاً عدلاً وفضلاً في حقلي الثواب والعقاب ، وفي الفاطر فطراً للسماوات والأرض وجعلاً للرسائل الملائكية حملة للتشريع وعملاً للتكوين .

ذلك ، وهنا في الأنعام حمداً لخالقيته ككل إبداعاً وربوبيةً وجعلاً للظلمات والنور ، وهي مثلثة الجهات فإن فيها « ردٌ على ثلاثة أصناف منهم ، فلما قال : « الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض » كان رداً على الدهرية الذين قالوا : إن الأشياء لا بدء لها وهي دائمة ، ثم قال : « وجعل الظلمات والنور » فكان رداً على الثنوية الذين قالوا : إن النور والظلمة هما المدبران ، ثم قال : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » فكان رداً على مشركي العرب - وسنواهم - الذين قالوا : « إن أوثاننا آلهة ... » (١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٦٩٧ في كتاب الاحتجاج للطبرسي قال أبو محمد الحسن العسكري ذكر عند الصادق (ع) الجدل في الدين وإن رسول الله (ص) والأئمة المعصومين -

وهنا « بر بهم » تنديد شديد في « يعدلون » حيث المعترف بالربوبية الكبرى الإلهية كيف يسمح لنفسه أن يعدل به من المربوبين الذين لا يربون أنفسهم فضلاً عن سواهم .

و « يعدلون » من « العدل » لا « العَدْل » إذ العَدْل لا يتعدى بالباء فإنما عدل فيهم - بينهم - عليهم - و « بر بهم » دليل آخر بعد دليل التنديد أنه جعلُ عدلٍ ونِدٍّ ، فهم يعدلون برهم من المربوبين .

فالعدل قد يكون عدلاً وهو بين المستأوين في الكمال ، وهو من أعدل العدل ، وقد يكون ظلماً وهو بين المختلفين في الكمال ولا سيما بين الرب والمربوب وهو من اظلم الظلم .

ثم العدلُ الظلم هو في كل دركاته ظلم ، عدلاً بذات الله أم بصفاته أم بأفعاله ، عدلاً في ألوهيته أو في ربوبيته ، عدلاً في معبوديته وحرمة أم أيُّ عدل به من خلقه .

فذلك محذور في كافة حقوقه حتى في عبارة اللفظ فضلاً عن اعتقاد الجنان وعمل الأركان .

عليهم السلام قد نهوا عنه فقال الصادق (ع) : لم يُنه عنه مطلقاً ولكنه نهى عن الجدال بغير التي هي أحسن أما تسمعون قول الله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » وقوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » - إلى أن قال - : « قال الصادق (ع) ولقد حدثني أبي الباقر عن جدي علي بن الحسين زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي سيد الشهداء عن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم أنه اجتمع يوماً عند رسول الله (ص) أهل خمسة أديان اليهود والنصارى والذهرية والثنوية ومشركوا العرب - إلى أن قال بعد سرد الحجج كلها وقد تأتي في المتن قطاعات منها - قالوا : ما رأينا مثل حججك يا محمد نشهد أنك رسول الله وقال الصادق (ع) قال أمير المؤمنين (ع) فأنزل الله تعالى « الحمد لله الذي . . » وكان في هذه الآية رد على ثلاثة أصناف . . »

و « الذين كفروا » هم كل الكافرين حيث العادلون بالله هنا هم كل العادلين ، من كافر بالله نكراناً لوجوده حيث يعدل به المادة كأنها هي الأزلية الخالقة ، أو مشرك بالله عدلاً في الربوبية أو المعبودية ، سواءً عبد مع غير الله ، أم لم يعبد معه الله ، أو مُراءٍ أم معتقد تأثيراً لغير الله مع الله .

فالعِدل بالله يعم الإلحاد والإشراك وسواهما ، مهما لم يكن الملحد معترفاً بوجود الله ، حيث يؤله المادة كأنها الله ، أو لم يكن المشرك يعبد مع وثنه الله ، حيث يعبده كما يُعبد الله .

إذا فِعِدل الرب بما سواه أم عِدل ما سواه به في أيٍّ من شؤون الألوهية والربوبية ، خارج عن العِدل في القياس ، بل لا قياس بالله لما سواه فإنه « باين عن خلقه وخلقه باين عنه » ليس يشاركهم في شيء حتى يُعدل به أو يُفضل عليه .

هذه ثلاث في أولى الآيات ، وكما في هذه الآيات الثلاث نجد موجات ثلاث ، أولاها في أولها حيث تذرع الوجود الكوني كله في نفسها ، الثانية الوجود الإنساني كله ، والثالثة فيها إحاطة الألوهية بالوجودين كليهما .

آيتنا هذه تبدأ ببرهان لطيف حفيف على حدوث الكون كله ، المعبر عنه بـ « السماوات والأرض » : « الحمد لله خالق السماوات والأرض ... » .

فإن « السماوات والأرض » تدلان بحدوثهما - ذاتياً وصفاتياً وأفعالياً - على أن هناك محدثاً لا يجانسهما ، فهو الذي أحدثهما ، ولا مشاحة في تسميته ، فنحن نقول عنه : « الله » وليس المادة لأنها أصلهما الوالد لهما ، وليست الخالقة إياهما .

ذلك وإلى قول فصل عما لمحت له الآية ، من حجاج الرسول (ص)

على المشركين : « وأنتم فما الذي دعاكم إلى القول بأن الأشياء لا بدء لها وهي دائمة لم تزل ولا تزال ؟ لأننا لا نحكم إلا بما نشاهد ولم نجد للأشياء حدثاً فحكمنا بأنها لم تزل ولم نجد لها انقضاءً وفناءً فحكمنا بأنها لا تزال .

فوجدتم لها قدماً أم وجدتم لها بقاءً أبداً ؟ فإن قلتم إنكم وجدتم ذلك أنهضتم لأنفسكم أنكم لم تزالوا على هيئتكم وعقولكم بلا نهاية ولا تزالون كذلك ، ولئن قلتم هذا دفعتم العيان وكذبكم العالمون الذين يشاهدونكم ؟ .

بل لم نشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبداً .

فلم صرتم بأن تحكموا بالقدم والبقاء دائماً لأنكم لم تشاهدوا حدوثها وانقضاءها أولى من تارك التمييز لها مثلكم فيحكم لها بالحدوث والانقضاء والانقطاع لأنه لم يشاهد لها قدماً ولا بقاءً أبداً ؟ .

- إلى هنا نجده شككهم في قوله الأزلية للعالم ، ثم نراه يثبت حدوثه كالتالي : « أولستم تشاهدون الليل والنهار وأن أحدهما بعد الآخر ؟ » - نعم -

أترونهما لم يزالا ولا يزالان ؟ - نعم -

أفيجوز عندكم اجتماع الليل والنهار ؟ - لا -

فإذا ينقطع أحدهما عن الآخر فيسبق أحدهما ويكون الثاني جارياً بعده ؟ - كذلك هو -

فقد حكمتم بحدوث ما تقدم من ليل ونهار ولم تشاهدوهما فلا تنكروا لله قدرة -

أتقولون ما قبلكم من الليل والنهار متناه أو غير متناه ؟ فإن قلتم متناه فقد وصل إليكم آخر بلا نهاية لأوله ، وإن قلتم إنه متناه فقد كان ولا شيء منهما ؟ - نعم -

أقلتم إن العالم قديم غير محدث وأنتم عارفون بمعنى ما اقررتم به
ومعنى ما جحدتموه ؟ - نعم -

فهذا الذي تشاهدونه من الأشياء بعضها إلى بعض مفتقر لأنه لا قوام
لبعض إلا بما يتصل به ، ألا ترى البناء محتاجاً بعض أجزائه إلى بعض
والألم لم يبق ولم يستحكم ، وكذلك سائر ما ترى ، فإذا كان هذا المحتاج
بعضه إلى بعض لقوته وتمامه هو القديم فأخبروني أن لو كان محدثاً كيف
كان يكون وماذا تكون صفته ؟ .

فبهتوا وعلّموا أنهم لا يجدون للحديث صفة يصفونه بها إلا وهي
موجودة في هذا الذي زعموا أنه قديم فوجموا وقالوا : « سننظر في
أمرنا »^(١) .

« وجعل الظلمات والنور » .

وذلك التعبير عن « الظلمات والنور » هو منقطع النظير في القرآن كله ،
ولماذا بالنسبة لها « وجعل » دون « خالق - أو - خلق » حيث اختص
بالسماوات والأرض ؟ .

علّه لأن « الظلمات والنور » مادياً وروحياً ، هما لواحق الخلق ولزاماته
في عالم الاختبار والاختيار .

وجمعية الظلمات هنا وفي سائر آياتها الثلاثة والعشرين ، وجاء وحدة
النور ، هي للتدليل على أن صراط الله واحد غير مختلف ، كما هو غير
متخلف ، ولكن السبل الأخرى متشعبة متشعبة .

ثم « الظلمات » كما « النور » - محسوسة ومعقولة - إنها ليست إلا من
جعل الله دون سواه ، حتى تتبنى الظلمات إلهاً آخر أم مخلوقة لإله الشر

(١) الاحتجاج للطبري عنه (ص) .

٣٣٠ الجزء السابع

كما يقوله الثنوية ، فإنما الله هو الذي جعل الظلمات كما جعل النور ، كلاً لمصلحة ابتلائية تربوية في عالم الاختيار والإختبار ، دون تسيير لا إلى النور ولا إلى الظلمات ، فإنما « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ذلك ! « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » :

« الذين كفروا بربهم » الخالق للسموات والأرض الذي جعل الظلمات والنور ، « يعدلون » به غيره ، عدلاً للظلمات بالنور وهم يعرفونها ! كما « الذين كفروا » - « بربهم » ذلك الخالق الجاعل « يعدلون » عدلاً به من خلقه وهم ظلمات بالنسبة لخالق النور والظلمات .

فذلك العدل الانحراف الانحراف تطارده وحدة الخالقية والخالقية الوحيدة غير الوهيدة ، تسوية بالله سواء وهي ضلال مبين : « تالله ان كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين » (٩٨: ٢٦) :

« ألمآه مع الله بل هم قوم يعدلون » (٦٠: ٢٧) - « والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون » (١٥٠: ٦) كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً (١) .

ذلكم الله « خالق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » بالله سواء عدلاً بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل (٢) .

(١) نور الثقلين ١: ٧٠١ في تهذيب الأحكام في الموثق عن أبي عبد الله قال : « وإذا قرأتم « الذين كفروا بربهم يعدلون » ان يقول : كذب العادلون بالله ، قلت لهم فان لم يقل الرجل شيئاً من هذا إذا قرأ ؟ قال : ليس عليه شيء . . . » .

(٢) المصدر عن أبي ابراهيم (ع) قال : « لكل صلاة وقتان ووقت يوم الجمعة زوال الشمس ثم تلا هذه الآية قال : « يعدلون بين الظلمات والنور وبين الجور والعدل » وفيه « كذب العادلون بالله إذ شبهوه بمثل أصنامهم وحلوه حلية المخلوقين بأوهامهم » =

« فمن مساوى ربنا بشيء فقد عدل به والعدل به كافر بما تنزلت به محكمات آياته ، ونطقنا به شواهد حجج بيناته ، لأنه الله الذي لم يتناه في العقول فيكون في نهب كيفها مكيفاً ، وفي حواصل روايات همم النفوس محدوداً معرفاً ، المنشىء أصناف الأشياء بلا رويّة احتاج إليها، ولا قريحة غريزة أضمرها ، ولا تجربة أفادها من موجودات الدهور، ولا شريك أعانه على إبتداع عجائب الأمور » (١).

وترى ما هو دور « ثم » وهي للتراخي ؟ علّه أنهم بعد التصديق والإعتراف بخالق السماوات والأرض وجاعل الظلمات والنور ، بعد هذه الطائفة التي تصدقها الفطرة والعقلية الإنسانية وتصدقها الكائنات بأسرها ، هم أولاء بعد كل ذلك « بربهم يعدلون » المربوبين . . . وهذه هي اللمة الأولى من الحجاج لتوحيد المبدء ثم :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (٢) :

هنا دور لخصوص الإنسان بعد عموم الخلق للخلق كله ، لمسة ثانية تندد بالممترين بحق الحق واليوم الحق .

ذلك الإنسان الذي هو نموذج عن الكون كله، وكما يروى عن علي (ع) : « أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر وانت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمّر » .

فالذي « جعل الظلمات والنور » بعدما خلق السماوات والأرض « خلقكم من طين » نقلة عجيبة من عتمة الطين المظلم عن الحياة إلى نور

وجزوه بتقدير متّج خواطرهم ، وقدروه على الخلق المختلفة القوى بقرايح عقولهم » .

(١) المصدر عن كتاب التوحيد خطبة لعلي (ع) يقول فيها :

الحياة البهيجة الوليعة في ذلك الطين الميت .

ولقد كان بالجدير أن تنقل تلك النقلة الهائلة العاقلة يقيناً صالحاً إلى قلوب المنقولين ، بعد طائل خلقهم من طين كما خلق السماوات والأرضين ، ولكن « ثم أنتم تموتون » . .

انه « قضى أجلاً » حياة عاجلة لدار الاختيار والاختبار ، « وأجل مسمى » لعودة الحياة بعد الممات « عنده » لا سواء « لا يجليها لوقتها إلا هو » « ثم أنتم » المأجلون « تموتون » في الحياة الأخرى وهي أخرى وأنتم تعلمون أنه « خلقكم من طين » .

تري « أجل مسمى » تعني - فقط - الأجل المحتوم شخصياً وجمعياً وجاه الأجل المعلق كذلك ؟ .

إنه بطلاق العبارة قد يعنيهما ، حيث الأجل المسمى هو المقطوع، وكل الآجال عند الله مقطوعة .

ومما يشهد للأول : « وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليُقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون » (٦: ٦٠) حيث تعني الأجلين قبل القيامة ، معلقاً ومحتوماً .

و « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك الذي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . . » (٤٢: ٣٩) وكثيرة أمثالها .

ومما يدل على الثاني : « وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى » (٢: ١٣) و « أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكَافرون » (٨: ٣٠) وكثيرة أمثالها .

ذلك ، طالما الأجل المسمى بالنسبة للكون كله يخص الثاني ، وهو

سورة الأنعام / آية ٢ ٣٣٣

بالنسبة للإنسان يعم الآجال الثلاثة ، الأجل الفردي المحتوم لكل احد ، ثم الجماعي « ولكل امة اجل فإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » (٣٤: ٧) ومن ثم الأجل الأخير وهو القيامة .

ذلك ، وقد تعني « ثم قضى اجلاً » مثلث الأجل ، دنيا وبرزخاً وعقبى ، ثم « واجل مسمى عنده » تختص بالآجال المحتومة ، حيث تعني ثابت العندية التي لا حول عنها ، ولكن الأجل المعلق - وإن كان عنده - لكنه قد يحول عنه ، أم تعني « اجل مسمى » بتكوين التعظيم اجل القيامة الكبرى لأنه عظيم بين الآجال ، أم ومجاراة مع الذين يخيّل إليهم أن الآجال الدنيوية هي عندهم (١) .

وترى « ثم قضى اجلاً » الشامل على الاستبدال لكل الآجال هلاً تشمل الأجل الأول وهو بقية بقاء الجنين في الرحم ؟ « ثم » المراخية هنا قد تعني الآجال منذ الولادة ، لا سيما وإن الأجل قبلها ليس مصباً أمر تربوي .

فترى « خلقكم من طين » هيكلاً إنسانياً حياً لأول مرة هو أهون ، أم

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٣ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (ع) في قوله : « ثم قضى اجلاً واجل مسمى عنده » قال : الأجل الذي غير مسمى موقوف يقدم منه ما شاء ويؤخر ما شاء وأما الأجل المسمى فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل فذلك قول الله : « وإذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وفيه عن حمران عن أبي عبد الله (ع) قال سألت عن قول الله : « ثم قضى اجلاً واجل مسمى عنده » قال : المسمى ما سمي لملك الموت في تلك الليلة وهو الذي قال الله : « إذا جاء . . . » وهو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر والآخر له فيه المشية إن شاء قدمه وإن شاء أخره .

وفيه عن حصين عن أبي عبد الله (ع) في الآية قال : « الأجل الأول هو ما نبذه الى الملائكة والرسل والأنبياء والأجل المسمى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق » .

٣٣٤ الجزء السابع

الإعادة : « وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (٢٧: ٣٠)
مهما لم يكن عند الله في خلقه هيّن وأهون ، فـ « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن
يقول له كن فيكون » .

وهنا « خلقكم من طين » هي من عساكر البراهين القرآنية على أن خلق
الإنسان الأول ليس إلا بقفزة طينية ، دون اتصال من حيوان آخر إنساناً أو
غير إنسان، ومن غريب الوفق العددي بين النطفة والطين ان كلا منهما
يذكر (١٢) مرة ! .

ولو أن الانسان كان خليق التكامل لكان صحيح التعبير عن خلقه عبارة
آخر الحلقات ، ولا إشارة لخلقة غير طينية للإنسان في القرآن كله .

ولأن « كم » نعم الأرواح إلى الأجساد ، بل الأرواح أخرى في الكيان
الإنساني من الأجساد ، فقد تعني « خلقكم من طين » خلق الأرواح من
الطين كما الأجساد ، وكما تبدل عليه أمثال : « ثم أنشأناه خلقاً
آخر » (٢٣: ١٤) وسائر الآيات المصروفة بخلق الانسان - بجزئيه - من
تراب - طين - ماء - نطفة ، أما هي من مادة .

و « قلوبهم » وجاء « أبدانهم » في الأثر ، قد تعني أرواحهم ، وذلك
من تجاوب الكتاب والسنة في جسمانية الأرواح كما الأجساد مهما اختلف
جسم عن جسم « (١) » .

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٢ في اصول الكافي علي بن ابراهيم عن ابيه عن حماد بن عيسى
عن ربي بن عبد الله عن رجل عن علي بن الحسين عليهما السلام قال : « إن الله
عز وجل خلق النبيين من طينة عليين قلوبهم وأبدانهم وخلق قلوب المؤمنين من تلك
الطينة وجعل خلق أبدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفار من طينة سجين قلوبهم
وأبدانهم فخلط بين الطينتين فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن ومن
ها هنا يصيب المؤمن السيئة ومن ها هنا يصيب الكافر الحسنة فقلوب المؤمنين تحن
إلى ما خلقوا منه وقلوب الكفار تحن إلى ما خلقوا منه » .

ذلك ، وإلى لمسة ثالثة هي الحيلة الربانية على الكون كله :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسُبُونَ ﴾ (٣) :

ولا تعني « في » هنا ظرفية هذا الكون لذات الله سبحانه ، إنما هو ظرف لألوهيته وربوبيته للكون كله . فـ « هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله » (٤٣: ٨٤) رداً على مزعة أن ألوهيته خاصة بالسموات وللأرض رب مخول من عنده أمن هو ؟ .

وأما « أم امنتم من في السماء ان يخسف بكم الأرض فهي تمور » (٦٧: ١٦) فهم عمال الله من ملائكة السماء وليس هو الله كما فصلنا القول فيه عندها .

كلاً ! بل إن ربوبيته تعالى تشمل السماوات والأرض على سواء ، و « يعلم سرركم وجهركم » على سواء ، « ويعلم ما تكسبون » في مثلث الزمان على سواء ، وهو في مستقبله أخفى من « سرركم » إذ لا تعلمون أنتم مستقبل مكاسبكم ونياتكم وطوياتكم : « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى » (٢٠: ٧) .

و « ما تكسبون » هنا قد تعم مكاسب السر والجهر في النشآت الثلاث ، الى « ما تكسبون » من نيات وطويات وأعمال في المستقبل بمكاسبها .

وقد تعني « سرركم » هنا ما أسررتهم وأنتم تعلمون ، أما أسر عنكم وأنتم تجهلون ، وهو الأخفى من السر .

ذلك ، وخير تفسير لآيتنا هذه في آية الزخرف (٨٤) وعلى ضوءهما ما يروى من حوار بذلك الشأن عن الامام الصادق (ع) حيث يجيب بعد ما يسأل عنها : « كذلك هو في كل مكان » قال : بذاته ؟ قال :

ويحك إن الأماكن أقدار ، فإذا قلت : في مكان بذاته ، لزمك أن تقول : في أقدار وغير ذلك ، ولكن هو بائن من خلقه ، محيط بما خلق علماً وقدره وإحاطة وسلطاناً وليس علمه بما في الأرض بلقل مسا في السماء ، ولا يبعد منه شيء ، والأشياء له سواء علماً وقدره وسلطاناً وملكاً وإحاطة» (١).

﴿ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ (٤) .

« آيات ربهم » هي الآيات الدالات على ربوبيته تكويناً وتشريعاً ، أم قد تعم الآيات الانفسية الى الآفاقية ، وإيتائها - إذا - بروزها مهما أخفوها أو اختفوا عنها ، فقد تبرز الآيات الفطرية إذا انقطعت الأسباب وحارت دونه الأبواب ، فينقطعون اضطرارياً إلى الله ثم هم معرضون : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » (٢٩ : ٦٥) .

ولا يعني إعراضهم عن آيات ربهم إلا إعراضهم عن ربهم تعمية عليهم كونه وكيانه ، وهم يعيشون آيات ربهم ليل نهار ! .

ذلك ، والمفروض على من يعرف ربه أو يحتمل كونه أن يفتش إستنباطاً عن آياته حتى تكتمل معرفته به على ضوءها ، وحتى الذي ينكره ، عليه أن يبرهن على نكرانه فليفتش عما يدعي كونه من آياته ، فلما سلباً كما خيل إليه - ولن يكون - وإماً إيجاباً كما تهديه إليه فطرته وعقليته والكون بأسره ، حيث الكائنات ككل هي براهين ساطعة قاطعة على وجود الله وتوحيده .

(١) تفسير البرهان ١ : ٥١٧ - ابن بابويه بسند متصل عن محمد بن النعمان قال سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل « وهو الله في السماوات وفي الأرض » قال : « هو كذلك في كل مكان » .

سورة الأنعام / آية ٤ - ٥ ٣٣٧

والمشتاق إلى ربه ، المشتاق إلى هدايته ورحمته ، ليس ليصبر حتى تأتيه آيات من ربه ، بل ويفحص عنها فحصاً باحثاً ماحضاً غير قالص ولا فالس ، ولكي يزداد به إيماناً وفيه اطمئناناً .

فالناس وجه آيات ربهم على ضروب شتى ، فمنهم من يفتش عنها ، ومنهم المعرض عنها ، ومنهم عوان بينهما ، فالأولون هم المتقون والآخرون هم الطاغون ، والعوان بينهما عوان بينهما .

وهذه موجة عريضة في مطلع السورة ، تخاطب ضمير الإنسان بدليل آيات الرب الكامنة في الأنفس ، والمكتملة في الآفاق .

وليس ذلك خطاباً لاهوتياً فلسفياً يختص بالمتفلسفين واللاهوتيين ، إنما هو خطاب موجه إلى كل الفطر والعقول والحواس والعلوم في كل الحقول على درجاتها .

والتذكير بآيات ربهم هو الموجة الغامرة الكون كله ، بكل الآيات الربانية آفاقية وأنفسية ، وترى ما هو سبب إعراضهم عن آيات ربهم حين تأتيهم ؟ :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٥) :

« الحق » - ككل - الآتي من قبل الحق ، المزود بآيات ربوبيته ، إنهم كذبوه إعراضاً عنها كيلا يصدقوه ، ومثلهم كمثل من قال عنهم نوح (ع) : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » (٧١: ٧) .

ذلك « فسوف » في مثلث النشآت « تأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون » ومن أنباءه هنا عذاب الإستئصال ، ومن ثم عذاب البرزخ والقيامة .

ولأن النبا هو خبر ذو فائدة عظيمة ، وهو يعم واقع النبا إلى الإخبار

به ، لذلك فقد تشمل الإنباء مثلث النشآت إخباراً وواقعاً ، مهما لم تفسدهم أنفسهم إلا هنا لو كانوا ينتبهون كما في قوم يونس ، أم ولا أقل من إفادتها سائر الناس ، وأما في البرزخ والقيامة فلا فائدة لهم منها إلا بائدة .

﴿ أَلَمْ يَرَوْكُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٦) :

القرن - وهو الرذف والإقتران - وهم هنا القوم المقترنون في زمن واحد متصل ، ولأن العمر المتعود للإنسان لا يعدو مائة سنة ، لذلك سميت قرناً قضية إقترانهم في كل مائة مائة ، انقراضاً للسابق وافتتاحاً للآحق ، فقد لا يختص القرن بذلك الزمن المحدد ، حيث الأصل هو كل ربح زمني لأمة تعيشه ، مائة أما زاد أو نقص .

« الم يروا » رؤية تاريخية جغرافية بما وصلتهم من أنباء من « أهلكنا من قبلهم » وقد « مكَّنَّاهم في الأرض ما لم نمكِّن لكم » - « ولقد مكَّنَّاهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفشده فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » (٤٦ : ٢٦) .

« مكَّنَّاهم » بسلطات زمنية وقدرات مالية ورحمات منها غزيرة ، ولكنهم - بما كانوا يجحدون بآيات الله وما كانوا يستهزءون - « فأهلكناهم بذنوبهم » دون أن تغينهم عن بأسهم مكنتهم ولا عن يؤسهم مكانتهم « وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » مثل قرنهم ، قرناً بهم بعدهم ليلوهم فيما آتاهم ، فـ « كم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً » (١٩ : ٧٤) و « هم أشد منهم بطشاً » (٥٠ : ٣٦) فـ « هل تحس منهم من أحد » (١٩ : ٩٨) ؟ كلا بل « فنادوا ولات حين مناص » (٣٨ : ٣) وقد مضى يوم خلاص ! .

فالدنوب هي التي تخلف الهلاك ، هنا نزيراً ، وهناك بعد الموت غزيراً ، ومن رحمة الله على المؤمنين أن قد يأخذهم بذنوبهم هنا كيلا يؤخذوا بها هناك وابن أخذ من أخذ ؟ .

وهنا « وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » تعني جماعة بعدهم إذ أهلكوا بالطاغية .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (٧) :

هؤلاء المعرضون عن آيات ربهم لا يفرقون بينها في تكذيبهم مهما تطلبوا كتاباً في قرطاس ينزل من السماء ملموساً لهم بأيديهم حيث يتقولون قولتهم الفاتكة الهاتكة : « إن هذا إلا سحر مبين » فما تفيدهم إذا آيات مقترحات كما سواها من آيات .

لقد اقترح مشركون ومعهم كتابيون تنزيل كتاب من السماء ، فكما لهؤلاء : « لن نؤمن لرقبك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه » (١٧ : ٩٣) كذلك لأولاء « يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ... » (٤ : ١٥٣) .

إذا فتجاوبهم في تحقيق آيات مقترحات - ولا سيما التي ليست هي في الحق بآيات - إنه تجاوب معهم في التكذيب والإستهزاء بها وتهديرها وتهديرها دون اهداءها أو تحذيرها .

وهنا « كتاباً في قرطاس فلمسوه » تبين أن هؤلاء الحسنيين الناكرين لما وراء الحس بلغوا في عناد النكران لحد ينكرون المحسوس الملموس كما ينكرون غير المحسوس ، لأن تصديق ذلك المحسوس ذريعة إلى تصديق لغير المحسوس .

٣٤٠ الجزء السابع

وترى تنزيل كتاب في قرطاس مستحيل كما تدل عليه « لو » ؟ والله على كل شيء قدير !

إنه مستحيل مصلحياً في أبعاد : أن نازل كتاب الوحي من السماء لمحة إلى أن المنزل هو ساكن السماء وليس به ، وإن منزل الوحي هو قلب الرسول وليس حسه حتى ينزل عليه كتاب في قرطاس ، ثم في تحقيق اقتراحهم هذا مسامرة معهم في باطل حيث هم بعد منكرون .

ذلك ! وكما « لو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (١٥ : ١٥) .

ذلك إنما هو من خلفيات نكرانهم البغيض الحضيض ، فليس الذي يجعلهم يعرضون عن آيات ربهم أن البرهان على صدقها قاحل أو ضعيف ، أو غامض لا يعرفه إلا عباقرة ، أو أنها تختلف فيها أرباب العقول ، إنما هو المكابرة الغليظة البغيضة والعناد الصفيق السحيق .

ثم ومن عاذرتهم كما يهتزون أن لم يبعث الله إليهم ملكاً يحمل وحيه وهم شاهدوه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ (٨) :

« لولا أنزل عليه ملك » يصدقه ونراه يوحى إليه لنا ، أفلم يكن - إذا - برهانه أمتن وتصديق أمكن ؟

والجواب الحاسم أولاً « لو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر » وثانياً « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً . . » فما هو الأمر المقضي ؟

هل هو قضاء أمر الحياة فلا تكليف - إذاً - فلا نتاج لنزول الملائكة ؟ كما « لو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم

سورة الأنعام / آية ٨ ٣٤١

أجلهم» (١١: ١٠) واستحقاق قضاء الأجل بالشر ليس ليحيل نزول الملائكة ، وقد يؤمنون لو أنزلت ! .

أم هو قضاء أمر الحياة استئصالاً لهم إذ لا يؤمنون ؟ « ولو نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون » (١١١: ٦) فـ « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً . ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً » (٢٣: ٢٥) ولماذا يستأصلون حيث يجوز إيمانهم إن شاء الله ! . أم هو قضاء أمر التكليف لأن انقلاب الغيب إلى الشهادة يرفع الإبتلاء والتمحيص ، فـ « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور » (٢١٠: ٣) وكيف - إذاً - يزول دور التكليف ؟ .

علّ الأمر المقضي هو مجموع الأمور ، إذ لو آمنوا عند نزول الملائكة فلا ابتلاء بتكليف ، ولو أنهم كانوا من أهل الإيمان ببرهان لكفاهم برهان الرسالة الذي تقبله العقول ، فإن آمنوا قضي الأمر تكليفاً وإن لم يؤمنوا قضي أمر حياتهم باستئصالهم كما هو سنة الله فيما بلغت الحجة مبلغ النار على المنار والشمس في رابعة النهار .

إذاً فلا طائل لهم تحت نزول الملائكة إلا زوال التكليف أم زوالهم ، فهو مستحيل في الحكمة الربانية التي تربي العباد بما يصلحهم .

والمحاولة الرئيسية القرآنية هي إخراج الإنسان من دائرة المحسوس الضيقة إلى إدراك أن هناك غيباً في ذاته ، ظاهراً بآياته ، والرسالة الملائكية تغلق ذلك المجال دون الإدراك الانساني ، فهي - إذاً - نكسة إلى الوراء وارتجاع إلى الجاهلية المادية التي ليست لتصدق وراء

المادة ، وهو بالمآل ينهي إلى نكران التجردية الإلهية .

وجواب ثان عن « لولا أنزل عليه ملك » :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ (٩) :

فإضافة إلى أن نزول الملك عليهم أو على الرسل بحيث يرونهم ليس إلا عند قضاء الأمر ، وأنه لا يناسب المرسل إليهم البشر فـ « لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً » (١٧ : ٩٥) .

فلو تخطينا أمثال هذه الموانع في نزول ملك رسول أو ملك مع الرسول يرونه ، « لو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » حتى يروه ويسمعوه ، فعادت المشكلة المزعومة لهم حيث يرونه رجلاً وهو ملك فلا ينتفعون بكونه ملكاً « وللبسنا عليهم » بملك في صورة رجل « ما يلبسون » على أنفسهم .

وهذه قاعدة مطردة عادلة ان الله يلبس على الانسان ما هو يلبسه . فلما لبس هؤلاء المكذبون آيات ربهم طور الرسالة الربانية على أنفسهم ، فقد يلبس الله عليهم - لو حقق ما اقترحوه - ان يجعله رجلاً ، عوداً لمشكلتهم كما كانت ، كما وهي طبيعة الحال في رؤية الملائكة لمن ليست لهم عيون تقدر على رؤيتهم بصورهم الأصلية ، ثم « رجلاً » هنا - بأخرى من « رجالاً نوحى إليهم » في سواها - دليل انحصار الرسالة في الرجال دون النساء ، وفيه لمحة اختصاص القيادات روحية وزمنية ، شاملة أماهيم في قبيل الرجال .

ذلك ولقد نزلت هذه الآية لما احتج المشركون على الرسول (ص) فقال : « اللهم أنت السامع لكل صوت والعاصم بكل شيء تعلم ما قاله عبادك ... » (١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٤ عن الإحتجاج للطبرسي عن ابي محمد الحسن العسكري =

وهنا مشكلة تطرح نفسها حول هذه الحجة الفريدة في القرآن كله ، هي : ليس إنزال الملائكة بصورتهم الملائكية مستحيلاً إذ « يوم يرون الملائكة » تثبت آجل رؤيتهم لهم - وكما رأى النبي (ص) جبرئيل بصورته الأصلية - ولا بالصورة الإنسانية فإن رسلاً كإبراهيم ولوطاً رأوا الملائكة بصورة الإنسان .

عليهما السلام أنه قال : قلت لأبي علي بن محمد عليهما السلام هل كان رسول الله (ص) يناظر اليهود والمشركون إذا عاتبوه ويحاجهم إذا حاجوه ؟ قال : بلى مراراً كثيرة إن رسول الله (ص) كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة - إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش - إذ ابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال يا محمد ! لقد ادعيت دعوى عظيمة وقلت مقالاً هائلاً ، زعمت أنك رسول رب العالمين وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق اجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده بل لو أراد الله أن يبعث إلينا نبياً لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا ، ما أنت يا محمد إلا رجلاً مسحوراً ولست بنبي فقال رسول الله (ص) : « اللهم ... فأنزل الله عليه يا محمد » وقالوا ... » ثم قال رسول الله (ص) : وأما قولك لي : ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده ، بل لو أراد أن يبعث إلينا نبياً لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا ، فالملك لا تشاهده حواسكم لأنه من جنس هذا الهواء لا عيان منه ولو شاهدتموه بأن يزداد في قوى ابصاركم لقلتم ليس هذا ملكاً بل هذا بشر لأنه إنما كان يظهر لكم بصورة البشر الذي ألفتموه لتعرفوا عنه مقالته وتعرفوا خطابه ومراده فكيف كنتم تعلمون صدق الملك وأن ما يقوله حق ، بل إنما يبعث الله بشراً وأظهر على يده المعجزات التي ليست في طبائع البشر الذين قد علمتم ضمائر قلوبهم فتعلمون بعجزكم عما جاء به أنه معجزة وأن ذلك شهادة من الله بالصدق له ، ولو ظهر لكم ملك وظهر على يده ما يعجز عنه البشر لم تكن في ذلك ما يدلكم أن ذلك ليس في طبائع سائر أجناسه من الملائكة حتى يصير ذلك معجزاً له ، ألا ترون أن الطيور التي تطير ليس ذلك منها بمعجز لأن لها أجناساً يقع منها مثل طيرانها ، ولو أن آدمياً طار كطيرانها كان ذلك معجزاً فالله عز وجل سهل عليكم الأمر وجعله بحيث يقوم عليكم حجته وأنتم تقتربون على الصعب الذي لا حجة فيه ... » .

٣٤٤ الجزء السابع

والجواب ان « لو » هنا لا تحيل إنزال الملائكة إستحالة ذاتية خارجة عن القدرة ، إنما هي استحالة مصلحية وهي قضاء الأمر لو أنزلت بالصورة الأصلية ، واشتباه الأمر كما كان لو أنزلت بصورة رجل : « لبسنا عليهم ما يلبسون » .

ثم إن ضرورة المجانسة بين الرسول والمرسل إليهم إتماماً للحجة وإنارة للمحجة وإخراجاً عن أية لجة ، إنها تفرض إرسال رسول بشر إلى بشر ورسول غير بشر إلى غير بشر : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء بشرأ رسولاً » (١٧ : ٩٥) « يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا .. » (٦ : ١٣٠) .

ثم الآيات الرسالية الظاهرة على أيدي الملائكة ليست لتثبت رسالاتهم كما تثبت الآيات على أيدي البشر ، فإن احتمال طاقة خاصة تبرز هذه الآيات وارد في الملائكة للبشر ولا سيما للناكرين لآيات الرسولية والرسالية .

فمهما كانت الرسالة الملائكية إلى البشر أقوى من حيث اللقاء ، ولكنها أغوى من حيث عدم المجانسة وسقوط الحجة الكاملة ، وحجتهم الأقوى تُجبر بآيات الرسل البشر فلا يبقى إلا الأغوى إضافة إلى سقوط دور التكليف أم ضعفه ، ففي رسالة البشر تضاعف البرهان بتناسق انسان مع انسان « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ! .

فالمتطلبون الرسالة الملائكية هم في الحق لا يطلبون حجة أقوى ، بل هي أهوى وأغوى ، فمن المستحيل - إذاً - إرسال الرسل الملائكية لقيبيل الإنسان وأضرابه لأمر تالية :

١ - الملائكة لا ترى بالصورة الملائكية إلا عند الموت وفي البرزخ والقيامة

حيث تفتح العيون البرزخية وما فوقها ، وعند الموت يسقط دور التكليف .

٢ - لو رأوا الملائكة ولم يؤمنوا قضي عليهم حيث تستأصلهم الحجة البارة ، لمكان إعلان الغيب ، ولو آمنوا لم يكن في إيمانهم ابتلاء والإيمان عقيدياً وعملياً ابتلاء في دار الاختيار الاختبار البلاء .

٣ - لو رأوا الملائكة وأرادوا أن يؤمنوا بابتلاء لم تكمل بهذه الرسالة حجة ولم تتبين محجة فان لهم شبهة في آيات الرسالة ، وعدم معرفة بهذا الرسول الذي ما عاشوه ، ثم لا يحتمون على أنفسهم إتباع الرسول الذي هو ذو بعدين من الدعوة : وحيّاً وعملاً به ، فإن مسؤوليات الملائكة - حسب نوعية كياناتهم - غير ما هي على الإنسان ، وأنهم لو كلفوا بما يكلف به الإنسان فلهم حجة أننا مبتلون بالنفس الأمارة دون الملائكة ، وليس هكذا رسول من الإنس لمكان الأنس به في أصل الكون والكيان ، فحين يرى الإنسان رسولاً من ذوي نوعه يرغب في اتباعه ليصبح نظيره أو قريباً منه ، وليست العصمة الربانية إلا في ظروف العصمة البشرية والرسول لا يطلبون من الناس إلا عصمة بشرية على ضوء الوحي .

فللمسانخة بين الرسول والمرسل إليهم دور هام في إتمام الحجة لاتباعه لأنه منهم وهي من المنن الربانية التي يمتن الله بها على عباده : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم .. » (٢: ٦٢) في حقل الرسالة « وأولي الأمر منكم » في حقل الخلافة ، ولا نجد في الرسل رسولاً يرسل إلى قوم ليس هو منهم سواء أكانت رسالة محدودة أو مطلقة يحلق على كافة المكلفين .

وصيغة « من قومه » متكررة في حقل الرسالات ، وأما الرسالة العالمية فهي أيضاً منبثقة من قوم الرسول الأولين ، الذين هم مبدء الدعوة الرسالية

ومنطلقها ، ومن ثم هم الذين يحملون هذه الرسالة إلى آخرين .

فكلما كان الرسول أقرب إلى المرسل إليهم مكاناً ومكانة وقرابة ولغة أمأهيه؟ كانت رسالته أنجح وحجته أرجح ، حيث يروونه منهم وفي مستواهم ، وهو مع الوصف أرسل إليهم بلباقة مكتسبة كأصل حتى انتجبه الله للرسالة إليهم .

وهكذا تكون دور الدعوات الرسالية في كل حقولها الفرعية من قيادة الأمة روحية وزمنية ، أو مرجعية الفتيا أو الحاكمة الشرعية في قضاء وما أشبه ، أو إمامة الجمعة أو الجماعة أمأهيه من مناصب روحية أو زمنية ، حيث الأصلح الأليق أن ينتجب من أنفس هؤلاء الذين يحكم فيهم أو يؤمهم ، اللهم إلا أن لا يكون فيهم من يليق لذلك المنصب .

وابتعث الرسول البشر إلى الجن وسواهم من غير الانس لا ينقض قاعدة المجانسة إلا إذا كان هو المتكفل لهم بتبليغ الرسالة ، ولكن رسل الجن هم وكلاء عن رسل الإنس قبل ختم الرسالة ، أم هم نوابهم دون عصمة أم معها دون وحي كالأئمة المعصومين عليهم السلام ، أما إذا كانت الرسالة إلى غير الانس كذلك فهناك أيضاً المجانسة ملحوظة محفوظة ، فإن الذي يدعوهم مواجهة هو منهم مهما كان هو نفسه تحت قيادة أعلى رسالية أو رسولية ، ففرق بين رسول لحمل الرسالة إلى رسول ، ورسول يصاحب المرسل إليهم في رسالته ، ورسالة رسل البشر إلى رسل الجن من قبيل الأولى كرسالة الرسل الملائكية إلى الرسل البشر .

ثم رسالة البشر إلى قبيل الجن ليست بتلك المفاصلة التي هي بين الملائكة والانس حيث هما مشتركان في كل التكاليف وفي نزعات النفس والعقل .

﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (١٠):

لا تأسف يا حامل الرسالة الأخيرة السامية على ما يستهزى بك فيها ، فإن التاريخ الرسالي مشحون بهزءهم وسخريتهم من قبل المجاهيل المكذبين بآيات ربهم : « ولقد استهزء برسول من قبلك . . » بمختلف ألوانه وأشجانه ، وهذه تسليية للرسول (ص) وتسرية عنه مما كان يلقاه من عناد المعرضين وعنت المكذبين المستهزئين ، طمأنة لقلبه الجريح القريح إلى سنة الله في أخذ المستهزئين بالرسول والمكذبين ، وتأسية له كذلك بأن ليس بدعاً في واجهة الهزء من هؤلاء الأوغاد المناكيد « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » .

فقد تنزل هذه الآية حينما غاظ الرسول (ص) بهزءهم^(١) ، طمأنة لخاطره القديس الخطير ، وتشجيعاً لذلك البشير النذير أن يستمر في دعوته صامداً ، لا هامداً ولا فشلاً

مركز تحقيق كتاب مير علوم اسلامی

ذلك ولم يكن الله ليسكت عن هزء الرسل والسخرية من الرسائل ، « فحاق بالذين سخروا منهم » إصابة حالة محيطة « ما كانوا به يستهزءون » وهو حيق الاستهزاء نفسه إذ برز بصورة عذابات الإستئصال الهازئة بهم وكما في قوم نوح : « كلما مرّ عليه ملاء من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » (٣٨: ١١) فقد سخرت منهم أمواج الطوفان جزاءً وفاقاً .

هنا « ما كانوا به يستهزءون » قد تعم إلى نفس الإستهزاء المستهزء به ،

(١) الدر المنثور ٣: ٥ - اخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن اسحاق قال مر

رسول الله (ص) فيما بلغني بالوليد بن المغيرة وأميرة بن خلف وأبي جهل بن هشام

فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك فأنزل الله « ولقد استهزى . . . » .

٣٤٨ الجزء السابع

حيث الرسالات ببلوغها وبلاغها وصمودها وتقدمها وآياتها استهزئت بهؤلاء الأوغاد المناكيد ، كما استهزء بهم هزءهم نفسه .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (١١) :

« سيروا » سيراً تاريخياً جغرافياً وجغرافياً تاريخياً « في الأرض » إنسانياً ، « ثم انظروا » نظرة العبرة « كيف كان عاقبة المكذبين » - « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون » (٢٧ : ٥٢) - « فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبشر معطلة وقصر مشيد » (٢٢ : ٤٥) « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » (٦٩ : ٨) .

فالسير في الأرض هو للاستطلاع والتدبر والإعتبار معرفة لسنن الله مرتسمة في الأحداث ، مسجلة في الآثار .

فذلك السير يجعل الإنسان ابن غابره إلى حاضره ليعيش مجرباً وعلى خبرة بنتائج الأعمال خيرة وشريرة .

فقد لمس بهذه التذكرة قلوب المستهزئين المقلوبة،المغلوبة بطوع السهوى ، بمصارع أضرابهم من أسلافهم ومنهم من هم أشد قوة منهم وآثاراً في الأرض .

وخير عرض لسير الأرض هو عرض القرآن لأخبار الأرض حيث يسيرنا سيراً حثيثاً حسيماً دون أي خليط من أباطيل وأساطير .

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢) :

سورة الأنعام / آية ١١- ١٢ ٣٤٩

« قل » لهؤلاء الأغفال « لمن » ملكاً ومُلْكاً « ما في السماوات والأرض » وهما الكون المخلوق كله ، ولأن الجواب باهر حيث المسؤولون مصدقون بوجود الله مهما كانوا به مشركين فـ « قل لله » وكما « لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » (٢٥: ٣١) - « ... ليقولن خلقهن العزيز الحكيم » (٩: ٤٣) - « ... فأنى يؤفكون » (٨٧).

هؤلاء المجاهيل الأقدمون كانوا يعترفون بالربوبية العليا وإن لم يكونوا يرتبون عليها نتائجها المنطقية بإفراد الله في هذه الربوبية دون إشراك ، فتلك الجاهلية - إذأ - لها الشرف على الجاهلية المادية المتحضرة - المسماة بالعلمية - حيث تنكر حقيقة الربوبية عن بكرتها ، حيث تغلق على فطرتها وعقليتها دروبهما دون رؤية الحقيقة الكبرى !

ذلك ومن مخلفات « له ما في السماوات والأرض » أنه ذو رحمة واسعة ، وقد « كتب على نفسه الرحمة » كتابة الفرض والتحقيق إضافة إلى واقعية الكون كله التي هي من واسع رحمته .

ولقد كررت كتابة الرحمة بكل حلقاتها في القرآن مراراً ، هنا مرتان أخراهما « كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل سوءً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » (٥٤) وثالثة مصرحة بتحقيق كتابة الرحمة : « ... قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » (١٥٦: ٧).

وتلك الرحمة الربانية الواسعة كل شيء ، المحلقة عليها ، هي مكتوبة وعداً وتحقيقاً للمتقين ، ومن رحمته الشاملة « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » وهو رحمة في حلقات : رحمة لنا في هذه الأدنى أن نروضها بالتقوى ونرفض فيها الطغوى خوفاً من الأخرى وطمعاً فيها ، ورحمة لنا أخرى أن احتمالة الحياة الحساب تكسر من ثورة الطغيان عن أهله ، وثالثة

٣٥٠ الجزء السابع

رحمته في الأخرى ، المكتوبة للذين يتقون ، ورابعة أن رحمة الظالمين يوم الدين هي رحمة للمظلومين .

ذلك ، وكما شملت رحمته كل شيء ، فقد سبقت رحمته غضبه ، سبقاً زمنياً وشمولياً وفي المكانة ، ومثلث السبق باهر من الذكر الحكيم في حين لا نجد ولا لمحة لشمولية الغضب ، فإنما هو له « من أشاء » كما في آية الأعراف وما أشبه .

ولقد رويت هذه السابقة السابقة للرحمة الربوبية عن رسول الرحمة (ص) بالفاظ عدة ^(١) وان رحمته يوم القيامة سابقة

(١) الدر المنثور ٦: ٣ بسند عن أبي هريرة عن النبي (ص): لما خلق الله الخلق كتب كتاباً بيده على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي « وفي أخرى « إن رحمتي سبقت غضبي » وفي ثالثة عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص): إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلق كثير لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم : عتقاء الله .

وفيه أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب حسن السطن بسأله عن أبي قتادة عن رسول الله (ص) قال : قال الله للملائكة ألا أحدثكم عن عبيد من بني إسرائيل أما أحدهما فيرى بنو إسرائيل أنه أفضلهما في الدين والعلم والخلق والآخر أنه مسرف على نفسه فذكر عنه صاحبه فقال : لن يغفر الله له فقال : ألم يعلم أني أرحم الراحمين ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي وأنني أوجب لهذا العذاب فقال رسول الله (ص): فلا تألوا على الله .

وفي نور الثقلين ١: ٧٠٥ في روضة الكافي في رسالة أبي جعفر عليهما السلام إلى سعد الخير : « فكتب على نفسه الرحمة فسبقت قبل الغضب فتمت صدقاً وعدلاً فليس يبتدىء العباد بالغضب قبل أن يغضبوه وذلك من علم اليقين وعلم التقوى » .

كأسبغها على رحمته يوم الدنيا^(١) .

وترى ما هو موقف « إلى » في « ليجمعنكم إلى يوم القيامة » ؟ مهما وردت أيضاً « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » (٤ : ١٤٠) ولكنه جمع خاص لمجموعين خصوص .

إن الجمع « إلى » يجمع إلى « في » - اللاحق لحضور المجموعة - جمع الأولين والآخرين : « قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى يوم ميقات يوم معلوم » (٥٦ : ٥٠) عناية إلى منتهى المال لمفترقين زماناً ومكاناً ، وفي أمد الموت والحياة ، أنهم كلهم إلى غاية واحدة هي « ميقات يوم معلوم » .

ذلك ، وقد تشبهه « يوم يجمعنكم ليوم الجمع » (٦٤ : ٩) عناية إلى نفس الغاية أنها الجمع للحساب دونما أية تفرقة

ثم « لا ريب فيه » قد يعني من « فيه » كلا اليوم والجمع ، فكما لا ريب في يوم القيامة كذلك لا ريب في الجمع إليه حساباً فثواباً أو عقاباً .

(١) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وابن ماجه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله (ص) : « إن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة فجعل في الأرض منها رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والبهاائم بعضها على بعض وآخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة اكملها بهذه الرحمة مائة رحمة » .
وأخرج الشيخان عن عمر بن الخطاب قال قدم على رسول الله (ص) بسبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها إذا وجدت صبياً في السبي فأخذته فالزقت به بطنها فأرضعته فقال (ص) : أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا : لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه ، قال : فأن الله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها .
وعن جرير قال رسول الله (ص) : لا يرحم الله من لا يرحم الناس (أخرجه الشيخان والترمذي) .

«الذين خسروا أنفسهم» إذ فقدوها ولم يفتقدوها ، فقد ضلوا عن
فطرهم وعقولهم الإنسانية ، فحسبوا أنفسهم حيواناً بل وأضل سبيلاً « فهم
لا يؤمنون » والحيوان هو في حقل الإيمان .

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أُتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي
أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يَصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ
وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بَصْرٌ فَلَا
كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بَخْرٌ فَهُوَ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي
وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ
أُنذِرْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾
 الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
 الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
 مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ
 الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
 أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ
 إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ
 كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٩﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ
 يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
 إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْعَوْنَ
 عَنْهُ ۚ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ وَلَوْ
 تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ

بِعَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم
مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٣):

« له » مِلْكاً وَمُلْكاً وبأصل الكون والكيان وفرعه ، بوصله وفصله « ما سكن . . . » وتقدم الظرف هنا وفي « لمن » هناك دليل الحصر ، أنه كما أنه لا إله إلا هو ، كذلك لا مالك ولا مَلِك للكائنات إلا هو .

وترى ما هو السكون هنا ؟ ولا سكون طليقاً لأي كائن ! حيث الكون بأسره في حراك دائم دونما وقفة ، اللهم إلأً وقفات نسبية ! فإن الحركة هي لزام الكائنات الحادثة .

وإذا كان « سكن » تقابل الحركة المحسوسة ، فله المتحركات في الليل والنهار كما السواكن فلماذا الإختصاص هنا بـ « ما سكن » ومصبه الحجاج هو الكون بأسره ولا سيما المتحركات قضية حاجتها إلى محرك ؟ .

« ما سكن » لا تقابل « ما تحرك » إنما هو من السَّكَن، لا السكون مقابل الحركة أي : له ما تمكن في الليل والنهار ، كما « وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم » (٤٥ : ١٤) حيث لا تعني مقابل تحركهم ، « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً » (٨٠ : ١٦) مهما عنيت من السكن هنا اضافة الى السكونة السكينة والراحة .

أو يقال « سكن في الليل والنهار » تعني السكينة والراحة مع السكونية ،

سورة الأنعام / آية ١٣ ٣٥٥

إنه هو الذي أسكنهم وطمأنهم ، فكما لا سَكَن في الليل والنهار إلا من الله ، كذلك لا سَكينة وراحة فيهما لهم إلا من الله .

فـ « سكن » على أية حال تعني سكن المكان والزمان الشامل لأي كان ، كما الليل والنهار لهما مكان الآفاق ، العارضان هما عليها ، ولكن القصد هنا إلى ساكني الكون في كل زمان ومكان ، وهو تعالى ليس له زمان ولا مكان .

ثم ولا يخرج أي كائن من ساكن في الليل والنهار ، أم في ليل أو نهار ، حيث المكان بين سَكَن الليل وسكن النهار ، اللهم إلا العدم المطلق الذي ليس ليلاً ولا نهاراً ، فلا هو في ليل ولا في نهار سلباً لسلب الموضوع .

ثم الله الذي ليس مائناً ولا مكاناً وهو خارج وبائن عن ظلم الليل وضوء النهار خروجا عن موضوع الزمان والمكان والليل والنهار ، فانهما من لزامات الكائنة الحادثة المادية ، والمجرد الطليق عن كل شئون المادة لا هو مائناً فيها ولا هو مكان لها .

فـ « ما سكن في الليل والنهار » عبارة أخرى عن الكون المخلوق بأسره كما السماوات والأرض وما بينهما .

فكما الظرف مكانياً يشمل كل الكائنات مستقصياً أي كائن كان ، كذلك هو زمانياً حذو النعل بالنعل ، ثم الخالق للكون لا مكان له ولا زمان لأنه الخالق لهما وما فيهما ، فكما له « ما في السماوات والأرض » مكاناً ، كذلك « له ما سكن في الليل والنهار » زماناً ، ولا كائن مخلوقاً دون مكان أو زمان أيّاً كان وأيان .

وترى إذا كان « له ما في السماوات والأرض » و « ما سكن في الليل والنهار » فلمن - إذا - ظرف المكان وظرف الزمان ؟ .

كما أن « ما في السماوات والأرض » تعني الكائن والمكان ، كذلك « ما سكن في الليل والنهار » تعني الساكن والزمان ، وكما تصرّح بذلك آيات خلق المكان وخلق الزمان فـ « الله خالق كل شيء » من مثلث الساكن الماكن والزمان والمكان .

ذلك ! وكما أن هناك ملازمة بين خلق الزمان والمكان والساكن والماكن ، فالخالق للماكن ليس ليخلق إلا في مكان خلقه من ذي قبل أو معه ، كما الخالق لساكن الليل والنهار ليس ليخلق إلا بعد خلق الليل والنهار أو معهما ، مهما كان خلق الزمان والمكان والساكن والمكان هو كله في أول ما خلق الله جملة ، ثم الله خلقها تفصيلاً .

ثم وكما أن لكتاب التشريع محكماً ومفصلاً تلوّ بعض ، كذلك كتاب التكوين ، والكاتب واحد لا شريك له سبحانه وتعالى عما يشركون .

ثم ونفس السكون في الليل والنهار دليل حدوث الساكن كما المسكن ، كما ونفس التمكن في المكان دليل حدوث الماكن كما المكان ، وذاتية الحدوث للزمان لمكان التصرم الدائم ، دليل - وبأحرى - على ذاتية الحدوث لساكن الزمان والمكان .

ذلك « وهو السميع » للأصوات كلها « العليم » بالكائنات والكيانات والحالات والصفات والحاجات كلها ، لا تخفى عليه خافية ، وقد كتب على نفسه الرحمة ، وله العلم المحيط والقدرة الواسعة ، إذاً فـ « ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » .

﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٤) :

فحين ثبت بالبرهان أن هناك فاطراً للسماوات والأرض هو الله فـ « قل

أغیر الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض» - «أفي الله شك فاطر السماوات والأرض» (١٤: ١٠) «فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة» (١٢: ١٠١).

ثم وهو الغني ذو الرحمة : « وهو يُطعم » روحياً ومادياً « ولا يُطعم » ^(١) في أي من حقول الطعام، وكل ما في الكون مُطعم مهما يُطعم ، وأين إطعام من إطعام ، حيث المطعم من الخلق هو مطعم في أصله وفرعه ، في وصله وفصله ، وهو مطعم بما يُطعم ومن حيث يُطعم .

« قل » لهؤلاء الذين يتخذون من دون الله ولياً ، و « قل » لكل من يشعر ويعقل « إني أمرت أن أكون أول من أسلم » أولية في درجة الإسلام لا في الزمان والمكان ، حيث سبقه مسلمون كثير على مدار الزمن .

« ولا تكونن من المشركين » كما أنت أول المسلمين لله ، فلتكن أول المعارضين للإشراك بالله ، فأنت الأول الطليق في كلا السلبية والإيجابية لكلمة الاخلاص : « لا إله إلا الله » : « لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (٦: ١٦٣).

ذلك ، وكما كان محمد (ص) أول المسلمين ، كذلك - ولزاماً له - كان أول العابدين : « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » (٤٣: ٨١) وأول العارفين منذ بداية الخلق إلى يوم الدين ، أولية

(١) الدر المنثور ٣: ٧ بسند عن أبي هريرة قال دعا رجل من الأنصار النبي (ص) فانطلقنا معه فلما طعم النبي (ص) وغسل يده قال : « الحمد لله الذي يُطعم ولا يُطعم ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذي اطعمنا من الطعام وشفانا من الشراب وكسانا من العرى وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلاً الحمد لله رب العالمين » .

في هذه الزوايا الثلاث لا تساوى ولا تسامى ! .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٥) :

لست أنا - لأنني رسول - في أمن من العذاب « إن عصيت ربي » فإن
« عذاب يوم عظيم » هو لزام العصيان من أي كان ، بل والعذاب للأقرب
إلى الله - لو عصى - أقرب وأعظم ، كما هو للأغرب أغرب ، بل وحسنات
الأبرار سيئات المقربين .

ولقد كان الرسول (ص) يكرر مقالته هذه في مختلف المجالات ، قبل
الفتح وبعده ، وقد يكون بعده أخرى لاحتمالة النزوة الطارئة نتيجة الفتح
المبين ، فلا دور خاصاً لهذه المقالة ولا نسخ له أبداً خلاف الرواية
المختلفة^(١) .

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (١٦) :

أترى صرف عذاب يوم عظيم عن الصالحين - ولا سيما السابقين
والمقربين - هو رحمة من العظيم أم هو عدل جزاءً وفاقاً ؟ .

إن صرف العذاب عن الصالحين الذين لا ذنب لهم ولا سيما
المعصومين هو قضية العدل مهما كانت الجنة قضية الرحمة التي كتب الله
على نفسه ، وهذه ضرورة عقلية وقرآنية أن استحقاق العذاب خاص بأهله

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٥ في تفسير العياشي عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله (ع)

قال : ما ترك رسول الله (ص) « اني أخاف . . » حتى نزلت سورة الفتح فلم يعد إلى
ذلك الكلام « أقول : علّه عناية الى « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر »
ولكن الذنب هنا غير العصيان هنا ، إنما هو رسالته يبلّغها وبلوغها حيث الذنب هو
كل ما يستوخم عقابه ، وكانت عقبي هذه الرسالة السامية مستوخمة من قبل المشركين
المحتلين عاصمة التوحيد ، فصد الله عنه (ص) مستوخمة العقبي ما دام حياً بفتح
تلك العاصمة - راجع تفضيل الكلام في تفسير سورة الفتح - .

الطالحين ، إذا فـ» من يصرف عنه « تتخصص بهؤلاء الأكارم الذين لا ذنب لهم ، وتخصص بمن له ذنب أياً كان ، تاب عنه أم لم يتب ، شفع له فيه أم لم يشفع ، حيث التوبة من الله ومغفرته والشفاعة المقبولة لديه وتكفير السيئات بترك الكبائر وما أشبه ، كل ذلك قضية رحمته ، فمن يُصرف عنه العذاب فقد رحمه بواجب رحمته التي فرضها على نفسه أم راجحها ، أم والتي ليست خلاف العدل .

وإذا كان صَرف العذاب عن هؤلاء رحمة فالجنة لهم رحمة فوق رحمة ، إذ لا يستحق أحد على الله الجنة جزاءً أصلياً ، اللهم إلا بما وعد برحمته ، حتى « ولا أنت يا رسول الله (ص) »^(١) ولكن الله يتغمده ومن معه برحمته التي كتبها على نفسه .

ذلك ، وأما صرف العذاب عنه (ص) فيما صرف عن نفسه العصيان وكما خص خوفه عنه به : « إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضْرَ فَلَآ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٧) :

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يُردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم » (١٠: ١٠٧) - « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم » (٢: ٣٥) .

هذه الآيات ترسم صورة وضاعة عن توحيدته تعالى في أفعاله ، فلا

(١) مجمع البيان عن الحسن في تفسيره ان النبي (ص) قال: والذي نفسي بيده ما من الناس احد يدخل الجنة بعمله قالوا : ولا أنت يا رسول الله (ص) ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ووضعه يده على فوق رأسه وطول بها صوته .

شريك له في كشف الضر ومُسّه ، ولا في مس الخير ومُسكه ، فأني تؤفكون - إذا - أفكاً آلهة دون الله تريدون؟ ، فهنا قضية واحدة لا تنقسم ولا تقبل تميعاً ولا أنصاف حلول ، إما أفراد الله في كافة اختصاصات الربوبية ، قضية الفطرة والعقلية والفكرة والعملية في شعيرته وشريعته ، فهو ذاك الإسلام ، وإما الإشراك بالله في أي من شؤون الربوبية تخلفاً عن الآيات الأنفسية والآفاقية ، فالجمع بينه ومن سواه إشراك به كيفما كان مهما كان دركات كما التوحيد درجات .

ولقد أمر الرسول (ص) - على محتدة القمة الرسالية - أن يصارح بذلك الإستنكار هؤلاء المشركين الداعين له إلى الملاينة والمداهنة ، وجعل البلد شطرين وأخذ العصا من وسطها ، ليجعل لآلهتهم مكاناً في شرعته لكي يدخلوا في دينه ، والجواب كلمة واحدة « لكم دينكم ولي دين » فلا يقبل دين التوحيد أي تليين ومصالحة وأنصاف حلول ، فإنه صراح التوحيد الحق وحق التوحيد ، ورفض كل شرك عن ساحته وسماحته .

مركز تحقيق كالمبيوتر علوم إسلامي

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (١٨):

تلك الفوقية القاهرة الربانية هي فوقية المحتد والمكانة في العلم والقدرة والتقدير والتدبير وفي كل ما تتطلبه الربوبية الوحيدة غير الوهيدة « وهو الحكيم » في قاهرته الفائقة « الخبير » بكل سؤل وسؤال لعباده ، قاهر فوقهم عدلاً وفضلاً ، إذا « ليس القاهر على معنى علاج ونصّب واحتيال ومداراة ومكر كما يقهر العباد بعضهم بعضاً ، فالمقهور منهم قد يعود قاهراً والقاهر قد يعود مقهوراً ، ولكن ذلك من الله تبارك وتعالى على أن جميع ما خلق ملتبس به الذل لفاعله وقلة الإمتناع لما أراد به ، لم يخرج منه طرفة عين ، غير أنه يقول له : كن فيكون ، والقاهر منا على ما

ذكرت ووصفت فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى ^(١).

وليس القهر هنا هو الجبر ، فـ « لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين »
 إنما هو غلبة الإرادة الربانية على كل إرادة ومريد ومراد ، حتى في الأمور
 الاختيارية ما لا ينافي الاختيار ، فلا يستطيع المختار من تحقيق ما يختار إلا
 - بالمآل - بإرادته تعالى وتقدس دونما تسيير على خير أو شر إلا فيما يصح
 ويصلح فيه التسيير .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا
 الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا
 أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (١٩) :

« أي شيء أكبر شهادة » على صادق الوحي إليك ؟ طبعاً هو الله لأنه
 الأكبر على الإطلاق ، وإن شهادة الوحي راجعة إليه ، فلا شاهد أكبر وأحق
 شهادة له منه : « قل كفى بالله » ولأن الجواب هنا بين للمشركين حيث يعتقدون
 في ألوهيته وربوبيته الكبرى ، لذلك طوي عن ذكره بقولهم وقوله ، أم إن
 « قل الله » جواب وهو مع الوصف مبتدأ خبره « شهيد ... » ^(٢) .

« قل الله شهيد بيني وبينكم » وبماذا يشهد ؟ « لكن الله يشهد بما أنزل

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٦ في كتاب التوحيد عن الرضا (ع) حديث طويل وفيه يقول (ع) :
 « وأما القاهر فانه ليس على معنى ... » .

(٢) نور الثقلين ١ : ٧٠٦ عن التوحيد باسناده إلى محمد بن عيسى بن عبيد قال قال لي
 أبو الحسن (ع) أما تقول إذا قيل لك أخبرني عن الله شيء هو أم لا شيء ؟ قال :
 فقلت له : قد أثبت الله نفسه شيئاً يقول : قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ...
 فأقول : إنه شيء لا كالأشياء إذ في نفي الشيئية عنه إبطاله ونفيه ، قال لي (ع) :
 صدقت وأصبت .

إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً» (٤: ١٦٦) (١).

فالقرآن بنفسه شهيد وبينه من ربه وكما هو بنفسه بينه ويتلوه شاهد منه : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » (١١: ١٧).

وهنا « أوحى إليّ هذا القرآن » تجعل القرآن المحور الأصلي للشهادة الإلهية على وحيه « لأنذركم به » عن عذاب الله في يوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

«ومن بلغ» : من بلغ مبلغى منذراً كاللائمة المعصومين (٢) ، ومن بلغ

(١) الدر المنثور ٣: ٧ عن ابن عباس قال جاء النحام بن زيد وقرم بن كعب وبحري بن عمرو فقالوا يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال رسول الله (ص) : « لا إله إلا الله » بذلك بعثت وإلى ذلك ادعو فأنزل الله في قولهم « قل أي شيء أكبر شهادة . . . » .

وفي نور الثقلين ١: ٧٠٦ في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية وذلك ان مشركي اهل مكة قالوا يا محمد ما وجد الله رسولا يرسله غيرك ؟ ما نرى أحداً يصدقك بالذي تقول ، وذلك في أول ما دعاهم وهو يومئذ بمكة ، قالوا : ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا انه ليس لك ذكر عندهم فأتنا من يشهد أنك رسول الله قال رسول الله (ص) : « الله شهيد بيني وبينكم . . . » .

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٧ في أصول الكافي بسند متصل عن مالك الجهني قال قلت لأبي عبد الله (ع) قوله عز وجل : الآية ، قال : من بلغ أن يكون إماماً من آل محمد عليهم السلام فهو ينذر بالقرآن كما أنذره رسول الله (ص) ، ورواه مثله العياشي عن الصادقين عليهما السلام ، وفي تفسير البرهان ١: ٥٢٠ عن تفسير العياشي عن أبي خالد الكابلي قال قلت لأبي جعفر عليهما السلام « واوحى إلي هذا القرآن . . » حقيقة أي =

سورة الأنعام / آية ١٩ ٣٦٣

مبلغ الإنذار بعدي وبعدهم من العلماء الربانيين ^(١) ، فلا بد - إذاً - للمنذر بالقرآن من بلوغ هو بلوغ العقلية القرآنية تلقياً وتطبيقاً وإلقاءً ، وذلك مثلث لهندسة الإبلاغ والإنذار بالقرآن ، عطفاً له « من بلغ » بفاعل « أنذركم » .

ثم « من بلغ » من المنذرين ، بلغ عقلياً إذ لا تكليف للصغار والمجانين ، ومن بلغه منهم طول الزمان وعرض المكان منذ بزوغه إلى يوم الدين، ومن بلغ به ^(٢) عطفاً له بمفعوله « كم » .

إذاً - « من بلغ » دون تقييد أدبي بالمنذر والمنذر ، أو كونه لازماً أو متعدياً ، إنه تعبير قاصد إلى مسدس المعاني : لأنذركم به وينذركم من بلغ

شيء عنى بقوله : « ومن بلغ » قال : فقال من بلغ أن يكون إماماً من ذرية الأوصياء فهو ينذر بالقرآن كما أنذر به رسول الله (ص) ، وعنه (ع) قال : علي (ع) ممن بلغ .
(١) تفسير البرهان ١ : ٥١٩ - العياشي عن زرارة وحمزان عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في الآية « يعني من بعده وهم ينذرون به الناس » .

(٢) الدر المنثور ٣ : ٧ عن ابن عباس وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ يعني من بلغه هذا القرآن فهو له نذير ، وفيه أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله (ص) إلى كسرى وقيصر والنجاشي وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل وليس بالنجاشي الذي صلى عليه ، وفيه أخرج أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال أتى رسول الله (ص) بأسارى فقال لهم هل دعيتم إلى الإسلام قالوا لا فخلى سبيلهم ثم قرأ : « وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » ثم قال خلوا سبيلهم حتى يأتوا مآمنهم من أجل أنهم لم يدعوا ، وفيه أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس قال : قال رسول الله (ص) : « من بلغه القرآن فكأنما شافهته به ثم قرأ هذه الآية » وفيه عن قتادة في الآية ان النبي (ص) كان يقول بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله .

وفي نور الثقلين ١ : ٧٠٧ في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن أبي عبد الله (ع) سئل عن قول الله عز وجل : « وأوحى » . ومن بلغ » قال : « لكل إنسان » .
أقول : وفي نسخة أخرى « بكل لسان » رواه هكذا في تفسير البرهان ١ : ٥٢٠ .

في مثله ، ومن بلغ في نفسه منذراً ، وبلغه هذا الوحي ، وذلك من ميزات القرآن أن يجمع معاني عدة بلفظ واحد يتحملها^(١).

إذاً فالبالغ بالقرآن ينذر به وذلك بعد بلوغه وبلوغ القرآن إليه ، والبالغ عقل التكليف ينذر به ، والبالغ إليه القرآن وهو بالغ منذر به فمُنذر به ، فلا

(١) و « بلغ » فاعلاً ومفعولاً لازماً ومتعدياً تعني المعاني التالية : من بلغ مثلي ، أم تلي تلوي ، من بلغ مبلغ العقل وبلغه القرآن ثم بلغ بالقرآن ، فشرط الانذار بالقرآن هو البلوغ به مبلغ الرسول (ص) قدر المستطاع ، وشرط المنذر بلوغ حد التكليف ، فهنا احتمالات في جمعتي هذه الجملة ، الصالحة منها معنية وغيرها غيرها .
فـ « كم » قد تعني خطاب الحاضرين من أم القرى ، أم كافة المكلفين ممن حولها ، و « بلغ » عطفاً على المفعول قد تعني بلوغ المعرفة وجاء قوم لد في الوجه الأول من الخطاب ، فهم البالغون مختلف مدارج العقل والعلم والمعرفة ، ما بلغوا ، لمحة إلى أن القرآن لا يغتنم المجاهيل لأنهم يقبلونه بجهلهم ، بل من بلغ ما بلغ .
و « بلغ » اللازمة في هذا الاحتمال قد تعني معه بلوغ عقل التكليف ، وبلوغ حالة التقبل للحق ، ثم هي المتعدية « بلغه » بين بلوغ نبي القرآن إليه ، أو بلوغه نفسه إليه ، أو بلوغه - إذاً - بذلك البلوغ ، وهذه احتمالات ست في الأولين تصبح اثني عشر.

ثم « بلغ » عطفاً على الفاعل قد تعني نفس الاحتمالات الست فهي مضروبة على الأولين اثني عشر آخر فالمجموع أربعة عشرون .

وفي تقسيم آخر « من بلغ » فاعل أو مفعول والمفعول اما مفعول له أو بواسطة الجار بلغ إليه - فيه - به - واما بلوغ الفطرة أو العقل أو العلم أو المعرفة أو بالقرآن وهي مضروبة على وجهي « كم » خمسون ، وقد تعني « كم » في « لأنذركم » هؤلاء القوم اللد المجاهيل ، ولكيلا يظن اختصاص الدعوة القرآنية بهؤلاء المنحطين ثناهم بـ « من بلغ » عقلياً وعلمياً مهما كان علياً غالباً ولأعلى قمم العصمة البشرية فطرية وعقلية وعلمية .

فـ « من بلغ » في احتمالات كثيرة على وجهي الفاعلية والمفعولية وعلى وجهي اللزوم والتعدي ، بلوغاً في نفسه في أية مرحلة من درجاته وبلوغاً إليه وبلوغاً به .

بد من حمل القرآن لحد البلوغ به ، ثم إبلاغه إلى كل من يعقل عنه .

صحيح أن الرسول (ص) هو الصاعد الأول لهذا البلاغ المبين ، ولكن الإنذار بالقرآن لا ينحصر فيه وفي المعصومين من أهل بيته الكرام عليهم السلام ، لأنه يحمل دعوة عالمية تشمل الطول التاريخي والعرض الجغرافي .

ذلك و « كم » في « لاندركم » تعني مع الحاضرين زمن الخطاب كل المكلفين في وجهي الخطاب ، فإن « من بلغ » في وجه الفاعلية تجعل « كم » هم المنذرين ككل ، وهي في وجه المفعولية تخص الحاضرين ، فانها من بلغه القرآن وهو بالغ لحمل التكليف بالقرآن .

كما وان « بلغ » تعني وجهي اللزوم والتعدي ، « من بلغ » في نفسه و « من بلغه » وحي القرآن ، ووجه اللزوم ألزم فانه أعم فهو أتم .

والدعوة الإسلامية تتمحور القرآن لمكان آيات التذكير والإنذار بالقرآن و « إن هذا القرآن يهدي التي هي أقوم » (١٧: ٩) « وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن » (٢٧: ٩٢) « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٥٠: ٤٥) « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » (٤: ١٠٥) « والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين » (٧: ١٧٠) « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » (١٤: ١) « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة .. » (١٦: ٨٩) « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » (٢٩: ٥١) ، ذلك ولا نجد حتى لمحة في القرآن لسماح الدعوة بغير القرآن إلا طاعة للرسول وأولي الأمر لتفهم القرآن فيما عضل من تأويل تطبيق القرآن .

وهكذا نسمع آيات الإنذار أنها تخصه بالقرآن أو بالوحي الشامل للسنة

كهامش « قل إنما انذركم بالوحي » (٢١: ٤٥).

ومن لطيف الوفاق بين القرآن والاسلام والوحي والملائكة ويوم القيامة أن ذُكر كل (٧٠) مرة مما يلوح كأن القرآن هو الوحي كله والاسلام كله، الذي يحمله الملائكة ، ثم يظهر يوم القيامة كما لمحت آية الشورى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ... » (٤٢: ١٣) حيث اختص الوحي من بين الخمس بوحى القرآن .

فعدم البلوغ بالقرآن ذنب، وعدم إبلاغه ذنب على ذنب، فإن كتاب الدعوة لا ينتشر إلا بحملته البالغين به وكما أمر الرسول (ص) « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٥٠: ٤٥) « وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » (٦: ٧٠) .

وترى كيف يبلغ القرآن العربي إلى من لا يعرف لغته ؟ والجواب أن التبليغ بكل لغة واجب حملته البالغين به ترجمة له صالحة وترجماناً صالحاً .

وليس من المفروض في كتاب الوحي الداعي أن ينزل بكل لسان ، وإنما الدعوة والبلاغ بكل لسان هو واجب المنذرين به ، كما وأن تفهمه بكل لغة هو واجب المنذرين به .

وهنا نتأكد واجب السيادة القرآنية في لغته كما في أصله ، فعلى المسلمين به ككل أن يحملوا لغته جاداً صالحاً ، ثم يحملوه بكل لغة بلاغاً لأهلها ككل .

فـ « من بلغ » في كل حقوله لا يخلوا عن منذر به ومنذر به ، فمن لم يبلغه القرآن بلغته غير العربي فانما إثمه على حملة القرآن الذين لم يبلغوه بلغته ، كما أن من بلغه بلغة عربية وسواه ولم تبلغه معانيه الحققة ومغازيه

فإثمه على من لم يبينه ، ثم الذين لم يبلغهم وهم عارفون بحجته أم عله من الله هم شركاء مع سائر المقصرين في الإثم .

إذا مسؤولية بلوغ القرآن ليس فقط على عواتق حملته ، بل والذين يعرفون وحيه أو يحتملون ثم لا يفحصون عن بالغة حجته وحالقة محجته .

فالمتحري عن الحق أياً كان عليه التحري عن بالغ حجة القرآن بكل الإمكانات المستطاعة له ، كما على حملة القرآن أن يبلغوه إلى كل من بلغ « قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين » .

«إنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى» شهادة أنفسية : بالوجدان فطرة أو عقلية أو علمية ، أو آفاقية ، أم بوحى من الله ؟ وكل هذه منفية تدل الآيات الآفاقية والأنفسية على خلاف هذه الشهادة الكاذبة ، إضافة إلى شهادة الله بذاته وبكتابه على وحدته .

« قل لا أشهد » بأية شهادة « أن مع الله آلهة أخرى » « قل إنما هو إله واحد » على ضوء كافة الشهادات الصالحة الصادقة « واني بريء مما تشركون » .

هنا « لا أشهد » دليل عدم الشريك لله وحيّاً ، إضافة إلى سائر الأدلة ، لأن الموحى إليه شاهد قبل كل شيء كيان الربوبية للموحى وإلا فكيف يُرسل من عنده ، فكما « لا يعلم » هي من الله دليل عدم المعلوم عن بكرته لأنه يحيط علمه بكل شيء : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبشون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » (١٨: ١٠) كذلك « لا أشهد » هي من رسول الله (ص) دليل على عدم وجود المشهود عن بكرته ، « وأعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله ورأيت آثار ملكه وسلطانه ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنه إله واحد كما وصف نفسه لا

يضاده في ملكه أحد ولا يزول أبداً»^(١).

ثم من يقول : « إني أقول إن صانع العالم إثنان فما الدليل على أنه واحد - يقال له : - قولك إنه إثنان دليل على أنه واحد لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد فالواحد مجتمع عليه والثاني مختلف فيه »^(٢).

ذلك طرف طريف عريف من شهادة الله لهذه الرسالة السامية ، ومن ثم « الذين آتيناهم الكتاب » مدى معرفتهم بوحى الكتاب ، حيث الوحي نمط واحد مهما تفاضلت الدرجات ، كما الرسل والرسالات درجات ، كما وان هذه الكتب تحمل له شهادات :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢٠) :

هذه والتي في البقرة : « ... وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » (١٤٦) « شهادة كتابية ذات بعدين على هذه الرسالة السامية ، فصلناها هناك فلا نعيد .

فكما أن الله شهيد للرسول بنفس الرسول وقرآنه المبين و « ويتلوه شاهد منه » كذلك هو شاهد بسائر كتاباته بطبيعة وحيها والبشائر التي تضمها .

إذا فهو مشحون بمثلث الشهادة الصادقة القاطعة القاصعة في هندسة

(١) نهج البلاغة عن الامام علي امير المؤمنين (ع).

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٧ في كتاب التوحيد باسناده الى الفضل بن شاذان قال : سألت رجلاً من الثنوية ابا الحسن علي بن موسى الرضا (ع) وأنا حاضراً فقال : « إني أقول : ... فقال : قولك : ... » .

الرسالة الختمية ولا ينبئك مثل خبير (١) .

« الذين خسروا أنفسهم » فقداناً لنفسياتها العاقلة وفطرياتها الكاملة ، ومعرفتها الشاملة ، فلم يفتقدوها لما فقدوها « فهم لا يؤمنون » بهذا الرسول (ص) قضية المتاركة لأثافي الإيمان ودلالاته .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢١) :

أجل إنه لا أظلم ممن افترى على الله كذباً كما افترى من أهل الكتاب على الله أنه ختم بكتبهم الوحي وما أشبه « أو كذب بآياته » رسالية ورسولية كما كذبوا بآيات الرسالة المحمدية في كتبهم وفيه نفسه وفي كتابه الذي كله آيات رسالته فإنه آيته الخالدة .

« إنه لا يفلح الظالمون » مهما أبرقوا وعربدوا وحاولوا كل المحاولات

(١) نور الثقلين ١ : ٧٠٨ عن تفسير القمي عن حريز عن أبي عبد الله (ع) قال : نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى يقول الله تبارك وتعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه » يعني رسول الله (ص) « كما يعرفون أبناءهم » لأن الله عز وجل قد أنزل عليهم في التوراة والانجيل والزيور صفة محمد (ص) وصفة أصحابه ومبعثه ومهاجره وهو قوله تعالى : « محمد رسول الله » . . . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل . . . فهذه صفة رسول الله (ص) في التوراة والانجيل وصفة أصحابه فلما بعثه الله عز وجل عرفه أهل الكتاب كما قال جل جلاله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

وفي تفسير البرهان ١ : ٥٢٠ قال علي بن إبراهيم ان عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام هل تعرفون محمداً (ص) في كتابكم ؟ قال : نعم والله نعرفه بالنعمة الذي نعته الله لنا إذا رأيناه فيكم كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان والذي يحلف به ابن سلام لأننا بمحمد هذا اشد معرفة مني بابني قال الله : « الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون » .

لكل الحيل الحائلة بين آيات الله وبيناته ورسالته المدلول عليها بها .

وهنا « من أظلم » يعرف بالبعض ممن لا أظلم منهم ، ومنهم : « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » (٢ : ١٤٠) « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها » (١٨ : ٥٧) « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » (٢ : ١١٤) .

ذلك ، وهذه الثلاث أيضاً راجعة إلى افتراء الكذب على الله والتكذيب بآيات الله ، وهذه من محادة الله ومشاقته تعالى مهما كانت دركات كما الايمان به درجات .

والظلم في ثلوثه مادة وحالة للظالم ومحتداً للمظلوم - دركات اسفلها ظلم المفترى على الله كذباً أو تكذيباً بآياته ، وليس هنا الله هو المظلوم المنتقص ، إنما الحق وآيات الحق هي المظلومة ، حيث الظلم هو الإنتقاص ولا ينتقص عن الله شيء ، فقد ظلموا انفسهم بما ظلموا آيات الحق المبين ! .

مركز تحقيق كتاب توحيد علوم رباني

ذلك ومن إفتراءهم الكذب على الله أنه اتخذ لنفسه شريكاً أو شركاء ، وأمرهم أن يعبدوها من دون الله، ويتخذوها شفعاء عند الله، وأنه لم يوح بشيء إلى أحد ، وأن الملائكة بنات الله ، وأنه أحل ما أحلوه وحرم ما حرموه إفتراء الكذب على الله، وأنه امر بالفاحشة ، ثم ولا يعذب اليهود والنصارى لأنهم أبناء الله وأحباءه ! .

ومن تكذيبهم بآيات الله تكذيب الآيات الرسولية والرسالية ، وتكذيب الآيات التي تحمل بشارات بحق محمد (ص) وما أشير من سائر الآيات .

فقد ظلموا آيات الله وظلموا ناصع الحق حين افتروا الكذب على الله ، فحين يعذبهم الله بما ظلموا « فما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون » لأن ظنهم - أيأ كان - راجع إلى انفسهم وهم لا يفلحون وصولاً إلى

بغيتهم اللثيمة، وهي واقع الظلم الإنتقاص في إفتراءهم على الله وتكذيبهم بآيات الله ، فقد ظلموا بما ظلموا أنفسهم ولم ينتقصوا من الله ولا من آياته .

فلا أن الله يُنتقص بظلمهم في فريتهم عليه ، لا في ذاته ولا في صفاته أو أفعاله ، « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ولا أن آيات الله تنتقص في واقعها الدلالي على الله ، اللهم إلا تغطية إياها على أنفسهم وأنفس الضعفاء والمستضعفين ، فهم - على أية حال - لا يُفلحون ويُفلحون ، بل ويُفلحون ولا ينجون .

فكما الظلم في نفسه هو أقبح الأمور ، ولا عصيان ولا تخلف إلا وهو ظلم ، كذلك الإفتراء الكذب على الله والتكذيب بآياته هو من أظلم الظلم « ولا يفلح الظالمون » .

فلا عبرة بما تراه العيون القاصرة المائرة في قريب الأمد فلاحاً للظالمين ونجاحاً ، فإنه الإستدراج المؤدي إلى خسار أخسر وبوار أبور « ومن أصدق من الله حديثاً » .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (٢٢) :

« نحشرهم » من موحدين ومشركين « ثم نقول للذين أشركوا » أيأ كان إشراكهم في ثالوثه ، عبادة أوثان وطواغيت ، أم إنحرافاً ثنويّاً أو ثالوثيّاً وما أشبهه عن التوحيد ، أم انحرافاً عن إسلام التوحيد كملامح الشرك في المسلمين في فلسفاتهم وعرفاناتهم المتحللة عن الوحي .

ذلك ، ولكن مَصْبُ السؤال التنديد هنا - كأصل - هو رأس زواية الإشراك ، فـ « نقول » لهم « أين شركاؤكم » دون شركائي ، فانهم مختلفون من عند أنفسهم دون رباط لهم بالله ، أين هم حيث « كنتم تزعمون » ولا

٣٧٢ الجزء السابع

بد لهم أن يكونوا أبرز أهل الحشر ، سواء أكانوا من الآلهة الأصول كما
الله ! أم الشفعاء ، - على زعمهم - عند الله ، فكيف تفضل الآلهة الشفعاء
أو المحاسبون كأصول الألوهة عن محشر الحساب ؟ .

وترى « أين شركاءكم » إستحالة لبروز شركائهم هناك ؟ ولا بد من
بروزهم لمشاهدة ذلك الحوار البوار ! إستفهام الإنكار هنا مُنصَّبٌ على كيان
الشركاء دون كونهم كخلق من خلق الله : « وإذا رأى الذين أشركوا
شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاءنا الذين كنا ندعوا من دونك » (١٦: ٨٦)
« فزيلنا بينهم وقال شركاءهم ما كنتم إيانا تعبدون » (١٠: ٢٨) لذلك وقد
زُيِّلَ بينهم وزالت عنهم ألوهتهم المزعومة : « وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم
فلم يستجيبوا لهم » (٢٨: ٦٤) .

وهل تحشر - مع سائر أهل المحشر - الشركاء غير العاقلة كالجمادات ؟
ولماذا ! ، إنها تحشر للمقابلة ، بل وتحرق حرقاً قلوباً عابديها « إنكم وما
تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كانوا آلهة ما
وردوها وكل فيها خالدون » (٢١: ٩٩) .

وترى هل لهم من فتنة أمام ذلك الاستجواب الحاسم القاصم ؟ :

« ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتْنُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظِرْ
كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٢٤) :

هنا هم « كذبوا على أنفسهم » وكذلك شركاءهم « وقال شركاءهم ما
كنتم إيانا تعبدون » (١٠: ٢٨) ! تكاذب وتسالب في استجواب « ولات
حين مناص » وقد فات يوم خلاص .

إن يوم القيامة مواقف لكلٍ حكمه دون تضاد ومنها « ثم يجتمعون في
مواطن أخرى فيستنطقون فيه فيقولون « والله ربنا ما كنا مشركين » فيختم الله
تبارك وتعالى على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكل

معصية كانت منهم ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء « (١).

وترى كيف يكذبون على أنفسهم وهو في العمق كذب على الله في استجوابهم قضية شركهم ؟ وذلك يوم « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » (٣٨: ٧٨) « ولا يؤذن لهم فيعتذرون » (٣٦: ٧٧) !

إنهم في ذلك الموقف يتكلمون بكذبهم حيث هم مأذونون فضحاً لهم بما يكذبون فيه « إن الله يعفو يوم القيامة عفواً لا يخطر على بال حتى يقول أهل الشرك : « والله ربنا ما كنا مشركين » (٢).

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٨ في كتاب التوحيد عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل يذكر فيه أحوال أهل المحشر فيه .

(٢) المصدر عن تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (ع) قال : « إن الله يعفو ... » .

وفي تفسير البرهان ١: ٥٢٠ عن تفسير العياشي عن أبي معمر السعدي قال : أتى علياً (ع) رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني شككت في كتاب الله المنزل فقال علي (ع) : ثكلتك أمك وكيف شككت في كتاب الله المنزل ؟ فقال له الرجل : إني وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضاً وينقض بعضه بعضاً ؟ فقال : هات الذي شككت فيه فقال : لأن الله يقول : « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » ويقول حيث استنطقوا قال الله « والله ربنا ما كنا مشركين » ويقول (يوم يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً) ويقول لا : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » ويقول : « لا تختصموا لدي » ويقول : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » .

فمرة يتكلمون ومرة لا يتكلمون ومرة ينطق الجلود والأيدي والأرجل ومرة لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ، قال : فأنى ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له علي (ع) : إن ذلك ليس في موطن واحد وهي في مواطن في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة فجمع الله الخلائق في ذلك اليوم في موطن يتعارفون فيه فيكلم

ذلك ، وأما الكذب الذي به يحتجون على الله فلا ، ولا حتى سؤالهم الكذب بسؤالهم الخاوي حين يسألون : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخشوا فيها ولا تكلمون » (٢٣: ١٠٨) .

ذلك بالنسبة للمشركين الأصلاء الرسميين ، وأما الموحدون الذين تخلفوا عن شرعة التوحيد تخلفاً مآً عقدياً أو عملياً ، فقد تكون لمقالتهم صحة مآً إذ لم يكونوا وثنيين ، ولكنهم - أيضاً - يُعتبرون من المشركين مهما بان بينهم بون .

والشرك المتفرع يعم الشرك الكتابي ، والتجسيم والمشاقة في الرسالة الربانية أو الخلافة المعصومة إلى المرسومة بالأهواء والآراء (١) .

بعضهم بعضاً ويستغفر بعضهم بعضاً من الذين بدت منهم المعاصي في دار الدنيا وتعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا والمستكبرون منهم والمستضعفون يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً ثم يجتمعون في موطن يقر بعضهم من بعض وذلك قوله : « يوم يقر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه » إذا تعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ثم يجتمعون في موطن يكون فيه فلو أن تلك الأصوات مدت لأهل الدنيا لأذهلت جميع الخلائق عن معاشهم وانصدعت قلوبهم إلا ما شاء الله فلا يزالون يكون حتى يكون الدم ثم يجتمعون في موطن فيستنطقون فيه فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ولا يقرون بما عملوا فيختم على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتنطق فتشهد بكل معصية كانت منهم ثم يرفع عن الستهم الختم فيقولون لجلودهم وإيديهم وأرجلهم لم شهدت علينا ؟ فتقول : انطقنا الله الذي انطق كل شيء » ثم يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق فلا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ويجتمعون في موطن يختصمون فيه ويدان الخلائق من بعض وهو القول وذلك كله قبل الحساب فإذا أخذ بالحساب شغل كل امرئ بما لديه نسأل الله بركة ذلك اليوم .

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٨ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث

وترى كيف أصبح كذبهم على أنفسهم هناك ففتنتهم ؟ لأن الفتنة هو إخلاص الحق عن شوب الباطل كما تفتن الذهب الخليط لتصبح من الخالص ، فهم لم يكن لهم إخلاص لأنفسهم في ذلك الموقف الحاسم إلا كذبهم على أنفسهم : « والله ربنا ما كنا مشركين » فالحقيقة التي تجلت عنها وتبلورت فيها « ففتنتهم » هي تخليهم عن ماضي شركهم كله وإقرارهم بربوبية الله الوحيدة غير الوهيدة ، ولكن قد فات الأوان ! .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (٢٥):

هذه مع « ولو ترى إذ وقفوا على النار » هما صفحتان متقابلتان من صحيفتي الأولى والأخرى ، يرتسم في أولاهما العناد والإعراض وفي أخراها الندم والحسرة ، يرسمها القرآن الآن ، خطاباً للفظر الجاسية هزاً لها تساقطاً للركام الذي ران عليها ، على مغاليقها الصلدة تنفتح وتفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان .

« ومنهم مَن يستمع إليك » دون تدبر وتذكر ، فإن « إلى » هنا لامحة إلى ظاهر الإستماع دون واقعه ، حيث الإستماع الحق متعدد بنفسه كـ « فبشر عباد الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه » (٣٩: ١٨) و « إذ صرفنا إليك

طويل يذكر فيه احوال يوم القيامة وفيه : ثم يجتمعون في مواطن آخر فيستنطقون فيه فيقولون : والله ربنا ما كنا مشركين ، وهؤلاء خاصة هم المقرون في دار الدنيا بالتوحيد فلم ينفعهم إيمانهم بالله تعالى لمخالفتهم رسله وشكهم فيما أتوا به عن ربهم ونقضهم عهدهم في أوصيائهم واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير فكذبهم الله فيما انتحلوه من الايمان بقوله : « انظر كيف كذبوا على أنفسهم » . وفيه عن تفسير القمي وزوادة الكافي عن الصادقين عليهم السلام في الآية قال : يعنون بولاية علي (ع) .

نقرأ من الجن يستمعون القرآن « (٤٦ : ٢٩) .

فالمستمع القول له أذن واعية صاغية ، والمستمع « إلى » هو من الصم عن استماع الحق المبين : « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » (٤٢ : ١٠) « جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً . نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً » (٤٧ : ١٧) .

وهنا أكنة القلوب ألا تعي القرآن ، ووقر الآذان ألا تسمع مهما استمعت ، هما من الجزاء الوفاق يوم الدنيا « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم » إستدرجاً فيما هم درجوا فيه من ضلال ، ضلالاً على ضلال .

فالأكنة هي الأغلفة النفسية التي تحول دون تفتح القلوب المقلوبة بما قلبوها ، والوقر هو الصمم الذي يحول دون آذانهم أن تؤدي واجب السمع إنسانياً .

فهذه نماذج شريرة من البشرية المعاندة التي « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (١٧٩ : ٧) .

فلما ترك هؤلاء الأوغاد المناكيد فقه قلوبهم وإبصار أعينهم وسمع آذانهم « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٧ : ٢) .

أترى « قالو قلوبنا غلف » إعتذار صادق بما ختم الله عليها فهم يحتجون ؟ كلاً وإنهم محجوجون بما أجابهم الله « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » (٨٨ : ٢) .

فلم تكن غُلف قلوبهم بدايةً من الله حتى يحتجوا ، إنما هو لعن من الله بكفرهم أن أزاع الله قلوبهم لما زاغوا .

ولأن ثالوث وقر الآذان وغشاوة الأعين وأكنة القلوب ، سدت عليهم منافذ الدرك إنسانياً مهما أدركوا دركات الحيوانية النحسة ، لذلك :

« وإن يروا كل آية » رؤية بالبصر أو بالبصيرة « لا يؤمنوا بها » لمكان مضاعف الوقر والكن والغشاوة « حتى إذا جاءوك يجادلونك » كأبي جهل وأضرابه من آباء الجهالات « يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين » .

فهم لا يجيئونك مفتوحى الأعين والآذان والقلوب ليتدبروا ما تقوله من وحي ربك ، ولكن ليجادلوك إلتماساً لأسباب الرد والتكذيب ، والتحريف والتجديف ، ومنها « إن هذا إلا أساطير الأولين » وأباطيلهم وخرافاتهم التي سطورها : « وقالوا أساطير الأولين إكتتبها فهي تملأ عليه بكرة وأصيل » . قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً » (٢٥: ٦) .

فمعالم السر في السماوات والأرض التي يحويها القرآن العظيم ، فضلاً عن معالم الواقع العلن ، تدل أصحاب السر الرباني والعلن أن لن يكون القرآن من منتوجات التعقلات والتفلسفات البشرية ، فضلاً عن أساطير الأولين .

فقضية وحي القرآن هي من القضايا التي قياساتها معها ، دون حاجة له إلى برهان سوى نفسه : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون » (٢٩: ٥١) ذلك !

﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢٦):

« وهم » أولاء المفترون على الله الكذب ، المكذبون بآياته ، الذين على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر ، المفترون على القرآن أنه من أساطير الأولين ، هؤلاء حين يستمعون إليك « ينهون عنه » من سواهم من المستضعفين وسواهم ، كما وهم أنفسهم « ينأون عنه » ظلمات بعضها فوق بعض « وإن يهلكون » بالمآل « إلا أنفسهم وما يشعرون » إذ يخيل إليهم أنهم يهلكون المؤمنين به الصادقين ، فهم - رغم أنهم - ليسوا لينأوا عنه بنهيم أو الضعفاء ، فإنهم هم أنفسهم في ضلال ، أو أنهم يهلكون القرآن بدعوته وداعيته ، وليس القرآن ليهلك بما هم ينهون عنه وينأون عنه : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (٩: ٣٣).

وترى « ينهون عنه » يتحمل النهي عن أذاه لتصديق الرواية المختلفة أنها نازلة في أبي طالب رحمه الله حيث كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله (ص) ويتباعد عما جاء به (١) .

(١) الدر المنثور ٣: ٨ - أخرج جماعة عن ابن عباس في الآية قال : نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين . . . « وعن القاسم بن مخيمرة في الآية قال مثله . . ولا يصدق به ، وعن عطاء بن دينار في الآية قال مثله . . وينأى عما جاء به من الهدى .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به وينأون عنه يتباعدون عنه ، ومثله عنه من طريق العوفي وعن محمد بن الحنفية وعن مجاهد وعن قتادة .

« وهم » يعني - ككل - المشركين المفتريين المكذبين الذين كانوا يؤذونه حياتهم ، و يتربصون به كل دوائر السوء .

ثم و « ينهون عنه » كما « ينأون عنه » هما في مصب الذم والتنديد على سواء ، كما « إن يهلكون إلا أنفسهم » يهددهم بالهلاك بما « ينهون عنه وينأون عنه » .

ومن ثم لم ينه عنه - فيما يختلفون من إضافة النأي عنه - إلا أبو طالب وعوداً بالله ، فكيف يقول « وهم ينهون عنه » ولو أن « ينأون عنه » هم غير من « ينهون عنه » لتساقط النظم إلى أسفل دركات الركاقة ، وماهية إلا

فالروایتان متعارضتان ولا تقبل الآية إلا الثانية ، والأولى معروضة عرض الحائط .
ذلك ولقد اجمع أئمة أهل البيت عليهم السلام على إيمان أبي طالب رحمه الله ، وفيه روايات تبلغ حد التواتر ومنها ما رواه ابن عمران أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله (ص) فقال : ألا تركت الشيخ فأتيه ؟ وكان أعمى ، فقال أبو بكر : اردت ان ياجره الله تعالى والذي بعثك بالحق لأنا كنت بإسلام أبي طالب اشد فرحاً مني بإسلام أبي التمس بذلك قرّة عينك فقال (ص) * صدقت .

وروى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي (ص) اجتمعوا عليه وقالو : جئناك بفتى قريش جمالاً وجوداً وشهامة عمارة بن الوليد ندفعه إليك وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا وسفه احلامنا فنقتله فقال أبو طالب : ما انصفتُموني تعطوني ابنيكم فأغذوه واعطيكم ابني فتقتلونه بل فليأت كل منكم بولده فأقتله وقال :

منعنا الرسول رسول الملوك ببيض تلالاً كلمع البروق
أذود وأحمي رسول الملوك حماية حام عليه شفيق
وأقواله وأشعاره المصراحة بإيمانه كثيرة لا تحصى ومنها :

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خط في أول الكتب
ومنها :

ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

قضية بغضهم لأبي طالب رحمه الله ، لأنه أبو علي عليه السلام ! .

وترى « ينهون عنه وينأون عنه » تختص بهؤلاء المشركين ، ولا تشمل معهم هؤلاء المسلمين ! الذين ينهون عن القرآن باعتذار أنه لا يفهم ، وأن التدبر فيه لتفهمه تفسير له بالرأي ، وكما هم ينأون عنه ، فأصبحت الحوزات العلمية خلواً عن القرآن كأصل حيث يجب أن تتبناه كل الحوزات الإسلامية في كل الإسلاميات عقيدية وفقهية وفلسفية وسياسية أماهيه من حيوياتهم !؟ .

وكل نهى عن القرآن ونأى عنه - أيأ كان ومن أي كان وأيان - قضيته هلاك الأنفس الناهية النائية ، فالناهي عن القرآن والنائي عنه أيأ كان هالك كما أن علومه حلوم هالكة حالكة .

وهنا المنهي عنه والمنتهى عنه هو القرآن وهو رسول القرآن ، ولكن القرآن هو الأصل الخالد طول حياة التكليف منذ بزوغه إلى يوم الدين ، فالنهي والنأي عنه، نهى ونأى عن الرسول، كما النهي عن الرسول والنأي عنه ، نهى ونأى عن القرآن ، والنهي عن القرآن أنحس من النهي عن رسول القرآن .

فقرآن محمد ومحمد القرآن هما اللذان يبينان صرح الإسلام ، فالمفروض أن تتبناهما الحوزات الإسلامية ، فالقرآن إمام محمد (ص) وهو أمامه ، هما المحوران الأصيلان للأمة الإسلامية في قرونها دون فصال اللهم إلا فصلاً عن أصل الإسلام وأثافيّه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٧) :

ذلك المشهد هناك خزيًا واستخذاءً وانتداماً يقابل مشهد الاعراض هنا والجدال والنهي والنأي وأين مشهد من مشهد !؟ .

« ولو ترى » يا رسول الهدى « إذ وقفوا » هؤلاء الناهون عنه والنائون عنه « على النار » التي أجبجوها على القرآن ورسالتك القرآنية « بروزاً لملكوتها يوم الدين » فقالوا « لما رأوها متندمين متحسرين » يا ليتنا نرد « إلى حياة التكليف ثم » ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين .

وترى « وقفوا على النار » تعني وقفهم عندها ؟ وعبارته الصالحة « وقفوا عند النار » ! أم وقفهم في جوف النار ؟ وعبارته « وقفوا » - أو - ادخلوا في النار ! أم وقفهم فوق النار ؟ وعبارتهم عبارته ! أم وقفهم على حقيقة النار تعريفاً بها لهم عريقاً عريقاً دخلوها أو لمّا ؟ وهو الصالح لعناية « وقفوا على النار » مهما عُنيّت معه المعاني الأخرى جمعاً بين الوقوفات .

﴿ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢٨):

« بل » لا طائل تحت قول قائلهم « يا ليتنا نرد ولا نكذب . . . » « بل » خلاف ما يدعون أنهم لم يكونوا مشركين ، وخلاف « ما كانوا يخفون من قبل » الموت من عبادتهم وأعمال دون ذلك « بل » لا يريدون الرجوع إذ يعلمون من أنفسهم استمرارية الكفر ، فانما خوفهم من النار التي وقفوا عليها مناهم ذلك التمني كاعتذار .

وجملته أنهم كانوا مفترين على الله مكذبين بآيات الله مهما كانوا يظهرون واجهة من الايمان وآمن من أهل الإيمان ، يخفون في زعمهم الكفر مظهرين أنه إيمان ! .

ولأن الإخفاء هنا هو طليقه عارفين وغير عارفين ، فمنه إخفاء النار التي كانوا يؤججونها يوم الدنيا وبصرهم عنها كليل ، وهناك « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (٢٢: ٥٠) - « وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون » (٣٣: ٤٥) .

ومنه إخفاء الحق على المستضعفين وإظهاره مظهر الباطل فـ « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون » (١٥٩: ٢) ومنه ما كان يخفيه المنافقون من باطن الكفر متظاهرين بالإيمان « يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك » (١٥٤: ٣) وعلى الجملة « بدا لهم ما كانوا يخفون » من سيآت أو من الحقائق يوم الدنيا ، وما كانوا يخفون يوم الدين من إشراكهم ، وما كانوا يخفون من أعمالهم زعماً أنها لا تبقى ، فإنه « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء » (٣٠: ٣) فقد تشمل « يخفون » كل إخفاء شَرير عن أنفسهم أو غيرهم أم عن الله في زعمهم ، فلا تخفى يومئذ خافية إذ تبدى السرائر .

« ولو ردوا » ومحال أن يُردوا إلى حياة التكليف « لعادوا لما نهوا عنه » لا « إلى ما نهوا عنه » - فقط - من سيآت ، بل لكان عودهم لما نهوا عنه حتى يستزيدوا من عبادهم ، فللأم هنا دور حاسم لمتخيل إيمانهم وصالحاتهم ، أن ردهم لا ينتج إلا عودهم لهدف إستزادة وإستدامة ما نهوا عنه « وإنهم لكاذبون » .

أجل « وإن الله ليعلم ما لو كان كيف هو كما يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن فإنه بكل شيء عَلِيم » (١) .

وترى إذا كانت الرجعة إلى حياة التكليف مستحيلة - إذاً - فما هو دور الرجعة في دولة المهدي عليه السلام ؟ .

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٩ في عيون الأخبار بإسناده إلى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) قال : سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف يكون ؟ فقال : ان الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء قال عز وجل : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون - وقال لأهل النار : ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون - فقد علم الله عز وجل انه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه .

إن بين الرجعتين لبوناً شاسعاً ، فالرجعة الكائنة هي قبل يوم القيامة ، وهي ليست لاستدراك الطالحات بالصالحات التي أحيلت و « لعادوا لما نهوا عنه » وأما الصالحون من الراجعين فهي لهم حظوة ونصرة للقائم عليه السلام .

فالمنفي - كلمة واحدة - من الرجعة في حياة التكليف هي التي يظن الراجع أو يدعي بقوله : « ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل » حيث الجواب « أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » (٣٧: ٣٥) - « قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (٢٣: ١٠٠) .

والمثبت كما في لمحات أو تصريحات لآيات هو رجوع من محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً ، رجعة مفروضة ، أو المتوسطين في الإيمان وهو رجعة بالاستدعاء ، والمفروضة هي رجعة المتطلبين إياها استدراكاً لما كفروا ، سواء أكانت من البرزخ كما في آيات ، أم من القيامة كما في أخرى وهذه منها .

ذلك ، ومن ثم استحالة أخرى للرجعة من القيامة إلى الدنيا حتى للصالحين ، أن قضيتها تحوّل الآخرة إلى الدنيا رجوعاً القهقري .

وترى كيف « إنهم لكاذبون » والتمني إنشاء وليس إخباراً ، فقد تمنوا أن لو ردوا لم يكذبوا ويكونوا من المؤمنين ؟ ولكنه إنشاء يتضمن الإخبار ، فإن تمني أمر ليس إلا التصميم عليه إن فسح المجال، ولكنهم كاذبون في تمنيه الكذب « وانهم ملعونون في الأصل » (١) .

(١) نور الثقلين ١: ٧١٠ عن تفسير العياشي عن خالد عن أبي عبد الله (ع) في الآية :
أنهم ..

وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ
قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا
الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَا
عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ
أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾
قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَةِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ
رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى
اتَّهَمُوا نَصْرَنَا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن
نَّبَايَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كِبَارُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِن
أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ

فَتَأْتِيهِمْ بَغَايَةٌ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْخَاطِلِينَ ﴿٢٩﴾ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾
وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ
عَلَىٰ أَنْ يَنْزِلَ آيَةٌ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

﴿ وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٢٩):

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما
لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » (٢٤: ٤٥) - « إن هي إلا حياتنا
الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » (٣٧: ٢٣) .

لقد تحدثنا عن الآيتين الأخريين في مجالتهما بما يخلق على الآيات
الثلاث فلا نعيد ، إلا أن آية الجاثية هي الوحيدة بين هذه الثلاث وبين سائر
الآيات التي تتحدث عن حصر الحياة في هذه الأدنى ، وحيدة في
استعراض مذهب الماديين الناكرين لأصل المبدء ، وهم أنحس وأركس من
المشركين .

ذلك ! ولكن الحياة في العقلية والتصور الإسلامي السامي تمتد طويلاً
في الزمان وعرضاً في الآفاق وعمقاً في العوالم وتنوعاً في الحقيقة ، دون
أن تقف في حيوتها الدانية الفانية كما يتقوله الماديون والمشركون
وأضرابهم .

صحيح أن المسلكين مشتركين في نكران المعاد ، وبذلك هما مشتركين في نحوسة العقيدة ويبوستها ، ولكن الأكثرية الساحقة - في ثاني المسلكين في الطول التاريخي - التي جعلت مصيب التنديد والاعتراض في كثير من الآيات هم المشركون .

أو يقال إن الإشراك بالله مع الإعتراف به هو - في واجهة - أنحس من نكران وجود الله ، لأنه تسوية بين الله وخلقه ، بل وتفضيل له عليه تعالى في واقع الحياة العقيدية والعملية ، مهما كان نكران جوده تعالى أنحس من واجهة أخرى .

ذلك ، وفي الحق إن تصور اختصاص الحياة بهذه القصيرة الدانية ، يستحيل أن تنشأ في ظله حياة إنسانية رفيعة كريمة .

فهذه الآفاق الضيقة في كل آمادها وأبعادها - هنا - التي تلصق الإنسان وتخلده إلى الأرض ، اختصاصاً لتصوره بالمحسوس منها كالبهيمة المربوطة همها علفها أو المرسلة شغلها تقيمها ، وهذه الرقعة الأرضية الضيقة زماناً ومكاناً التي تطلق السعار البهيمي في النفس والتكالب على المتع المحدودة والعبودية لها ، كما تطلق الشهوات من عقاليها تعربد وحدها بلا كابح ولا هدنة ولا أمل في تعريض ، وهذه الأنظمة المادية الحيوانية التي تنشأ في الأرض منظوراً فيها إلى هذه الحياة القصيرة القاصرة الحيوانية ، بتصارع الطبقات والأجناس ، انطلاقاً في الغابة كالوحوش والغيلان كما نشهده اليوم في الحياة الراقية المتحضرة للجاهلية الحاضرة .

هذه وتلك كان الله يعلمها كلها ، ولذلك يؤكد مراراً وتكراراً على مستقبل الحياة الخالدة للإنسان وكافة المكلفين ليأخذوا حذرهم عن الحياة الدنيا ومتاعهم منها للآخرى .

هذه واجهتهم الجاهلة القاحلة في حياة الغفلة والنشوز ، ومن ثم

واجهت تضادها يوم النشور :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٣٠) :

هناك « إذ وقفوا على النار » في دار القرار بعدما استغفلوا عنها في دار الفرار ، وهنا « إذ وقفوا على ربهم » وقوفاً على حقه بربوبيته التي قضيتها الضرورية عدلاً وفضلاً ورحمة منه إرسال الرسل وإنزال الكتب وإقامة يوم الحساب .

« وقفوا على ربهم » شاءوا أم أبوا ولات حين فرار أو إنكار ، بعد « إذ وقفوا على ربهم » يوم الدنيا وهم منكرون ، وأين وقوف من وقوف ؟ ! .

والوقوف على الرب وقوفاً على ربوبيته هو من لقاء الله ، فهو يوم الدنيا فرضاً هيأ الله أسبابه ، ثم هو يوم الأخرى لا مرد عنه ، ولكنه باستثناء القرب الزلفى ، حيث الكافر - هناك - بعيد عن الله كما هنا ، والمؤمن قريب إليه هناك كما هنا وفيه مزيد وكما وعد « ولدينا مزيد » .

« . . . أليس هذا بالحق » ؟ وقد وقفتم الآن عليه ، وكنتم واقفين من ذي قبل ولكنكم كذبتهم به جاحدين : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » .

« قالوا بلى وربنا » الذي وقفنا عليه الآن مهما كنا به كافرين « قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

ذلك وليس الوقوف على الرب هنا أو هناك حيطة عليه علمية ومعرفية فضلاً عن الحسية ، إنما هو الوقوف على ربوبيته قدر المستطاع هناك ، كما هو المفروض هنا ، فمعرفة الله وعبادته والزلفى إليه كلها وقوف على الرب دون إيقاف على حيطة ما في أي حقل من حقولها ، فـ « لا يحيطون به علماً » و « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » .

ومهما كان الوقوف على الرب برؤية التكليف والجزاء هنا في غطاء وغشاء ، فليس للوقوف عليه هناك غشاء وغطاء « فبصرك اليوم حديد » .

وهناك مصب الوقوف على ربهم هو رؤية الجزاء ، كما تلمح لها « أليس هذا بالحق » .

وترى كيف يكلمهم الله هناك : أليس هذا بالحق ؟ « ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم » (٢: ١٧٤) !؟ .

التكليم الرباني المنفي هو الذي فيه تزكية لهم ورحمة وهو من ثوابهم وزلفاهم ، وأما تكليم التنديد وهو من عذابهم فهو وارد ورد العذاب الشديد .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا خَسِرْتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٣١) :

هنا وفي عديدة أخرى « لقاء الله » وهناك في أخرى « لقاء الرب » وطبعاً كما هما مشتركان في أصل المعنى من اللقاء قد يختلفان في قسم من حواياه وزواياه وبينهما عموم مطلق^(١) .

ومن الضروري في هذا البين أن لقاء ذاته تعالى مسلوب على الإطلاق إذ لا حد له ولا زمان ولا مكان ولا حلول ولا اتحاد في الذات ، فلقاءه لنا معرفياً بمعنى إدراكه والحيطة العلمية أو المعرفية به ، إنه مستحيل حيث المحدود لن يحيط باللامحدود بأية حيطة .

(١) من لقاء الله الوقوف على الرب برؤيته وقوفاً معرفياً قدر الامكان وكما تدل عليها الآيات آفاقية وأنفسية ، وقد يلاقي الله بالوهيته دون ربوبيته ولكن لقاء ربوبيته يلازم لقاء الوهيته من ذي قبل .

ثم اللقاء الممكن والمفروض هو بين لقاءنا إياه ولقاءه إيانا ، وقد يتحملهما لقاء الله ولقاء الرب في وجهي الإضافة إلى المفعول والفاعل ، أننا نلاقيه وهو يلاقينا .

فلقاءه خلقه ككل في واجهة العلم والقدرة والرحمة الرحمانية العامة هو لزوم الخلق « وهو معكم » في هذا المثلث « أينما كنتم » ولا يعني لقاءهم بذاته في زمان أو مكان أو أيّاً كان حيث لا يحويه زمان ولا مكان ، فالمعية في لقاءه خلقه لا تعني إلا القيومية بكل قواماتها .

ولقاء خلقه إياه في كل ما لديهم فقراً ذاتياً وأفعالياً وصفاتياً إليه - كذلك - لزوم كياننا ، فإنهم متعلقون بالله تعلق اللاشيء بكل شيء ، فلنا أن نلاقيه معرفياً لعبودية فلزقى فتواباً أجلاً وعاجلاً ، فطرياً وعقلياً وعلمياً وشرعياً .

ثم هناك لقاء له إيانا برؤية التكليف هنا في شرائعه وبربوبة الجزاء هناك بالحساب والثواب والعقاب ، ولقاء لنا إياه فيهما حيث نربى بهما .

ولقاء له آخر - على ضوء ربوبية التكليف - إيانا ، أن يقربنا إليه زلقى معرفياً وعبودياً ، ثم جزاء لنا وفاق ولديه مزيد هناك معرفياً وثواباً ، وهذا على قدر لقاءنا إياه « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

والتكذيب بلقاء الله يعم كل هذه اللقاءات في مثلث النشآت ، فمن مكذب بلقاء الله ، نكراناً لألوهيته كما الدهريون ، أو مكذب بلقاء الرب نكراناً لربوبيته الوحيدة تكليفاً وجزاءً ، وثالث يكذب بأن عبادته وحده على معرفته ومعرفته على عبادته تسبب لقاءه معرفياً هنا زلقى ، وثواباً في كل جنباته في الأخرى .

فهذه قيلة عليلة أن معرفة الله مستحيلة ، فالإقرار به مستحيل فضلاً عن

عبوديته ، فكيف يصدق من لا يعرف ، وكيف يُعبد من لا يصدق بما لا يُعرف ؟ .

حيث المعرفة المنفية هي المنهية المرفوضة ، والمعرفة المثبتة الممكنة للخلق على مراتبهم ، هي مفروضة ، ولا نصيب لنا في معرفته إلا جانب السلب مع إثبات الأصل أنه : موجود لا كوجوداتنا ، قادر لا كقدراتنا ...

ثم « لقاء الله » هو لقاءه إيانا ولقاءنا إياه في ألوهيته ، و « لقاء الرب » هو اللقاء في ربوبيته ، ولأن ألوهيته وربوبيته فرقان لا يتفاصلان ، فنكران كلٍ هو كنكران الآخر ، فالناكر لربوبيته ناكراً لألوهيته ، كما الناكراً لألوهيته هو - طبعاً وبأولى - ناكراً لربوبيته .

تقوى الله هنا سبب صالح للقاء تعالى برحمته الخاصة : « واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين » (٢٢٣: ٢) لقاء في الدارين : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » (١٨: ١١) .

وآيات لقاء الله ولقاء الرب - التي تعني كأصل لقاء يوم الله ويوم الرب ، مهما عنت سائر اللقاء بضمه - كثيرة منبثة في سائر القرآن سراً أدبياً مزيجاً ، ومن أبرزها : « من كان يرجوا لقاء الله فلإن أجل الله لآت » (٢٩: ٥) .

وليس رجاء ذلك اللقاء إلا بواقع اللقاء يوم الدنيا في كل حلقاته المستطاعة ، وبين اللقائين عقيدياً عموم مطلق ، فالراجي لقاء الله في الأخرى محقق لقاءه في الأولى ، وليس كل محقق لقاءه في الأولى راجياً لقاءه في الأخرى ، كالذين لا يؤمنون باليوم الآخر من موحدين ومشركين ، فإنما اللقاء الصالح هنا يخلف رجاء اللقاء قدره هناك .

فمن حظى حظوة لقاءه تعالى رباً في الأولى فقد رجاى لقاءه رباً في الأخرى ، ولكن ملاقيه إلهاً - فقط - لا رباً كما يحق ، قد لا يرجوا لقاءه هناك رباً وهؤلاء كثير : « وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون » (٨: ٣٠) - « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط » (٥٤: ٤١) إنما لقاءه تعالى في الأخرى هو قدر لقاءه في الأولى اللهم إلا في الثواب فإنه قضية فضل الله .

ف« قد خسر الذين كذبوا بقاء الله » في أية دركة من دركات تكذيبهم ، ولا سيما لقاء ربوبيته يوم الجزاء مهما اعتقدوا في وحدته إلهياً وربوبياً ، فضلاً عما أنكروه من ملحدين ومشركين « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » إذ « لا تأتكم إلا بغتة » (١٨٧: ٧) ولكن أين بغتة عامة تحلق على فريقى الإيمان والكفر ، وبغتة خاصة لمن ينكرونها ، فهي - إذاً - لهم مباغتة مضاعفة .

ذلك فغير المؤمنين ككل يشملهم التنديد المديد في « قد خسر الذين كذبوا بقاء الله » فالمادي ناكر لقاءه نكراناً لكونه ، إستبدالاً للمادة بالله ، والمشرك ناكر لقاءه كما هو واحد لا شريك له ، كما هما ناكران لوحيه الرسالي وليوم الجزاء، والكتابي المنحرف عن توحيده أو وحيه أو جزاءه هو ثالث ثلاثة ، فنكران كل لقاء لله وللرب فيما يجب أو يجوز خسران ، وتصديقه نفع وإيمان ، والمحور الأصل الذي ليس له بديل في واجب اللقاء هو حياة الحساب يوم الحساب .

« قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » تقصيراً في الاعتقاد بها فقصرنا - إذاً - في سائر عقائدنا وأعمالنا ، وقدير جمع ضمير التأنيث - إضافة إلى الساعة - إلى الدنيا حيث فرطوا فيها بجنب الله ، إذ لم يتزودوا في ساعة الدنيا لساعة لقاء الله برزخاً وللأخرى .

« وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم » أنفسهم حيث « لا تزر وازرة وزر أخرى » « ألا ساء ما يزرون » تقصيراً في يوم لقاء الله ، وهم في حملهم أوزارهم كاللدواب الموقرة بالأحمال وأضل سبيلاً ، فإن جمل الدواب هو لصالحها وصالح أصحابها ، وجمل هؤلاء طالح لطالح حالهم ومآلهم .

وهنا « يا حسرتنا » بما يرون من منازل الثواب والعقاب ، لا سيما على حد المروي عن الرسول (ص) : « الحسرة أن يرى أهل النار منازلهم من الجنة في الجنة فتلك الحسرة »^(١) .

ذلك والحسرة يومئذ تحيط بأهلها لحد سمي ذلك اليوم يوم الحسرة : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » (٣٩ : ١٩) - « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتاكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون . ان تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين » (٥٦ : ٣٩) « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » (١٦٧ : ٢) - وترى « لقاء الله » هنا هو فقط لقاء الآخرة ؟ فماذا تعني « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » وهم لا يكذبون به في البرزخ ! .

إنه لقاء الله يومي الجزاء ، فـ « حتى » لمن هو حي عند قيام الساعة هي منتهى الغاية لتكذيبهم أولاء ، ولمن هو ميت قبله فالموت هو منتهى غايتهم .

فقد « كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » ساعة الموت وساعة القيامة .

ولكن الحسرة الحاصرة الأصلية الحاصرة هي التي تحصل لأهلها يوم

(١) الدر المنثور ٩ : ٣ - اخرج جماعة بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ص) : ...

الآخرة حيث « يجزاه الجزاء الأوفى » ذلك ! :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٣٢) :

« وما الحياة الدنيا » - وهي الدانية دنيئة ودنواً - حياة « إلا لعب » هو للطفولة « ولهو » هو لأشباه الطفولة وأصل سبباً حيث يلتهون بها عما يعنى إنسانياً وإيمانياً « وللدار الآخرة خير » من الدنيا ، لمن ؟ « للذين يتقون » دون الذين يطغون ، فإن الدنيا خير لهم من الآخرة ، فالدنيا سجن للمؤمن وجنة للكافر « أفلا تعقلون » أخذاً لهذه الحقائق المعقولة ، لأن عقولكم معقولة بعقالات الهوى .

وترى الحياة الدنيا - وهي مدرسة الصالحين ومبعثة المرسلين - هي فقط - لعب ولهو ، فأين يحصل - إذاً - ثواب الله يوم الآخرة لولا الحياة الدنيا ؟ .

هذه الحياة لها واجهتان اثنتان ، دنيءة دنية هي للذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، ودنيءة عالية هي للمطمئنة نفوسهم بالله ، فالدنيا لهم مدرسة ومكرسة ومزرعة للآخرة ، فالمؤمن دنياه آخرة لأنها مزرعة الآخرة ، والكافر آخرته دنيا لأن دنياه مزرعة الآخرة .

إذاً فدنيا المتقين هي الحياة الأدنى دنواً إليهم ، وهي في نفس الوقت لهم حياة عالية تتلوها أخرى هي العليا ، ودنيا الطاغين هي الحياة الدنيئة إذ يخسرون فيها أنفسهم ويخسرون الآخرة وهي لهم أخزى .

ذلك ولأن النتيجة الحسنى خير من الأعمال المنتجة لها ، ف« للدار الآخرة خير للذين اتقوا » و« خير » هنا - كضابطة - أفعل تفضيل ، فلو لم تكن الحياة الدنيا لهم فضيلة لما كانت الآخرة لهم الفضلى .

فإن « أهل الدنيا ركبهم وعبدتهم فتدلوا لسلطانها فخسروا الدنيا

والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، ولكن أهل الآخرة ركبوا الدنيا وعبدواها فتذللوا لسلطانهم واستعبدت لهم فربحوا الدنيا والآخرة^(١) : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١٨ : ١٠٤).

فالدنيا - إذا - محظورة ومحجورة من أبصر بها بصيرته ومن أبصر إليها أعمته^(٢).

فقد يسمع الامام علي (ع) رجلاً يذم الدنيا فيقول له : « أيها الذام للدنيا ، المغتر بغرورها ، المخدوع بأباطيلها ، أتغتر بالدنيا ثم تذمها ؟ أنت المتجرم عليها أم هي المتجرمة عليك ؟ متى إستهوتك أم متى غرتك ؟ أبمصارع آباتك من البلى ، أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ كم عللت بكفيك ؟ وكم مرضت بيديك ؟ تبغي لهم الشفاء ، وتستوصف لهم الأطباء ، غداة لا يغني عنهم دواؤك ، ولا يجدي عليهم بكاءك ، لم ينفع أحدهم إشفائك ، ولم تسعف فيه بطلبتك ، ولم تدفع عنه بقوتك ، وقد مثلت لك به الدنيا نفسك ، وبمصرعه مصرعك^(٣) .

إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد أحياء الله ، ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحي الله ، ومتجر أولياء الله ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها وأهلها ، فمثلت لهم ببلاءها والبلاء ، وشوقتهم بسرورها إلى السرور ، راحت بعافية ، وابتكرت بفجيعة ، وترهيباً ، وتخويفاً وتحذيراً ، فذمها رجال غداة الندامة ، وحمدوها آخرون يوم القيامة ، ذكرتهم فتذكروا ، وحدثتهم فصدقوا ، ووعظتهم فاتعظوا » .

(١) نهج البلاغة ١٣١ ح / ٥٩٠ .

(٢) هذا من كلمات الامام علي أمير المؤمنين (ع) .

وله من ذم الدنيا بما يعاملها أهلها قوله عليه السلام : « أما بعد فإنني أحذركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، وتحببت بالعاجلة ، وراقت بالقليل ، وتحلت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تدوم خبرتها ، ولا تؤتمن فجعتها ، غرارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافذة بائدة ، أكالة غوالة ، لا تعدوا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه : « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » لم يكن امرئ منها في جبرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق في سرائها بطناً إلا منحته من ضراءها ظهراً ، ولم تطله فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء ، وحرى إذا أصبحت له متنصرة ان تمسي له متكرة ، وإن جانب منها إعدوذب واحلولى أمر منها جانب فأوبى ، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهفته من نوائبها تعباً ، ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية فإن من عليها ، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه وزال عما قليل عنه ، كم من واثق بها قد فجعته ، وذو طمأنينة إليها قد صرعته ، وذو أبهة قد جعلته حقيراً ، وذو نخوة قد ردته ذليلاً ، سلطانها دُولٌ ، وعيشتها رَنَقٌ ، وعذبها أجاج ، وحلوها صبر ، وغذائها سهام ، وأسبابها رِمَامٌ ، حيها بعرض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ملكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وموقورها منكوب ، وجارها محروب » (الخطبة ١٠٩ / ٢١٤) .

و « أيها الناس إنما انتم في هذه الدنيا غرض تنتصل فيه المنايا ، مع كل جرعة شَرَق ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يعمر معمر منكم يوماً من عُمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا تجدد وله زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبلها من رزقه ، ولا يُحيا له أثر إلا مات له أثر ، ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد ، ولا تقوم له

نايبة إلا وتسقط منه محصودة ، وقد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله « (الخطبة ١٤٣/٢٥٦) .

وحين يقال له : كيف نجدك يا أمير المؤمنين ؟ يقول : كيف يكون حال من يفنى ببقائه ويسقم بصحته ويؤتى من مأمته « (٥٨٦/٦١٥) .

و « لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين : العافية والغنى ، بينا تراه معافئ إذ سقم وبينما تراه غنياً إذا افتقر » (٦٥٣/٢٤٢٦) .

« ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمناً ، ومما لك عند الله عوضاً » (الخطبة ٨٦/٣٢) .

« فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حُثالة القِرَظ وقراظة الجَلَم ، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، وارفضوها ذميمة فانها قد رفضت من كان أشغف بها منكم » (الخطبة ٨٧/٣٢) .

« والدنيا دار مُني لها الفناء ، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضراء ، وقد عَجِلَت للطالب ، والتبست بقلب الناظر ، فارتجلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ، ولا تسألوا فيها فوق الكفاف ، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ » (الخطبة ١٠٣/٤٥) .

فإن الدنيا رَنق مشربها ، رذْغ مشرعها ، يونق منظرها ، ويوبق منظرها ، غرور حائل ، وضوء آفل ، وظل زائل ، وسناد مائل ، حتى إذا أنس نافرها ، واطمأن ناکرها ، قمصت بأرجلها ، وقنصت بأحبلها ، وأقصدت بأسهمها ، وأعلقت المرء أوهاق المنية ، قائدة إلى ضنك المضجع ، ووحشة المرجع ، ومعينة المحل ، وثواب العمل ، وكذلك الخَلَف بعقب السلف ، لا تُقلع المنية احتراماً ، ولا يرعوى الباقيون اجتراماً ، يحتذون مثلاً ، ويمضون أرسالاً ، إلى غاية الإنتهاء ، وصيُور الفناء » (الخطبة ١٣٧/١٨١) .

« ما اصف من دار أولها عناء ، وآخرها فناء ، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن ساعاها فاته ، ومن قعد عنها واتته ، ومن أبصر بها بصيرته ، ومن أبصر إليها اعتمه » (الخطبة ٨٠ / ١٣٥) .

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٣٣) :

« قد نعلم » محققاً دون ريب « إنه ليحزنك الذي يقولون » من تكذيبك في رسالتك وفيما أرسلت به ، تكذيباً واستهزاءً ، ولكنك لست أنت كمحمد مصبّ تكذيبهم ^(١) ، إنما أنت المكذب كرسول ، فالله هو المكذب « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله » وأنت برسالتك منها « يجحدون » ، ولكن « لا يستطيعون إبطال قولك » ^(٢) ، حيث الحق يملك من البراهين ما لا يستطيع أحد تكذيبه بحجة ، فإنما « جحدوا بها

(١) الدر المنثور ٣ : ١٠ - اخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابي ميسر قال : مر رسول الله (ص) على أبي جهل فقال والله يا محمد ما تكذبك انك عندنا لصادق ولكننا كنا نكذب بالذي جئت به فأنزل الله : « فإنهم لا يكذبونك .. » وفيه اخرج ابن جرير عن ابي صالح في الآية قال : جاء جبرائيل الى النبي (ص) وهو جالس حزين فقال له : ما يحزنك ؟ فقال : كذبتني هؤلاء فقال له جبرائيل : « انهم لا يكذبونك انهم ليعلمون انك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

(٢) نور الثقلين ١ : ٧١٢ في تفسير العياشي عن الحسين بن منذر عن ابي عبد الله (ع) في قوله : « فإنهم لا يكذبونك » وفي تفسير الفخر الرازي ١٢ : ٢٠٥ - ان الحرث بن عامر من قريش قال يا محمد والله ما كذبتنا قط ولكننا إن اتبعناك نتخطف من ارضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب » وفيه روى أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد (ص) أصادق هو أم كاذب فانه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق وما كذب قط ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابه والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فنزلت هذه الآية .

واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً .

فتكذيب رسول الله تكذيب بآيات الله ، والتكذيب بآيات الله تكذيب بالله فهم - إذا - في ثالوث من التكذيب .

وتراه (ص) هنا يُنهي عن أن يحزن بما يقولون « فانهم لا يكذبونك » حتى تحزن على نفسك « ولكن ... » ؟ لكن الحزن على تكذيب آيات الله أحزن للرسول من حزنه على نفسه ! فكيف التفاصيل بينهما ؟!

ولكنه لم يُنه عن حزنه كأصل ، بل المنهي عنه هنا هو حزن المظلوم المغلوب في أمره ، فإذا كان المكذب آيات الله والله لا يُظلم وهو ناصر لآياته رسولية ورسالية وسواها ، ثم ولا مبدل لكلماته عن دلالاتها وتحققاتها فلماذا الحزن - إذا - على ذلك التكذيب : « ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » (٢٧ : ٧٠) .

فالحزن منه محذور كأن يحزن الرسول على تكذبه لأنه هو ، أو يحزن على تكذيب الله خوفاً على انتقاص من سماحته وانتقاص من ساحته ، أو يحزن عليهم بما يوعدون ، فكل ذلك محذور ، تدل على خطره آيتنا وآية النمل .

ومنه مجبور كأن يحزن حامل الرسالة على أن الله يُعصى ، فمن قضايا الإيمان فضلاً عن رسالة الإيمان ، أن يحب الرسول تحقيق رسالة الله ويبغض ويحزن على تكذبيها ، وهنا « ليحزنك . . » تسلية لخاطره الخطير ألا يشتغل بذلك الحزن عن كامل البلاغ لرسالته أو يستمل عنه .

ثم لست أنت بدعاً من الرسل في ذلك التكذيب التعذيب بل هو طبيعة الحال في رسالات الله كلها :

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمُ

نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ :

فلإنما الزاد والراحلة في طريق الرسالة الشائكة المليئة بالعقبات والعقوبات ، إنما هو مواصلة الدعوة والصبر القوة والصمود - دون صبر الذلة ، التخاذل - « على ما كذبوا وأوذوا » فإن الله كافل لفلاح الدعوة إذا الداعية يحقق الدعوة كما يرام .

« فصبروا .. وأوذوا حتى أتاهم نصرنا » في جنبات من الدعوة للداعية والذين معه ثم « ولا مبدل لكلمات الله » الحاملة لوعده نصراً للصابرين في سبيله ، الماضين في دعوته ، كما « لا مبدل لكلمات الله » الدالة عليه تكوينية وتشريعية ، فلماذا الحزن - إذاً - على تكذيبهم بآيات الله وهي قديمة مستقيمة لا تمنحي بما يمحون ولا تنقضي بما يقضون ! .

فيا سالك سبيل الهدى وتارك سبيل الردى « إن من صبر صبر قليلاً وإن من جزع جزع قليلاً ، عليك بالصبر في جميع أمورك فإن الله عز وجل بعث محمداً (ص) فأمره بالصبر والرفق فصبر حتى نالوه بالعظائم ورموه بها فضاق صدره فأنزل الله عز وجل : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين » ثم كذبوه ورموه فحزن لذلك فأنزل الله عز وجل ... فانهم ... » (١) .

(١) نور الثقلين ١ : ٧١١ عن اصول الكافي عن حفص قال قال لي ابو عبد الله (ع) يا حفص : ان من صبر ... - ثم قال لي : عليك بالصبر ..

وفيه (٧١٢) عن روضة الكافي عن حفص المؤذن عن ابي عبد الله (ع) في رسالة طويلة الى أصحابه : أنه لا يتم الأمر حتى يدخل عليكم مثل الذي دخل على الصالحين قبلكم وحتى تبتلوا في أنفسكم وأموالكم وحتى تسمعوا من اعداء الله اذى كثيراً فتصبروا وتعرکوا بجنوبكم وحتى يستذلوكم ويغضوكم وحتى يحملوا عليكم الضيم فتحتملوه منهم تلتمسون بذلك وجه الله والدار الآخرة وحتى تكضموا الغيظ =

ذلك ! و « إن رضا الناس لا تملك والمستهم لا تضبط وكيف يسلمون ما لم يسلم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله عليهم السلام ، ألم ينسبوه إلى الكذب في قوله إنه رسول من الله اليهم حتى انزل الله عز وجل عليه » ولقد كذبت .. !؟ (١) .

إن الصبر على التكذيب والأذى للداعية في سبيل الدعوة لا يعني إلا الصمود والمواصلة فيها ، فلا يكسل ولا يفشل ، بل ويظل صامداً مغواراً في سلوك هذه السبيل ، أو لا يزداده التكذيب إلا تكراراً وإصراراً في الدعوة الصامدة ، فإن جو التكذيب ، ولا سيما الذي ليس لينال الحق بحجة ، إنه مما يحرض حامل الحق على عزم أعزم وهم أعظم وصمود أتم .

ذلك ، ولا سيما أن الله واعد نصره عاجلاً أم آجلاً ، فرصيده مضمون عند الله ، مشحون برحمة الله ، مأمون بما أتمنه الله ، وقد « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » (٥٨: ٢١) - « ولقد صدقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » (٣٧: ١٧٣) - « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٤٠: ٥١) .

فحين يتصبر الداعية على كل أذى ولظى في سبيل الدعوة ، فهو موعود بنصر الله تعالى مستقبلاً ، وكما أن « لا تبدل لكلمات الله » قبلاً .

= الشديد في الأذى في الله جل وعز يجترمونه إليكم وحتى يكذبوكم بالحق ويعاندوكم فيه ويبغضوكم عليه فتصبروا على ذلك ومصدق ذلك كله في كتاب الله الذي انزله جبرائيل على نبيكم (ص) سمعتم قول الله عز وجل لنبيكم (ص) « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ثم قال : « ولقد كذبت رسل ... » فقد كذب نبي الله والرسل من قبله وأوذوا مع التكذيب بالحق .

(١) (نور الثقلين ١ : ٧١٣ في أمالي الصدوق بإسناده أبي عبد الله (ع) انه قال يا علقمة : ...)

فمهما بلغت التكذيبات والأذيات في هذه الطريق الشائكة الطويلة مداها ، فالحجة البالغة لآيات الله دوماً ، والنصر الموعود لغلبيها على من يريد أن يتغلبها ، هذان العمادان يوطدان من اعمد الدعوة الرسالية ما لا قبل لها ، فيا رسول الهدى ، الحامل للرسالة العليا « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » (٣٥: ٤٦) اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا « ولقد جاءك من نبلي المرسلين » ما ينبئك بحالهم ، وجلهم في دعوتهم وترحالهم .

أجل ، وان موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم ، ضارب في شعاب الزمن ، ماضٍ في الطريق الأحب ، مستقيم على الخط الواصب ، يعترض طريقه المجرمون من كل صنوفهم ، في متراصة صفوفهم ، برصاصة لهم متواترة ، وهناك تسيل الدماء وتمزق الأشلاء ، ولكن الموكب ماضٍ في طريقه دونما إنحناء ولا انتكاص وإنشاء ، ومهما يكن من أمر إمرٍ في البداية فإن نصر الله في نهايات المطاف يترقبهم .

ومن غريب الوقف بين الشدة والصبر - مكافحة في كل شدة بالصبر - أن عديد كل في القرآن (١٠٢) مما يلح بواجب المكافحة في كل شدة بصبر يناسبها .

﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣٥) :

لقد كبر على الرسول (ص) إعراضهم لحد كأنه يتطلب من الله

بإصرار أن يأتيهم بآية يتطلبونه حتى يؤمنوا^(١) ، ولأن إتياء الآية المقترحة غير صالح كما يعلم الله ، و « إنما الآيات عند الله » (٥٠ : ٣٩) لذلك فقد يعرض الله عليه - كمعترض - أن يأتيهم بآية بنفسه ، إعلاماً بأمرين اثنين في جو عدم المصلحة لإتيان آية : أن الآيات مختصة بالله ، وأن السماء والأرض هما المجالان والمخرجان لإتيان آية ، فمن الأرض آية أرضية : « فإن استطعت أن تبغي نفقاً في الأرض » ومن السماء آية سماوية : « أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية » .

ثم ولا يريد الله ليحملهم على الهدى تسييراً ، وإنما مسايرة باختيار دون تسيير بإجبار ، سواء أكان دون أية آية أن يقلب أفئدتهم إلى الهدى ، أم وبآيات يقترحونها أن يكون الله عند مقترحاتهم الطائفة التي لا طائل نحتها إلا أعذاراً قاحلة جاهلة و « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » . إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين . وما تأتيهم من

(١) سور الثقلين ١ : ٧١٣ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال كان رسول الله (ص) يحب اسلام الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف دعاه رسول الله (ص) وجهد به أن يسلم فغلب عليه الشقاء فشق ذلك على رسول الله (ص) فأنزل الله : « ان كان كبر عليك اعراضهم . . » .

أقول : مهما كان الايمان بالله محبوباً لله كما الجمع على الهدى ولكنه ليس ليجمع الناس على الهدى دون اختيار وكما في كتاب المناقب باسناده إلى سلمان الفارسي عن النبي (ص) حديث طويل يقول فيه : يا علي ان الله تبارك وتعالى قد قضى الفرقة والاختلاف على هذه الأمة فلو شاء الله لجمعهم على الهدى حتى لا يختلف اثنان من هذه الأمة ولا ينازع في شيء من امره ولا يجحد المفضول لذي الفضل فضله .

وفي تفسير الفخر الرازي ١٢ : ٢٠٧ المروي عن ابن عباس ان الحرث بن عامر أتى النبي (ص) في نفر من قريش فقالوا : يا محمد أثنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فانا نصدق بك فأبى الله ان يأتيهم بها فأعرضوا عن رسول الله (ص) فشق ذلك عليه فنزلت هذه الآية .

ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين « (٢٦ : ٥) .

« فلا تكونن من الجاهلين » أن يكبر عليك إعراضهم لحد الإصرار بتطلب آية ، أم أن يجبرهم الله على الهدى بآية وسيلة أماهيه من خلاف المصلحة رسولية ورسالية ، أترى ربنا يهدد رسوله الأمين هكذا أمام الكافرين ؟ كلا ! وإنما يعني بذلك أن يعلموا كما يعلم الرسول أنه ليس إلا رسولاً فليست بيده أية آية ، فليس عدم إجابته لمتطلباتهم المقترحة دليلاً على عدم رسالته بعدما جاءتهم الآية الكافية .

فمن الجهل أو التجاهل الإصرار بإتيان آية والله تعالى هو الذي يبعث الرسل بآيات كافية ، فتطلب آية بعد آيات الرسالة الكافية تجهيل الله كأنه لم يكمل آية الرسالة ، بخلاً عن تكميلها ، أو لا يقدر على إتيانها ، أو أنه ضنين برسوله أو برسالته فلم يزوده بآية كافية ، أماهيه من جهالات بحق الرسل والرسالات والمرسل إليهم .

أو بعد ما أرسل محمد (ص) بآية القرآن الكافية فما هو المعني من تطلب آية بعده إلا تجاهلاً عن كون القرآن آية وهي الآية الخالدة ، فقد يتجاهلون بأحرى عن سائر الآيات مقترحة وسواها لأنها دون القرآن في قاطع الدلالة .

ومن ثم وحتى لو كانت هناك آية مبصرة كما القرآن في الدلالة فقضية خلود الرسالة الإسلامية تخليد آيتها الدالة عليه ، فلا بد - إذاً - من التركيز على آية القرآن دون أية تحولة إلى أية أخرى ، اللهم إلا استطرادية وعلى هامش القرآن .

كلام حول نفق الأرض وسلّم السماء .

« نفق الأرض » وهو سرب فيه له مخلص إلى غير ما هو ظاهر ، وهو السبب الأرضي إستبطاناً فاستبباطاً لما في الأرض ظاهرها وباطنها ، غوراً

في أغوار المادة الأرضية ، ذلك من الوسائل الربانية لاستكشاف المخبوء في العالم الأرضي لما دون حد الإعجاز لسائر المكلفين ، وآية ربانية رسولية أو رسالية لله رب العالمين .

كما وأن « سلماً في السماء » هو السبب السماوي بنفس الاستبطان والاستنباط غوراً في أغوار السماء ، إذا فآيات الله غير خارجة عن الأسباب ، لكنها خفية في أسباب الأرض والسماء الكامنة فيهما ، لا يعلمهما أو يقدر عليهما إلا الله .

وليس الله ليسلم نفق الأرض أو سلم السماء لاستنباط الآية المعجزة لأحد من رسله تخويلاً ، لأنه - فقط - فعله ، الدال على رسالة الوحي لحملته .

ذلك ، مهما كان نفق الأرض وسلم السماء فيما دون الآية المعجزة لكل من يستبطنهما فيستنبط منهما خبايا الخلقة المحيرة للعقول ، كسائر المخترعات والمكتشفات الخاصة على ضوء تقدم العلم البارع الشاسع المخلق على خبايا الأرض والسماء .

وكما أن « أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين » (٣٨: ٥٢) تصريحاً بسلام الوحي الرباني ، المستمع فيها محادثات الملأ الأعلى ، وإشارة إلى سلام الإذاعة والإستداعة صوتية وصورية .

وكما أن « سبباً » لذي القرنين كان من الأسباب الغيبية المخصوصة بمن هباه الله إياه ، كذلك نفق الأرض وسلم السماء في درجاتهما هما من العطيات الخفيات الربانية ، قد يتسبب بها على ضوء العلم إلى مبتغيات من الحياة ، وأخرى على ضوء الإيمان بالله إلى كرامات ربانية هي العوان بين مسببات العلم ومسببات الآيات الربانية الخاصة الرسالية ، وثالثة يتسبب بها إلى إثبات الرسل والرسالات بإذن الله دون أي تخويل لأحد من

المرسلين فضلاً عن سواهم .

وهنا « سلماً في السماء » دون « سلماً إلى السماء » كما في الطور
« سلم يستمعون فيه » دون « يستمعون عليه » ينهنا أن ليسا هما كسائر
السلاليم التي نعرفها ، إنما هي سلاليم خفية بحاجة إلى استنباط ، كما
وأن الحصول على تلك المبتغيات بحاجة إلى استعمال تلك السلاليم .
فيا للهول الهائل ، المنسكب من خلال هذه الإيحاءات الجليلة الجميلة
إلى حامل الرسالة الأخيرة ، إيحاءات ذات جنبات عدة ، ليست لتختص
بصاحب الوحي .

فلا يكبر عليك إعراضهم يا رسول الهدى ، فإنهم صُمُّ بما صموا
وميت بما أماتوا قلوبهم فكيف - إذاً - يستجيون ؟ :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٦) :

« أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » (٤٢: ١٠) عقل السمع
وسمع العقل ؟ « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا
مدبرين . إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون » (٨١: ٢٧) « إن الله
يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » (٢٢: ٣٥) حيث قبروا
أنفسهم في مقابر الشهوات والإنيات ، فغبروها بغبارات الجهالات .

ذلك « والموتى » وهم أحياء ، كما الموتى عن الحياة « يبعثهم الله »
يوم القيامة « ثم إليه يرجعون » .

وكما لا بعث لعامة الأموات ليوم الحساب إلا من الله ، كذلك لا بعث
عن موت القلوب إلا بالله فـ« إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من
يشاء » .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٧) :

« وقالوا » هؤلاء المتعصبون « لولا نزل عليه آية من ربه » نبصرها كما أرسل الأولون ؟ وقد جاءتهم آية القرآن الكافية : « وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب السذبن ظلموا صغاراً عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » (١٢٤: ٦) « فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من قبل . . . » (٤٨: ٢٨) .

« وقالوا . . . » مستضعفين رسول الله كأنه ليس رسولاً من الله ، أو مستعجزين الله كأنه ليس بقادر على أن ينزل على رسوله آية !

« قل إن الله قادر على أن ينزل آية » كما يراها صالحة مُصلحة في آية مُصلحة « ولكن أكثرهم لا يعلمون » حيث يجهلون تقصيراً أو يتجاهلون .

فالآية الرسالية كما الرسولية إنما هي بعلم الله وقدرته : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (١٠٩: ٦) - « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » (١٤: ١١) - « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو . . . قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٩٤: ١٧) .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
حكمة تعدد الشرائع هي الابتلاء «ليبلوكم فيما آتاكم» دون ما يتقولون ٩ - ٢٢	
حدود الولاية المحرمة وأبعادها ؟ الولاية المعصومة ومصاديقها ؟ ٢١ - ٢٧	
مسؤولية علماء الدين في حقول الأمر والنهي ٧٤ - ٧٧	
« يد الله مغلولة » في مختلف الفلسفات الساقطة ٧٧ - ٨٦	
في إقام الكتاب الرباني إقام الحياة الدنيا قبل الآخرة ٨٦ - ٩١	
آية التبليغ في دراسة مفصلة محصلة بين مختلف الآراء بين الكتاب	
والسنة - حاصل البلاغ هو استمرارية القيادة الرسولية والرسالية دون	
شخص الامام علي (ع) ٩٤ - ١٣٦	
لاهوت المسيح (ع) في قول فصل على ضوء الوحي والعقل والنقل ١٤١ - ١٥٢	
الغلو في الدين وأبعاده - تاريخ التثليث بقول فصل - مقارنات بين	
المسيح وبوطا وبرهما ١٥٦ - ١٧٢	
كيف « اليهود اشد الناس عداوة والتصارى اقربهم مودة » ؟	
والدعايات والحروب المسيحية تحشرنا منذ بداية الاسلام ! .. ١٨١ - ١٨٨	
اللغو في الأيمان وعديده ومديده في أحكام وأبعاد ١٩٦ - ٢٠٢	
الخمر والميسر في اشد التحريم بقول فصل ٢٠٢ - ٢٢٢	
هل الإيمان وعمل الصالحات يسمح في محرمات أو ترك	
واجبات ؟ ٢٢٤ - ٢٣١	
أحكام الصيد في مختلف الظروف ٢٣١ - ٢٣٨	

« جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » وأبعاد ذلك القيام	
الشاملة لكافة المصالح الإسلامية روحية وزمنية	٢٤١ - ٢٤٥
الأسئلة المحظورة والمحجورة	٢٤٨ - ٢٥٤
كيف « لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » في اجابات سبع	٢٦٠ - ٢٦٩
شهادة الوصية في مختلف الظروف	٢٦٩ - ٢٨١
كيف « لا علم لنا » في اجابة السؤال عن استجوابهم « ماذا اجبتهم »	
وهم عاشوا المرسل اليهم ؟	٢٨٤ - ٢٩٠
المسيح (ع) في آيات رسولية ورسالية غالية	٢٩٠ - ٢٩٦
موقف الحواريين ايماناً وكفراً	٢٩٦ - ٣١٧

مركز تحقيق كتابات سيد محمد باقر
سورة الأنعام

لماذا سميت بالأنعام ؟	٣٢٠ - ٣٢٤
أنباء توحيدية على ضوء دلالة الآيات آفاقية وأنفسية	٣٢٤ - ٣٣١
« خلقتكم من طين » تثبت القفزة الطينية نكراناً لنظرية النشوء والارتقاء - كما تثبت ان الروح مخلوق من الطين كما الجسم	٣٣١ - ٣٣٥
« لولا انزل عليه ملك .. » ؟ « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » ؟	٣٤٠ - ٣٤٧
« لا نذكركم به ومن بلغ » في وجوه شاملة لبلاغ الرسالة القرآنية	٣٦١ - ٣٦٨
« وهم ينهون عنه وينأون عنه » ومنهم حوزاتنا العلمية امام القرآن	٣٧٨ - ٣٨٠
نفق في الأرض وسلم في السماء إشارة عابرة الى كل المخترعات	٤٠١ - ٤٠٥

